



فَارَادَ بِذَلِكَ خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الْعَمَلِ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ



جميع الحقوق محفوظة للناسر
الطبعة الأولى

١٤١٧هـ

ح) دار الراية للنشر والتوزيع ١٤١٥ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثمان، بدرية بنت محمد

من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث.

٥٦٥ ص، ٢٤×١٧ سم

ردمك ٩٩٦٠-٦٦١-٠٧-٥

١- القرآن - بلاغة ٢- البعث أ- العنوان

١٥/١٠٥٢

ديوى ٢٢٥

رقم الإيداع : ١٥/١٠٥٢

ردمك : ٩٩٦٠-٦٦١-٠٧-٥

دار الراية

للنشر والتوزيع

الرياض: الربوة - طريق عمر بن عبدالعزيز - هاتف ٤٩١١٩٨٥ / فاكس ٤٩٣١٨٦٩

ص.ب. (٤٠١٢٤) الرياض (١١٤٩٩)

جدة: حي الجامعة - جنوب شارع باخشب - هاتف ٦٨٨٥٧٤٩

الفهرس الإجمالي لمحتويات الرسالة

رقم الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١١	التمهيد
	الفصل الأول :
	من وجوه الإعجاز القرآني
١٩	أولاً: التحدي والمعارضة
٤٢	ثانياً: الإخبار بالغيب
٥٦	ثالثاً: الإعجاز البياني
	الفصل الثاني:
	قضية البعث
٧٥	أولاً: حقيقة البعث والدليل عليها
٨٧	ثانياً: طرق عرض القرآن لقضية البعث
١٦٢	ثالثاً: الدراسة البلاغية للآيات
	الفصل الثالث:
	الجدل:
١٧٩	أولاً: تعريف الجدل
١٨٠	ثانياً: أنواع الجدل
١٨٠	ثالثاً: طرق مجادلة القرآن الكريم لمنكري البعث

رقم الصفحة	الموضوع
٢٣١	رابعاً: الدراسة البلاغية لهذا الجدل
٤٩٣	الخاتمة
	الفهارس العامة
٤٩٩	فهرس الآيات القرآنية الكريمة
٥٢٧	فهرس الأحاديث النبوية
٥٢٨	فهرس الأماكن والقبائل
٥٢٩	فهرس الأعلام
٥٣٨	فهرس المصادر والمراجع
٥٥٥	ملخص الرسالة باللغة العربية
٥٥٨	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
٥٥٩	فهرس تفصيلي لمحتويات الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أعز لغة القرآن، وجعلها في أعلى بيان، فليس فوقها سلطان، ولا يباريها لسان. وتحدى بها الثقلين فقال عز من قائل: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^(١).

والصلاة والسلام على النبي الأمي، الهاشمي، القرشي، محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلعله من توفيق الله عز وجل أن جعل كتابه الكريم بداية لرحلتي في بحور العلم، وتحت ظلاله، فله الحمد، والمنة على هذه النعمة الجليلة.

أما موضوع دراستي فهو «من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث»، وتتضح أهمية هذا الموضوع فيما يلي:

فمما لا شك فيه أن البحث في بلاغة القرآن الكريم من أهم العلوم قاطبة، ولا شك أن الاهتمام بدراسة بلاغة القرآن الكريم لها أثر كبير في إيمان المسلم بعلو فصاحته، وإعجازه. فما بالك إذا كانت الدراسة البلاغية تتصل بأحد الأسس التي

(١) سورة الإسراء، آية ٨٨.

دعا إليها الرسل عليهم السلام^(١): الإيمان بالله، الإيمان بالرسول، الإيمان باليوم الآخر. ودراستي هذه متصلة بالركن الثالث، وهو الإيمان باليوم الآخر، وبنواحي الإعجاز البلاغي في عرضه خاصة.

وعسى أن تكون هذه الدراسة إضافة جديدة إلى مكتبة الدراسات البلاغية، حيث أن مثل هذه الدراسة لم تخصص بكتاب، ولا حتى بفصل من فصوله فأرجو المولى سبحانه أن تحقق المراد، وتُرضي وجهه جلت قدرته.

ومن دوافع اختياري لهذا الموضوع:

- ١- عدم وجود دراسة بلاغية مستقلة لنواحي الإعجاز البلاغي في آيات البعث.
- ٢- أهمية قضية البعث في عقيدة الإنسان، مع كثرة وجود من ينكر البعث في هذا العصر الذي طغت فيه المادة، والغرور العلمي على نفوس البشر، فأنست كثيراً منهم معنى استخلاف الله لهم في الأرض. فحسبوا أن الله ليس بقادر على بعثهم وجمعهم للحساب، فأنكروا البعث إما صراحة، وإما كناية تنبئ عنه سوء أفعالهم، حيث كثر الشر، واستبد الطغيان، وأنساهم الشيطان اطلاع الله على سرائرهم، وظنوا أن إسهال الله لهم لجهله بأفعالهم، فجرهم هذا الجهل إلى استنكار البعث والمعاد، فسادت الرذيلة، وماتت الفضيلة. فاخترت هذا الموضوع لأجعل منه منبراً للدعوة إلى الله، والتذكير بأيامه، في أسلوب اجتمعت فيه منابع الحكمة الإلهية عند مخاطبة النفس الإنسانية في جمعه بين الترغيب والترهيب، في أسلوب بلاغي معجز.

(١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، عبد الوهاب الدليمي، ١/١٩٦، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة.

وقد أمّلت من هذا البحث أموراً كثيرة منها:

١- إبراز قضية البعث، والتذكير باليوم الآخر من جوانب جديدة، توقد شعلات الإيمان في النفوس الخاملة من خلال الأسلوب القرآني المعجز.

٢- ترسيخ الإيمان بالبعث في نفوس المتشككين، وإجلاء الشبه من نفوس المنكرين، من خلال عرض أدلة القرآن، واستدلالاته المختلفة على صدق وقوع البعث، والتي تبرز لنا في صورة بيانية رائعة.

٣- الجمع في هذه الدراسة بين فني الجدل والبلاغة، حيث يعد الجمع بين هذين الفنين في دراسة مستقلة، من الموضوعات البكر، والتي لها تأثير عجيب في النفس الإنسانية.

٤- إيقاظ العقل البشري للتفكير في آيات الله ودلائل قدرته في الأنفس، والآفاق من ناحية، والتفكير في إعجاز الأسلوب الذي جاءت بين طياته من ناحية أخرى.

وسوف أتبع في هذا البحث المنهج التطبيقي مع الحرص على الصياغة الأدبية ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً؛ لأن نفوس البشر تهفو إلى حسن الصياغة، والأسلوب الأدبي من أقرب الأساليب إلى النفوس.

وسوف أسير فيه على النحو التالي:

١- سوف أقصد كتاب الله الكريم، وأستخرج الآيات التي ورد فيها ذكر البعث واليوم الآخر، ثم أقوم بدراسة هذه الآيات في كتب التفاسير، وأفرد الآيات التي تجادل المنكرين، وأتناولها بالبحث والدراسة. كما أنني سوف أعرج على بعض الآيات التي تتحدث عن مشاهد القيامة، وأستخرج منها ما استطعت من نواحي الإعجاز البلاغي، وأخصص لها نهاية الفصل الثاني من البحث، مع التعليل

لأسباب اقتصاري على نماذج قليلة من هذه الآيات.

٢- سوف أقوم بالدراسة التطبيقية للآيات ما أمكنتني إلى ذلك سبيلاً، وأضعف جهودي على دراسة الاستفهام، والتوكيد في آيات المجادلة، باعتبار أن هذين الفنين هما عماد الآيات التي ترد لمجادلة منكري البعث، فالاستفهام يكثر وروده على ألسنة منكري البعث من ناحية. ومن ناحية أخرى فهو يعد أحد الأساليب الهامة التي يعتمد عليها القرآن الكريم في تعجبه من إنكار المكذبين للبعث، ويجعل منه وسيلة لإقرار المنكرين بصدق وقوعه.

والتوكيد يأتي من جانب المنكرين بكثرة، حين يؤكدون نفى وقوع البعث، ويرد من الجانب الإلهي الذي يؤكد هذه الحقيقة من ناحية أخرى.

وسوف يقوم البحث على مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة، وسوف تسير المادة العلمية كما يلي:

١- التمهيد: وسوف أتحدث فيه عن بلاغة العرب قبل الإسلام وبعده، والأثر الذي تركه القرآن الكريم على اللغة عامة، والأدب خاصة.

٢- الفصل الأول: وسوف أتناول فيه بعض نواحي الإعجاز في القرآن الكريم وهي:

(أ) التحدي والمعارضة، باعتبار أن قيام التحدي، والعجز عن المعارضة، عرف من خلالهما كون القرآن الكريم معجزة إلهية خالدة.

(ب) الإعجاز بذكر الغيب، باعتبار أن قضية البعث من الأمور الغيبية التي تحدث عنها القرآن.

(ج) الإعجاز البياني؛ لقيام هذه الدراسة على دراسة نواحي الإعجاز البلاغي في آيات البعث.

٣- الفصل الثاني: وسوف أخصّصه لدراسة شبه المنكرين، والطرق التي يتبعها القرآن الكريم في عرضه لهذه الشبهات، والرد عليها.

٤- الفصل الثالث: وسوف أخصّصه لدراسة نواحي الجدل، والدراسة البلاغية للآيات، مع الحرص على دراسة أبرز الفنون البلاغية التي تظهر في الآيات.

٥- وسوف أذيل البحث بخاتمة أذكر فيها أهم النتائج والتوصيات التي أتوصل إليها.

٦- وسوف ألق بالحق بالبحث فهرسة للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والقبائل والأماكن، والأعلام، وأخيراً فهرسة لأهم الكتب والمراجع التي سوف أعتمد عليها في إعداد هذا البحث، وفهرسة تفصيلية لموضوعات البحث.

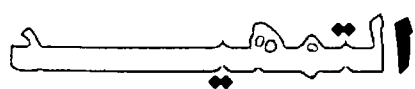
وسوف أعتمد - إن شاء الله - في هذه الدراسة على كتاب الله أولاً، ثم على أمّهات كتب التفسير والبلاغة والجدل، والتي سيرد التنصيص عليها في ثبتهما الخاص.

على أنني أرجو من الله - جلت قدرته - أن أصل إلى ما أرمي إليه من هذه الدراسة، وإبراز نواحي الإعجاز البلاغي في أكبر عدد ممكن من الآيات، والمزاوجة بين فني الجدل والبلاغة في موضوع واحد، وأن أساهم بهذه الدراسة المتواضعة في إثراء مكتبة الدراسات القرآنية، وأن يكون هذا العمل مساهماً في إجلاء الشبه من نفوس منكري البعث، من خلال المزج بين دلائل القدرة الإلهية المتمثلة في الأنفس والآفاق، ودلائل المعجزة الربانية المتمثلة في أسلوب العرض.

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي لا يعلم مداها إلا الله والتي بذلتها في سبيل إخراج هذا البحث، إلا أن في النفس حاجات وحاجات تقاصرت طاقتي المحدودة عن إبرازها، وحسبي أنني بشر وعلم البشر لا يخلو من النقص والتقصير، فما بالك

بطاقة الباحث المبتدئ، وحسبي أن هذا الكلام وحي من الله عجزت عقول البشر قاطبة عن الإحاطة بمكامن الإعجاز فيه، وشهد العلماء والخطباء المفوهون على عجزهم عن الإحاطة بمواضع إعجازه، فطاقتي عن هذه الإحاطة أولى بالعجز. فإن كان هناك نجاح فبتوفيق من الله، وإن كان هناك تقصير وإخلال فلا يكلف الله نفساً فوق طاقتها، ولا تجود نفس إلا بما تجد، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإلىه أنيب وإلىه المصير.





كلمة عامة عن بلاغة العرب

قبل الإسلام وبعده

مما لاشك فيه أن اللغة هي الوسيلة الأولى التي عبّر بها الإنسان عما يخالجه نفسه من مشاعر ووجدانيات، والعرب أمة كسائر الأمم جعلت من المنطق والبيان وسيلة للتعبير عن دواخلها، ولكن قد نرى أن هناك من الأمم من استحدثوا إلى جانب اللغة وسائل تعبيرية أخرى، كالرسم، والنحت، والكتابة، وظل العرب بوسيلة واحدة هي البيان؛ وذلك لأنها الطريقة الوحيدة التي تلائم أحوالهم، وظروفهم المعيشية الصعبة، إذ أنهم قوم رحل، يتبعون الماء، والكلاء، فحيث وجدوا وجدوا؛ لذا فقد كانت اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تكون معهم في كل مكان، وزمان؛ فبرعوا فيها، وفاق بيانهم جميع أمم الأرض، وكان هذا إرهاصاً لحديث جليل، لا يزال مكنوناً في علم الغيب.

فكثّر فيهم الخطباء، والبلغاء، والشعراء، الذين ينافحون عن قبائلهم في المواسم ويخلدون مآثر قومهم بالبيان، فيستحثونهم على القتال إذا احتدم النزاع، ويستنهضون الهمم، ويشعلون نار الثأر بحروفهم وكلماتهم. وكانت مكانة الشاعر أعظم من مكانة الخطيب، ولا تهناً القبيلة إلا إذا نبغ فيها شاعر، أو وُلد لها صبي، أو أنجبت لهم فرس.

وقد كانت تلك الظروف المعيشية الضيقة التي عاشها العرب، وتلك الحروب الضارية، والصحراء الواسعة، والسماء الصافية، والنجوم الساهرة، والشمس الساطعة، وطلعة البدر البهيّة على تلك النفوس الأبية، التي تأبى الضيم، وتعشق

العزّ، ويستنهضها الثأر والحميّة، والنخوة والكرامة، كل هذه العوامل مجتمعة كانت من أقوى الأسباب التي هدّبت الألفاظ ونقّت العبارات، وأجلت البيان، فأبرق عمّا تحته من جمال وروعة.

فإن كانوا شعراء أخذوا بمجامع القلوب، وسحر الألباب غزلهم، ونسيبهم، وأبكى القلوب رثاؤهم، وتأينتهم، وإن كانوا خطباء أطرب النفوس حسن بيانهم، وروعة فقراتهم، وجملهم، ذات السمات القصيرة، والكلمات المسجوعة، فبلغوا ما يريدون، وبلغوا ما يأملون.

فاستوت الأمة على عرش الفصاحة والبلاغة وملكت ناصية البيان، ونسيت التفاخر بحمر النعم، وتفاخرت بحسن المنطق والبيان في سوق «عكاظ»، وغيره من أسواق العرب التي كانت تُعقد فيها المناظرات والمحاورات، والمساجلات بين الخطباء، والشعراء من كافة أنحاء العرب.

ورفع القوم قصائدهم على أستار الكعبة، دلالة على جلاله هذا الفن في نفوسهم، وعظيم قدره لديهم.

وكان بيت من الشعر يضع أقواماً، ويرفع آخرين، وقد تدور حوله المعارك الضارية، وتنحصر من أجله الرقاب.

وهكذا أصبح الشعر ديوان العرب، ومأمن حكمهم، ومستودع تجاربهم، وبلغ فيهم فن القول مبلغه، وعلا الشعر خاصة، وأخذ العرب يرتقون بهذا الفن، ويهذبونه، ويحسنونه، وظلت القصيدة الغنائية تشتمل على القول الراقي الذي يعبر عن دواخلهم، وهواتف نفوسهم.

وجدت على الأدب العربي، عوامل قوية، خطت به نحو الأمام، وركت به لنيل المرام فأصبح اللسان القرشي هو القائد، والرائد، فصال في الحلبة، وجال، حتى

كتبت له السيادة والزعامة، وقد جعلته في هذه المكانة عوامل كثيرة تهيأت للقرشيين، فقد كانوا زعماء العرب، وقادتهم، وعلت مكانتهم الدينية، والسياسية، والاقتصادية؛ فأمسكوا بزمام اللغة، وساروا بها إلى الأمام.

وجاء الإسلام، ونزل القرآن، فكان بلغتهم، ورفع مكانتهم، وأبقى سيادتهم، فقد جرت السنن على أن يأتي كل نبي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه. فكانت معجزة محمد ﷺ القرآن الكريم، تلك المعجزة البيانية الخالدة، يقول «الملاحظ»: «وكذلك دهر محمد ﷺ كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحسنت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله - عز وجل - فتحدثهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم، حتى بين ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما بين لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط، مع سائر ما جاء به من الآيات، ومن ضروب البرهانات^(١).

فكان هذا البيان المعجز، آية محمد ﷺ الخالدة، فهو أفصح كتاب في ألفاظه، ومبانيه، وأجمع كتاب في أغراضه، ومعانيه، وكان له أثر بعيد المدى في اللغة، في ألفاظها، ومعانيها، وتراكيبها، وأساليبها؛ فأخذت تلك النفوس تشرب من هذا المعين العذب، الصافي، فلا ترتوي، وأخذت تستنير به الشعراء، وتزين به الخطباء صدور خطبائها، ويوشى به الكتاب مؤلفاتهم.

فجعل القرآن الكريم من لغة العرب، لغة ذات دين سماوي، عالمي، وسكب في

(١) رسالة حجج النبوة، لأبي عثمان عمرو بن بحر الملاحظ، ضمن مجموعة رسائل الملاحظ، ٢٧٩/٣، ٢٨٠، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكتبة الخانجي، مصر.

بحرها المزيد والمزيد من اللآلئ والدرر، فأضفى إلى الجمال جمالاً وزاد البريق جِدة ولمعاناً، فدخلت إلى اللغة ألفاظ جديدة، كألفاظ الصلاة، والصيام، والزكاة، والوضوء، والكفر، والنفاق، وغيرها، ولم تكن المسألة مسألة ألفاظ فقط، بل بمرور الزمن أخذت تنبع منه علوم جديدة كعلوم القرآن، من تفسير، وفقه، ومحكم، ومتشابه، وقرآيات وغيرها كثير، وعلوم اللغة من نحو، وبلاغة، وبيان، ومعان وبدیع، وغير ذلك. فكان منبعا ثرا للعلوم، لا تفتنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. وأصبح أسلوبه الرائع الفريد، عمود الأدب العربي، إذ سار على نهجه الأدباء، والخطباء، والشعراء.

وهكذا شغل المسلمون بهذا الكتاب السماوي المقدس، فملأ قلوبهم، وعقولهم، وساروا على نظامه في حياتهم، وأثر في تلك النفوس القاسية، التي انعكست عليها قسوة الصحراء، وجفافها، فخالط قلوباً قاسية فألانها، وطباعاً جافة، فأرقها، فأكسب اللغة رقة، وعذوبة، وسحراً، ومرونة، فكان ثروة لغوية، وثروة علمية وفكرية، تتجدد بتجدد الأزمان، والدهور^(١).

وسبحان الله الذي قال فصدق:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٢).

(١) انظر: «أثر القرآن في تطور النقد العربي»، د. محمد زغلول سلام، ص ١٥١، ١٩٣، ١٩٤، ط ١، ١٩٨٢م، مكتبة الشباب، الصبغ البديعي في اللغة العربية، د. أحمد إبراهيم موسى، ص ١٧، ١٩، ٢٣، ٢٤، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، «تاريخ الأدب العربي» العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، ص ٣٢، ٣٣، ٣٤، ١٠، ط ١٠، دار المعارف، القاهرة، «تاريخ الأدب العربي»: أحمد حسن الزيات، ص ٤٥، ٩٠، ط ٢٥، «فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق»، نعيم الحمصي، ص ١٠، ط ٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة، بيروت، نص محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ سيد حسن شقرة بعنوان «عظمة القرآن وبلاغته» ص ٥، في حفل افتتاح جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية بالقاهرة.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

الفصل الأول

من وجوه الإعجاز القرآني

أولاً: التحدي والمعارضة
ثانياً: الإخبار بالغيب
ثالثاً: الإعجاز البياني

أولاً: التحدي والمعارضة

أ: التحدي:

١- تعريفه:

هو: إظهار القرآن، ودعوى النبي ﷺ عجز العرب عن أن يأتوا بمثله؛ لأنه من عند الله، سواء في ذلك دعواه بلسانه، أو بلسان القرآن في مثل قوله تعالى: **«فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ»**^(١).

وقوله:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٢).

٢- أسباب التحدي:

عندما بلغ الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ شأواً بعيداً، وعلا ذكره، وكثر أتباعه، أراد مشركو مكة أن ينالوا من هذا القرآن العظيم، الذي خلب الألباب، وملك العقول والقلوب، وذلك لعدة أسباب، منها ما ذكره أحد زعمائهم بقوله: **«تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحازينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه**

(١) سورة الطور، آية، ٣٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣.

«الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن»، دراسة تحليلية نقدية، د. عبد الرؤوف مخلوف، ص ٢٠، ١٩٧٨م، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟^(١) إذاً كان الخوف على الزعامة، والسيادة، من أسباب النيل من محمد ﷺ ودينه الجديد.

وحينما خشي هؤلاء الزعماء أن يكثر أتباع محمد ﷺ وتقوى شوكته، أخذوا يسفهون ما جاء به من البيان، ويصمون بما ليس فيه، وقعدوا على كل طريق يحذرون الناس منه، كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»^(٢)، وقالوا: أساطير الأولين، قال تعالى: «وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٣)، وحين بلغ بهم العناد أقصاه «قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^(٤)، حينئذ دعاهم القرآن للنزال، وهذا هو شأن العظيم أبداً؛ أنه يعلم بقصورهم عن الإتيان بمثله، وهم أيضاً يعلمون، ولكنه أراد أن يفضحهم أمام أعينهم، وأمام أعين الدهر.

٣ - أسلوب القرآن في التحدي:

ثبت بالأقوال المتواترة، والآخبار الصحيحة، أن القرآن الكريم من عند الله تعالى؛ لذا فقد تحداهم أن يأتيوا بمثله، وقرعهم على طول السنين على ترك الإتيان به، فلم يأتوا. وهذا مذكور في القرآن في مواضع عدة^(٥)، وقد جاء التحدي على عدة

(١) انظر «تفاصيل الحادثة في البداية والنهاية»، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، ٦٤/٣، ط ٢، ١٩٧٨م، مكتبة المعارف، بيروت.

(٢) سورة فصلت، آية: ٢٦.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٣١.

(٥) انظر «إعجاز القرآن»، للإمام بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، ص ٤٠، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.

مراحل أذكرها فيما يأتي:

٤- مراحل القرآن في التحدي:

اختلف الباحثون في ترتيب آيات التحدي، على أن الاختلاف لا يخرج عن إثبات عجز العرب خاصة، والأمة عامة على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل سورة منه. على أنني في هذا المقام سوف انتهج هذا الترتيب المنطقي لآيات التحدي معللة لاختياري هذا بعدة أمور منها: أن هذا الترتيب هو المعتمد في أصح الأقوال في ترتيب نزول الآيات^(١).

ومنها أيضاً أن هذا الترتيب يتمثل فيه الأسلوب التربوي الحديث، حيث أن طول مدة التحدي، وهي كما نعرف ثلاث وعشرون سنة، تتساوى وقدرات القوم العقلية، وتدرج مع مستواهم الثقافي، كما أنها تراعي الفروق الفردية، والمراحل التعليمية^(٢).

أ- المرحلة الأولى:

تحديه بنفسه جملة، في نحو قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»^(٣).

فقوله: «فبأي حديث بعده يؤمنون» إنكار يتضمن معنى التحدي في الإتيان بحديث مثله، في صورته، وبيانه، وهدايته.

(١) «نظرية إعجاز القرآن» عند عبدالقاهر الجرجاني عن كتابه «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» ص ١٧،

محمد حنيف فقيهي، ط ١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٢) «في إعجاز القرآن الكريم»، د. محمد بركات حمدي، أبو علي، ص ٢٤، ٢٥، ط ١، ١٤٠٣ هـ -

١٩٨٣ م. منشورات مؤسسة الخافقين - الأردن.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٤، ١٨٥.

وقوله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»^(١).

فلقد فهم أئمة المفسرين أن هذه الآية من مواطن التحدي بالإعجاز في اللفظ والأسلوب، والمعنى، والهداية^(٢).

ولقد طالب القرآن المنكرين الإتيان بمثله إن كانوا صادقين في زعمهم أن محمداً ﷺ افتراه، وتقوله، ونسبه إلى الله، وذلك نحو قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَأُيْمُنُونَ»^(٣) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين^(٤).

فهذه الآية تطالب المنكرين إن كانوا صادقين في قولهم بأن محمداً افترى هذا القرآن، فليأتوا بمثل ما جاء به من هذا القرآن^(٥). وقد اختلف العلماء في تفسير قوله: «مثله» فمنهم من قال هو طلب الحديث وإن لم يشترط الصياغة^(٦).

ومنهم من قال: إن التحدي في قوله «مثله» يشمل التحدي بالبراعة البيانية، والفوق في الأسلوب البلاغي، ويشمل التحدي بما تضمنه القرآن من ضروب الهداية الإلهية، في شتى مناحي الحياة^(٦).

(١) سورة الزمر، آية: ٢٣.

(٢) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين»، محمد الصادق عرجون، ص ١٤٠، ١٤١، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) سورة الطور، آية: ٣٣، ٣٤.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ٢٥٥/٤، ط ٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٥) محمد بركات أبو علي في كتابه «في إعجاز القرآن الكريم»، ص ٢٥.

(٦) محمد الصادق عرجون في كتابه: «القرآن العظيم هدايته وإعجازه»، ص ١٤١.

على أنني أُميل إلى الرأي الثاني؛ لأن هذه الآية كان من أوائل الآيات في التحدي، وكان أول ما طلب القرآن من المنكرين أن يأتوا بمثله بلا تحديد، فيكون هذا المثل شاملاً لكل صنوف الإعجاز التي يتصف بها القرآن.

وبهذا تكون المرحلة الأولى التي سلكها القرآن هي: طلب المعارضة بمثل القرآن جملة^(١).

ب - المرحلة الثانية:

التحدي بعشر سور مثله مفتریات كما يزعمون لا يلتزمون فيها الحكمة، ولا الحقيقة، وإنما التحدي بالنظم، والأسلوب، وهم أهل الفصاحة، والبيان، ولن تضيق أساطيرهم في الإتيان بعشر سور من مثله^(٢).

وذلك نحو قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٣).

فلقد أطلق لهم العنان في اختراع المعاني، وذلك تحقيراً وامتهاناً لهم، وزيادة منه في الكشف عن نقصهم، وعجزهم، بل هو فضلاً عن ذلك الامتهان، فقد سمح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا من شركائهم في الإتيان بمثل تلك السور المفتریات التي لا ترجع إلى أصل سديد كما يزعمون^(٤).

ج - المرحلة الثالثة:

التحدي بسورة واحدة، وهو طلب القرآن من المنكرين أن يفلحوا وآلهتهم في

(١) انظر: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، مصطفى الرافعي، ص ١٦٩، ط ٨، «القرآن العظيم هدايته وإعجازه»، ص ١٤٣.

(٢) انظر: المرجعين السابقين.

(٣) سورة هود، آية: ١٣.

(٤) انظر: «القرآن العظيم هدايته وإعجازه»، ص ١٤٣.

الإتيان بسورة من مثله^(١) وذلك نحو قوله تعالى:

«وَأَنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٢).

وكذلك قوله تعالى:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٣).

فقد تنزل معهم هذه المرة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل؛ فهو لا يطلب منهم المماثلة التامة، بل يطلب منهم أن يأتوا بشيء فيه جنس المماثلة على وجه التقريب لا التحديد. وهذا منتهى ما يمكن من التنزل، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً.

وقد قال الباحثون: إن التحدي ورد بلفظ «من مثله» في سورة البقرة المدنية، وسائر مراتب التحدي بلفظ «مثله» في السور المكية^(٤).

وقال العلماء: إن هاتين الآيتين أقوى ما جاء في التحدي وأصرح ما ورد في الإعجاز، وذلك لما تضمنته من القول الفصل بعجز المتحدين مع التقرير، والتهديد، والوعيد، والامتهان، والتحقير، فضلاً عما تشتمل عليه من فنون التحدي، وهداية الإعجاز.

ومع هذا التهديد، والتحدي، والوعيد البالغ حداً لا يبقى معه شيء من ساكن

(١) انظر: «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣.

(٣) سورة يونس، آية: ٣٨.

(٤) «قضية الإعجاز وأثرها في تدوين البلاغة العربية»، د. عبدالعزيز عرفه، ص ٦٢، ط ١، ١٤٠٥ هـ.

١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت.

العداوة إلا تحرك، ولا عامل من عوامل المعارضة لو كانت ممكنة إلا هاج وارتعد، ولا بقية من نخوة الانتصار للنفوس، والمعتقد، إلا أبرقت، وأرعدت^(١).

إلا أن قريشاً، وأعوانها، لم تنطق بكلمة، ولا حركت ساكناً، فعُلم العجز، وثبت الإعجاز لذلك فقد وصف المولى - سبحانه - هذا العجز حين قال تعالى اسمه: «فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»^(٢).

فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله «ولن تفعلوا» ثم هددهم بالنار» ثم سواهم بالحجارة.

فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأبأة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم، وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ فما استطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقباء^(٣).

وبعد هذا التأنيب، والتقريع، والاستفزاز، يأتي قول الحق الفاصل في الموضوع: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^(٤).

كانت هذه النتيجة، بعد التدرج في التحدي.

فقد أثبت عجزهم عن الإتيان بمثله، حتى لو اجتمع على ذلك الثقلان الإنس والجن.

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ص ١٤٥، ١٤٦، بتصرف.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٤.

(٣) «النبأ العظيم» نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، ص ٨٤، ٨٥، ط ٤، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، دار القلم بالكويت.

(٤) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

وقد خص الجن بالذكر هنا «للتعجيز» كما يقول البلاغيون^(١). وهذه الآية من أقوى آيات التحدي العام بجملة القرآن، وأصرحها في الإعجاز، وهي في حاجة إلى بيان وجه إدخال الجن في التحدي مع الإنس. أكان ذلك لأن الجن مدعوون لرسالة القرآن، ومكلفون بها فدخلوا في التحدي لإقامة الحجة عليهم كما تقام على الإنس بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؟ أم جاء ذكر الجن فيها على سبيل المبالغة في التحدي، فيكون من قبيل ما ورد في الآيات الأخرى من نحو قوله تعالى:

«وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٢) وقوله: «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٣).

ويكون المراد من الجن عقلاء عالم الغيب، ومن الإنس عقلاء عالم الشهادة؟^(٤). ولعله خصّ الجن بالذكر هنا دون الملائكة، لأن إتيان الملائكة بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه^(٥). على أنني أرى أنه خصّ الجن بالذكر هنا دون الملائكة؛ لأن الرسالة تشملهم بخلاف الملائكة، ولإظهار مدى عجزهم حتى لو اجتمعت إليهم الجن التي هي غاية في القوة، والغلبة في نظرهم.

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا أن القرآن قد تحداهم إليه، ولكن باءوا بخسران

(١) «في إعجاز القرآن الكريم» ص ٢٦.

(٢) سورة يونس، آية: ٣٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٣.

(٤) «القرآن العظيم» ص ١٤٢.

(٥) تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للقاضي ناصر الدين البيضاوي، ٥٨١/١، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- عظيم. لذا فإن آيات التحدي تكشف لنا أموراً منها:
- ١- «الدعوة إلى النزال»^(١) وهي دعوة عامة في كل زمان ومكان لمن يطعن في معجزة الإسلام الخالدة.
 - ٢- التدرج مع المكذبين من الصعب إلى السهل، حتى يكشف لهم من عجزهم ما كان مستوراً كما يقول الجاحظ.
 - ٣- إعلان هزيمة الكافرين الدائمة على مرّ العصور، وكرّ الدهور أمام هذا القرآن العظيم.
 - ٤- امتداد ذلك التحدي حتى تجاوز تحدي الكافرين إلى تحدي الإنس جميعاً والجان.
 - ٥- إعلان هزيمة الإنس والجان المؤكدة مسبقاً، إن هم حاولوا معارضة القرآن^(٢).
- «والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن، أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدقه، ونبوته، وتضمن أحكامه استباحة دمائهم، وأموالهم، وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرّون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم، وأهلهم، وأموالهم من حكمه، بأمر قريب، وهو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسيبي.
- فلما لم يحصل هناك معارضة منهم، علم أنهم عاجزون عنها»^(٣).

(١) «إعجاز القرآن» للباقلاني، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١.

(٣) «إعجاز القرآن» للباقلاني، ص ٤٣.

٥- أنواع التحدي:

التحدي نوعان: تحدٍ عام، وتحدٍ خاص.

وقد اختلف الباحثون في المقصود بالتحدي العام، والمقصود بالتحدي الخاص. فمنهم من رأى أن المقصود بالتحدي العام هو تحدي الأمة جميعاً، وأن المقصود بالتحدي الخاص، هو تحدي العرب خاصة، وهذا هو الذي سوف آخذ به في هذا المقام؛ لأنه هو الذي يظهر لي من واقع الآيات القرآنية التي وردت في التحدي، فضلاً عن أن هذا الرأي قد تأصل في داخلي من خلال قراءتي للآراء المختلفة في تحديد المقصود بكل منهما.

أ- التحدي العام:

«وهو تحدٍ عام لم تُعين في آية من آياته الجهة التي كان التحدي لها فيجب أن يبقى على عمومته ويبين فيه الإعجاز بياناً عاماً لكل فرد، وطائفة، وأمة، وشعب»^(١). ومنه قوله تعالى: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^(٢).

وهذا التحدي العام يشمل التحدي بجميع صنوف الإعجاز التي وردت في القرآن العظيم، من هداية، وتشريع، وأحكام، وعلوم، وأخبار وغير ذلك^(٣).

وقد ورد هذا التحدي لجميع الخلائق، لإنسهم، وجنهم، بما فيهم العلماء، والفلاسفة، والحكماء، والعباقرة، والزعماء، العرب منهم والعجم، الأسود فيهم،

(١) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٣٨ بتصرف يسير.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٣) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٣٩.

والأبيض، المؤمن فيهم، والكافر، والمصدق والمكذب^(١).

ب - التحدي الخاص:

وهو ذلك التحدي الذي يقتصر على لون من ألوان الإعجاز التي حواها القرآن الكريم. وهو التحدي بالبيان، والفصاحة، والبراعة في القول. وهذا التحدي خاص بمن نزل القرآن بلغتهم وهم العرب، ويدخل معهم في هذا التحدي من تعرب من أذكاء الأمم الأخرى فأتقن كلامهم، وبرع في نظامهم^(٢).

ومنه قوله تعالى: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ»^(٣) على أن آيات التحدي الواردة في القرآن شاملة لجميع أنواع التحدي، فليس هناك آيات خاصة للتحدي بالهداية، والأحكام، والتشريعات، وسائر العلوم. وليس هناك آيات خاصة للتحدي بالبيان، والبراعة، والفوق البلاغي^(٤).

٦ - الخصائص التي هي مناط التحدي:

لقد كثر الحديث في هذه المسألة بين علماء البلاغة، وعلماء الكلام. فكل منهم ينظر إليها من واقع ثقافته، وبيئته، ومعتقده.

(١) «البيان في علوم القرآن»، محمد بن علي الصابوني، ص ٩٥، ط ١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، عالم الكتب، بيروت.

(٢) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٣٨.

(٣) سورة الطور، آية: ٣٤.

(٤) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه»، ص ١٣٩.

لقد أورد بعض الباحثين تقسيماً آخراً لأنواع التحدي. فمنهم من رأى أن التحدي العام يقصد به تحدي جميع المشركين في الإتيان بمثل هذا القرآن. وأن التحدي الخاص هو ذلك التحدي الذي قصد به نفر من المشركين، وهؤلاء نفرهم من أنزل الله فيهم قرآناً، ومنهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وأبو لهب حتى يثيرهم فلا يرون لذة للعيش. وعلى هذا التقسيم سار هؤلاء الباحثون في تفسير آيات التحدي. من هؤلاء الباحثين د. مصطفى مسلم في كتابه «مباحث في إعجاز القرآن».

وقد ذهب بعض الباحثين^(١) إلى أن الإمام «الطبري» هو أول من تحدث في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى: «فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ»^(٢).. وقيل: «فأتوا بسورة من مثله» يعني من مثل هذا القرآن حقاً، وصدقاً لا باطل فيه ولا كذب.

وقيل: قال لهم: فأتوا بسورة من كلامكم الذي هو مثله في العريية إن كنتم عرباً، وهو بيان نظير بياضكم، وكلام شبه كلامكم^(٣).

وذهب «الباقلاني» هذا المذهب، حيث يقول:

إن الإعجاز واقع في بيان القرآن، ونظامه، ووضع حروفه، ودلالة معانيه، وأن التحدي إنما وقع بأن يأتوا بمثل حروفه التي منها يتكون نظم القرآن^(٤).

وذهب آخرون إلى أن التحدي وقع بألفاظ القرآن دون معانيه؛ لأنه هو الذي يبين فيه التفاضل دون المعاني، وأن طريقة القرآن في النظم الخارجة عن نظم العرب وعاداتهم مؤكدة لكونه معجزاً، إذ كان له رتبة في الفصاحة أعظم^(٥).

على أن هناك من الباحثين من يرى أن الخصائص التي هي مناط التحدي، تدرج فيها القرآن وفقاً لتدرج آيات التحدي فقد وقع التحدي أولاً: بالبراعة البيانية، والفوق البلاغي، والتحدي بجميع ما تضمنه القرآن من ضروب الهداية الإلهية، في

(١) منهم د. عبدالرؤوف مخلوف في كتابه «الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن».

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٣.

(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن»، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ١/١٢٨، ١٢٩، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

(٤) «التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة»، أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي، ضبطه: محمود الحضري، محمد عبدالهادي أبو ريدة، ص ١٦٣، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٥) «المغني في أبواب العدل والتوحيد»، للإمام عبدالحبار المعتزلي، ١٦/٢٢٢. ٢٢٥، «قوم نصه»، أمين الحولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، الجمهورية العربية المتحدة.

شتى مقاصد الحياة.

ثم ورد التحدي بعشر سور من مثله، ثم بسورة من مثله، وهذا التحدي يشمل ما تحويه هذه العشر، ثم هذه السورة، من فنون التحدي، وهداية الإعجاز.

ومنهم من يجعل هداية الإعجاز مناط التحدي، وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن، ويعجز جميع الذين تحداهم، ويتحداهم من أبناء البشرية قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس، وأمة، وعلى أية درجة من العلم والمعرفة^(١).

ويرى آخرون أن التحدي وقع بالنظم، والأسلوب، والجزالة؛ لأن هذه الصفات الثلاث لازمة لكل سورة من سور القرآن، وبها وقع التحدي، والإعجاز^(٢). وذهب قوم إلى أن التحدي وقع بما يتضمنه القرآن من الإخبار بالغيوب.

وهذا القول مردود لأنه ﷺ قد تحدى بمثل كل سورة من غير تخصيص، ولا يتضمن كل ذلك الإخبار عن الغيوب^(٣).

وقال آخرون: إن التحدي وقع بطلب النظم المشتمل على البلاغة دون نفس الألفاظ البليغة الفصيحة، وأن النبي ﷺ لم يتحد بالبلاغة عارية من النظم، الذي هو نظم القرآن، مما يدل على أن التحدي كان بالبلاغة على نظم مخصوص هو نظم القرآن وذلك هو الذي تعذر عليهم وامتنع^(٤).

والذي عليه الجمهور والحقاق - وهو الصحيح في نفسه - أن التحدي إنما وقع

(١) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٤٣، ١٤٦.

(٢) «تفسير القرطبي» الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ٦٦/١، دار الشعب، القاهرة.

(٣) «المغني في أبواب العدل والتوحيد» ٢٢٠/١٦.

(٤) «هداية المسترشدين»، ص ١٣٧، ١٣٨، عن كتاب عبدالرؤوف مخلوف «الباقلائي» وكتابه إعجاز القرآن» ص ٢٤.

بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه ووجه إعجازه: أن الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته، أي لفظة تصلح أن تلي الأولى؟ ويتبين المعنى بعد المعنى؟ ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك^(١).

والذي أذهب إليه في هذه المسألة: أن المتحدى به أولاً هو القرآن جملة وتفصيلاً بما يشتمل عليه من النظم، واللفظ، والمعنى، والأخبار، والأحكام، والتشريعات. وحين طأطأ القوم رؤوسهم ذلة، وانكساراً، جاء التحدي بعشر سور من مثله «مفتريات» كما يزعمون، وبهذه الكلمة «مفتريات» يخرج التحدي إلى النظم، واللفظ، وصحة المعنى، دون الأمور الأخرى التي اشتمل عليها القرآن. وكذلك حين نزل معهم القرآن إلى التحدي بسورة واحدة، نرى أن التحدي كان بالنظم واللفظ، وصحة المعنى.

قال بعض العلماء: «وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه»^(٢).

٧- زمن التحدي:

افترق القوم في تحديد زمن التحدي على فريقين:

ذهب فريق منهم إلى أن التحدي خاص بزمن الرسول ﷺ وأن قضية التحدي قد انتهت بانتهاء عصر المبعث المحمدي، ولكن الإعجاز بالقرآن الكريم قائم، ودائم

(١) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: ٩٧/٢ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ط ٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) الجامع لأحكام البيان: ٦٦/١.

إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^(١).

وذهب آخرون إلى تقسيم زمن التحدي؛ فجعلوا التحدي بعلو طبقة الكلام في البلاغة، وبلوغه الذروة من البراعة في البيان خاص بجيل العرب الذين عاصروا النبي ﷺ في زمن نزول القرآن؛ لأن أهل ذلك الزمان كانوا أقدر على نظم الكلام في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

والتحدي بالهداية الشاملة لمعاني وأفكار القرآن، وعلومه ومعارفه، وطرائقه في توجيه العقل إلى النظر في حقائق الكون لا يقتصر على زمن معين، وإنما يشمل كل جيل في كل عصر، ومجتمع وبيئة^(٢).

وقد حدد «ابن كثير» زمن التحدي عند تفسيره لهذه الآية «فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»^(٣). حيث قال: «لن لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر جازماً، قاطعاً مقدماً غير خائف، ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن»^(٤).

وهذا هو الرأي الراجح لدي، حيث يكون زمن التحدي منذ نزول القرآن وتحديه لهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأننا لو أخذنا بالرأي الأول، الذي يرى أن التحدي إنما وقع لمن هم في زمن الرسول ﷺ دون غيرهم، «فقد يجوز أن يكون

(١) انظر: «في إعجاز القرآن الكريم» ص ٣٢.

(٢) «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» ص ١٥٤، ١٥٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٦٣.

أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا^(١)، وهذا القول باطل؛ لأن القرآن الكريم عام لكل زمان ومكان، ولم يختص به أهل زمن معين، ولا مكان معين ووردت آيات التحدي تخاطب البشر جميعاً في كل عصر، ومصر؛ فيكون التحدي لأهل كل زمان، وكل مكان.

٨ - الحكمة من التحدي:

من المعلوم أن كل المعجزات التي جرت على أيدي الرسل عليهم السلام كانت تهدف إلى أمرين:

(١) أن هذه المعجزة دلالة وآية على نبوة النبي وصدق رسالته.

(٢) أن تكون هذه المعجزة، مما نبغ فيه القوم، فيتحداهم بها، ويعجزون عن الإتيان بمثلها. لذلك فإن القرآن قد تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله أو بسورة مثله. وكان هذا التحدي بالفصاحة، والبيان، وهو ذلك الجنس الذي نبغ فيه القوم.

وكانت الحكمة من هذا التحدي، أن هناك من الناس من لا يعرف كونه معجزاً، والإعجاز إنما يعرف أولاً بإعجازه بطريق التحدي؛ لأن الكلام المعجز لا يتميز عن غيره بحروفه، وصورته، وإنما يحتاج إلى علم، وطريق يعرف بها كونه معجزاً؛ فيكون هذا التحدي دافعاً له لمعرفة ذلك المعجز.

ومنهم من هو من أهل الصنعة العربية، والتقدم في البلاغة، فهو يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف ذلك المعجز أهل عصره، ممن هم في طبقته، أو يدانيه في صناعته، عجزهم عنه^(٢).

(١) «إعجاز القرآن» للباقلاني، ص ٢٥٧.

(٢) انظر: «إعجاز القرآن» للباقلاني، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

ومن حكمته أيضاً إثبات عجز البشر متفرقين، ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وإثبات إعجازه، وأن هذا الكتاب حق، وأن هذا الرسول ﷺ رسول صادق^(١).

ولما احتيج إلى التحدي؛ لإقامة الحجة، وإظهار البرهان؛ لأن المعجزة إذا ظهرت فهي حجة لمن ظهرت على يديه، ولا تظهر على مدع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله^(٢)، بذلك تزول الشبهة وينكشف العجز^(٣). وليشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه، وهم أرباب الفصاحة، والبيان، فعجز سواهم أولى.

ب: المعارضة:

١- تعريفها:

المعارضة كما وردت في كتب الدراسات القرآنية، هي: الإتيان بفعل ممن ضعفت عقائدهم وشطت أحلامهم، وغلبت عليهم شقوتهم، أنهم يستطيعون أن يأتوا بكلام يشبه كلام الله. - جل جلاله - الذي أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ. وقد عرّف «القاضي عبد الجبار» المعارضة: بأن ينشئ إنسان كلاماً، يزعم أنه على غرار القرآن، ويثبت له ما للقرآن من صفات فنية^(٤).

٢- معارضة القرآن بين دعوى النبوة و صناعة الكلام:

لا يخلو التاريخ من أخبار غريبة تبعث على الدهشة والاستغراب. من تلك الأخبار ما ذكر لنا من محاولات فاشلة لمعارضة القرآن الكريم، قام بها جماعة ممن فسدت عقائدهم، وسلبت أفهامهم، قد جندهم إبليس لخدمته، فحاولوا

(١) «البيان في علوم القرآن» ص ٩٣.

(٢)

(٣) «إعجاز القرآن» للباقلائي، ص ٤٧.

(٤) «الباقلائي و كتابه إعجاز القرآن» ص ٢١.

الارتفاع من حيث هووا وراموا الشرف من حيث سقطوا، حسبوا أن القرآن ضرب من الكهانة، فآلفوا الألفاظ الخاوية من كل معنى حسن، وقالوا هذا من جنس ما جاء به محمد ﷺ.

سبحانك ربي هذا بهتان عظيم!!

فهذا «مسيلم بن حبيب النجدي» يدعي النبوة باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله ﷺ^(١)، بعد أن وفد عليه وأسلم، وكان يصانع كل إنسان، ويتألفه ولا ييالي أن يطلع أحد منه على قبيح؛ لأنه إنما يتخذ النبوة سبباً إلى الملك، حتى عرض على الرسول ﷺ أن يشركه في الأمر، أو يجعله له من بعده، وكتب إليه في سنة عشر للهجرة: «أما بعد. فيأني قد شوركت في الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن قریشاً قوم يعتدون...».

وقد زعم مسيلم أن له قرآناً أنزل عليه من السماء، ويأتيه به ملك يسمى «رحمن» بيد أن قرآنه إنما كان فصولاً، وجمالاً، بعضها مما يرسله، وبعضها مما يترسل به في أمر إن عرض له، وحادثة إن اتفقت، ورأي إذا سُئل فيه، وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان؛ لأنه كان يحسب النبوة ضرباً من الكهانة، فيسجع كما يسجعون^(٢).

وقد مضى العرب على أن يسمعوا للكهان، ويطيعوا، وقر ذلك في أنفسهم، واستناموا إليه، ولم يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلم، وتأتى إلى أنفسهم منها.

(١) «نظرية إعجاز القرآن» عند عبد القاهر، ص ١٩.

(٢) «التعبير الفني في القرآن» د. بكري شيخ أمين، ص ١٤٨، ١٤٩، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، دار الشروق، بيروت.

فقد حُكي أن جماعة من أهل اليمامة، قدموا على الصديق - رضي الله عنه - فسألهم عن مسيلمة، وعمّا يدعيه أنه من الوحي النازل عليه، فقرءوا عليه منه هذا الهذر: «يا ضفدع نقي نقي إلى كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الطين تفارقين، ولا العذوبة تمنعين».

فقال الصديق - رضي الله عنه - والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل^(١). ويقول الخطائي: «قيل: أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أنه كلام خالٍ من كل فائدة، لا لفظه صحيح، ولا معناه مستقيم، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع. والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت^(٢)».

ويقول «الجاحظ» عند القول في الضفدع: «ولا أدري ما هيّج مسيلمة على ذكرها؟ ولمّ ساء رأيه فيها حتى جعل يزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه: «ياضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين... الخ»^(٣). ويقول عنه «الباقلاني» «هذا الكلام دال على جهل مورده، وضعف عقله، ورأيه،

(١) الإل يطلق على الله سبحانه، أي لم يأت من قبل الله، ويعبر عن هذا ابن الأثير في النهاية بقوله: أي لم يخرج من ربوبية، ويقول ابن الأثير أيضاً: وقيل الإل هو الأصل المجيد، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن، وقيل: الإل: النسب والقربة، فيكون المعنى أن هذا الكلام غير صادر عن مناسبة الحق. «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ٧٥/١، ٧٦، تحقيق محمد النجار، مكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) «بيان إعجاز القرآن»، أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطائي، ص ٥١، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، دار المعارف.

(٣) «الحيوان»، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون، ٥٣٠/٥، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، ط ٣، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

وما يوجب السخرية منه، والهزاء به، وليس هو مع ذلك خارجاً عن وزن ركيب السجع، وسخيفه... وعلى أن هذا الكلام لو كان معجزاً لتعلقت العرب، وأهل الردة به، ولعرف أتباع النبي ﷺ أنه عروض له، ولوقع اليقين بأنه قد قبل، وفي عدم ذلك دليل على جهل مدعي ذلك، وعلى أن مسيلمة لم يدع هذا الكلام معجزاً، ولا تحدى العرب بمثله، فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كل سامع أخف وأسخف، وأذل من أن يتعلق به، ولذلك لا نجد له نبأ، ولا أحداً من العرب تعلق به^(١).

فهذا هو قرآن مسيلمة الذي زعم. ضرب من الهذيان المحموم، ورصف من القول، ليس تحته طائل، وإنما هو يكشف عن قدر صاحبه، وعقله الذي أودى به، ويكشف عن تلك النفس الدنيئة التي عرفت الحق فنبذته، وجعلت امتلاك الدنيا أقصى أمانها، حيث زعم صاحبها أنه نبي، وعليه ينزل الوحي؛ ليصيب عرضاً قريباً، وما علم أنه فقد عقله، وسفه نفسه، قبل أن يمتلك ما يريد.

وإني لأعجب ممن^(٢) ينفي هذا الإدعاء عن مسيلمة، وي زعم أن مثل هذا القول مكذوب عليه ويُراد به الاستهزاء، والسخرية منه.

ويقول: إنما هو من الوضّاعين، لأنه لا يمكن أن يقول مسيلمة وهو عربي من خالص العرب مثل هذا الكلام الساقط، ثم يأتي بشاهد على صحة قوله، وهو خطبة لأحد مشاهير الخطباء^(٣) في الجاهلية، ويقول: «هذا كلام يقوله «قس»، وهو في

(١) «التمهيد» ص ١٢٨.

(٢) من هؤلاء عبد الكريم الخطيب في كتابه «رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإحادة»، ص ١٢٤.

(٣) قس بن ساعدة.

الجاهلية، قبل أن يستمع إلى كلام الله، وهو بهذا يقصد أنه لا بد من أن يكون مسيلمة أبلغ من بلغاء الجاهلية، وفصحائهم، والعلة في ذلك أنه استمع إلى كلام الله، وشهد مبعث النبي ﷺ ثم ينفي أن يكون هناك معارضة للقرآن من أحد من الناس، لا لمسيلمة ولا غيره. وأقول: إن مثل هذا الكلام قد جانب الصواب وذلك للأسباب التالية:

إنه نفى عن مسيلمة قولاً تناقلته الأخبار، والأجيال، من غير استناد إلى دليل في فيه، ثم لماذا نقول إنه لا يمكن أن يكون مثل هذا الكلام لمسيلمة؟.

أليس من ادعى النبوة، وهو يعلم أنه كاذب، أخف، وأسخف من هذا القول؟! إنه قد جعل التزاماً على كل من عاش بعد الإسلام أن يكون مضاهياً في فصاحته وبلاغته فصحاء الجاهلية المشهورين، وهو قيا س باطل؛ إذ أنه لا يمكن أن يكون كل من جاء بعد الإسلام فصيحاً كما أنه لا يمكن أن نقول إن كل من جاء قبل الإسلام قاصر في بلاغته؛ لأنه لم يدرك عصر النبوة.

وبهذا نستطيع أن نقول: إن مثل هذا الكلام الساقط لا نستبعد أن يكون قد صدر عن مسيلمة؛ لأنه من السخف والسقوط بمكان، حين ادعى النبوة^(١).

ومن قيل إنهم زعموا معارضة القرآن «عبدالله بن المقفع» فقد ذكر إنه قصد معارضة القرآن، وكان ينظر في سورة «هود» إلى أن وصل إلى قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٢). فانشقت مرارته من هبة هذا الخطاب، ومات من

(١) لقد أثبت كثير من العلماء ما نقل عن مسيلمة، وقالوا: إن ما نسب إلى مسيلمة قد حدث منه فعلاً. انظر «حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن»، د. علي البدري، ص ٧٦، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار الطباعة، المحمدية، الأزهر.

(٢) سورة هود، آية: ٤٤.

حينه^(١).

على أن هذا الخبر يشكك في صحته كثير من الباحثين، ومنهم «مصطفى صادق الرافعي» حيث يقول: «ونعتقد بما يشبه اليقين أن الخبر مدسوس على ابن المقفع، وأن حسّاده هم الذين افتروا عليه هذه الفرية الشنعاء، لقد ظن أولئك المفترون أن كتاب الدرّة اليتيمة من تأليف «ابن المقفع»، معارضة للقرآن، وغفلوا عن أنه ترجمة للكتاب في الحكمة، ويشهد له بهذا عالم موثوق هو «الباقلاني» وابن المقفع رجل عاقل، ومن أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء إلا لأنه من أبلغ الناس، وإنما نسبت المعارضة «لابن المقفع» دون غيره من بلغاء الناس؛ لأن فتنة الفرق الملحدة كانت بعده، وكان البلغاء كافة، لا يمترون في إعجاز القرآن، وإن اختلفوا في وجه إعجازه، ثم كان ابن المقفع متهماً عند الناس في دينه، فدفع بعض ذلك إلى بعض، ونهيات النسبة من الجملة^(٢).

ومن زعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن، الذي أتى به محمد ﷺ «ابن الراوندي»، وكان رجلاً غلبت عليه شقوة الكلام، فبسط لسانه في مناقضة الشريعة، وذهب يزعم، ويفتري، وقد قيل: إن هذا الرجل عارض القرآن بكتاب سماه «التاج» وقد أجاب العلماء عن كل ما قاله من معارضة القرآن وغيرها من كفرياته، وبينوا وجه فساد ذلك بالحجج البالغة.

والذي نظنه أن كتاب «ابن الراوندي» إنما هو في الاعتراض على القرآن، ومعارضته، على هذا الوجه من المناقضة، كما صنع في سائر كتبه «كالفريد، والزمردة، وقضيب الذهب، والمرجان» فإنها فيما وصفت به ظلمات بعضها فوق

(١) «بصائر ذوي التمييز» ٧٦/١.

(٢) «إعجاز القرآن» ص ١٧٨، ١٧٩.

بعض، وكلها اعتراض على الشريعة والنبوة بمثل تلك السخافة التي لا يبعث عليها عقل صحيح، ولا يقيم وزنها عقل راجح^(١).

ويقال: إنه كان يؤلف أمثال هذه الكتب، التي يدعي فيها معارضة القرآن، ويطعن في الإسلام وأهله، لليهود والنصارى، وأهل التعطيل، بأثمان يعيش منها، فيضع لهم الكتاب بثمان، يتهددهم بنقضه، وإفساده إذا لم يدفعوا له ثمن سكوته^(٢). وهكذا نرى أن مقصده، هو التجارة بالكلام الفاسد، الذي يزعم أنه معارضة للقرآن، وهذا بهتان عظيم!! وإن كنت لم أقرأ شيئاً مما ادعى أنه قرآن، حتى أحكم على كلامه، إلا أنني أعلم يقيناً أنه لم يستطع أن يجاري كلام الله تعالى، ولا يُعد ما جاء به معارضة للقرآن. إلى غيرهم من أولئك الجهلاء الذين حاولوا معارضة القرآن، ولكن أتى لهم ذلك، وهم يعلمون قبل الناس أجمعين، أنهم كاذبون فيما يدعون، ويكفيهم عاراً أنهم فضحوا أنفسهم أمام أنفسهم.

وليس لنا أن نرفض هذه الادعاءات أو نقبلها على هؤلاء القوم وأمثالهم وإنما «يجب ألا نحسن الظن، وندفع التهمة عن كل مترسل بليغ، وننفي عنه كل شبهة، فذلك يوقعنا في ورطة، ويصمنا بالجهل والغباء»^(٣).

(١) «إعجاز القرآن»، الرافعي، ص ١٨٠، ١٨٢ باختصار، وانظر «التعبير الفني في القرآن» ص ١٥٠،

١٥١، «نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر»، ص ٦٧.

(٢) هامش «إعجاز القرآن»، الرافعي، ص ١٨٢، بتصرف.

(٣) «التعبير الفني» ص ١٥٠.

ثانياً: الإخبار بالغيب

الغيب هو ذلك المجهول الذي يقلق الإنسان سره.

هو ذلك العالم الخفي الذي لا يعلم منتهاه إلا الله؛ لذا حاول الإنسان منذ القدم أن يطلع على أسرارهِ، ومكوناتهِ، وحاول أن يمزق الستار المظلم الذي يحول بينهُ وبين استكشاف مستقبلهِ، فها هو ذا يدور في دوامة الخرافة تتقاذفه أيدي الكهنة، والمشعوذين، لا ييالي أن يدفع الثمن باهظاً ومعرفة الغيب تنتهي أمله.

ولأن الإنسان بفطرته شغوف بالاطلاع على ذلك الغيب المجهول، فقد جاء الإخبار به ماضياً، ومستقبلاً، وحاضراً سراً إلهياً أراد المولى - سبحانه - أن يكون إحدى المعجزات التي انطوت عليها آيات القرآن الكريم.

فكان كشف الستار عن غيب الماضي حتى تبدت للأجيال على مرّ الأحقاب أسرار الزمان الأول، منذ أن خلق المولى - سبحانه - السموات والأرض، بل من قبل ذلك، حيث ورد هذا في القرآن الكريم، قال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(١)، وكان كشف الستار عن خبايا النفوس، وما يختلج في الضمائر، وما تكنه الصدور هو ضرب من غيب الحاضر الذي تجلّى في آيات القرآن الكريم، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ السَّجُودِ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَتُكُمَا يَحِيكُ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبُئْسَ الْمَصِيرُ»^(٢).

(١) سورة فصلت، آية: ١١.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٨.

ثم كان كشف الستار عن غيب المستقبل حتى يقع بعد حين كما أخبر به القرآن الكريم. قال تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا»^(١).

إن هذا الغيب الذي تكشف للإنسان سره يبيننا يقيناً أن هذا القرآن من لدن الله - الجليل - الذي قال في محكم التنزيل: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^(٢).

ولعل من قصور العقل البشري، وانحطاط النفوس الدنيئة تلك الدعوى الكاذبة التي تزعم أن القرآن من وضع محمد ﷺ هذا النبي الأمي الذي كانت أميته شهادة ناطقة يتردد صداها في ذاكرة الدهور أن هذا القرآن العظيم وحى يوحى، قال تعالى: على لسان نبيه ﷺ: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ — رَأْفَلَا تَتَفَكَّرُونَ»^(٣).

وقال تعالى: على لسان نبيه ﷺ:

«قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(٤).

فكان هذا إقراراً من النبي ﷺ بقدسية القرآن الكريم وتعالیه، وكان هذا الغيب

(١) سورة الفتح، آية: ٢٧.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٨٨.

سراً إلهياً حوى منه القرآن الكريم ما شاء الله، وظلت آياته ريحاً تعبق في سماء التاريخ تحمل بين طياتها قدرة الله العظيم، ودليل إعجاز هذا الكتاب القدسي. ولعل من مكملات القول أن أتناول أنواع الغيب، وفق ما يقتضيه مسار البحث.

أولاً - غيب الماضي :

تشرق شمس الزمان على قوم، وتغرب عن آخرين، وهذه عجلة الأيام تدور، وتدور، وتدور، وتنطوي صفحات التاريخ لا يعلم ما نقش في كبدها من حوادث، وأخبار، إلا الله تعالى. عفت على أهلها الليالي والأيام، ما كنا نعلمهم لولا أن ذكرهم الله في كتابه الكريم.

وقد ورد كشف الستار عن غيب الماضي في القرآن الكريم بطريقة مميزة، وهي إيراد تلك الأخبار على هيئة قصص رائعة^(١)، ترمي إلى أهداف متعددة، منها ما نحن بصدهه في هذا المقام وهو الإعجاز.

من تلك الآيات القرآنية التي كشفت عن غيب الماضي، ما ورد في ذكر قصة خلق السموات والأرض، قال تعالى: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا»^(٣).

وقال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

(١) «مناهل العرفان» ٢/ ٢٦٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.

(٣) سورة نوح، آية: ١٥، ١٦.

كَرَّهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١).

ومن غيب الماضي أيضاً قصة خلق آدم، وحواء، وإبليس، وما عقب هذا الخلق من أحداث كانوا دعائم أساسية في تسيير دفتها.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» (٢).

وقال تعالى: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ» (٣).

وقال تعالى: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سُوِّيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» (٤).

وهكذا يتجلى لنا ما في القرآن الكريم من أخبار الماضي ما يضيق المقام عن حصره، من ذلك: أخبار الرسل مع أقوامهم، وموقف أقوامهم منهم، بل أخبارهم من قبل أن يرسلهم الله بدعوته، كقصة «موسى» و«عيسى» - عليهما السلام - وكذلك

(١) سورة فصلت، آية: ١١، ١٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الرحمن، آية: ١٤، ١٥.

(٤) سورة ص، آية: ٧١، ٧٨.

قصص غير الأنبياء كقصصة «ابني آدم» وقصة «أصحاب الكهف» وقصة «ملكة سبأ» وقومها.

إلى آخر تلك القصص والأنباء التي أشرقت بها آيات القرآن الكريم على ظلام الأحقاب الماضية، فتبدت لنا أخبارهم، ما كنا نعلمها لولا أن أطلعنا الله عليها. وقد كان القرآن الكريم يشير في منتهى كل قصة إلى أن هذه الأمور والأخبار، ما كان لرسول الله - ﷺ - طريق إلى العلم بها، إلا عن طريق الوحي من الله القدير. قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ :

«ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ» (١).

وقوله تعالى: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» (٢).

وهكذا ينبه المولى - القدير - إلى أن هذه الأمور لم يكن لمحمد - ﷺ - بها علم إلا بإذن الله؛ وذلك لأن ورودها بهذا الشكل المفصل الدقيق لا يمكن أن يكون من عند بشر (٣)، حتى من زعموا أنه يلقي إلى رسول الله ﷺ العلم لم يثبت ذلك حقيقة؛ لأن لسان الذي يزعمون أعجمي، والقرآن لسان عربي مبين (٤)، ففسد ما قالوا وما زعموا. كما أنه ليس من علم أهل الكتاب؛ لأن أهل الكتاب لم يكن يعرف أخبار أمهم السابقة إلا قلة، فضلاً عن أن هذا العلم كان قد دخله كثير من التحريف

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٣) «مباحث في إعجاز القرآن»، د. مصطفى مسلم، ص ٢٤٨، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، دار المنارة، جدة، السعودية.

(٤) «المعجزة الكبرى»، محمد أبو زهرة، ص ٣٤٠، دار الفكر العربي، «دراسات حول القرآن»، ص ٥٣.

والتبديل، وفوق ذلك كله فقد كما من يعلم بهذه الأخبار ضئيلاً بها حتى لا يعلمها غيره فينافسه على مكانته، بل كان أهل الكتاب هم الذين يثيرون المشركين ليسألوا محمداً ﷺ عن أخبار الأمم السابقة، كقصص أصحاب الكهف، فلا سبيل أن يكونوا هم من يخبر محمداً ﷺ عن الأمم السابقة، على أننا إذا علمنا أن هذه الأخبار التي أتى بها محمد ﷺ تفوق ما لديهم من العلم دقة وتفصيلاً^(١)، وقر في أنفسنا أنها من لدن علام الغيوب.

ووجه الإعجاز في ذكر غيب الماضي، وقصصه، أن هذه الغيوب قد وردت على لسان نبي أُمِّي لا يعرف القراءة، ولا الكتابة، وما جلس يوماً إلى عالم ليغترف من علمه، ولم تكن نشأته بين ظهرائي أهل الكتاب ليعلم أخبار الأمم السابقة.

وجاء القرآن الكريم في ذلك الوسط الأمي على لسان أُمِّي يذكر لهم أخبار الأنبياء السابقين، وأحوال أمهم معهم، كل ذلك ورد بتفصيل صادق، وافق منه ما كان صدقاً عند أهل الكتاب من اليهود، والنصارى^(٢)، فكان ذلك شاهداً لا سبيل لتكذيبه على كون هذا الكتاب من لدن علام الغيوب. وصدق الله القائل: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ أَيْهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ»^(٣).

وقوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي

(١) «مباحث في إعجاز القرآن» ص ٢٤٩، «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان»: لشمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن القيم الجوزية، ص ٢٤٨، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) «المعجزة الكبرى» ص ٣٣٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٤٤.

كِتَابٌ مُبِينٌ»^(١).

وقوله تعالى: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ»^(٢).

وقوله تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا»^(٣).

ومن هذا كله يتضح لنا أن الغاية الأساسية من اطلاع الرسول ﷺ على غيب الماضي؛ وإثبات أصل الرسالة^(٤)، بالإضافة إلى ما تهدف إليه من أمور أخرى، كالعظة والعبرة بأحوال الأمم السابقة، وتسلية للرسول ﷺ.

ثانياً - غيب الحاضر :

ويُقصد به ما حدث في عصر الرسول ﷺ من حوادث لم يحضرها الرسول ﷺ وما يكنه أعداؤه في صدورهم من حقد وكراهية للإسلام وأهله، وما يحكيه زعمائهم من مكائد مهلكة يرومون من ورائها إلى القضاء على الإسلام في مهده^(٥).

فيطلع الله نبيه ﷺ على ذلك؛ ليتخذ المؤمنون حذرهم من هؤلاء الأعداء. ويضيف «الزرقاني»، على هذا ما يتصل بالله تعالى، والملائكة، والجن، والجنة، والنار، مما لم يكن للرسول ﷺ سبب إلى رؤيته ولا العلم به، ومنها أيضاً ما جاء في القرآن من حقائق، ومنافع، ومبادئ العلم الحديث^(٦). على أنني أرى أن الغيب

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٣) سورة الجن، آية: ٢٦.

(٤) «مباحث في إعجاز القرآن» ص ٢٥٢.

(٥) انظر: مباحث في علوم القرآن: ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٦) «مناهل العرفان» ٢/ ٢٦٤، بتصرف.

المتصل بالجنة، والنار، وأخبار القيامة، ومشاهدها والحقائق التي كشف عنها، ويكشف، وسيكشف عنها العالم هي مما يتصل بغيب المستقبل؛ لأن غيب الحاضر ينحصر فيما حصل في زمن الرسول ﷺ وتكشف له من خلال آيات القرآن الكريم. وأذكر فيما يلي أمثلة لهذه الغيوب التي أمارت القرآن الكريم اللثام عنها، وكشفها للرسول ﷺ.

أ- الأحداث التي وقعت في عصر الرسول ﷺ ولم يكن شاهداً لها، ومثال ذلك:

١- ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء، والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه؛ فدخل على حفصة بنت عمر، واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فعرفتُ فسألتُ عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت منه النبي ﷺ شربة، قلت: أما والله لنحتال له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك إذا دخل عليك فقولي له: يا رسول الله أكلت مغافير، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرس نحلة العرفط، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذلك، قالت تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدت أن أباده به أمرتني به. فلما دنا منها، قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: لا. قلت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، قالت: جرس نحلة العرفط، قالت: فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، فلما دار إلى صفية، قالت مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة، قالت: يا رسول الله أسقيك منه، قال: لا حاجة لي فيه.

تقول سودة: سبحان الله لقد حرمانه! قالت لها: اسكتي^(١).

(١) «صحيح البخاري» (كتاب التفسير)، ١٩٤/٦، مطابع الشعب، ١٣٧٨هـ، «أسباب النزول» لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ص ٣٢٥، ٣٢٦، عالم الكتب، بيروت، «لباب النقول في أسباب النزول»، جلال الدين السيوطي، ص ٢١٧، ط ٢، ١٩٧٩م، دار إحياء العلوم، بيروت.

فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١).

ب - مكائد أعدائه ﷺ وما يحيكون حوله من شباك ليظفروا به ويقضوا على ما أتى به من أمر الدين الجديد، فكشفها الله تعالى لرسوله ﷺ ومنها:

١- عن ابن عباس قال: كان المشركون ينالون من رسول الله ﷺ فخبره جبريل - عليه السلام - بما قالوا فيه، ونالوا منه، فيقول بعضهم لبعض: أسروا قولكم لتلا يسمع إله محمد فأنزل الله تعالى: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (٢).

ومنه أيضاً قوله تعالى: «وَأِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» (٣). نزلت حين أراد الكفار أن يعينوا رسول الله ﷺ فيصبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش، فقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حججه، وكانت العين في بني أسد حتى إن كانت الناقة السمينية، والبقرة السمينية، تمر بأحدهم، فيعينها، ثم يقول:

يا جارية خذي المكل، والدرهم، فأتينا بلحم من لحم هذه، فما تبرح حتى تقع بالموت، فتنحر، وقال الكلبي: كان الرجل يمكث لا يأكل يومين، أو ثلاثة، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به النعم، فيقول: ما رعى اليوم إبل، ولا غنم، أحسن من هذه فما تذهب إلا قريباً حتى يسقط منها طائفة وعدة، فسألوا الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به مثل ذلك، فعصم الله تعالى نبيه ﷺ وأنزل هذه

(١) سورة التحريم، آية: ١.

(٢) سورة المللك، آية: ١٣.

(٣) سورة القلم، آية: ٥١.

الآية^(١).

٢- ومن هذا القبيل ما أخبر القرآن به عن أساليبهم الملتوية التي تهدف إلى إيقاع الوهن والحزن في قلوب المسلمين، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك.

منه قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ»^(٢).

فقد رُوي في نزول هذه الآيات: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليكم - والسام هو الموت - ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، فنزلت «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ»^(٣).

وكان اليهود يتناجون فيما بينهم إذا رأوا الرجل من المسلمين حتى يظن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكرهه، فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك، ولكنهم لم ينتهوا فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ... الآية»^(٤).

٣- ومن ذلك أيضاً ما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء، فكتموا إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم^(٥). فأطلع الله رسوله ﷺ على

(١) «أسباب النزول»، ص ٤٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٨.

(٣) «صحيح البخاري» ٥١/٦، «لباب النقول» ص ٢٠٦، «مسند الإمام أحمد» ١٧٠/٢، دار الفكر العربي، سورة المجادلة، آية: ٨.

(٤) «الكشاف» ٤٩١/٤، سورة المجادلة، آية: ٨.

(٥) «مسند الإمام أحمد» ٣٩٨/١، «صحيح البخاري» ٥١/٦، «مباحث في إعجاز القرآن» ص ٢٥٤.

ذلك، وسلاه بما أنزل في وعيدهم^(١). قال تعالى: «فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٢).

ثالثاً - غيب المستقبل :

ويقصد به ما ذكره القرآن الكريم من حوادث، وأخبار ستقع بعد حين، سواء حدد ذلك الحين، أو أطلق ولم يحدد^(٣).

منها أيضاً ما أخبر به القرآن الكريم من أحداث القيامة، والبعث والنشور، والجنة، والنار، وغير ذلك من أخبار اليوم الآخر.

ومن أمثلة هذا الغيب:

أ - إخبار القرآن عن الروم بأنهم سيتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ^(٤)، الذي يقول الله تعالى فيه: «الَّذِينَ ظَلَمُوا بِرُومٍ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بضعِ سنينَ لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرْحُ الْمُؤْمِنُونَ»^(٥).

فلقد كان الصراع النفسي رهيباً في نفوس المسلمين بعد انتصار دولة الفرس الوثنية، على دولة الروم الكتابية، حيث فرح المشركون فرحاً عظيماً بانتصار الفرس، لأنهم أهل وثنية، وقد بنوا على هذا الانتصار الذي حققه الفرس أمراً آخر، هو أنهم سوف ينتصرون على المسلمين؛ لأنهم أهل وثنية كما أن الفرس أهل وثنية،

(١) «مناهل العرفان» ٢/٢٦٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٨.

(٣) مباحث في إعجاز القرآن، ص ٢٥٩، بتصرف.

(٤) البرهان في علوم القرآن، الزرقاني، ٢/٢٦٥.

(٥) سورة الروم، آية: ١-٤.

والمسلمون أهل كتاب كما أن الروم أهل كتاب، ولكن الله أنزل سكينة على المسلمين بنزول هذه الآيات التي كانت برداً وسلاماً على قلوبهم، فربطت جأش الأفتدة الوجلة، وجعلت نشوة النصر تتقاذف بين حنايا النفوس المؤمنة.

ولكن أبت نفوس المشركين الدنيئة تصديق هذه البشارة السماوية، التي زفها جبريل - عليه السلام - إلى محمد ﷺ وأتباعه، فضربوا الرهان بينهم وبين صديق هذه الأمة أبي بكر - رضي الله عنه - حول وقوع هذه البشارة، حتى كان ذلك الموعد المرتقب، فحقق الله بشارته في بضع سنين، وكانت الدائرة على الفرس ودولتهم، وبذا تحقق هذا الغيب المستور الذي كشفه الله لنبيه ﷺ قبل بضع سنين من وقوعه^(١).

ولقد انطوت الآيات الكريمة على بشارة أخرى غير تلك البشارة الظاهرة التي خرج بها المؤمنون، وذلك في قوله تعالى: «فِي بُضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»^(٢).

وكان ذلك اليوم المقصود هو يوم الانتصار العظيم في غزوة «بدر الكبرى» يوم الفرح الحقيقي، فقد ظهر للمسلمين، أن الفرح المقصود هو فرحهم بانتصار الروم على الفرس، ولكن تعاقب الليالي والأيام قد كشف ذلك الغيب المستور الذي تحقق يوم الانتصار في غزوة «بدر الكبرى» وكانت تلك هي الفرحة المقصودة في الآيات الكريمة^(٣) أو هو يوم الحديبية كما ذكرت بعض التفاسير. وكان القرآن الكريم قد أنبأ بها قبل حين، فدل وقوعها، وتحقيقها على صدق نبوته - ﷺ - وأن هذا القرآن ليس

(١) انظر «مناهل العرفان»، ٢/٢٦٥، «لباب النقول» ص ١٦٨.

(٢) سورة الروم، آية: ٤-٥.

(٣) انظر: «مناهل العرفان» ٢/٢٦٥-٢٦٦ وانظر تفسير القرآن العظيم ٣/٤٣٧.

بكلام مفترى وإنما هو تنزيل من حكيم حميد.

ب - ومنه أيضاً قوله تعالى: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ»^(١).

قيل لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به، وأنزل الله هذه الآيات^(٢).

ج - الإخبار بأحداث البعث والنشور وأحوال القيامة، وتعد من أمور الغيب التي أطلع الله - سبحانه - نبيه محمد ﷺ عليها، وقد حوى القرآن الكريم منها الشيء الكثير، مما يعطي المؤمن صورة كاملة لأحداث ذلك اليوم العظيم من ذلك قوله تعالى: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٣).

د - ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من ظواهر علمية، وكونية، لم يتحقق الإنسان من وجودها، أو لم يعرفها إلا بعد مضي قرون طويلة على نزول ذكرها في القرآن الكريم، فكانت تلك الظواهر من الغيب المستور الذي جلاها الله لنبيه ﷺ في كتابه الكريم.

من ذلك مثلاً ما أخبر الله تعالى به من أطوار خلق الإنسان، منذ أن كان منياً يميناً

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥١.

(٢) «أسباب النزول»، ص ٩٢، ٩٣.

(٣) سورة الزلزلة، آية: ٨-١.

إلى أن أصبح إنساناً كاملاً يتولى عمارة هذه الأرض، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك السر الدفين الذي ما تكشف للإنسان إلا بعد تطور العلم ورقبه.

قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (١).

فهذه أطوار خلق الإنسان أخبر الله بها في كتابه العزيز، في عصر لم تعرف فيه الآلة ولم يكن للعلم فيه مكان؛ وعندما ارتقى العقل البشري، وكُشف له من الغيوب ما شاء الله، ظنت العقول الملحدة أنها أول من كشف هذه الحقيقة العجيبة، فكان كتاب الله شاهداً على أنه من لدن علام الغيوب، الذي أخبر بهذه الحقيقة وغيرها كثير قبل قرون عديدة.

وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن :

مما لاشك فيه أن حدوث هذه الأمور الغيبية التي أخبر بها القرآن الكريم على لسان محمد ﷺ سواء كانت من تلك الغيبات الغائرة في بطن التاريخ وتراكم عليها غبار السنين، واندثرت أخبارها، أو من تلك الغيبات التي انطوت عليها النفوس، وغيبتها الضمائر، أو من تلك الغيبات التي كانت لانزال في رحم الأيام؛ فأخبر بها القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ وكان ﷺ يخبر بها وهو في حال الوائق المتيقن من الأمر وصحته، وهو بشر لم يطلع على أخبار السابقين، ولا يملك من تصريف أمور المستقبل شيئاً، وكان ﷺ ينفي عن نفسه الكرمية علم الغيب، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٢).

(١) سورة المؤمنين، آية: ١٢-١٤.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٨.

فلو لم يكن الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام مستنداً إلى ركن قوي ما أطلق مثل هذا القول^(١)، وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع، على أن هذا القرآن من لدن حكيم خبير، الذي يعلم الخبء في السموات، والأرض، ولو كان من وضع محمد ﷺ لكشفت لنا الأيام وضعه، وبوقوع ما أخبر به على خلاف ما ذكر، ولتبين كذبه وادعائه، ولكن حاشاه - ﷺ - من الكذب على الله، قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»^(٢).

وهكذا «لا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبهاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه»^(٣).

ثالثاً: الإعجاز البياني:

١- تعريفه:

حينما نطلق لفظ «الإعجاز البياني» فإننا نقصد به ذلك الوجه من الإعجاز الذي ورد عليه أسلوب القرآن الكريم، واجتمعت آراء السلف على اختلافها وتعدد آرائها على القول بإعجازه^(٤).

وكان هذا الوجه من الإعجاز هو الذي أنطق ألسنة الكفرة بقول الحق، إذ قالوا فيه ما قالوا حين اعترتهم نشوة الإعجاب بهذا البيان الخلاب.

(١) «مباحث في إعجاز القرآن» ص ٢٦٢، ٢٦٣، بتصرف.

(٢) سورة الحاقة، آية: ٤٤-٤٦.

(٣) «بيان إعجاز القرآن» ص ٢٥.

(٤) انظر: «الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق»، عائشة عبدالرحمن، ص ٦٩، دار المعارف، مصر.

فهذا زعيم قريش ورأس الكفر فيها، الوليد بن المغيرة يقول: «فيما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم؛ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً يعطوكه لثلاث تأتني محمداً فتعرض لما قاله. قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له. قال: «أما والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه، وإنه ليحطم ما تحته...»^(١).

فلو أن هذا القرآن غير فصيح، أو كانت فصحاته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم لما نال منهم على الدهر منالاً، ولخلا من موضعه الذي هو فيه^(٢). وقد اجتمعت الأمة على القول بهذا الوجه من الإعجاز لما له من العذوبة في حس السامع والهشاشة في نفسه، وما يتجلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام^(٣). وسوف أتناول فيما يلي قبسات من نور إعجازه أستضيء بها في مسيرتي.

أ- حروف القرآن:

«القرآن الكريم يتخير حروف الكلمة، وينتقي أصواتها، صافية الذوق في مخارجها لذيدة السماع، طيبة المجرى على لسان، معتدلة في تأليفها، خفيفة في

(١) «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي، ١١٧/٢، عالم الكتب، بيروت.

(٢) «إعجاز القرآن» الرافعي، ص ١٦٠.

(٣) «وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن»، د. محيي الدين رمضان، ص ٢٣، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار الفرقان، عمان، الأردن.

الفم، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمنه من المعاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة^(١). وقد كانت حروف القرآن، ووقعها المميز تخالغ شغاف القلوب فتؤثر فيه تأثيراً عجيباً، بغض النظر عن سماعها مسلم أو غير مسلم، عربي أو غير عربي.

فقد روي أن نصرانياً مرَّ بقارئ، فوقف يبكي، فقيل له: مِمَّ بكاءك؟ قال: الشجا والنظم^(٢).

إذاً فقد استهوى هذا الأسلوب ذو الوقع المميز قلوب الناس جميعاً. ولا تعرف سرَّ ذلك، إلا إنه الإعجاز.

انظر إلى دقة القرآن الكريم في استعمال تلك الألفاظ المعبرة، الموحية المثقلة بالمعاني الجليلة، انظر إلى كلمة (تؤزهم أزا) في قوله تعالى:

«أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا»^(٣).

تؤزهم أي تدفعهم، وتزعجهم^(٤). فهذا في معنى تهزهم هزاً؛ والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصوا هذه المعاني بالهمزة، لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد تهز مالا بال له، كالجذع، وساق الشجرة، ونحو ذلك^(٥).

(١) «من أسرار التعبير في القرآن: حروف القرآن» د. عبدالفتاح لاشين، ص ٤٣، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

(٢) «الفوائد المشوق» ص ٢٤٩.

(٣) سورة مريم، آية: ٨٣.

(٤) «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب»، أبي حيان الأندلسي، ص ٣٢، تحقيق: سمير مجذوب، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

(٥) «الخصائص» لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد النجار، ١٤٦/٢، ط ٢، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ومن ذلك أيضاً كلمة (فشدوا) في قوله تعالى:

«فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ»^(١).

فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت، أول انجذاذ الحبل قبل استحكام العقد، ثم يليه لإحكام الشد، والجذب، وتأريب العقد، فيعبر عنه (بالدال) التي هي أقوى من الشين، لاسيما وهي مدعمة، فهي أقوى لصنعتها، وأدل على المعنى الذي أريد بها^(٢). والشدة تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النفس^(٣).

وهكذا، فالحرف الواحد من القرآن معجزة في موضعه؛ لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها؛ ليمسك بها الآية، والآيات الكثيرة. «وهذا هو السر في إعجاز جملته، إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة، ما أنزله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض»^(٤).

ب- ألفاظ القرآن الكريم :

إن الألفاظ ضمن الأسلوب البياني الرائع، ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته، وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته، ويساعد بعضه بعضاً في المعاني العامة للأسلوب، والعبارات الجامعة^(٥).

يقول «الجاحظ»: (وقد يستخف الناس ألفاظاً، ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك

(١) سورة محمد، آية: ٤.

(٢) «الخصائص» ١٦٣/٢.

(٣) «بصائر ذوي التمييز» ٣٠٢/٣.

(٤) «إعجاز القرآن» الرافعي، ص ٢١١.

(٥) «المعجزة الكبرى» ص ١٠٤.

منها، ألا ترى أن الله - تبارك وتعالى - لم يذكر في القرآن الجوع، إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة، والسلامة.

وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامه، وأكثر الخاصة، لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث.

ولفظ القرآن الذي عليه نزل، أنه إذا ذكر الأبصار، لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والمجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء، أنه لم يجد ذكر لفظ «النكاح» في القرآن، إلا في موضع التزويج^(١).

فهذا هو الإعجاز في استعمال الألفاظ، حيث تأتي اللفظة مثقلة بكل المعاني المقصودة، ولا يقوم غيرها مقامها. وللمفردة القرآنية ميزات ثلاث رئيسية هي:

- ١- جمال وقعها في السمع.
- ٢- اتساقها الكامل مع المعنى.
- ٣- اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني، والمدلولات^(٢).

- فلنرى كيف يستعمل القرآن ألفاظه، لتؤدي المعنى المراد، الذي يحتوي النفس البشرية، فيفرغ فيها كل ما يراد به، وهو في أوج فصاحته، وبلاغته.

(١) «البيان والتبيين» الجاحظ، ١٨/١، ١٩٦٨م، دار الفكر للجميع.

(٢) «الإعجاز في نظم القرآن»، د. محمود السيد شيخون، ص ٧٧، ط ١، ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م، دار التراث العربي للطباعة، «التعبير الفني في القرآن» ص ١٨١.

من ذلك استعماله للفظه: (الأجداث):

قال تعالى: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ» (٦) خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» (١).

وقال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» (٢).

وقال تعالى: «وَقَدْ رَهِمَ يَخْرُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ» (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوْفِّضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» (٣).

سئل ابن عباس عن قوله تعالى: (الأجداث) فقال: هي: القبور.

والقرآن قَصَرَ (الأجداث) في آيات ثلاث على المخرج إلى الحشر يوم القيامة، وكلها كذلك في سياق الوعيد، والنذير للمكذبين باليوم الموعود. وهذا الملحظ الدلالي يفرق بين الأجداث في الاستعمال القرآني، وبين القبور التي تأتي بدلالة عامة في سياق البعث. في قوله تعالى: «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (٤).

وقوله تعالى: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» (٥). وقوله تعالى: «أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ» (٦).

(١) سورة القمر، آية: ٨-٦.

(٢) سورة يس، آية: ٥١، ٥٢.

(٣) سورة المعارج، آية: ٤٢-٤٤.

(٤) سورة الحج، آية: ٧.

(٥) سورة الانفطار، آية: ٤.

(٦) سورة العاديات، آية: ٩.

لفظة (القبور) في هذه الآيات جاءت بدلالة عامة للإنسان.

وتأتي في سياق مضجع الموتى قبل البعث والنشور، في مثل قوله تعالى: ﴿قَتَلَ
الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ
يَسِرُّهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)﴾ (١).

وقوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ
إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنَ فِي الْقُبُورِ (٣)﴾.

ومنها (المقابر) في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٤)﴾.

فلاحظ أن القرآن قد استخدم لفظة (الأحداث) بدلالة قرآنية إسلامية، على
مخرج الجاحدين، المكذبين، الملعونين، إلى يومهم العسر الذي كانوا به يوعدون (٥).

ولنتجه إلى آية أخرى نجد فيها الكلمة تدل على معنى لو غيرت بغيرها مما يكون
في معناها ظاهراً، مرادفاً لها بادئ الرأي، لا يمكن أن يؤدي المعنى الذي يشرق منها،
ويجتمع به في الدلالة صورة اللفظ، وإشراق المدلول، قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا
تَنَفَّسَ (٦)﴾، فإننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية.

فالكلمة الأولى (الصبح) تدل على النور الذي يتخلل الظلمة، ويسري فيها شيئاً
فشيئاً، وينبعث في هذا الوجود، فيملؤه نوراً، وتنبعث من بعده الحياة، ويخرج الناس

(١) سورة عبس، آية: ١٧-٢٢.

(٢) سورة التوبة، آية: ٨٤.

(٣) سورة فاطر، آية: ٢٢.

(٤) سورة التكاثر، آية: ١-٢.

(٥) «الإعجاز البياني للقرآن» ص ٤٥٣-٤٥٥.

(٦) سورة التكوثر، آية: ١٨.

إلى معاشيهم بعد سبات الليل وسكنه، وما يغشى به الكون من لباس الظلمة. ولا شك أن كلمة (الفجر) قد تدل على بعض معاني كلمة الصبح والعلماء يعدونها من المترادفات، ولكن عند التحقيق نجد كلمة (الفجر) تدل على معنى شق الظلمة، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة، ولذلك يقترن بها ذكر الليالي، كما قال تعالى: «وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)». (١). فقد كان ذكر الليالي مع الفجر متناسباً؛ لأن الليل متأخّر مع الفجر في معناه، وقصد به مجرد نهاية الليالي.

ولكن كلمة (الصبح) لوحظ فيها الإشارة إلى ابتداء النهار، فإذا كان وقت الفجر، والصبح واحداً، فإن الفجر فيه بيان انتهاء الليل، والصبح ابتداء النهار، ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر، ولا يقال طلع الصبح، بل يقال أشرق الصبح، وهنا نجد أن المعنى واحد في الجملة، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة، فهذا إشراق وذلك انتهاء.

والكلمة الثانية (تنفس) فإن كلمة التنفس في ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئاً؛ ذلك لأن أصل التنفس من النفس، وهي الحياة، وهي أيضاً الريح، وهي الحركة الدائمة المستمرة، في الداخل، والخارج، فهي تشمل ما يدخل في النفس من أسباب الحياة، وما يخرج منها لتستمر الحياة، ويقال نفس عني، أي فرج عني، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معانٍ تتصل بالحياة الدائمة المستمرة: أولها: التنفس بمعنى الحياة، وثانيها: حركتها، واستمرارها، ثالثها: تدرجها في الظهور شيئاً فشيئاً.

(١) سورة الفجر، آية: ١-٣.

ولو أنك وضعت كلمة (أشرق) بدل (تنفس) كأن يقال: ولكلام الله تعالى المثل الأعلى - والصبح إذا أشرق، أو أصبح أو أثار، أو أضاء. فإن كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس، ولا تغني غناها. وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كل كلمة في حيزها، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها^(١).

وهكذا تقلب، نظرك في آيات الله فلا يزيدك ذلك إلا إيماناً بها، كل حرف فيها، وكل لفظة، قد اختيرت من بين ألفاظ اللغة كلها، لحكمة عظيمة؛ إذا أمعن الإنسان فيها النظر تجلت فيها تلك الأسرار الإلهية، التي انتقت كلمة بعينها لإيضاح معنى بعينه، فسبحان الله، وتعالى جده، قد أنزل القرآن فأبدعه، ومن الدلائل والأسرار بالشيء العظيم أودعه.

ج - الجملة القرآنية:

تتكون الجملة في اللغة العربية من مجموعة من الألفاظ المترابطة، التي تشير إلى معنى من المعاني، وحينئذ تسمى كلاماً.

وبما أن أسلوب القرآن الكريم في أعلى درجات الفصاحة، والبلاغة؛ لذا فقد جاء خالياً من كل الأمور المخلة بالفصاحة.

يقول «عبدالقاهر»: (إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.

ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك، وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها

(١) «المعجزة الكبرى» ص ١١٢-١١٤.

تثقل عليك وتوشح، في موضع آخر^(١).

إذاً «دراسة الجملة القرآنية، تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة القرآنية؛ لأن هذه أساس الجملة، ومنها تركيبها، فالجملة في القرآن، تجدها دائماً مؤلفة من كلمات، وحروف، وأصوات، يستريح لتألفها السمع، والصوت، والنطق، ويتكون من تضامها نسق جميل، ينطوي على إيقاع رائع، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة، أو حرف، أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال^(٢).

وصدق الله القائل: «الْأَرْكَانُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»^(٣). فسبحان الله الذي تجلت عظمته في كل آية من آيات كتابه، قال فأحكم، وتحدي فأعجز.

انظر إلى قوله تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^(٤).

إن هاتين الآيتين الكريميتين، تصوران رجلاً آتاه الله تعالى العلم بالآيات الموجبة التصديق بالحق، وأن هذه الآيات أحاطت بقلبه ونفسه، حتى لا مناص من إنكارها كما يحيط الإهاب بالجسم، ولكنه ترك الأخذ بالهدى استجابة لداعي الشيطان، وصار من الضالين، الذين أغواهم إبليس اللعين، فكان مثله كمثّل من ينسلخ عن

(١) «دلائل الإعجاز في علم المعاني» للإمام عبد القاهر المجراني، ص ٣٦-٣٨، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) «الإعجاز في نظم القرآن» ص ٨٦.

(٣) سورة هود، آية: ١.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٧٥-١٧٦.

الإهاب الذي لبسه، ولصق بجسمه، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كوبة الضلال بما آتاه الله تعالى من علم، ولكن هو الذي انحط إلى الأرض ونزل إليها، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائماً، إن ترك يلهث، وإن حُمِلَ عليه يلهث. ولننظر في الكلمات التي تشتمل عليها هذه الآيات:

الكلمة الأولى: انسلخ. وانسلخ: نزع جلد الحيوان، يقال: سلخته فانسلخ، ووضع هذه الكلمة في ذلك النص الكريم، له معنى لا يوجد في لفظ غيره. وهو يشير إلى أن البينات، والآية المعلمة للحق، أحاطت به، ولصقت بنفسه، واتصلت بعقله، اتصال إهاب الحيوان بلحمه، ولكنه انسلخ من هذه البينات. والانسلخ يكون بمعاناة، وعنف، فكان هذا التصوير لإثبات أن الكفر ضد الفطرة، وأنه يحتاج إلى معاناة للنفس، ومقاومة لدواعي الهدى، ولكنها لا تكون إلا اتباعاً لهوى الشيطان.

الكلمة الثانية: أتبعه الشيطان، أي: لحقه الشيطان؛ ووضع هذه الكلمة في هذا الموضع له وضع بلاغي عميق، ففيه إشارة إلى أن الشيطان إنما يلاحق الذين يتركون الآيات، ولا يعملون على الأخذ بموجب البينات، فأول دركات الضلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق، مع قوة سلطانها، وإذا تركها فإن الشيطان يلحق به، ويأخذه إلى آخر غيات الضلال، وإذا وصل إلى هذه الدرجة كان من الغاوين.

الكلمة الثالثة: أخلد إلى الأرض. ومعنى أخلد إلى الأرض ركن إليها، يحسب أن الركون إليها يجعله خالداً، ويجعله باقياً مستمراً، وهو يريد البقاء على أي صورة، وأن مقابلة هذه الكلمة، بقوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها) أي بالبينات، يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع، والضعفة بدل الرفع.

ويكون في هذا إثبات أن الرفع تكون بطلب الحق، والإيمان، والاستجابة لبيناته،

وعدم الانخلاع من موجبها، وكل هذه المعاني تشرق من مقابلة الارتفاع، بالإخلاد إلى الأرض.

الكلمة الرابعة: فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فإن أحسن أحوال الكلب، أن يكون منه اللهث في كل أحواله، فإنه يكون مكروباً دائماً، وقد ذكر القرآن الكريم حال من ينسلخ من الهداية إلى الغواية، بأنه يكون في حال هياج نفسي مستمر، لا يستقر على قرار، ولا يسكن على حال، إذ أن الهداية إيمان، والإيمان اطمئنان، وقرار.

ومن يكفر بالله، وينسلخ عن هدايته اتباعاً لهواه، يكون في لهج مستمر، فيكون كالكلب في أحسن أحواله، وأذلها، إن هُيج لهث، وبدت صورته شوهاء، وإن سكت عنه بدا على هذه الصورة.

ونرى من هذه الآية، وما سبقها، كيف يكون كل لفظ مؤدياً معنى خاصاً يقصد، ويعطي صورة من البيان لها أطياف كأطياف صورة التصور الحسية، التي تصورها يد صناع لمصور ماهر - ولكلام الله تعالى المثل الأعلى - ومن مجموع هذه الصور المتكونة من الكلمات تكون صورة كلية يتمثل فيها أعلى صورة للبيان^(١).

ولقد كانت هذه الطريقة المعجزة التي نزل بها القرآن هي السبب في حفظ العربية، واستخراج علومها، وما كان أصل ذلك إلا التحدي بها، فإن من حكمة هذا التحدي أن يدعوهم إلى النظر في أساليبه، ووجه نظمها، وتدبر طريقته، وأن يرووا^(٢) أنفسهم منها، ويزنوها به، حتى إذا استيقنوا العجز، وأطرقوا عليه، كان ذلك سبباً لمن

(١) «المعجزة الكبرى» ص ١١٤، ١١٧.

(٢) الروز: الامتحان والتقدير، يقال: رُزْتُ ما عند فلان: إذا اختبرته وامتحنته، مادة روزا، لسان العرب.

يخلفهم على اللغة إلى استبيانه وجوه الإعجاز، فكشف لهم عن فنون البلاغة، وتأدت بهم إلى حيث بلغوا من تتبع كلام العرب، والاستقصاء فيه، والكشف عن محاسنه، وأعزى بعض ذلك من بعضه، وأعان كل على كل، حتى اجتمعت المادة، وتلاحقت الأسباب، ولولا ما صنعوا، لخرج الناس إلى العجمة، ولذهبت هذه الآداب ولما بقي في الأرض إلى اليوم من يقول «إن القرآن معجز»^(١).

ولنأخذ الآن بعضاً من الصور البلاغية الرائعة التي تضمنتها آيات الذكر الحكيم، والإحاطة تعجزنا، وتخرج بالبحث عن مساره، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

من روائع البيان القرآني :

أولاً: التشبيهات :

يشتمل القرآن الكريم على كثير من التشبيهات المختلفة، التي يوردها لتثبيت المعنى المراد في النفوس، فمن ذلك مثلاً:

١- قوله تعالى: «خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ»^(٢).
فقد شبه الناس في وقت البعث المنتشر، بالفراش المبعوث؛ لأنه يومئذ يموج بعضهم في بعض^(٣).

٢- قوله تعالى: «فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»^(٤).

(١) «إعجاز القرآن» الراجحي، ص ٢٣٩.

(٢) سورة القمر، آية: ٧.

(٣) «الجمان في تشبيهات القرآن» أبو القاسم عبدالله بن نايف البغدادي، ص ٢٧٧، تحقيق: مصطفى الصاوي الجويني، مطبعة الجيزة، الإسكندرية، مصر.

(٤) سورة الرحمن، آية: ٣٧.

الانشقاق: انفكاك ما كان على شدة الالتئام، فالسماء تنشق، وتصير حمراء كالوردة، ثم تجري كالدهان. وقيل في قوله «فكانت وردة كالدهان» أي كلون فرس ورد^(١).

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ ^(٢).

يعني قوماً من المنافقين كان النبي ﷺ إذا أمرهم بالقتال، وأن يستعدوا له، نظروا إليه شاخصة أبصارهم، ومتغيرة ألوانهم، فشبههم في خوفهم من الحرب بالخائف من الموت، أي: ينظرون إليك يا محمد إذا أمرتهم بأخذ الأهبة للحرب، كما ينظر المغشي عليه من الموت. وهذا التشبيه أبلغ في وصف الخائف من جميع الأوصاف، وأوقع التشبيهات لمثل هذا الحال^(٣).

ثانياً: الاستعارات :

١- من ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ^(٤).

فقد تضمنت هذه الآية استعارات رشيقة:

الأولى منها استعارة «القرية» للأهل.

والثانية استعارة «الذوق» في اللباس.

(١) الجمان، ص ٢٩٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ١٩.

(٣) الجمان، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٤) سورة النحل، آية: ١١٢.

والثالثة استعارة - اللباس - في الجوع.

والرابعة استعارة - اللباس - في الخوف.

فهذه الاستعارات كلها متلازمة، وفيها من التناسب مالا خفاء به، لما ذكر الأمن، والرغد، من الرزق، أردفه بما يلائمه من الجوع، والخوف.

والإدافة، لما في ذلك من البلاغة. وهذا النوع يسمى الاستعارة المرشحة، وهو أن يأتي بالاستعارة عقيب الاستعارة لها بالأولى علاقة، ومناسبة^(١).

٢- من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٢).

فالاستعارة رائقة، استعار مد العين لإحراز محاسن الدنيا والشغف بحبها، والتهالك في جمع حطامها، والشح بما ظفر به منها وبين المد اللين، وهذه الأشياء من الملائمة، والتناسب مالا يخفى على أهل الكياسة. و(زهرة الحياة الدنيا) فاستعار الزهرة لما يظهر من زينة الدنيا ورونقها وإدراك لذاتها كالزهر إذا تفتح وأعجبت غضارته وحسن بهجته^(٣).

ثالثا: الكفايات :

١- ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٤).

(١) «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التنزيل» يحيى بن حمزة العلوي، ٢١٢/١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) سورة طه، آية: ١٣١.

(٣) الطراز، ٢٣٩/١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٤.

فيه كناية عن ألا تعاندوا عن ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة^(١).
وبعد.. فهذا فيض من غيض من بلاغة القرآن، وإعجازه التي ليس في مقدور
العقل البشري الإحاطة بها واشتمالها.

فقد أعجزت بلاغته العلماء، وحرار فيها المفكرون والبلغاء؛ فهو معجزة باقية أبد
الدهر، ناطقة بجلال الله وقدرته، يعقد اللسان، وتحار الأذهان، قبل الإحاطة
بعجائبه، وكشف سرائره؛ فلا أملك تجاه هذا البيان المعجز إلا أن أرفع قلمي مسبحاً
بعظمة من أنزل هذا البيان، وليشهد كما شهد الزمان، بعجز الفصحاء، وتساقط
البلغاء أمام أبواب حروفه، وكلماته وآياته وصدق الله القائل:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾^(٢).

(١) «البرهان» الزركشي: ٣٠٢/٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٢.

الفصل الثاني

قضية البعث

أولا : حقيقة البعث .

ثانيا : طرق عرض القرآن لقضية البعث .

ثالثا : الدراسة البلاغية للآيات .

قضية البعث

أولاً : حقيقة البعث والدليل عليه :

« أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان ؟ أرحام تدفع وأرض تبتلع ، ولا شيء بعد هذا ؟ أو كما عبر القرآن عن قوم : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » (٣٧) » (١) .

إذن فما سر هذا الشعور الخفي ، والوجدان الكامل الذي يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة ، ولتلك المدة القصيرة ؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان في هذه الدنيا غريب وعابر سبيل ، وأنه ضيف يوشك أن يرحل إلى دار إقامة ؟

هذا الشعور الذي رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا - استجابة له - جثث الموتى ، وبنوا الأهرام ، والذي ظهرت آثاره في أم شتى بأساليب مختلفة (٢) . وكانت عقيدة التناسخ عند الهنود محاولة أخرى للفرار من فكرة الفناء الأبدي بالموت .

وأطال الفلاسفة الأقدمون التأمل في الكون ، والفساد فظهر القول بخلود الروح ، تعزية لهذا الإنسان عن بلى جسده .

(١) سورة المؤمنون ، آية ، ٣٧ .

(٢) « الإيمان والحياة » - د . يوسف القرضاوي - ص ٣٣ - ط ٧ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م - دار غريب للطباعة - القاهرة - .

على حين اتجه الشعراء ، وأصحاب الفن إلى التماس العزاء في بقاء ما يُخلَقون، ويبدعون ، بعد أن يرحلوا عن الدنيا إلى غير عودة أو مآب (١) . هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، والمنبعث في جميع الأنفس ، عالمها وجاهلها ، وحشيها، ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يُعدَّ ضِلَّةً عقلية، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع (٢) .

« وقد تبدو الحياة مخيفة موحشة ، إذا انتهت إلى عدم محقق ، يصير الإنسان فيه إلى حيث أنه لم يكن ، حين يشعر الفرد أن عمره على هذا الكوكب الأرضي قصير ، وأيامه في هذا العالم الفاني محدودة ، ورغبته في أن يعيش رغبة فطرية ، وحاجاته على الأرض لا تنقضي ، وآماله غير محدودة ، ولكنه يموت !! يموت وفي نفسه حاجات ، ويترك على الأرض آماله ، كما يترك من خلفه أعزاء يفجعه أن يفارقهم ، ويفجعهم أن يغيب فهلاً كان لقاء بعد ذلك المغيب ؟ » (٣) .

وتبدو الحياة قاسية ، يسودها الظلم ، والطغيان ، والاستبداد كالغابة المظلمة التي تسود فيها الوحوش ، ويضام فيها الضعيف ويقام على أنقاض جسده عرش للقوى ، إذا لم يكن هناك معاد .

فحين « ينظر الإنسان ، ويرى الخير والشر يصطرعان ، ويشهد معركة الرذيلة، والفضيلة - أو ما يعتقد رذيلة وفضيلة - والشر عارم ، والرذيلة متبجحة ، وكثيراً ما

(١) « القرآن وقضايا الإنسان » - عائشة عبد الرحمن - ص ١٥٣ - ط ٥ - ١٩٨٢م - دار العلم

للملايين - بيروت - لبنان .

(٢) « الإيمان والحياة » ص ٣٤ .

(٣) « مشاهد القيامة في القرآن » - سيد قطب - ص ١٣ ١٤٠٨ هـ - دار الشروق - القاهرة - بيروت -

بتصرف - .

ينتصر الشر على الخير وتعلو الرذيلة على الفضيلة – والفرد في عمره المحدود – لا يشهد رد الفعل ، ولا يرى عواقب الخير والشر « (١) فهاً كانت هنالك كرة يلقي فيها الشر جزاءه ، وينتصر فيها الخير ، وينال الفضلاء الخيرون من أهل الإيمان ما يستحقونه من علو وكرامة ؟ ثم هل يكون مصير هذا الجنى الإنسانى الذى عمّر الأرض ، وصنع فيها ما صنع ، كمصير أية حشرة أو دابة أو زاحفة حياة قصيرة محدودة ، لا يتم فيها شيء كامل أبداً ! ثم ينتهى كل شيء إلى الأبد ؟ (٢) .

« لقد عزّ عليه أن يكون مصيره هو هذا المصير البائس المهين » (٣) ويكون الله قد خلق الدنيا عبثاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – إذا لم يكن هناك ضابط لحياة الإنسان وأعماله على هذه الأرض ، هو تحقق وجود اليوم الآخر الذى يُعد الإيمان به ركناً أساسياً من أركان الإيمان ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) » (٤) .

وجاء عصر الرسالات الدينية المعروفة لنا ، والبشرية تناضل في سبيل استنقاذ إرادة الحياة من التدمير الذى يحقق بها إن هي استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتها رسالات الدين بحياة أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدّمت يدها في الحياة الدنيا . والبشرى مصحوبة بنذير ، وقد صكّ النذير سمع عبّاد الدنيا من عهد ما بعد الطوفان ، فاستهزؤا برسول الله إليهم : « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا

(١) « مشاهد القيامة في القرآن » – ص ١١ .

(٢) حتى الحشرات والدواب يقع بينها القصاص يوم القيامة كما نطقت بذلك السنة .

(٣) « مشاهد القيامة في القرآن » – ص ١٢ .

(٤) سورة الدخان ، آية ، ٣٨ .

تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ١ . لكن البشرية المتدنية وجدت في البشرى بحياة ثانية بعد الموت ، ما يغريها بمواصلة الكفاح ، ويقوي عزيمتها في الصراع بين الخير والشر ، ومي يعطي حياتها الأولى الفانية ، معنى وقيمة تستحق من أجلها أن تعاش (٢) . ويجد فيها المؤمن عزاءً روحياً ، فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة (٣) . ويكون باعثاً على العمل الصالح ، وترك الفواحش ، والمنكرات ، والبغى والعدوان ، وكان جلُّ مشركي العرب ينكرونه أشد الإنكار ، أما أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب ، وتشريع ديني ، ومدني ، ثم فقدت كتبهم ، وجزءاً يختلفون في صفتيهما لا في أصليهما ، ولكن إيمانهم هذا قد شابه الفساد بينائه على بدع ذهبت بجل فائدتها في إصلاح الناس . وأساسها عند الهنود ، وغيرهم من قدماء الوثنيين ، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين ، هو وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ، ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي . وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ، وإدعاء محابة الله تعالى لهم على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونهم إله إسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين . ديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ، ومعرفته ، ومحتاجاً إلى الإصلاح مثله .

وجاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح ، فأعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول (٤) .

(١) سورة المؤمنون ، آية ، ٣٣ .

(٢) القرآن وقضايا الإنسان - ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) المعجزة الكبرى - ص ٤١٥ .

(٤) الوحي الحمدي - محمد رشيد رضا - ص ١٧٥ - ط ١٠ - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م . المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق - مع بعض التصرف .

والإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، ودل عليه العقل والفطرة السليمة فأخبر الله - سبحانه - عنه في كتابه ، وأقام الدليل عليه ، وردّ على المنكرين ، في غالب سور القرآن وفي الأحاديث النبوية الشريفة منها ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : أراه يقول الله « شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ، وكذبني وما ينبغي له أما شتمه فقول له إنني ولي ولدأ ، وأما تكذيبه فقل له : ليس يعيدني كما بدأني » (١) .

والأنبياء - عليهم السلام - كلهم متفقون على الإيمان بالله ، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب ، إلا من عاند كفرعون وغيره من المعاندين . بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإنه منكريه كثيرون ، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بُعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفى ، يُنْ تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء من قبله (٢) .

وكانت قضية البعث ، والحساب ، وإعادة الحياة إلى الموتى ، بعد تفتت تلك الأجساد ، واختلاطها بأجزاء الأرض ، من معضلات العقيدة شأنها في ذلك شأن قضية الوجدانية ، في الغرابة والاستبعاد ، وقد اقتضى هذا الاستبعاد تعجب المنكرين للبعث ، ووقوعه ، ممن يقولون ويؤمنون به (٣) .

(١) صحيح البخاري - أبي عبد الله البخاري بشرح الكرمانى ١٣/١٥٣ - ط ٢ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٢) انظر « شرح الطحاوية في العقيدة السلفية » - علي بن محمد بن أبي العز الحنفى - تحقيق ، د . عبد الرحمن عميرة - ج ٢ - ١٧٠/٢ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م - مكتبة المعارف - الرياض .

(٣) « منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان » - د . علي بن محمد بن ناصر الفقيهى - ص ٢٨٩ - ط ١ - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

فهذا أبي بن خلف يأتي إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة المكرمة ، ومعه عظم بال يفتته ، ثم ينفخ رماده على وجه رسول الله ﷺ ثم يقول : يا محمد أترى ربك يحيي هذا بعدما رمّ وبلي ؟ فقال ﷺ : « نعم ويعثك ويدخلك النار » فأنزل الله تعالى خواتيم سورة « يس » (١) : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) » (٢) .

وقد كثرت شبه منكري البعث وتولي القرآن الرد عليها بما لا يدع معه مجالاً للشك ، ومن شبه منكري البعث قولهم : أينقلب التراب إنساناً ، بأن يقال له كن ؟ أو بأن تمهد أسباب انقلابه في هذه الأدوار ؟ وأسبابه هي إلقاء النطفة المستخرجة من لباب بدن الإنسان في رحم ، حتى يستمد من دم الطمث الغذاء مدة طويلة حتى يتخلق مضغة ثم علقه ، ثم جنيناً ثم طفلاً ، ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً . فقول القائل : يقال له : كن فيكون . غير معقول ، إذ التراب لا يخاطب وانقلابه إنساناً دون تردده في هذه الأطوار ، محال ، وتردده في هذه الأطوار دون جريان هذه الأسباب محال ، فيكون البعث محالاً .

يقول « الغزالي » في رده على هؤلاء : «أنا نُسَلِّم أن الترقى في هذه الأطوار ، لا بد منه . حتى يصير بدن إنسان ، كما لا بد منه حتى يصير الحديد عمامة ، فإنه لو بقي حديداً لما كان ثوباً ، بل لا بد أن يصير قطناً مغزولاً ثم منسوجاً ، ولكن ذلك في لحظة أو في مدة ممكن . ويقول : إنما النظر في أن الترقى من هذه الأطوار يحصل

(١) « أركان الإيمان » - وهبي سليمان غوجي الألباني - ص ٣٦٦ - ط ١ - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
مؤسسة الرسالة . وانظر « أسباب النزول - أبي الحسن النيسابوري - ص ٣٧٥ - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة . والحديث أخرجه ابن أبي حاتم ، قاله ابن كثير في تفسيره ، ٣ / ٥٨١ ، وأخرجه الحاكم في المستدرک ، ٣ / ٤٢٩ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ولم يخرجاه .

(٢) سورة يس ، آية ، ٧٨ - ٧٩ .

بمجرد القدرة من غير واسطة أو بسبب من الأسباب وكلاهما ممكنان عندنا .
ونقول ذلك يكون بأسباب ، ولكن ليس من شرطه أن يكون السبب هو هذا المعهود ،
بل في خزانة المقدورات عجائب وغرائب ، لم يُطْلَع عليها ، ينكرها من يظن ، أن لا
وجود إلا لما شاهده .

بل لو لم ير إنسان المغناطيس ، وجذبه للحديد ، وحُكي له لاستنكره ، وقال:
لا يتصور جذب الحديد ، إلا بخيط يشدُّ ويجذب ، فإنه المشاهد في الجذب ، حتى
إذا شاهده تعجب منه ، وعلم أن علمه قاصر ، عن الإحاطة بعجائب القدرة .

وكذلك الملاحدة المنكرون للبعث والنشور ، إذا بعثوا من القبور ، ورأوا
عجائب صنع الله تعالى فيهم ، ندموا ندامة لا تنفعهم ، ويتحسرون على جحودهم
تحسراً لا يغنيهم ، وقال لهم : « هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » (٢١) . (١)

فليس يتفكر المنكر للبعث ، أنه من أين عرف انحصار أسباب الوجود ، فيما
شاهده ، ولم يعد أن يكون في إحياء الأبدان ، منهاج غير ما شاهده ، وقد ورد في
بعض الأخبار ، أنه يغمر الأرض في وقت البعث مطر قطراته تشبه النطف ، وتختلط
بالتراب ، فأَيُّ بُعد في أن يكون في الأسباب الإلهية ، أمر يشبه ذلك ، ونحن لا
نطلع عليه ، ويقتضي ذلك انبعاث الأجساد واستعدادها لقبول النفوس المحشورة ،
وهل لهذا الإنكار مستند ، إلا الاستبعاد المجرد (٢) .

وقال ابن الوزير : من كفر لعدم إيمانه بإحياء الموتى ، فإنما كان سبب كفره

(١) سورة الصافات ، آية ، ٢١ .

(٢) تهافت الفلاسفة - محمد بن محمد أبو حامد الغزالي - ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ - باختصار - تحقيق :
سليمان دنيا - ط ٢ - دار المعارف بمصر .

متابعته مجرد استبعاد العقل لذلك (١) .

إذاً مصدر الشبه واحد وهو الاستبعاد ، فنرى أن هذه العقول المرتابة ، والمربطة ، بتجاربها اليومية ، لم تستطع بسهولة أن تؤمن بأن الجسم الذي تحلل تماماً في التراب (٢) . أو تفتت وطارت به الريح ، أو ذهب في بطون السباع ، أو ذاب في أعماق البحار ، أو أكلته النار ، يمكن أن يستعيد هيئته الأولى ، ويحيا من جديد . «وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أُنْتُنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (٤٩) (٣) .

وقد كان منشأ استبعادهم إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى ، ضيق عقولهم ، وقصور نظرتهم ، وقياسهم القدرة الإلهية المطلقة ، على العجز الإنساني المطلق (٤) .

وعلى هذه المعارضة البسيطة ، يُقدّم القرآن حجته الفاصلة ، التي يستقيها من كتاب الطبيعة المفتوح ، فيبرز أمام الأنظار آلاف المشاهد التي تظهر منها بوضوح قدرة الله الخارقة (٥) .

أدلة وقوع البعث :

إن قضية البعث إحدى قضايا العقيدة الإسلامية التي لقيت جدلاً شديداً في

(١) « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » - أبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني المشهور «بابن الوزير» - ص ١٤٧ - تصحيح «جماعة من العلماء» - ط ١ - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٢) « مدخل إلى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليلي مقارنة » - محمد عبد الله دراز - ص ٨٣ ، ٨٤ - ط ٢ - ١٣٤٩هـ - ١٩٧٤م - دار الفرقان .

(٣) سورة الإسراء ، آية ، ٤٩ .

(٤) « معالم الدعوة في قصص القرآن » - عبد الوهاب الديلمي - ١٩٨ - ط ١ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م - دار المجتمع - السعودية - جدة .

(٥) « مدخل إلى القرآن » - ص ٨٤ بتصرف يسير .

كل عصر ومع معظم الرسل عليهم السلام .

وهي غيب الله الذي يختص بعلمه . « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) » (١) . وكانت هذه القضية مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشرّكين ، مع بساطة هذه القضية ، ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر (٢) . وبما أن عقيدة البعث لبُ الإيمان ، وغاية من غايات الرسائل الإلهية ؛ لذا نجد أن القرآن الكريم يحتفي ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول إليه وما من موضع في القرآن الكريم إلا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه (٣) . وأثبت كتاب الإسلام ما كان من جدل الأولين في البعث ، وردّ عليه بالمنطق الذي يثبت النظر الحرّ والبصيرة المميزة ، والتأمل الواعي، دون أن يحتاج الإنسان فيه إلى ظروف خاصة ، أو وسيلة من وسائل المعرفة الكسبية(٤).

وسوف أذكر فيما يلي تلك الأدلة التي ساقها القرآن الكريم في مسار جدله مع المنكرين لإثبات حقيقة البعث .

أدلة القرآن في إثبات البعث :

للقرآن الكريم في إثبات الآخرة طريقان عقليان :

أحدهما مباشر :

١ - بيان إمكان البعث والنشور .

- (١) سورة الأحزاب ، آية ، ٦٣ .
- (٢) « اليوم الآخر في ظلال القرآن » - أحمد فائز - ٢٤ ، ٢٦ - ط ٦ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- (٣) « المعجزة الكبرى » - ص ٤١٦ .
- (٤) « القرآن وقضايا الإنسان » - ص ١٦٠ ، ١٦١ .

٢ - إخبار الأنبياء عن الحياة الآخرة ، بعد أن ثبت نبوتهم ، ويقوم الدليل عليه^(١) .

ولذلك كانت إقامة البراهين الكافية لإثبات البعث ، بما يدفع كل لبس وشبهة ، ويسقط معها كل جدال ، وامترأء^(٢) .

وقد كانت مشاهد الكون المنظور ، السماء ، الأرض ، الماء ، النبات ، الليل ، والنهار ، الدليل المباشر لتحقيق أغراض القرآن الكريم في هذا كله^(٣) ومن هذه الأدلة:

١ - قياس الإعادة على الابتداء قال تعالى : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »^(٤) . «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »^(٥) . « أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »^(٦) .

٢ - قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى نحو : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ »^(٧) . « لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

(١) « المشاهد في القرآن الكريم » - دراسة تحليلية وصفية - د . حامد قنيسي - ص ٢٤١ - ط ١ -

١٩٨٤م - مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن .

(٢) « معالم الدعوة في قصص القرآن » - ص ١٩٧ .

(٣) « المشاهد في القرآن الكريم » - ص ٢٤١ .

(٤) سورة الأعراف ، آية ، ٢٩ .

(٥) سورة الأنبياء ، آية ، ١٠٤ .

(٦) سورة ق ، آية ، ١٥ .

(٧) سورة يس ، آية ، ٨١ .

يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ، (١) .

٣ - قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر ، والنبات ، وهو في كل موضوع ذكر فيه إنزال المطر غالباً نحو : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ » ، (٢) .

٤ - قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر ، « الَّذِي جَعَلْ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ » ، (٣) .

٥ - قياس الحياة والموت ، على اليقظة والنوم ، « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ » ، (٤) .

٦ - قياس الإعادة على إحياء الموتى في الدنيا :

١ — « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ » ، (٥) .

ب - قصة أصحاب موسى « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَاذَارَاتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ » ، (٦) .

ج - قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

(١) سورة غافر ، آية ، ٥٧ .

(٢) سورة الروم ، آية ، ١٩ .

(٣) سورة يس ، آية ٨٠ ، « البرهان » للزركشي : ٢٦ / ٢ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ، ٦٠ .

(٥) سورة البقرة ، آية ، ٧٣ .

(٦) سورة البقرة ، آية ، ٧٢ ، ٧٣ .

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾» (١).

د - قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾» (٢).

هـ - سؤال إبراهيم ربه عن كيفية إحياء الموتى «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَكَّلْ عَلَيَّ وَلَكِنْ لَيْظْمَنُ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾» (٣).

و - قصة أصحاب الكهف (٤).

أما الدليل الثاني على إثبات حقيقة البعث :

فهو غير مباشر ، يتمثل في تصوير واستعراض مشاهد القيامة ، غير ملتفت إلى

(١) سورة البقرة ، آية ، ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية ، ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية ، ٢٦٠ .

(٤) الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره - د . محمد أحمد يوسف القاسم - ص ٤٣٥ ، ٤٣٧ - ط ١ - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، « مناهج الجدل في القرآن الكريم » - د . زاهر الألمي - ص ٣٠٥ ، ٣٠٧ - ط ٢ - ١٤٠٠ هـ - مطابع الفرزدق ، وانظر : « الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان » - محمد سعيد البارودي - ص ١٢٨ - ١٣٦ - ط ١ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م - دار الوفاء - المملكة العربية السعودية - جدة .

المنكرين وإن كان المقصود في النهاية التأثير عليهم ، فهو يرسم صورهم هم أنفسهم في العذاب يوم القيامة وكأنها تقول لهم : أنتم تكذبون بالبعث والحساب ؟ إذا فانظروا إلى أنفسكم في مرآة العذاب إنكم هؤلاء في جهنم !! (١) .

« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) » (٢) . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) » (٣) .

ثانياً : طرق عرض القرآن لقضية البعث :

حوى القرآن الكريم من الأساليب كل ما يتغلغل إلى أعماق النفس ، ويأخذ بمجامع القلب فيجعل كل خلية في النفس متهيئة لاستقبال ما يُرسل إليها من القيم ، والمثل ، والعبادات ، والاعتقادات ، بكل لهفة وشوق .

فها هو ذا يعرض قضية البعث بطرق شتى ليدخل من كل طريق إلى النفوس المنكرة لهذه القضية ، ويوقظ فيها تلك الحقيقة التي أنكرتها النفوس المريضة ، وغطى الران على قلوبهم فلم يعودوا يبصرون إلا ما أحاط بقلوبهم من أدران الشرك ، وبرائن

(١) « دراسات قرآنية » - محمد قطب - ص ٦٩ ، ٧٣ .

(٢) سورة الذاريات ، آية ، ١٠ - ١٤ .

(٣) سورة الطور ، آية ، ٧ - ١٦ .

الانحطاط البشري ، لذا فقد سلك القرآن في إثبات هذه القضية مسالك شتى لمعالجتها .

فهو تارة يعرض شبهة المنكرين ثم يرد عليها ، وأخرى يذكر الدليل على البعث أولاً ، وبعد أن يتقرر ، ويتضح ، يورد القضية ، وحيناً آخر يخبر عن وقوع البعث والجزاء خبراً قاطعاً مع طي الدليل لوضوحه ^(١) . وسوف أعرض لكل طريقة على حدة ، ثم أتناولها بالبحث ، والتفصيل ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً .

الطريقة الأولى : عرض الشبهة ثم الرد عليها :

لقد كانت قضية البعث قضية بالغة الصعوبة على عقول المشركين ؛ لذا ركز عليها المشركون معارضتهم ، وسخريتهم ، وشبه المنكرين للبعث ترجع كلها إلى أصل واحد ، وهو استبعاد عودة هذه الأجسام إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن تبلى وتصير تراباً ^(٢) .

والذي جعل تصور البعث أمراً مستحيلًا في نظر مشركي العرب ، وغيرهم من منكري البعث هو قصور عقولهم ، وانحطاط أفكارهم ، عن استيعاب مثل هذا الأمر العظيم ، على تلك العقول ، التي أبلاها وأفسد قواها ، سجون أصحابها للحجارة ، والتي أصبحت عقولهم ، وقلوبهم في صلابتها ، وتحجرها .

فقد تفتقت هذه الأذهان ، وهي ساجدة لمن لا يستطيع أن يخلق ذبابة ، ولا في مقدوره أن يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً أصاب عبأداها . حتى وقر في نفوسهم مدى عجز هذه الآلهة التي هم لها ساجدون ، وقاسوا قدرة الله العظيمة بعجز هذه الآلهة ،

(١) « منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان » - ص ٢٩٣ .

(٢) المرجع السابق .

فأنكروا وقوع البعث .

فحين جاء محمد ﷺ يدعوهم إلى عبادة إله واحد ، مالك السموات ، والأرض ، ومن فيهن ، القادر على كل شيء ، عجزت تلك العقول المريضة عن تصور مدى هذه القدرة العظيمة على إحياء الموتى ، فكانوا لها منكرين ^(١) ، وأوردوا لإنكارهم شبهاً مختلفة عرض لها القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ثم تولى دحض هذه الشبه بالرد عليها بالأدلة الحسية ، والأدلة العقلية .

وسوف أتناول تلك الآيات بالدراسة ، حسب ترتيب سورها في القرآن الكريم فمن ذلك قوله تعالى : « وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَازَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) » (٢) .

يخبر الله تعالى في هذه الآيات ، عن حال أولئك الكفار الذين أنكروا البعث بعد الموت ، وقالوا ليس هناك حياة بعد حياتنا الدنيا هذه ، ولسنا بمبعوثين وليس هناك حساب ، ولا عقاب ، ولا ثواب ، وذلك الإنكار راجع إلى فساد أصاب فطرتهم ، وضيق هوى بعقولهم إلى مستنقعات الجاهلية ، حتى صدأت ، ولم تعد قادرة على تصور إمكان عودة هذه الأجساد إلى حياة أخرى تُحاسب فيها على صغيرة وكبيرة .

ثم يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ

(١) « معجزات قلب القرآن » - هاشم محمد سعيد دفتر دار - ص ١٨٨ - ط ٢ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

- دار الشروق - جدة .

(٣) سورة الأنعام ، آية ، ٢٩ - ٣١ .

وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾» (١)، وهذه نقلة رهيبة ، تصور مجادلة هؤلاء المنكرين للرسول ﷺ في أمر البعث ، وفيما نحن ننتظر الرد على أسئلتهم هذه ، إذ به ينتزع هؤلاء المنكرين من موقف الجدل إلى موقف الحساب الأخرى ، فهو لم يخض معهم في جدل ذهني عقيم ، بل وضعهم في معركة حسية ، واقعية ، وهذا أبلغ رد . فهاهم أولاء واقفون بين يدي ربهم — عز وجل — وهو تعالى يسألهم « قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ » (٢) أليس هذا هو البعث ، والنشر ، الذي أنكرتموه ؟ .

فيجيبونه بكل ذلة وانكسار : « بَلَىٰ وَرَبَّنَا » (٣) ، أي نعم هذا ما كذبنا به قد كان حقاً . فيقول لهم المولى سبحانه : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » (٤) ، أي فذوقوا عذاب هذا اليوم الذي كنتم به تكذبون . ثم يعقب المولى — سبحانه — على خسارة ، وضياح ، وهلاك ، من كذب بعودة أخرى ، بعد هذه الحياة يكون فيها الحساب ، والجزاء ، وما يتبعه من جنة ، أو نار ، فحينئذ يتحسرون على ما فرطوا في دنياهم ، ولكن ولات ساعة مندم ، فهاهم ترج بهم أوزارهم في النار . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » (٥) .

ومنه قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

(١) سورة الأنعام ، آية ، ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام ، آية ، ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ، ٣٠ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ، ٣٠ .

(٥) سورة الأنعام ، آية ، ٣١ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ (١).

يخاطب المولى - سبحانه - في هذه الآية ، نبيه محمداً ﷺ حيث يذكر إنكار هؤلاء المشركين للبعث ، والنشور ، بصيغة جديدة ، تضيفي معالم الحسن ، والجمال ، في أساليب القرآن ، بريقاً ، وبهاء ، فالإنكار يرد على صيغة تعجب من إنكارهم هذا ، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : إن كنت تعجب يا محمد من عبادة هؤلاء المشركين لهذه الأصنام من دون الله ، وإن كنت تعجب من تكذيبهم بالمعاد بعد أن رأوا آيات قدرة الله ، في الآفاق ، وفي أنفسهم ، فالعجب من قولهم ، أنى يعيدنا الله إلى حياة جديدة بعد أن نصبح تراباً ؟

ثم لا يتولى الرد على هذا القول ، بقول مثله ، وإنما يصورهم في مشهد من مشاهد العذاب ، بعد أن يعثهم الله - تعالى - فإذا الأغلال في أعناقهم ، وإذا هم في النار يسحبون ، لا مخرج لهم منها ، ولا مفر (٢).

ومنه قوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لَيَبْئِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهم كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) » (٣).

تبدأ هذه الآيات ، بإنكار المشركين ، ليوم البعث ، فهامهم أولاء يلقون بالآيمان

(١) سورة الرعد ، آية ، ٥ .

(٢) انظر « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١٣ / ٦٩ ، ٧٠ ، « تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان » - نظام الدين النيسابوري - هامش الطبري - م ٧ / ج ١٣ / ٦٦ ، تفسير القرآن العظيم ، ٥١٩ / ٢ .

(٣) سورة النحل ، آية ، ٣٨ - ٤٠ .

الغليظة ، أنه لا بعث بعد الموت ، وهذا أسلوب آخر من أساليب عرض القرآن لأقوال المنكرين ، قد جاء في هذه الآية على صورة القسم ، ثم تولى المولى - سبحانه - الرد عليهم ، بقوله « بلى » أي سوف تبعثون ، وهذا وعد قطعه صادق الوعد على نفسه ، ولكن هؤلاء المنكرين لا يعلمون ؛ لفرط جهلهم ، وقصور عقولهم ثم وضع لهم - سبحانه - الغاية من ذلك اليوم الذي فيه يبعثون حتى يبين لهم هذا الأمر ، الذي كثر فيه اختلافهم ، وحتى يوقن الكافرون أنهم كانوا كاذبين في حلفهم هذا ، وكاذبين في تكذيبهم للنبي ﷺ وإنكارهم للبعث ، والحساب ؛ لأن أمر البعث هين على الله العظيم ، الذي تجلى كمال قدرته ، وعظيم سلطانه في كلمة « كُنْ فَيَكُونُ »^(١) ومنه قوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) »^(٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، يورد المشركون ، شبهتهم في أمر البعث ، ويتعجبون من عودتهم إلى الحياة ، بعد أن يصبحوا عظاماً ورفاتاً ، وأجزاء متناثرة . وهذا هو تقرير الشبهة فكيف يعودون بعد ذلك أحياء من جديد .

فيرد المولى - سبحانه - على هذه الشبهة بقوله : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً »^(٣) ، أي إن كنتم تظنون أن الله لا يقدر على إرجاعكم إلى الحياة وأنتم عظام ورفات ، وهو أقرب شيء إلى الحياة ، فكونوا أبعد ما يكون عن الحياة ، وهو الحجارة

(١) انظر « تفسير جامع البيان » - ٧ م / ج ١٣ / ٧٢ ، ٧٣ ، « تفسير القرآن العظيم » - ٢ / ٥٩٠ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ، ٤٩ - ٥٢ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ، ٥٠ .

أو الحديد ، فسيعيدكم الله ، بقدرته إلى الحياة مرة أخرى ، بل كونوا أكبر ما تظنون في نفوسكم أنه أبعد عن الحياة ، أو أبعد عن قدرة الله على إعادتكم ، فإذا قلت لهم هذا القول يا محمد ، فيسردون عليك ، ويقولون : إذا أصبحنا كما تقول ، فمن يعيدنا إلى الحياة؟ فقل لهم : إن الذي أوجدكم من العدم ، وخلقكم ، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، لهو قادر على إعادة الحياة إليكم ، وسوف يتعجبون من قولك هذا ، ويحركون ووسهم عجباً من قولك ، ويسألونك عن هذا الموعد ، فقل لهم : عسى أن يكون قريباً ، فمهما طالبت بكم الحياة ، أو طال بقاء رفاتكم تحت التراب ، فالموعد قريب ، يوم يأمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور ، فليس لكم في ذلك الوقت إلا الاستجابة والتسبيح بحمد الله وتظنون أن بقاءكم كان في الحياة الدنيا قليلاً ، فكأن الدنيا إلى الآخرة لم تكن إلا هذا الزمن اليسير ^(١) .

ومنه قوله تعالى في ذكر قصة صاحبي الجنتين الكافر ، والمؤمن : « وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) » ^(٢) .

فقد دخل الكافر إلى بستانه وهو ظالم لنفسه ، بكفره ، وعناده ، وتكذيبه بالمعاد ، ومغترب بزخارف الدنيا الزائلة ، فلما رأى الزروع ، والثمار ، والأنهار ، في

(١) انظر « تفسير الفخر الرازي » - المشتهر بـ « التفسير الكبير ومفاتيح الغيب » - للإمام محمد الرازي فخر الدين - م ١٠ / ج ٢٠٤ / ٢٢٨ - ٢٢٨ - ط ١ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - دار الفكر - لبنان - بيروت .

(٢) سورة الكهف ، آية ، ٣٥ - ٣٨ .

حديقته ، أنكر قدرة الله العظيمة على الإحياء بعد الموت .

وقال إن كان هناك معاد ، فإن الله سيهيني خيراً من هذا ؛ لأنه ما أعطاني هذه ، إلا وهناك أحسن من هذا الحظ لي عند ربي ؛ لكرامتي عنده .

فأجابه المؤمن ، بإنكار شديد ، لما وقع منه من كفر ، وتكذيب ، قائلاً له : كيف تنكر قدرة الله على البعث ، وقد خلقتك من تراب ، ثم جعلك نطفة ، وتدرج في خلقتك ، حتى أصبحت رجلاً سوياً لكني لا أقول مثل مقولتك الفاسدة هذه ؛ لأنني أعلم بقدرة الله ، وعظيم سلطانه ، وأعبد وحده ، ولا أشرك به شيئاً ^(١) .

ومنه قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّيْتُكَ لِنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) » ^(٢) .

يورد المولى - سبحانه وتعالى - في هذه الآيات ، شبهة المنكرين للبعث على صورة حكاية لقولهم ، على وجه الإنكار ، والاستبعاد ، لعودتهم أحياء بعد أن يصبحوا أمواتاً .

فيرد الله تعالى عليهم بقوله : أو لا يذكر هذا الإنسان الذي استبعد وقوع البعث ، أنا خلقناه ابتداءً ، وهو لم يكن شيئاً ؟ فالعودة عليه من شيء أهون من الخلق من لا شيء - والكل عند الله هين - ولكن الظالمين لا يعلمون .

ويقول « الفخر الرازي » في تفسيره ، لهذه الحجة ، التي رد الله بها على

(١) انظر « تفسير القرآن العظيم » ٣ / ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) سورة مريم ، آية ، ٦٦ ، ٧٠ .

المنكرين للبعث : قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث ، على هذا الاختصار لما قدروا عليها (١) .

ولما قرر — سبحانه وتعالى — المطلوب ، أردفه بالتهديد في قوله : « فورك لنحشرنهم » .

فيقسم — جل ثناؤه — على حشرهم جميعاً ، وحشر شياطينهم الذين أغوهم معهم ، ثم يأمر بإحضارهم حول جهنم ، وهم في أذل صورة ، وأحقرها ، جاثون على ركبهم ، وهذه صورة العاجز الذليل ثم يخرج زعماء الكفر ، وأشدهم تكدياً وكفراً ويذيقه عذاباً أشد وأمر من عذاب أتباعه (٢) .

وهذا الرد كافٍ على أولئك المنكرين وأبلغ ، فهاهو ذا يذيقهم أشد أنواع العذاب وصنوفه ، في رده على تعجبهم واستنكارهم من أمر البعث .

ومنه قوله تعالى : « أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَ هِيَ لَمَّا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيعُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدُ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) » (٣) .

في هذه الآيات يورد المولى — سبحانه — حكاية قوم صالح — عليه السلام — فقد كذبوا بقاء الله ، وأنكروا البعث ، وشبهتهم التي غشيت أبصارهم ، فأعمت

(١) « التفسير الكبير » - م - ١١ / ج ٢١ / ٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٢) انظر « المرجع السابق » ص ٢٤٣ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية ، ٣٥ - ٤١ .

قلوبهم عن الحق ، أنهم كغيرهم من المنكرين استبعدوا عودتهم إلى الحياة ، بعد أن يصبحوا رميماً ، وإذا بهم يسخرون بنبيهم - عليه السلام - ويقولون لقومهم : أبعادكم أنكم إذا متم وأصبحتم عظاماً رميماً ، تخرجون مرة أخرى إلى الحياة . ثم يؤكدون هذه الشبهة باستبعاد حصول البعث ، فيقولون : « هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ » فهم قد قرنوا هذه الشبهة بالاستبعاد العظيم ، ثم أرادوا التعبير عن استحالة هذا الأمر ، كما تصوره لهم عقولهم الصدئة ، فأكدوا هذه الشبهة بقولهم : ليس هناك حياة أخرى إنما هي حياة واحدة لا ثاني لها ، هي الحياة الدنيا ، يعيش فيها أناس ، ويموت فيها آخرون ، وليس هناك عودة بعد رحيل ، ولا بعث بعد موت .

ولم يجب الله - تعالى - عن هذه الشبهة العظيمة لظهور بطلانها ، ومعلوم فسادها ، ولكنه توعدهم بالعذاب الشديد ، العاجل قبل الآجل ، فكان غضب الله الذي وقع في دنياهم ، أن أخذتهم الصيحة حتى جعلتهم كغشاء السيل ، بسبب كفرهم ، وعنادهم ^(١) ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « بَلْ إِدَارِكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَأَنزَلْنَا كِتَابًا تَرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَتُنَادُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي

(١) انظر « التفسير الكبير » - م ١٢ / ج ٢٣ / ٩٦ - ٩٩ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٢٢٥ / ٣ ، « تفسير جامع البيان » - م ٩ / ج ١٨ - ١٥ - ٧ .

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) ، (١) .

في هذه الآيات الكريمة يبين المولى - سبحانه - مدى قلة علم هؤلاء المنكرين للبعث ، حين يرون ما يكذبون به في الآخرة ، وقد كانوا قبل شاكين في حقيقتها وكانوا في عماية ، وجهل بأمرها ، وكانوا يرددون شبهة خاسرة ، حين قالوا : كيف نعود إلى الحياة . بعد أن نفنى ، ونصير إلى العدم نحن ، وآباؤنا الأولون . وقد كان هذا الوعد ، من قبل في آبائنا ، وما رأيناه حقاً ، وصدقاً ، وما نظنه إلا من أساطير الأمم السالفة ؟ !!

ثم يأمر المولى - سبحانه - نبيه ﷺ بأن يقول لهؤلاء المنكرين : سيروا في الأرض ، وتقصصوا أخبار من سبقكم من الأمم ، وكيف حل بهم عذاب ربهم حين كذبوا رسلهم ؟ ثم يسألني نبيه ﷺ بأن لا يحزن على هؤلاء المشركين المنكرين ، ولا يضيق صدره من تكذيبهم له .

وقد كان هؤلاء المشركون يسألون الرسول ﷺ عن وقت وقوع العذاب الذي وعدهم به ؛ لأنهم كذبوه ، كما فعلت الأمم السابقة برسلهم ، حينئذ يأمر المولى - سبحانه - نبيه ﷺ أن يقول لهم : لعل ما تستعجلون به قريب وقوعه ، ثم يذكّرهم بنعمة الله عليهم وفضله الذي هم عنه غافلون .

ثم يبين - سبحانه - مدى شمول علمه ، وإحاطته فهو الذي يعلم السر وأخفى لا يغيب عن علمه شيء في السموات ، ولا في الأرض بل كل ذلك في كتاب مبين لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (٢) .

(١) سورة النمل ، آية ، ٦٦ - ٧٥ .

(٢) انظر : « جامع البيان » - ١٠م / ٢٠ ج ٦ - ٨ ، تفسير « غرائب القرآن » - هامش الطبري - ١٠م / ٢٠ ج ٢٤ ، ٢٥ ، تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٣٨٤ - ٣٨٦ .

فأي جهل بعد ذلك ، في إنكار قدرته - سبحانه - على البعث ، والحشر ؟ وأي عقول تلك التي صدئت فليس لها تفكر ولا تدبر ؟

ومنه قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُّرِقٌ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) » (١) .

في هذه الآيات يعرض القرآن لقول من أقوال المنكرين للبعث ، فهو ينقل قولهم الذي رددته ألسنتهم الكاذبة حين أخذوا يسخرون من قول النبي ﷺ عندما أخبرهم بالبعث بعد الموت ، فقالوا لقومهم : هل تريدون أن ندلكم على رجل يخبركم أنكم بعد أن تصبحوا عظاماً بالية ، وأجساداً خاوية سوف تعودون إلى الحياة من جديد ؟ يعودون إلى أنفسهم ، ويتساءلون عن مدى توازن هذا الرجل العقلي هل هو كاذب يفترى على الله ، أم قد أصابه مس من الجنون ، فهو يقول ما لا يعلم - شرفه الله مما قالوا - فردَّ عليهم القرآن جواباً لهذه الشبهة ، بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة في الكفر البعيد الذي يفضي بهم إلى العذاب الأليم في الآخرة .

ثم عقب هذا التهديد بلفت أنظارهم إلى ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، وما يحيط بهم ، من سموات ، وأرضين ، فهي من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه ودليل على كمال قدرته ، لذا فهي دليل ساطع على قدرته على الإعادة والحشر ، ومن كمال قدرته ، وعظمته أنه لو شاء لحسف بهؤلاء المكذبين الأرض أو لأسقط عليهم قطعاً من السماء .

(١) سورة سبأ ، آية ، ٧ - ٩ .

ولعل في الكون المحيط بهم ، من سموات وأرضين دليل أكبر على أنه لا يعجزه - سبحانه وتعالى - شيء ، ولا يتعذر عليه فعل ما يريد (١) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) » (٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، يشير المولى - سبحانه - إلى شبهة مشركي العرب حول البعث ، فهم ينكرون العودة بعد الموت ، إنما هي موتة واحدة نموتها ثم لا عودة ، وليس هناك بعث ، ولا نشور . ثم يقولون : إن كان ما تقولونه حقاً ، وأن هناك حياة بعد الموت ، فأرجعوا آباءنا الذين سبقونا إلى الموت ، فإذا عادوا إلى الحياة كنتم صادقين . وهذه شبهة فاسدة ، لأن المعاد لا يكن في الحياة الدنيا ، وإنما يكون بعد انقضاء الحياة على الأرض .

ولم يرد عليهم القرآن لتفنيد هذه الشبهة ؛ لأنها باطلة أساساً ، وإنما لمس شغاف قلوبهم ، وأفزعهم حين ذكرهم بمصير قوم تُبْعِ ، وغيرهم من الأقوام السابقة ، الذين كذبوا رسلهم ، فجاءهم عذاب الله بغتة ، وهم لا يشعرون ، وهم يعرفون مثل هذه الأخبار ، لذلك لم يفصل المولى - سبحانه - في أحداث قصصهم ، إنما اكتفى

(١) انظر : « التفسير الكبير » - ١٣م / ج ٢٥ / ٢٤٣ - ٢٤٥ ، تفسير القرآن العظيم : ٥٣٤ / ٤ .

(٢) سورة الدخان ، آية ، ٣٤ - ٤٢ .

بالإشارة إليها ، أن مصير هؤلاء المنكرين من مشركي العرب ، قد يكون مثل مصير الأتوام السابقة إن هم استمروا على ضلالهم وتكذيبهم .

ثم ربطت الآيات بين البعث ، وبين حكمة خلق السموات ، والأرض ، وأنه سبحانه وتعالى منزّه عن اللعب ، والعبث ، فهو لم يخلق هذه السموات ، والأرضين ، عبثاً ، وإنما لحكمة عظيمة ، وتلك الحكمة تقتضي مجيء البعث بعد الموت ، لتتم حكمة الله وعدله ، ثم توعدهم الله — عز وجل — بيوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، ذلك اليوم الذي لا يغني فيه حميم عن حميم ، ولا هم ينصرون ، إلا من شملته رحمة الله (١) .

ومنه قوله تعالى : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) » (٢) .

يخبر تعالى في هذه الآيات ، عن شبهة الدهرية من الكفار ، ومن تابعهم من مشركي العرب ، فقد اتوا بشبهة فاسدة فقالوا : ليس ثمة من معاد ، إنما هي حياتنا الدنيا ، يموت قوم ، ويعيش آخرون ، وما يهلكنا إلا الدهر ، حسب ظنهم ، فقد أنكروا الإله ، وجعلوا إلههم الدهر ، فالأيام والليالي ، هي التي تمنحهم الحياة ، وتمنح آخرين الموت .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ١٥٥ ، ١٥٦ ، وفي ظلال القرآن ، ٥٤ / ٢٥ / ١٥ ، ٢٣ - ط ١٢ - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - دار الشروق - بيروت - القاهرة .

(٢) سورة المجاثية ، آية ، ٢٤ - ٢٦ .

وهذا ظن كاذب ، ليس له أساس من علم ، أو حقيقة ، وإنما هو شبهة فاسدة ، ظلتها عقولهم الضيقة ، وصدقتها نفوسهم المريضة .

وإذا تليت عليهم آيات القرآن ، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت ، أتوا بحجة واهية ، وقالوا : أعيّدوا آباءنا إلى الحياة إن كان ما تقولون حقاً !

فرد عليهم المولى - سبحانه - ببيان قدرته ، وعظيم سلطانه ، فهو الذي أحياهم ، بعد أن كانوا نطفاً ، وقبل أن يكونوا شيئاً ، ثم هو قادر أيضاً على جمعهم يوم القيامة ، الذي ليس في صدق وقوعه شك ، إلا لدي هؤلاء الكفرة المنكرين ، الذين لا يعلمون شيئاً ^(١) .

ومن ذلك أيضاً سورة « ق » ، فهي من أولها إلى آخرها ، تناقش قضية البعث ، وتورد شبهة المنكرين ، ثم تتولى تفنيد هذه الشبهة ، وتقرر حقيقة البعث ، بصورة عجيبة ، لا يملك الإنسان أمامها إلا سكب العبرات ، ورفع الدعوات ، إلى من بيده الأمر في ذلك اليوم أن يفرج كربته . فهو لم يدخل مع المنكرين في جدل ذهني عقيم ، بل أخذ يخاطب العقل تارة ، ويلمس شغاف القلوب تارة أخرى ، فيرى الإنسان نفسه وهو في سكرات الموت ، وأخرى والملائكة تسوقه إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، وتارة توقظ عقله ، ليتفكر فيما حوله من دلائل القدرة العظيمة ، وأخرى تعيده إلى الأزمان الغابرة ، ليطلع على أحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم ، وما حلّ بهم .

قال تعالى في معرض حديثه عن عجب المشركين من هذا النبي المرسل نذيراً للبشر ، ثم عجبهم من أمر البعث فقالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ١٦٣ ، « التفسير الكبير » - ١٤م / ج ٢٧ / ٢٦٩ - ٢٧١ ، « تفسير جامع البيان » - ١١م / ج ٢٤ / ٩١ - ٩٣ ، « الظلال » - ٥م / ج ٢٥ / ٣٢٢٢ .

بَعِيدٌ^(٣)»^(١)، فهذه هي شبهة المنكرين للبعث إذ حصرت عقولهم ، في مجالها الضيق ، الذي لا يتجاوز آذانهم ، وظنوا أن رجوعهم على الله بعيد .

فقالوا : أنبعث بعد أن نموت ، ونصبح أوصالاً قد تلاشت في التراب ؟ إن ذلك أمر مستحيل . ولعل هذه هي الشبهة التي يتمسك بها المنكرون في كل عصر ، حيث يقولون : إذا أكل الحيوان الإنسان واختلطت أجزاء الإنسان بأجزاء الحيوان . كيف يمكن أن يخرج ذلك الإنسان من الحيوان مثلاً ؟

ثم يتولى القرآن الكريم الرد عليهم ، وقرع حجتهم ، بحجة أعظم مما يظنون فليس البعث بأمر مستحيل على الله الذي يقول : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ »^(٤) ^(٢) . فعلم الله - تعالى - لا يُحد . يعلم بأجزاء كل إنسان ، لا يشبهه عليه جزء أحد مع الآخر ويعلم بما تأكله الأرض من أجسادهم ، وإلى أين ذهبت ، وأين صارت ؟ كل ذلك عند الله في كتاب شامل ، فيه يحفظ كل أمر بدقة ، وإتقان ، وسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض .

ثم أخذ المولى - سبحانه - يوقظ أذهانهم ، ويحرك قلوبهم ، ليتفكروا فيما حولهم من آيات عظام ، فهو يثبت البعث هنا . بالدليل الحسي الذي يقع تحت أبصارهم ، فقال تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ »^(٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٧) »^(٣) .

(١) سورة ق ، آية ، ٣ .

(٢) سورة ق ، آية ، ٤ .

(٣) سورة ق ، آية ، ٦ - ٧ .

فهذه السماء ليقبلوا فيها الأبصار ، ولينظروا كيف قدرة الله العظيمة التي هي أعظم مما ينكرونه ، وكيف تمثلت هذه الآية التي زينها الله بالكواكب ، فليس فيها شقوق ، ولينظروا إلى هذه الأرض التي فرشها ، ووسعها تحت أقدامهم ، وثبتها بالجبال لتلا تמיד بهم ، ثم أخرج منها جميع الزروع ، والثمار والنبات .

ثم تولى لفت الأنظار إلى مزيد من الآيات العظيمة في هذا الكون المحيط بهم، فقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾ (١) .

ومن عظيم قدرة الله - سبحانه - هذا الماء المبارك الذي ينزله بقدرته من السماء فنبت به الحدائق والبساتين ، والزروع ، والحب الحصيد ، والنخل الطوال الشاهقات ، التي لها طلع متراكب بعضه على بعض ، رزقاً للعباد ، وإشارة إلى أن كل هذا نعيم للعباد ، ومن فوائد هذا الماء المنزل من السماء أيضاً ، أن الله يحيي به الأرض الهامدة ، فتتهز وتعود إليها الحياة ، وكذلك الخروج .

وأمر البعث كهذا المثال الذي ضربه الله - عز وجل - فإخراجكم من قبوركم ، وبعثكم هو كإعادة هذه الأرض الميتة إلى الحياة مرة أخرى ، وهذه المشاهد دليل على قدرة الله ، وهي أعظم مما أنكروه من أمر البعث .

ثم ذكر الله - تعالى - لهؤلاء المنكرين ، قصص الأقوام السابقة ، مع أنبيائهم، وما حلَّ بهم من عذاب ، عندما كذبوا الرسل ، ثم قال تعالى : ﴿ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ (٢) .

(١) سورة ق ، آية ، ٩ - ١١ .

(٢) سورة ق ، آية ، ١٥ .

أي أن ابتداء خلق الخلق لم يعجزنا ، والإعادة بعد الموت علينا أسهل – والكل على الله هين – ثم تولت هذه السورة هزّ هذه النفوس من الأعماق ، فجعلت عليهم رقيباً حتى ما يخلو به الإنسان بينه وبين نفسه ، فالله به عليم ، حتى إذا جاء الموت وسكراته ، علم الإنسان لا مفر من الله إلا إليه ، قال تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) » (١) .

فحين ينزل الموت بالإنسان ، ويصارع سكراته ، ويدوق مرارته ، يعلم أن ذلك هو الحق الذي لا مفر منه ، ثم تنتهي حياة الإنسان ، ولكن القرآن لا يلين معه ، ولا يتركه يلتمس راحة بعد شدة الموت ، بل ينقله إلى موقف آخر ، هو أشد من الموت ، وهو النفخ في الصور ، حيث تُنصب الموازين ، ويبدأ الحساب ، والعقاب ، فذلك ما منه النفس تفرع ، والرأس منه يشيب .

ثم لا يتركه يستقر ليقبّل النظر في أهوال ذلك اليوم ، ولا يدع للنفس مجالاً للوقوف ، والانتظار ، فإذا به يصورها وهي تسعى يسوقها الشهيد ، الذي لازمها طول مدة إقامتها في الدنيا ، فيخاطبه القرآن الكريم ، في ثانيا هذا الكرب العظيم ويقول له : « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢) » (٢) .

أي أن أهوال هذا اليوم العظيم ، قد كنت عنها في غفلة ، ولكنك اليوم

(١) سورة ق ، آية ، ١٩ – ٢٢ .

(٢) سورة ق ، آية ، ٢٢ .

أبصرتها ، حين أزلنا ما على بصرك من غشاوة ، فهو اليوم قوي ، وقد كان قبل كليلًا.

ثم يأخذ القرآن الكريم ، بيد الكافر ، ويقذف به في النار ، من خلال كلماته ، ومشاهده العظيمة ، التي يسوقها فإذا به يُلقى في جهنم ، ويُصب عليه العذاب الشديد ، وما هو ذا المؤمن تقرَّب إليه الجنة ويتقلب في نعيمها ، وهو فيها من الخالدين .

ثم تقرر الآيات ، بعد هذه الرحلة العنيفة ، التي نقلت فيها الكافر ، والجاحد ، إلى عرصات القيامة ، حتى جفَّ منها الريق ، وارتعدت من حوله فرائصهما ، قرر بعد ذلك أمر البعث وحقيقته مرة أخرى فيقول تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » (٣٨) (١) .

فالقادر على خلق السموات والأرض ، وما عليه احتوت ، وما بين جنباتها ضمت ، ولم يعجزه من ذلك شيئاً ، لهو على البعث أقدر .

ثم تسمعهم الآيات في ختام السورة صوت المنادي ، وصدى صيحة الحق تتردد في مسامعهم ، فذلك اليوم هو يوم البعث ، والنشور ، تسمعنا فيه الآيات ، وترينا تشقق الأرض ، وخروج الأموات من جوفها ، سعيًا ، وذلك على الله يسير (٢) .

وبذا تنتهي السورة ، جاعلة هذا المنظر العظيم الذي يُصدِّع القلوب ، هو آخر لمساتها على هذه القلوب الجوامد .

(١) سورة ق ، آية ، ٣٨ .

(٢) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٢٣٦ - ٢٤٧ ، « التفسير الكبير » ١٤م / ٢٨ / ١٤٥ - ١٩٢ ، جامع البيان ، ١١م ، ١١ / ٩٣ - ١١٥ ، « الظلال » ٦م / ٢٦ / ٣٣٦٧ - ٣٣٥٦ .

قال تعالى : «وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) » (١) .

وهكذا تنتهي هذه الآيات العظيمة ، بعد رحلة عظيمة ، انتزعت فيها هؤلاء المنكرين للبعث من دواخل نفوسهم الكلييلة إلى معرض الحشر ، والشهيق ، والزفير ، وذهاب العقول ، فهزتهم هزاً ، ورجتهم رجاً ، ثم تركتهم صرعى بين يدي هذه السورة العظيمة التي ما وقف أمامها من له قلب سليم ، إلا ذرف الدموع ، وسمعت حشرة نفسه من مدى بعيد .

وكفى بها رداً على من أنكر البعث ، وفي أمره جادل ، ولو لم يحو القرآن من مشاهد القيامة إلا هذه السورة العظيمة لكفى بها على الخلق شاهداً ، ونذيراً ، نفعنا الله بما فيها من الحق العظيم .

ومن ذلك ما ورد في سورة الواقعة ، في معرض الحديث عن صفات النار ، ذكر من هذه الصفات قوله تعالى : « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَأَنْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمُبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَيَمْلَأُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نَزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ

(٢) سورة ق ، آية ، ٤١ - ٤٥ .

بِمَسْبُوقِينَ (٦٥) عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٨) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الزَّارِعُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٧٠) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٧١) بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ (٧٢) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٧٣) أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنزِلُونَ (٧٤) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٥) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧٦)
أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٧) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقَرَّبِينَ (٧٨)
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٩) ۝ (١)

فهذه شبهة المنكرين يذكرها القرآن الكريم ، إذ استبعدوا فكرة عودتهم إلى
الحياة بعد أن يصيروا تراباً ، واستبعدوا كذلك عودة آبائهم الأولين ، فذلك أمر
عجيب فما كان من المولى – جلّت قدرته – إلا أن دحض هذه الشبهة ، بتأكيد
جمعهم ومن كان قبلهم ، ومن سيكون بعدهم . في ذلك اليوم المعلوم ، ثم إن مصير
هؤلاء المكذبين إلى نار الجحيم ، طعامهم فيها شجر الزقوم ، وشرابهم فيها الحميم ،
وهذا هو حق ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم . وبعد هذا التقرير ، يورد المولى –
جلّت قدرته – دليلاً يثبت قدرته على البعث من أنفسهم ، فالله هو الذي خلقهم من
قبل ، من هذا المنى ، ثم يتساءل – جلّت قدرته – على وجه التقرير ، من خلق هذا
المنى ؟ أ هم هؤلاء المنكرون ، أم الله العظيم ؟

ثم يبين – عز وجل – حكمته التي جعلت لكل شيء قدراً ، فقدر بينهم
الموت ، وجعل لهم أجالاً محدودة ، وما ذلك على الله بعزيز ، وإن شاء أبدلهم بقوم
آخرين ، ثم ينشئهم فيما لا يعلمون من الصفات ، والأحوال ، وكان هذا هو ابتداء

(١) سورة الواقعة ، آية ، ٤٧ – ٧٤ .

خلقهم أول مرة ، فهلا تتذكرون ، وتعرفون أن الذي لم يعجزه إيجادكم من قبل ، لن تعجزه إعادتكم بعد ذلك ؟ ثم تأخذ الآيات في ذكر عدد من أدلة القدرة الإلهية الماثلة في الآفاق ، فهذا الزرع الذي يحراثون ، من الذي ينبتة ؟ هم ، أم الله القدير ؟ ولو شاء الله لجعله حطاماً لا فائدة منه قبل استوائه ، واستحصاده ، فحيثذ سوف تنوعون في كلامكم ، واستفساركم عن سبب ذلك ، فتارة تقولون : إنا مغرمون ملاقون للشر ، لا ينتج لنا مال ولا ربح ، وتارة تقولون نحن محرومون . ثم ألا ترون هذا الماء الذي تشربون ؟ من الذي أنزله من المزن ؟ أنتم أم الله الواحد القهار . فلو شاء الله لجعله مالحاً لا يصلح للشرب ولا للزرع ، فهلا تشكرون نعمة الله عليكم ؟ ثم هذه النار التي توقدون ، وتقذحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ، من الذي أوجد شجرها ؟ أنتم أم الله ، الذي جعل فوائدها عظيمة ، لا يستغني عنها الحاضر ولا الباد ؟

ثم تختتم هذه النعم الجليلة بالأمر بتنزيه الله – جلّت قدرته – الذي خلق هذه الأشياء المتضادة وجعل فائدتها للخلق جليلة ، معاشاً لهم في دنياهم ، وتذكيراً لهم بآخرتهم (١) .

أليس الذي جعل هذه النعم العظيمة سهلة ، ميسرة على الإنسان بقادر على إعادتكم للحياة ؟ بلى وذلك على الله يسير .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) » (٢) .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٣١٦ - ٣١٨ .

(٢) سورة القيامة ، آية ، ٣ - ٦ .

في هذه الآيات الكريمة ، يذكر المولى - سبحانه - شبهة المنكرين للبعث ، في أسلوب جديد حيث ذكر هذه الشبهة في صورة استفهام ، وتعجب من هؤلاء المنكرين ، الذين يرون استحالة عودتهم إلى الحياة ، بعد أن يصبحوا عظاماً رميمًا .

فيردُ الله على تعجبهم ، بتعجبه - سبحانه - من مقولتهم هذه ، فيقول : أيعظن هذا الإنسان أننا لن نستطيع جمع عظامه يوم القيامة ؟ بل نحن قادرون على ما هو أعظم من ذلك ، فلو شئنا لبعثناه ، وجعلنا أطراف أصابعه مستوية كخف البعير ، هذا على أحد الأقوال ، وبه قال « ابن عباس » ^(١) ، وقيل : أي نضم أصابعه وهي أصغر وألطف شيء في شكل الإنسان الخارجي ، ونعيدها كما كانت ، على أدق صورة وألطفها ^(٢) ثم يعقب المولى - سبحانه - بذكر أسباب إنكار هؤلاء المشركين للبعث ، فمنها يرجع إلى اتباع الهوى والشهوات ، حيث قال المولى - سبحانه : « بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » ^(٣) . وهو إنكار من أنكر المعاد اتباعاً للهوى ، والشهوات ، فهو مسترسل في ملذاته الدنيوية الرخيصة ، ينكر البعث ، والمعاد ، حتى لا يتغص عليه الاستعداد للبعث ، والإقرار بوقوعه ، ملذاته الجسمانية .

فهو يسأل في استهزاء ، وسخرية « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٤) .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » ٤ / ٤٧٨ . هناك بعض التفاسير تذكر أن المقصود من هذه الآية ، هي تسوية بصمات الإنسان ، حيث اكتشف العلم الحديث أن لكل إنسان بصمات يتسجل أن يشبه فيها مع إنسان آخر ، فالله قادر على توحيد تلك البصمات . انظر : « التبيان في علوم القرآن » ص ١٣٥ ، « صفوة التفاسير » ، محمد علي الصابوني ، ٣ / ٤٨٤ - ط ٣ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م - طبع في ألمانيا الغربية - شتوتغرات .

(٢) انظر : « روح المعاني » ، ٥ / ٢٩ ، ١٣٧ .

(٣) سورة القيامة ، آية ، ٥ .

(٤) سورة القيامة ، آية ، ٦ .

وقد أعرض القرآن عن تقرير البعث بالجدل الذهني ، وسرعان ما اختطف هذا المنكر إلى عرصات القيامة ، قال تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) » (١) .

ففي ذلك اليوم الرهيب ، تخشع الأبصار ، وتحار من هوله الألباب ، حيث يذهب ضوء القمر ويجمع الشمس والقمر ، فحيثذ يولول الإنسان ، ويقول : أين المفر ؟ فلا عاصم له ذلك الوقت ، وليس هناك ملجأ إلا الله - سبحانه وتعالى - .

ثم يأخذ القرآن الكريم ، في عرض أطراف من مشاهد ذلك اليوم العظيم ، ففريق في الجنة ، وفريق في السعير .

وقبل أن يختم القرآن هذه السورة ، يوقظ في الإنسان مراكز التفكير ، والتدبر؛ لينظر إلى نفسه ، ويرى دلائل قدرة الله ، فقال تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) » (٢) . أو ليس الذي خلق هذا الكون العظيم ، بقادر على أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى (٣) ؟ بلى ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « يَقُولُونَ أَأَنْتَ لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَأَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نُخْرَجُ (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ

(١) سورة القيامة ، آية ، ٧ - ١٢ .

(٢) سورة القيامة ، آية ، ٣٦ - ٤٠ .

(٣) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٤٧٧ - ٤٨٢ ، « التفسير الكبير » ٥ / ٢١٤ - ٢٣٤ .

بالسَّاهِرَةِ (١٤) ، (١) .

يذكر المولى - سبحانه - في هذه الآيات ، شبهة المنكرين للبعث ، إذ كانوا يستبعدون عودتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد أن يموتوا ، ويصبحوا عظاماً ناخرة قد أبلتها الدهور ، وقالوا : إن كان أمر البعث حقاً ، فقد خسرنا خسراناً عظيماً .

فرد الله تعالى عليهم ، بأن الأمر عليه هين ، فإنما هي صيحة واحدة ، يأمر الله - تعالى - ملائكته بها ، فإذا هؤلاء المنكرون في أرض المحشر ، ينتظرون أمر ربهم .

وبعد هذه الخطفة السريعة ، التي نقلت هؤلاء المنكرين ، من مقام الجدال إلى معاناة الحقيقة ، والواقع ، يذكر لهم حجة أخرى هي أشد بيانا على صدق وقوع البعث ، قال تعالى : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) » (٢) . فقد أخذ القرآن يلفت أنظارهم إلى عظام الكون ، المحيطة بهم ، ويدلل على حقيقة البعث ، وصدق وقوعه ، بأدلة حسية لا تفارق حواس منكريه ، فلينظروا إلى هذه السماء العظيمة ، كيف جعلها الله عالية البناء وزينها بالكواكب ، وجعل فيها ليلاً مظلماً ، ونهاراً مبصراً ، أخلقهم أشد أم خلق السموات ؟ ولينظروا إلى الأرض التي تحت أقدامهم ، قد بسطها لهم ، وأخرج من جوفها الماء ، وأنبت فيها الزرع رزقاً لهم ، أهم أشد خلقاً أم الأرض ؟ .

وهذه الجبال الرواسي ، قد ثبت الله بها الأرض ، لتلا تמיד بهم ، وكل ذلك

(١) سورة النازعات ، آية : ١٠ - ١٤ .

(٢) سورة النازعات ، آية : ٢٧ - ٣٣ .

من نعم الله على خلقه ، أخلقهم أشد ، أم خلق الجبال الثوابت (١) ؟

إذا فأمر الحشر ، والنشر على الله يسير ، وليس ذلك عليه بعزير .

وهذه إحدى الطرق التي اتبعها القرآن الكريم ، في عرض شبه المنكرين للبعث ، وأرى أن هذه الشبه ترجع إلى أصل واحد كما أسلفت ، وهو عدم قدرة هذه العقول القاصرة ، على تصور قدرة الخلاق العظيم ، وقياسهم لقدرته الجليلة على قدرتهم الضعيفة ، ثم يتولى القرآن دحض هذه الشبه بحشد من الأدلة المعنوية ، والحسية ، التي لا تدع معها مجالاً للشك أو الاضطراب في التصديق بالبعث .

الطريقة الثانية : تقرير حقيقة البعث ثم إيراد الشبهة :

وفي هذا المسلك ، الذي اتخذه القرآن الكريم ، كأحدى الطرق التي انتهجها لإثبات حقيقة البعث يتحدث عن البعث أولاً ويورد الأدلة الحسية ، والعقلية ، التي تثبت صدق وقوعه . بما لا يدع معه مجالاً للشك في حقيقة هذا الأمر ، ثم يعرض لشبهة المنكرين بعد تقرير تلك الحقيقة ، أو يورد الأدلة على إثبات البعث ، دون أن يعرض لشبهة المنكرين .

من ذلك قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢٨) « (٢) .

في هذه الآية الكريمة يدلل المولى - سبحانه - على حقيقة البعث ، والنشور بهذا الدليل العقلي ، الذي لا ينكره عاقل ، فيتعجب المولى - سبحانه - من هؤلاء

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » ٤ / ٤٩٧ - ٥٠١ ، « التفسير الكبير » - م ١٦ / ج ٣١ / ٣٥ - ٣٧ ، ٤٩ - ٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية ، ٢٨ .

الكفار ، الذين كفروا بالله تعالى ، وأنكروا البعث ، والنشور ، والله هو الذي خلقهم من عدم ، ثم بعث فيهم الحياة ، ثم يميتهم بعد ذلك ، عند انقضاء آجالهم ، ثم يبعثهم بعد موتهم ، ليحاسبهم ، ويجازيهم ، على ما فعلوا في دنياهم ، فدل ذلك على أن القادر على الإحياء في المرة الأولى ، قادر على إعادة الحياة في المرة الثانية ، ثم عَقَّبَ بعد ذلك بذكر الدليل الحسي ، فقال تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٩) (١) .

فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق لكم الأرض ، وما فيها من خيرات تنتفعون بها ، وخلق السموات السبع ، وما فيها ، بهذه الصورة العجيبة ، الدقيقة ، المتناسقة ، وكل هذا دليل على إحاطة علمه ، ودقة خلقه ، بحيث لا يختلط عليه العلم بأجزائكم ، وعظامكم ، بعد أن تتفتت وتختلط بالتراب (٢) .

ولم يذكر شبهة المنكرين للبعث في هذه الآية ؛ لأنهم – والله أعلم – لم يكونوا مؤمنين بوجود الله أساساً ، وإنما هم به كافرون ، وتبعاً لكفرهم بالله فقد كفروا بكل ما أرسل به الرسل ، ومن ذلك الكفر بالبعث ، فهم لم يوردوا شبهة ، لأنهم لم يجادلوا في هذه القضية ، لعدم إيمانهم بالله ، ابتداءً ، أو لكون شبههم ترجع إلى أصل واحد وقد وردت هذه الشبه في سور عدة ، حتى أخذ القرآن يثبت البعث في بعض السور ، دون ذكر الشبهة ؛ لعدم خفائها .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ

(١) سورة البقرة ، آية ، ٢٩ .

(٢) انظر : « تفسير أنوار التنزيل » - ١٢ / ٤٧ - ٤٩ ، التفسير الكبير ١٢ / ٢ - ١٤٩ - ١٥٨ .

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ (١) .

في هذه الآية يذكر المولى - سبحانه وتعالى - قصة بني إسرائيل ، حين تبادوا
في غيَّهم ، وطغيانهم ، وطلبوا من نبيهم ، أن يروا الله مكاشفة دون حجاب ، فأنزل
الله عليهم الصاعقة ، عقاباً لهم على هذا الطلب الذي لا يليق من مخلوق لخالقه ،
ثم بعثهم الله بعد موتهم ؛ ليستكملوا آجالهم ، فقد كان موتهم عقاباً لهم ، وبعثهم
بعد ذلك استكمالاً لآجالهم (٢) .

هذا من أعظم الأدلة الحسية ، التي تثبت لهؤلاء المنكرين قدرة الخالق -
سبحانه - على البعث بعد الموت ، فهام أولاء قد شاهدوا ذلك في حياتهم الدنيا
فإلى متى هذا التكبر ، والعناد ؟ فقد ذكر المولى - سبحانه - في هذه الآيات الأدلة
الحسية ، الباهرة ، التي تثبت قدرته - سبحانه - على البعث بعد الموت ، دون ذكر
الشبهة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا
كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ (٣) .

يذكر الله - تعالى - في هذه الآية دليلاً حسياً ، على قدرته على البعث بعد

(١) سورة البقرة ، آية ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٩٧ / ١ ، « تفسير أنوار التنزيل » ١ / ٦٣ ، « الكشف عن حقائق
غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل » - للإمام محمود بن عمر الزمخشري - ١٤١ / ١
- ١٤٢ - ربه مصطفى حسين أحمد - ط ٣ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م - دار الكتاب العربي بيروت .

(٣) سورة البقرة ، آية ، ٧٢ ، ٧٣ .

الموت ، وهذا الدليل حجة على هؤلاء المنكرين للمعاد ، وقد حدثت هذه القصة في بني إسرائيل ، حين بعث الله فيهم موسى - عليه السلام - فقتل أحدهم ، واختلفوا في قاتله ، فأمر الله موسى - عليه السلام - أن يأمرهم بذبح بقرة ، ثم يضربوا القتيل بعض منها ، وحين فعلوا ذلك ، اهتز القتيل ، وعاد إلى الحياة ، وأخبر بقاتله ، ثم عاد إلى الموت مرة أخرى .

فكان هذا أعظم دليل على قدرة الخالق - القدير - على البعث بعد الموت ، وقد ساقه - سبحانه - في هذه الآيات ، لإثبات قدرته التي أنكرها المشككون في العظمة الإلهية ، وقال لهم الله : كما أحييت هذا القتيل ، فكذلك أستطيع إحياءكم بعد الموت ^(١) . وهذه من آيات الله العظيمة ، التي ساقها لهؤلاء المنكرين ، لعلهم إلى رشدهم يرجعون .

ومن ذلك قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (٢٤٣) » (٢) .

وهذا دليل آخر يذكره المولى - سبحانه - لهؤلاء المنكرين للدلالة على قدرته - سبحانه - على الحشر والنشر ، فيذكر قصة هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم عندما انتشر فيهم الوباء ، وكانوا ألوفاً - واختلف الرواة في عددهم - وإنما لنا ما ذكره القرآن بأنهم كانوا ألوفاً ، فقال لهم الله : موتوا ، فأذاقهم الموت الذي هم منه هاربون ، وبعد حين مرَّ عليهم نبي من الأنبياء ، وقد تمزقت أجسادهم ، وبلت

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ١ / ١١٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية ، ٢٤٣ .

عظامهم ، فأمره الله ، أن يدعوهم إلى الحياة ، فعادوا إلى الحياة مرة أخرى (١) .
وهذا من فضل الله العظيم ، على الناس ، إذ يريهم الدلائل العظيمة ، والآيات
الجليلة ، الدالة على قدرته ، وعظيم سلطانه ، ولكن أكثر الناس لا يؤدون شكر الله
على هذه النعم .

ومن ذلك أيضاً ، تلك الحادثة العظيمة ، التي ذكرها القرآن الكريم ، والتي
حدثت لأحد منكري البعث ، أو أحد الصالحين على اختلاف التفاسير إذ قال تعالى :
«أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ
عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ
إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ» (٢٥٩) » (٢) .

فقد اختلف المفسرون ، في من يكون هذا الشخص الذي مرَّ بالقرية ؟ ، ولكن
الذي يهمننا في هذا المقام ليس تحديد من يكون الشخص وإنما الذي إليه نقصد هو
عين الحادثة .

فقد كان الرجل شاكاً في قدرة الله على البعث على أحد القولين ، وذلك
يظهر من قوله – حين رأى هذه القرية الخربة ، وقد كانت من قبل عامرة ، تدبُّ فيها
الحياة – فقال : «قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا» (٣) ؟ وهذا قول يصدر من شاك

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ١ / ٣٠٥ - ٣٠٧ ، « التفسير الكبير » - ٣م / ٦٦ / ١٦١ -
١٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية ، ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية ، ٢٥٩ .

في قدرة الله على البعث ، أو من رجل مؤمن قد استعظم قدرة الله التي تحيي هذه القرية ، فكان الجواب العاجل الذي لا جدل فيه ، أن أماته الله مائة عام ، ثم بعثه بعد ذلك ، وسأله : كم لبثت في موتك . فقال : يوماً أو بعض يوم ، وذلك لأن الله أماته أول النهار ، ثم بعثه آخر النهار ، فشك في الأمر ، فردّ عليه بقوله : بل لبثت مائة عام ، ثم أمره أن ينظر إلى طعامه فهو لم يفسد ، بل ظل على حاله لم يتغير ، وأمره أن ينظر إلى حماره وقد تفرقت عظامه ، وبليت وأصبحت رميماً ؛ ليجعله الله آية بينة للناس ، تثبت قدرة الله - العظيمة - على البعث ، والمعاد ، ثم أمره الله - تعالى - أن ينظر إلى حماره ، وكيف يبعث فيه الحياة ، رويداً ، رويداً ؟ ؟ فهذه عظامه ، يركب الله بعضها على بعض ، ثم يكسوها لحماً ، ثم يبعث فيها الروح ، فإذا بالحمار يحرك رأسه ، وينهق بإذن الله ، فلما رأى آية ربه ، قال : إنني أعلم أن الله على كل شيء قدير ^(١) . وهذا دليل لا مجال للطعن فيه قد جعله الله آية لمن أنكر البعث ، وعاند .

ومن هذه الأدلة العظيمة التي وقعت في الحياة الدنيا ، وتدل دلالة واضحة على قدرة الخلاق العظيم - على بعث الأموات ، وإعادتهم إلى الحياة ، ليجزي كل إنسان بقدر عمله ، ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّبَطْنٍ لِّقَبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦٠) ^(٢) .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ١ / ٣٢١ ، ٣٢٢ ، « التفسير الكبير » - ٤م / ج ٧ / ٢٨ - ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية ، ٢٦٠ .

فهذا دليل آخر ، على صحة البعث ، والمعاد ، ساقه الله - عز وجل - على يد أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - إذ طلب من ربه أن يريه قدرته على إحياء الموتى ، وكيف يكون ؟ فسأله موله - عز وجل - وهو بذلك عليم - عن سبب سؤاله هذا ، هل هو ناتج عن ضعف في إيمانه ؟ فنفي - عليه السلام - أن يكون ذلك السؤال ناتجاً عن ضعف في إيمانه بقدرته ربه ، ولكنه طلباً للمزيد من اليقين بالمعينة على صحة الحشر ، والمعاد .

حينئذ أمر المولى - عز وجل - نبيه - عليه السلام - أن يأخذ أربعة من الطير ، آياً كانت تلك الطيور - فليس تحديد نوعيتها بذى أهمية تقصد ، وإنما جوهر الحادثة هو المحور - فأخذ - عليه السلام - أربعة من الطير ، ثم أمره الله - عز وجل - أن يقطعها ، ويخلطها ، ويجعل على كل جبل جزءاً من هذه الطيور ، ثم يدعوها إليه . وعندما فعل إبراهيم - عليه السلام - ما أمره الله تعالى به ، دعاهن إليه فجاءت الطيور تسعى ، وقال بعض المفسرين : إن الطيور كانت تسعى إلى إبراهيم - عليه السلام - ورؤوسها في يده فيقدم للطير غير رأسه ، فيأبى حتى يقدم له رأسه ، فتعود إليه الحياة .

وبعد أن تمت هذه الحادثة العجيبة ، على يد النبي الكريم ، الذي لم يكن شاكاً في أمر البعث لحظة من اللحظات ، قال له موله - عز وجل - : اعلم أن الله عزيز ، لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع عليه شيء ، حكيم في أقواله ، وأفعاله (١) .
ومنه قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ١ / ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، « تفسير جامع البيان » ، ٣ / ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٤١ ، « التفسير الكبير » ٤ / ٣٧ - ٤٣ .

ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ (١) .

في هذه الآية يبين - جلّت قدرته - لمن أنكر البعث ، والمعاد ، بأنه هو الذي خلقهم من طين ويقصد بذلك آدم - عليه السلام - ووجه الخطاب إليهم ؛ لأنهم ولد من خلقه من طين - ثم جعل لهم آجالاً محدودة في هذه الحياة لا يعلمها إلا هو ، حتى تحين وفاتهم ، ثم جعل لهم آجالاً لا يعلمها إلا هو بعد مماتهم ، إلى بعثهم ، وبعد كل هذه الدلائل تشكون في قدرته - سبحانه - على بعثكم ونشركم (٢) !!

فنرى هنا أن الآيات أتت بدليل البعث أولاً ، ثم بالشبهة ممثلة في كلمة واحدة وهو قوله « تمترون » .

وهذا دليل آخر يردع به القرآن الكريم ، حجج المنكرين ، فتسقط أمام براهينه الساطعة ، وحججه الباهرة ، ومن كان في شك من أمر البعث فإلى مزيد من دلائل القدرة الإلهية العظيمة .

قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ » (٣) .

ضرب الله - سبحانه وتعالى - هذا المثل ، لمن أنكر الحشر والنشر ؛ وذلك للدلالة على قدرته على البعث ، والنشور ، فهو الذي يرسل الرياح ، تبشر برحمته حيث تحمل السحاب الثقيل ببخار الماء إلى البلد المجذب ، فينزل عليها الماء ؛ فترتوي

(١) سورة الأنعام ، آية ، ٢ .

(٢) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٥ / ج ٧ / ٩٣ - ٩٤ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ، ٥٧ .

الأرض ، وتهتز ، وتعود إليها الحياة ، فتخرج من الثمرات ما يشاء الله .

وكما أحيا هذه الأرض بعد موتها ، كذلك يخرج الموتى من بطن الأرض بعد أن تتفرق عظامهم ، وتبلى أجسادهم ، إذ يُنزل الله ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبث منه الأجساد ، كما ينبث الحبُّ من الأرض .

وضرب الله هذا المثل للدلالة على قدرته العظيمة ؛ لعل من أنكر البعث والمعاد إلى رشده يعود ، فيذكر قدرة الله على ذلك الأمر العظيم ، وقدرة الله كذلك على إعادتهم خلقاً سوياً بعد أن يصيروا إلى البلى (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) » (٢) .

يسوق المولى سبحانه وتعالى - هذه الآيات الكريمة ؛ للدلالة على حقيقة

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٢ / ٢٣١ ، ٢٣٢ ، « تفسير جامع البيان » ، ٥٣ / ج ٨ / ١٤٨ -

١٤٩ ، « التفسير الكبير » ٧٣ / ج ١٤ / ١٣٨ - ١٤٣ .

(٢) سورة يونس ، آية ، ٤ - ٨ .

البعث حيث ذكر فيها مصير الفريقين ، المكذبين بيوم المعاد ، والمصدقين به (١) .

وهكذا يستمر القرآن الكريم ، في عرض الأدلة ، والحجج الدامغة التي تثبت صحة النشر والحشر ، وفي كل مرة يعرض لنا الدليل في ثوب قشيب يجدد الإيمان في النفوس المؤمنة ، ويزيل الشك من النفوس المنكرة ، فمن هذه الآيات خلق الشمس ، والقمر وما فيهما من منافع جليلة ثم خلق الليل ، والنهار وما فيهما من دلائل عظيمة ، ثم خلق ما في السموات ، والأرض من آيات باهرة تنطق بقدره المولى - سبحانه - على ما وعد به ، وقد اتخذ القرآن من طرح السؤال على المنكرين ، طريقة جديدة ، لإثبات المعاد ، فمن ذلك قوله تعالى : « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ » (٣٤) (٢) .

فقد ذكر القرآن الكريم هذه الحجة على سبيل الاستفهام ، والسؤال ، وترك تفويض الجواب إلى المسؤول ، وهذا أبلغ ، وأوقع في القلب ، فهو يسأل هؤلاء المنكرين ، المجاحدين ، هل هناك من آلهتكم التي تعبدون من يستطيع أن ينشئ خلق شيء من غير أصل ، فيحدث خلقه ابتداء ثم يعيده ؟

ثم يأمر المولى - سبحانه - نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين : إن الله وحده هو الذي يستطيع أن ينشئ الخلق من قبل أن لم يكن شيئاً ، ثم يعيده وهو أهون عليه ، فعلامُ تُصرفون عن قصد السبيل ، وطريق العقل ، والرشاد (٣) ؟

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١١ / ٦١ ، ٦٢ ، « تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان » نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري - هامش الطبري - م ٧ / ج ١١ / ٥٠ - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - دار المعرفة - بيروت ، « تفسير القرآن العظيم » ، ٢ / ٤٢١ ، ٤٢٢ ، « التفسير الكبير » - م ٩ / ج ١٧ / ١٦ - ٣٨ .

(٢) سورة يونس ، آية ، ٣٤ .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١١ / ٨٠ - ٨١ ، « التفسير الكبير » - م ٩ / ج ١٧ / ٨٨ .

وهكذا يمضي القرآن الكريم في طريقه ، لإثبات البعث والمعاد ؛ ليجدد في النفوس الإيمان بذلك اليوم العظيم ، وما فيه من أحداث جليلة ، وفي كل مرة يتناول جانباً من جوانب النفس الإنسانية ، فينزع ما فيها من شك ، إن كان هناك شك ، ويزيد الموقن المصدق إيماناً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٤٥) « (١) » .

في هذه الآية يقرر المولى - سبحانه - وقوع الحشر ، والبعث فهو لم يدع هنا مجالاً للمجادلة ، بل انتقل بالمنكرين إلى عرصات القيامة نقلة خاطفة ، فإذا بهم يتقاسمون فيما بينهم أنهم ما لبثوا في تلك الحياة الأولى إلا ساعة من النهار ، لقصرها في نظرهم حتى أنها لم تعد بأيامها ، وشهورها ، وسنينها ، ودهورها ، إلا كمثمل ساعة من نهار تعارفوا فيها ثم مضت وانقضت واليوم يحل البوار والخسران على من كذب بهذا الوعد ، وذلك هو أعظم خسران (٢) .

على أن هناك أقوال أخرى في تفسير هذه الآية منها : أنهم يقسمون أنهم ما لبثوا في قبورهم غير ساعة ؛ وذلك لأن الذي ينتظر العذاب يمر عليه الوقت سريعاً ، فكأنهم ما لبثوا غير ساعة ، وقيل : إنهم ينامون قبل العث نومة يجدون لذتها في رؤوسهم حين ينفخ في الصور فحيثئذ يقسمون أنهم ما لبثوا إلا قليلاً . ثم تذكر الآيات قول أولئك المكذبين في الحياة الدنيا حيث حكى ذلك القرآن : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ

(١) سورة يونس ، آية ، ٤٥ .

(٢) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١١ / ٨٤ ، « الظلال » - م ٣ / ج ١١ / ١٧٩٥ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤٣٤ / ٢ .

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ، (١) .

فهؤلاء المشركون ، يسألون النبي ﷺ عن وقت وقوع ما وعدهم به من العذاب الشديد يوم القيامة ، ثم يأمر المولى - سبحانه - نبيه ﷺ أن يبين لهؤلاء الكفار أنه بشر مرسل من الله - تعالى - لا يملك أن يجلب لنفسه خيراً ، أو أن يدفع عنها شراً إلا بإرادة الله - تعالى - وأن ما يسألون عنه من وقت وقوع العذاب ، بيد الله الذي جعل لكل أمة أجلاً ، وموعداً ، لا يستأخرون عنه ساعة ، ولا يستقدمون (٢) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَسْتَبِشُّونَكَ أَهَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ، (٣) .

يذكر المولى سبحانه - في هذه الآية ، تعقيب هؤلاء المنكرين ، بعد أن ذكر لهم حقيقة هذا الأمر وكأنه عياناً لا مجال للشك فيه ، فإذا بهم يستخبرون النبي ﷺ عن حقيقته وصدق وقوعه ، فيقسم لهم بالله العظيم ، الذي يعرف ما لا يعرفون من جلاله ، وعظمته ، وقدرته ، بأن ما قال لهم من أمر البعث ، والحشر حق ، وأنهم لم يعجزوا الله ، ثم يصور لهم ذل مقامهم ، وانكسارهم في ذلك اليوم الرهيب ، حتى أنه لو أعطيت كل نفس منهم ما في الأرض لتفتدي به العذاب ، لافتدت به ، ثم ينكسون رؤوسهم حسرة ، وندامة استبطنوها في أعماقهم حين يرون العذاب ، ثم

(١) سورة يونس ، آية ، ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) انظر : تفسير جامع البيان - م ٧ / ج ١١ / ٨٤ ، الظلال - م ٣ / ج ١١ / ١٧٩٥ ، تفسير

القرآن العظيم ٤٣٤ / ٢ .

(٣) سورة يونس ، آية ، ٥٣ ، ٥٤ .

يقضي المولى - سبحانه - بينهم بكل عدل فلا يُظلمون شيئاً^(١) .

ثم يقرر بعد ذلك هذه الحقيقة التي لا مرأى فيها ، حيث يقول : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) »^(٢) .

فيذكر - جلّت قدرته - أن كل ما في السموات ، والأرض ملك له - سبحانه - يتصرف به كيف يشاء ، وأن ما يعد به هؤلاء المشركين من بعث بعد الموت ، وعذاب ، هو حق اليقين ، ولكن هؤلاء الجاهلين لا يعلمون صدق ما وعد به ، وهو الذي يملك حياتهم ، وموتهم ويملك إحياءهم ، وإرجاعهم إليه ، فيعلمون صدق ما وعد به سبحانه^(٣) .

قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) »^(٤) .

يذكر المولى - سبحانه - في هذه الآية ، قصة خلق السموات ، والأرض ، إذ خلقهما - سبحانه - في ستة أيام ، بما فيها ومن فيها ، وكان عرشه على الماء قبل خلقهما .

ولم يخلق هذا الخلق عبثاً وتنزه - سبحانه - عن العبث ، وإنما كان لغاية عظيمة ، والتي من أجلها يكون البعث ، والنشور ؛ وهي ابتلاء الناس ؛ ليعلم أيهم

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١١ / ٨٥ ، ٨٦ ، « تفسير القرآن العظيم » ٤٣٦ / ٢ .

(٢) سورة يونس ، آية ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ج ١١ / ٨٦ ، « تفسير القرآن العظيم » ٤٣٦ / ٢ .

(٤) سورة هود ، آية ، ٧ .

أحسن عملاً ، فتُجزى كل نفس بما عملت ، ثم يوجه الخطاب إلى نبيه ﷺ ويخبره أنه لو أخبر هؤلاء المشركين ، أنهم مردودون بعد موتهم إلى حياة أخرى ، فسوف يقولون : إن هذا الذي تأتي به سحر مبين . ولن يصدقوك فيما تقول من البعث ، والحشر ، والنشر (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفِّرُوا (٩٩) » (٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، انتزع القرآن الكريم ، هؤلاء المنكرين ، من موقف المخاطبة ، إلى لهيب جهنم ، فها هو ذا يصور حالهم يوم القيامة ، وملائكة العذاب تحشرهم على وجوههم ، وهم عمي وبكم وصم لا يسمعون ، ولا يتكلمون ، فقد أخرس الحق ألسنتهم ، وسدَّت رياح العذاب مسامعهم ، وأعمى دخان جهنم أبصارهم ، بل زاد الله لهم في العذاب ، فكلما سكنت عنهم النار ، زاد الله لهيبها ، وسعيرها إمعاناً في العذاب ، ثم ذكر المولى - سبحانه - بعد تصوير حالهم هذه ، سبب قذفهم في لجج الجحيم ، وذلك لأنهم كفروا بآيات الله ، وكذبوا بالبعث ، والحشر ، وقالوا مقولتهم الفاسدة : أنبعث بعد أن نصبح عظاماً بالية قد تفرقت في أصقاع الأرض ؟ أنبعث بعد ذلك ونعود إلى الحياة من جديد ؟

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ٧ / ١٢ / ٣ - ٥ ، « تفسير القرآن العظيم » ٢ / ٤٥٣ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ، ٩٧ - ٩٩ .

ثم يردف المولى - سبحانه - بعد هذه المقولة الفاسدة ، بذكر دلائل قدرته ، وعظيم سلطانه بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وخلقهما أعظم من خلقهم ، أليس من خلق هذه الآيات الباهرة بقادر على إعادتهم إلى الحياة من جديد ؟ وسوف نجعل لهذا البعث زمناً محدوداً يعثون بعده للحساب ، والجزاء ، ولكن بعد ذكر هذه الآيات الباهرة ، والحجج الدامغة أبى هؤلاء الكافرون إلا تمادياً بالعناد ، والطغيان ، والكذب ، والجحود (١) .

وهكذا يستمر القرآن في عرض آيات القدرة الإلهية العظيمة ، على الحشر ، والنشر ، ويتغلغل بأدلته إلى أعماق النفوس ، فيزيل ما ران على قلوب أهل الشك والضلال ، ويزيد بريق الإيمان في قلوب أهل التصديق إيماناً ، حتى تلهج الألسنة بعظمة الخالق وعز سلطانه .

ثم يعرض لنا القرآن ، دليلاً آخر يثبت قدرة المولى - سبحانه - على البعث ، فيذكر لنا قصة أصحاب الكهف ، التي تُعدُّ من الدلائل الباهرة على قدرة الله على البعث بعد مرَّ الدهور وكرَّ الأعوام والشهور .

وأصحاب الكهف لم يكونوا قط شاكين في قدرة الله على البعث ، بل كانوا مؤمنين بالله رباً لا شريك له في ملكه ، ولا شك في قدرته ، ومن لطائف رحمة الله أن حدث لهم ما حدث كرامة لهم وحماية لإيمانهم الذي فروا به ، ثم قدر المولى - سبحانه - أن يكون بعثهم في عهد ملك موحد بالله ، قد كثر جدل الناس في عصره حول البعث ، وهل هو بعث الأرواح فقط ؟ أم بعث للأرواح والأجساد معاً ؟ فوقعت

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٣ / ٦٩ ، ٧٠ ، « تفسير جامع البيان » - ٨م / ج ١٥ / ١١٣ ، « التفسير الكبير » ، ١١م / ج ٢١ / ٦٢ .

هذه الآية العظيمة في عصرة ، ليكون ذلك الجدل حداً ، ويقف الناس على حقيقة هذا الأمر العظيم ^(١) .

قال عز ذكره في ذلك : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ^(٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ^(١٠) فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ^(١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ^(١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ^(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ^(١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَمَيْنِ يَمِينٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ^(١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ^(١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْيَةً الْمُتَّقِينَ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُضِلَّهُ قُلْ تَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُرَشِدًا ^(١٧) وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَكْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ^(١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ^(١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أُنْذِرَ ^(٢٠) وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » : ٨ / ج ١٥ / ١٣٠ - ١٥٤ ، « تفسير القرآن العظيم » - ٧٨ / ٣ -

٨٦ ، « التفسير الكبير » ، ١١م / ج ٢١ / ٨١ - ١١٤ .

بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ هـ (١) .

وقال تعالى : « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) » هـ (٢) .

فهذه قصة أصحاب الكهف التي ذكرها القرآن الكريم ، وقد أطالت كتب التفسير في ذكر قصتهم على اختلاف الأقوال والروايات فيهم مما ليس هذا موضعه ، وإنما الذي يعيننا في هذا المقام هو أنهم أوقفوا من نومهم الطويل ليكونوا آية للناس ، ودليلاً شاهداً على قدرة الله على البعث ، وليعلم كل شاك في أمر الساعة أنها آتية لا ريب فيها .

وقد كان أمر الله إذ أطلع عليهم من كانوا في شك من أمر البعث ؛ ليعلموا أن وعد الله حق وأن قدرته لا تُحد ، وسلطانه لا يُصد (٣) .

وبعد أن ذكر - عز وجل - هذه القصة العجيبة فصل في ذكر أصحاب الجنة ، وما أعد لهم من ثواب ، وذكر أصحاب النار وما أعد لهم من عقاب ؛ نعل نفوس المنكرين تلامسها حرارة النار فتوقظها من غفلات الضلال ، ثم يذكر أهوال ذلك اليوم العظيم وشدائده ؛ لإثبات حقيقته ، وصدق وقوعه ، حتى لا يكون في النفوس

(١) سورة الكهف ، آية ، ٩ - ٢٢ .

(٢) سورة الكهف ، آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » : ٨ / ج ١٥ / ١٣٠ - ١٥٤ ، « تفسير القرآن العظيم » - ٣ / ٧٨ -

٨٦ ، « التفسير الكبير » ، ١١٢ / ج ٢١ / ٨١ - ١١٤ .

أدنى شك في حقيقة البعث والنشور .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى
عَذَابِ السَّعِيرِ ④ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ
مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا
نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ
مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا... إِلَى آخِرِ
الآيات ① .

في هذه الآيات الكريمة ، يسوق المولى - سبحانه - أدلة عظيمة لإثبات البعث ،
والمعاد ، حيث وصف البعث أولاً ثم أخبر عن مجادلة المنكرين فيه ، ثم ساق الأدلة
الباهرة التي تثبت قدرة المولى - سبحانه - على البعث ، والنشور .

وقد بدأت الآيات بتحذير الناس من عقاب الله ، ووجوب طاعته فيما أمر به -
سبحانه - ثم وصفت الآيات أهوال الساعة ، وزلزتها العظيمة ، التي تُذهل
المرضعات ، وتضع الحوامل ، وتُذهل الناس ، وتذهب عقولهم من هول زلزتها حتى

(١) سورة الحج ، آية ، ١ - ٧ .

تحسب الناس سكارى ، وليس ما بهم من سُكر ، ولكن من شدائد ذلك اليوم العظيم، ثم يخبر - عن ذكره - عن مجادلة أرباب الكفر ، والفسوق في أمر البعث ، وإنكارهم له ، وليس لهم في ذلك علم ، ولكن مسامرة لزعمائهم من رؤوس الكفر ، واتباع شياطين الإنس والجن، الذين يضلونهم ويردونهم إلى أشد العذاب

ثم يردف - عز ذكره - بذكر أدلة البعث التي تُجلي الغمّة من قلوب المتشككين في قدرة الواحد القهار ، فساق الدليل الأول على صحة البعث ، باستدلاله بخلق هذا المجادل أولاً ، حيث خلق أبوه آدم من تراب ، ثم جعل سلالة من بعده من ماء مهين ، من صلب الرجل ، وترائب المرأة ثم جعل النطفة علقة وهي قطعة الدم المتجمدة ثم جعل العلقة مضغة ، وهي قطعة اللحم وقد تكون هذه المضغة مُخلّقة ، أو تُسقطها المرأة قبل أن تُخلّق ، ثم يقرها - سبحانه - في الأرحام إلى ما يشاء ، ثم يخرجهم طفلاً ضعيفاً في قوته ، وسمعه وبصره ، وعقله ، ثم يتكامل في قوته ، وعقله إلى أن يصير في عنفوان شبابه ، ومنهم من يتوفاه الله ، ومنهم من يد الله في أجله ، حتى يبلغ الشيخوخة والهرم فتضعف قوته ، ويعود كما كان في سالف طفولته ، لا يعلم من بعد علم كان يعلمه شيئاً ، وهذه حكمة الله ، وقدرته العظيمة ، تستمر ، وتتجلى في هذا الدليل الثاني ، الذي ساقه - عز ذكره - للاستدلال على صحة البعث ، وهو الاستدلال بِخِلْقَةِ النبات فهذه أرض ميتة مقفرة، ليس للحياة فيها سبيل ، فينزل المولى - سبحانه - بقدرته عليها الماء ، فتتحرك ، وتهتز وتُخرج النبات المختلف ألوانه بقدرة الله الجليلة .

ولا شك أن العظيم في علاه ، الذي أخرج هذا الخلق من قبل أن لم يكن شيئاً ، وبعث فيه الحياة ، من حيث لا حياة ، قادر على البعث بعد الموت ، لا يعجزه شيء في الأرض ، ولا في السماء ، وما وعد به من أمر الساعة حق لا شك في وقوعه ،

وما وعد به من البعث والنشور ، حق ، لا مجال للظن فيه ^(١) .

وتستمر دلائل العظمة الإلهية ، تلاحق المنكرين في كل خلجاتهم ؛ لتبين لهم ، القدرة على البعث ، من خلال أنفسهم ، وما حولهم من نعم الله التي أنعم بها عليهم .

فها هو ذا الحق الكريم ، يكشف لنا عن المزيد ، والمزيد من براهين القدرة الجبارة ، التي يدفع بها شبه المنكرين ، فتسقط أمام جلالها منكسرة مهزومة .

قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) » (٢) .

يبين المولى - عز وجل - في هذه الآيات الكريمة ، بعض دلائل قدرته التي سخرها لنفع الناس ، فهذه قدرة الرحمن العظيمة تُنزل الماء من السماء على الأرض اليابسة ، الهامدة ، المتشقة من شدة الجفاف ، فتصبح تلك الأرض مخضرة ، بما ينبت فيها من الزروع والثمار ذلك لأن الله يعلم بما في أجزاء الأرض ، وأقطارها ، له ملك السموات والأرض ، ومن فيهن ، وهو غني عما سواه والكل إليه فقير ، محتاج ومن دلائل قدرة الله أيضاً ، أن جعل كل ما في هذه الأرض ، وسخره لخدمة الإنسان ، فسخر له الفلك تجري في عباب البحر بأمر منه وهو الله العظيم ، الذي يمسك السماء

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » : ٩م / ج ١٧ / ٨٥ - ٩١ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٣ / ٢١٢ - ٢١٨ ، « التفسير الكبير » ، ١٢م / ج ٢٣ / ١٠٢ .

(٢) سورة الحج ، آية ، ٦٣ - ٦٦ .

أن تقع على الأرض إلى أن يشاء ، وهو الرحيم بعباده مع ظلمهم ، وعدوانهم .
وهذه القدرة العظيمة التي ابتدعت كل شيء ، هي التي أخرجتكم ، أيها الناس
إلى الحياة من قبل أن لم تكونوا شيئاً ، ثم هي التي تميّتكم إذا انتهت آجالكم ، ثم إذا
شاءت أحيتكم مرة أخرى للحساب ، والجزاء ومع كل هذه الآيات العظيمة ، والنعم
الجليلة ، فإن الإنسان جحود ، كفور ، بما أنعم الله عليه ، وبما يعده به من البعث
والحساب ^(١).

وتستمر آيات القرآن الكريم في ذكر الدليل تلو الدليل ، لبيان قدرة الله العظيمة ،
التي لا تعجزها إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الفناء والعدم ، ولا زلنا تحت ظلال تلك
الآيات نستمد من فيها ما شاء الله لنا .

قال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ^(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ ^(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا
الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ^(١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَيِّتُونَ ^(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ^(١٦) » ^(٢) .

أورد ذكر دلائل القدرة أولاً متمثلة في أطوار خلق الإنسان ^(٣) فأبي شك بعد هذه
القدرة يساور المنكرين في عودتهم إلى الحياة بعد الفناء والبلوى ؟

ولم يترك القرآن تلك النفوس تفرّ من سماع صوت الحق ، بل ظل يطاردها ،
ويريها الدليل تلو الآخر ، لتستيقظ من مستنقعات الردى التي دُفنت فيها ، فأعقب

(١) انظر « تفسير القرآن العظيم » ، ٢/ ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، « التفسير الكبير » - ١٢م / ج ٢٣ / ٦١ - ٦٣ ،
« جامع البيان » ٩م / ج ٢٧ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ، ١٢ - ١٦ .

(٣) انظر تفسير معنى الآية ، ص ٩٦ .

دليل القدرة الإلهية ، بالاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة ، وأكوان الفطرة بالاستدلال بخلق السموات وكثيراً ما يذكر المولى – سبحانه – خلق السموات ، والأرض ، مع خلق الإنسان ؛ ليقارن الإنسان بين نفسه الضعيفة ، وبين هذه المخلوقات العظيمة .

قال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) » (١) .

فليرفع هذا المنكر بصره إلى السماء ، وليتجول بناظره في بديع صنعها ، فهذه سبع سموات جعلها الله طرائق بعضها فوق بعض ، ولم يشغلها خلقها ، وما فيها ، عن خلق ما تحتها وشئون من فيها – فسبحان الله – الذي يعلم الخبء في السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، وليست هذه القدرة العظيمة عن إعادة الإنسان إلى الحياة بعاجزة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم أتبع عز ذكره هذا الدليل على عظمته ، وقدرته ، بدليل آخر ، وهو الاستدلال بنزول الأمطار ، وكيفية تأثيرها في النبات .

قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ (٢٠) » (٢) .

فهذا المطر ينزله الله بقدرته من السماء ، فيجعل الأرض تمتصه ، لتخرج به النبات ، وأن تلك القدرة الإلهية تستطيع أن تذهب بذلك الماء في أعماق الأرض حتى لا يصل إليه أحد ، يقول « الزمخشري » في قوله « على ذهاب به » إنه من أوقع

(١) سورة المؤمنون الآية ، ١٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ، ١٨ – ٢٠ .

النكرات وأحزها للمفصل ، والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيدان بامتداد المذهب ، وأنه لا يتحايي عليه شيء إذا أراد به ، وهو أبلغ في الإيعاد ^(١) ، فيخرج الله به الحداثق ، والزروع ، والثمار والأشجار التي يأكل منها الناس ، وبها يتغذون ، ثم خصص المولى - سبحانه - هذه الشجرة المباركة بالذكر لما فيها من الفوائد الجليلة ، وهي شجرة الزيتون التي يخرج منها الزيت الذي يؤدم به ، وينتفع به الناس في أغراض مختلفة .

وبعد هذه الدلائل ، يلفت القرآن الكريم أنظار المنكرين للبعث ، إلى بدائع قدرة الله في كل ما يحيط بهم ، وهم عنها غافلون ، فيستدل بأحوال الحيوانات ، لبيان مكانم القدرة الإلهية التي خفيت عن نفوسهم الغافلة . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) » (٢) .

فهذه الأنعام تحتوي على آيات ، وعظات ، لا تستبين إلا لذي لب وبصيرة ، فهذا اللبن يخرج من بين فرث ، ودم ، أبيض خالصاً سائغاً للشاربين ، بالإضافة إلى منافعها الجمة للإنسان ، فهو ينتفع بلحومها ، وجلودها وأشعارها ، بالإضافة إلى أنها تحمله ، وتحمل أثقاله ، إلى أي مكان شاء ، ثم ذكر انتفاعهم بالفلك في هذا المقام الذي فصل فيه منافع الحيوان ؛ لأن الانتفاع بالحمل في كل مشترك ، لذلك جمع بين الوجهين في إنعامه ؛ لكي يُشكر على ذلك ، ويُستدل به (٣) .

(١) الكشف ، ٣ / ١٨٠ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية ، ٢١ ، ٢٢ .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » : ٩م / ١٨ / ٦ - ١٢ ، « تفسير القرآن العظيم » - ٣ / ٢٥٠ - ٢٥٤ ، « التفسير الكبير » ، ١٢م / ٢٣ / ٨٣ - ٩٠ .

أليس ذو الصنع العجيب ، والخلق البديع بقادر على إخراجك يا هذا الإنسان المنكر ، والمخلوق الضعيف من باطن الأرض ؟ بلى إنه على ذلك لقادر ، وأنا على ذلك من الشاهدين .

فإلى أين المفر أيها المنكر المعاند ؟ فهذه دلائل قدرة الله ، يُسبِّحُ بها الكون . وترددها دماؤك التي تجري في عروقك ، ونسماتك التي تحصى أيامك ، فليس بعد الحق إلا الضلال .

ونستمر في قلبنا أنظارنا بين طيات كتاب الله ؛ لنستلهم من أضواء آياته ، دلائل القدرة الربانية ، لعل تلك الحُجبُ التي أطبقت على قلوب المنكرين تخترقها أشعة الهدى ، فتبدد ما ران حولها من ظلام ، ولنستمر في إضاءة شموع الحق ، لعل ضوءها يبهّر أبصار المتجافين عن الحق ، فيثوبوا إلى رشدهم .

فهذه آية زلزلت كيان المنكرين ، من عظم ما ورد فيها من حق ، قال تعالى :
 «حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَأُنْذِرُ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) ... إلى آخر الايات » (١) .

(١) سورة المؤمنون ، آية ، ٧٧ - ٩٠ .

أخذ عز ذكره - في تذكير هؤلاء المنكرين ببعض دلائل قدرته ، التي هي قائمة في أنفسهم ، فالله هو الذي جعل لهم السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، قليلاً ما يشكرون له هذه النعم العظيمة .

ثم ذكر لهم - سبحانه - بأنه هو الذي بثهم في الأرض ، علي اختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ، ثم بقدرته ، يجمعهم يوم القيامة في مقام واحد ، وهو الذي أحياهم من عدم ، وهو الذي يميتهم بعد إحياءهم ، وهو الذي بقدرته يتعاقب الليل ، والنهار ، بصورة دائبة ، منتظمة ، لا اضطراب فيها ، ولا خلل . أليس بعد هذه الدلائل العظام ، من عقول تفكر ، وتهتدي وتندبر ؟ بل ليس هناك إلا الضلال والعمى وليس لهؤلاء المنكرين من شبهة يدفعون بها صحة البعث ، إلا عقول متحجرة ، قد جعلت ضلال الآباء نواميس لا تحيد عنها أبداً ! !

فقد كان آباؤهم يقولون : كيف نعود إلى الحياة بعد أن تبلى منا العظام ، وتندرس المعالم والأجساد وسار من خلفهم على طغيانهم يعمهون ، فرددوا مقولتهم الفاسدة ، وقالوا : إن البعث وأمره ، من خرافات الأوائل استقيتها يا محمد من كتبهم ، حيثئذ وهم في غمرة العناد ، والتكذيب باغتهم الحق - سبحانه - بسؤالهم عمن يملك الأرض والسموات السبع والعرش العظيم ؟ باغتهم بالسؤال عمن يصرف الأمور ، والأحوال ، ويخشى عذابه ، وترجى رحمته ؟ فما كان من نداءات الفطرة السوية التي دفتها أتربة الجهل ، والخرافة إلا أن هبت ناطقة « الله » حيثئذ عاتبهم المولى - سبحانه - على استمرارهم في أحوال الجهل ، والضلال ، كيف لا تعبدونه ، كيف لا تخافونه ؟ أم على قلوب أفاؤها ؟ ! !

ثم يعقب المولى - سبحانه - في نهاية الآيات على أن ما جاء به محمد ﷺ هو

الحق الذي لا مرأ فيه ، وأن هؤلاء المشركين كاذبون فيما يدعون وما يرددونه (١) .

ثم أخذت الآيات تصف مصير هؤلاء المنكرين ، المكذبين ، فهذه النار تلمح وجوههم ، وهم يصطرخون فيها ، فلا مجيب لهم ، ولا هم يُنقذون ، ثم أعقب ذلك العذاب ، بسؤالهم إمعاناً لهم في العذاب ، والحسرة ، حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٢) ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴾ (١١٣) ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١١٤) ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) » (٢) .

فها هو ذا العليم الحكيم يسألهم عن مدة لبثهم في الأرض ، فأنسأهم شدة العذاب كم لبثوا فيها ، أو أنهم تقاصروا مدة إقامتهم في الدنيا ، حتى لو بلغوا فيها عتياً ، بالنسبة لما ذاقوه من عذاب ، فأحالوا الإجابة على من يعرف العد والحساب ، وقد يكون المقصود بهم الملائكة الذين كانوا يحصون الأعمال ، أو من كان يعرف الحساب ، فقال تعالى رداً على ما سألهم :

لقد صدقتم ، ما لبثتم فيها إلا قليلاً ، ولكنكم كنتم تتطاولون الأمد ، لأنكم كنتم تكذبون بالبعث ، أفظننتم أن خلقنا لكم كان لعباً وعبثاً ، وأنه ليس هناك معاد ، ولا حساب ، ولا جزاء ؟ إن الله منزّه عن هذا العبث ، سبحانه - له الملك ليس هناك رب سواه ، وهو رب العرش العظيم (٣) . وهذه ولا شك أعظم الحجج الدامغة ،

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » ، ٣ / ٣٦٠ - ٣٦٤ ، « تفسير جامع البيان » - ٩م / ١٨ / ٣٤ - ٣٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ، ١١٢ - ١١٦ .

(٣) انظر : « التفسير الكبير » ، ١٢ / ٢٣ / ١٢٦ - ١٢٨ ، « تفسير غرائب القرآن » هامش الطبري ٩م / ج ١٨ / ٣٤ ، ٣٥ .

والدلائل الباهرة على إثبات البعث ، والمعاد .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٣) ١ .

تبدأ هذه الآيات بالحديث عن الحشر ، والتعجب من إنكار هؤلاء المكذبين بالبعث ، فكيف ينكرون أمر البعث ، وقدرة الله عليه ؟ فلفت أنظارهم إلى دليل حدسي في أنفسهم ، فلينظروا كيف بدأ الله خلقهم حتى أصبحوا خلقاً كاملاً ، ثم وجه أنظارهم إلى دليل آخر ، وهو السير في الأرض ، والنظر في الآفاق ، ليعلموا كيف بدأ الله خلق هذا الكون العظيم ، فهذه السموات ، وما فيها ، وهذه الأرض وما فيها ، آية قد أوجدتها قدرة عظيمة ! أليست تلك القدرة العظيمة بقدرة على إعادتكم بعد الفناء ، وقد أوجدتكم ابتداءً ؟ فأأي جهل هذا ؟ والله قادر على كل شيء ، لا يعجزه شيء في الأرض ، ولا في السماء - سبحانه - هو الملك المتصرف في ملكه يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون ، ثم يبين - سبحانه - أن مرجعهم إليه ، لا ملجأ ، ولا ملتجأ منه إلا إليه - سبحانه - ثم يخبرهم - عز ذكره - بأن أهل الأرض لا يعجزونه في أرضه ، وأهل السموات لا يعجزونه في سمائه ، وليس لهم وال يتولى أمورهم ، ولا يصرفها إلا هو سبحانه ،

(١) سورة العنكبوت ، آية ، ١٩ - ٢٣ .

وإذا أراد بهم العذاب فلا ناصر لهم من دونه ، ثم بين - عز ذكره - مصير من كفر ، وأنكر يوم البعث ، بأن لا ينالهم ، من الله رحمة ، ولهم عذاب شديد ، جزاء كفرهم وتكذيبهم (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) » (٢) .

في هذه الآيات الكريمة جاء إثبات البعث بأدلة مختلفة ، أولها : دليل حسي هو الدعوة إلى إنعام النظر في ذات الإنسان ، فإذا تفكر الإنسان في نفسه ، وبديع خلقه ، وكيف ينبض قلبه وكيف يسري دمه ، وكيف تتابع أنفاسه ، وكيف.... وكيف.... وكيف ؟ لو فعل ذلك لزادت جداول الإيمان الإلهي تدفقاً بين جوانحه ، فكيف لا يتفكر هؤلاء المنكرون في قدرة الله على البعث ، عن طريق تفكيرهم في خلق أنفسهم ، أم على قلوب أقفالها ؟ ثم تلفت الآيات نظر المنكرين إلى دليل حسي آخر ، هو أكبر من خلقهم ، وهو خلق السموات بغير عمد يرونها وما تحويه من كواكب ، ونجوم ، لا يرى فيها الرائي فروجاً ، ولا شقوقاً ، ثم تتابع الآيات الكريمة بإيقاظ حواس الغافلين ؛ ليتفكروا فيما حولهم من آيات الله المحيطة بهم ، فهذه الأرض

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - م ١٠ / ج ٢٠ / ٨٩ - ٩٠ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤١٩ / ٣ ،

« التفسير الكبير » - م ١٣ / ج ٢٥ / ٤٥ - ٥٠ .

(٢) سورة الروم ، آية ، ٨ - ١٠ .

وما عليها من جبال ، وأنهار ، ووحوش ، وأشجار ، من ذا الذي أوجدها ؟ أفلا يتفكرون ؟ !!

ثم لينظروا إلى ما بين العالم العلوي ، والعالم السفلي ، من دلائل القدرة الإلهية ، وليعلموا أنها ما خلقت سدى ، وما وضعت عبثاً ، وإنما خلقت لحكمة عظيمة ، استعداداً ليوم المعاد ، الذي تُنصب فيه الموازين ، ولكن كثيراً من الناس عن الآخرة غافلون ، وبلقاء الله لا يؤمنون .

ثم يدعوهم المولى - سبحانه - دعوة أخرى ، تزلزل نفوس الكفرة ، وترهب قلوبهم ، وهي دعوتهم إلى قلب النظر في مساكن الأقسام السابقة ، وكيف أصبحت قفاراً بعد أن كانت تسري فيها الحياة ، فأنزل الله بهم العذاب الأليم بسبب كفرهم ، وعصيانهم لرسولهم ، وقد كانوا أشد منكم يا كفار قريش في القوة ، وأكثر منكم في عمارة الأرض ، وحرثها ، فكان عاقبتهم جهنم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله واستهزؤوا برسوله ^(١) .

ثم قال تعالى : « اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفْعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمَذُ لِيُفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) » (٢) .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » ٣ / ٤٣٧ ، « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ج ٢١ ، ١٧ ، ١٨ ،

« التفسير الكبير » - ١٣م / ج ٢٥ / ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) سورة الروم ، آية ، ١١ - ١٦ .

هكذا تستمر الآيات الكريمة ، في مناقشة قضية البعث ، مع المنكرين ، فتقرر أن الذين بدأ الخلق من قبل أن لم يك شيئاً قادر على إعادته بعد فناءه ، ثم يعود هؤلاء المنكرون إلى الله - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وفي ذلك اليوم العظيم يأس الكافرون ، فلا ينفعهم شركاؤهم ، ويتخلى هؤلاء الشركاء المزعومون عن من اتخذوهم آلهة من دون الله ، فلا يغنون عنهم شيئاً .

ويكون الناس فريقين ، في ذلك اليوم العظيم ، فالمؤمنون الصالحون في جنات النعيم مسرورون بما هم فيه ، والكافرون المكذبون بيوم البعث ، في جهنم يسقون أشد العذاب (١) .

وهنا نقلة في الآيات ، حيث نقلت هؤلاء المكذبين من مجالس الجدال ، ومن شعاب الدنيا إلى عذاب الآخرة فها هم أولاء بين فكّي جهنم ، لا عاصم لهم من عذاب الله .

ثم يقول عز ذكره : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) » (٢) .

فهذا أمر منه - سبحانه - بتقديسه ، وتنزيهه ، وتسبيحه ، مع تشققات الصبح ، ومع انسداد الظلام ، وهو الذي يُحمد - سبحانه - وحده دون سواه ، من أهل السموات ، والأرض ، في وقت العشاء حيث شدة الظلام وفي وقت الظهر حيث قوة الضياء ؛ لأن العظيم الجليل الذي أوجد هذه الآيات العظيمة جدير بهذا التنزيه ،

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٣ / ٤٣٨ ، « تفسير جامع البيان » : ١٠م / ج ٢١ / ١٨ - ٢٠ ، « التفسير الكبير » : ١٣م / ج ٢٥ / ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) سورة الروم ، آية ، ١٧ - ١٩ .

والحمد ثم عَقَّبَ بعد ذلك بذكر قدرته - سبحانه - على إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وقد اختلف أهل التفسير في معنى هذه الآية ، فمنهم من قال : إنه يقصد بذلك - سبحانه - وهو أعلم بالصواب ، إخراج الإنسان الحي من الماء الميت ؛ الذي هو عبارة عن مني الرجل ، وإخراج الماء الميت من هذا الإنسان الحي ، ومنهم من قال : يقصد بذلك ، إخراج الدجاجة من البيضة ، وإخراج البيضة من الدجاجة إلى غير ذلك من الآراء المختلفة ، التي انتشرت في كتب التفسير .

والشاهد الذي يعنينا في هذا المقام ، هو تمثل هذه القدرة الإلهية العظيمة في كثير مما نرى في حياتنا ، والقادر على ذلك هو القادر أيضاً على إحياء الأرض ، وإخراج النبات منها ، بعد أن كانت هامدة ، لا حياة فيها .

والقادر على ذلك هو أيضاً القادر على إخراجكم إلى الحياة ، بعد أن تصبحوا رميمًا خامدين . وهكذا نرى كيف أثبت الآيات القدرة على البعث ، بالدليل العقلي أولاً ثم بالدليل الحسي ثانياً ، وذلك لمحاربة الشك في النفوس الجاهلة ، وإظهار الحق جلياً واضحاً في النفوس المؤمنة ^(١) . ثم أخذت بعد ذلك ، تعدد بعضاً من دلائل القدرة ، والعظمة الإلهية التي لا يعجزها شيء في الأرض ، ولا في السماء ، وكل تلك الدلائل في مدلولها ، تبين قدرة الله - سبحانه - على الحشر ^(٢) .

ومن تلك الدلائل ما جاء في قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ٢١ / ٢٠ - ٢١ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤٣٨ / ٣ ،

« التفسير الكبير » - ١٣م / ١٣ / ٢٥ - ١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) انظر : « التفسير الكبير » - ١٣م / ١٣ / ٢٥ - ١١٦ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ... إلى آخر الآيات » (١) .

يبين المولى - سبحانه - في هذه الآيات ، دلائله على قدرته ، والتي منها خلق السموات والأرض ، وثباتها بغير عمد ، ثم إذا جاء يوم القيامة ، وأنتم عظام رميم ، يدعوكم دعوة فإذا أنتم قائمون من قبوركم مستوون بين يديه - سبحانه - ثم يخبر - عز ذكره - أن كل من في السموات والأرض ، من الملائكة ، والجن ، والعباد كلهم له طائعون ، وهو الذي ابتداء الخلق جميعاً من قبل أن يكون هناك خلق ، وكان ذلك عليه هيناً ، ثم هو الذي يبعثكم بعد موتكم ، وذلك عليه أهون ، وهو الله - العلي - الذي ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو العزيز في انتقامه ، الحكيم في تدبير خلقه ، وتصريف أمورهم (٢) .

قال الله تعالى في السورة ذاتها : « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قِبَلِهِ لُمُبْلِسينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) » (٣) .

يضرب الله المثل في هذه الآيات من الآفاق ؛ للدلالة على قدرة الله - سبحانه - على البعث ، والنشور . فهو الذي يرسل الرياح فتثير السحاب ، ثم يبسط هذا السحاب في السماء بمشيئته - سبحانه - ثم يجعله قطعاً ، ينزل من بينه المطر على

(١) سورة الروم ، آية ، ٢٠ - ٢٧ .

(٢) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ج ٢١ / ٢٣ - ٢٥ .

(٣) سورة الروم ، آية ، ٤٨ - ٥٠ .

أي أرض شاء ، فإذا أهلها به يستبشرون ، وقد كانوا قبل نزوله يائسين ؛ فهذا المطر من رحمة الله بعباده ، فقد أحيا به الأرض بعد أن كانت هامدة لا حياة فيها ^(١) .

ولا شك أن القادر على ذلك قادر على بعث الموتى بعد أن يصبحوا عظاماً بالية ، وهو على كل شيء قدير .

ثم قال تعالى في السورة ذاتها : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ » (٢) .

وهذا دليل آخر على قدرة الله - تعالى - يضربه لهؤلاء المنكرين ، من أنفسهم فهو - سبحانه - الذي خلقهم من ماء مهين ، ثم كانوا أجنّة في بطون أمهاتهم ، ثم أطفالاً ، ثم شباباً ، وهذه هي القوة بعد الضعف ، ثم ينكسهم في الخلق عندما يصلون إلى مرحلة الشيخوخة ، والهرم ، حيث تتناقص القوة حتى يكون ضعفاً بعد قوة ، وهو الذي يخلق ما يريد وهو العليم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، ثم يخبر عن حال هؤلاء المنكرين يوم القيامة ، أنهم يقسمون ما لبثوا في الدنيا ، وقيل في القبور إلا ساعة ، وهم بذلك يلتمسون العذر لأنفسهم ، وهم في قسمهم كاذبون وقد كانوا قبل ذلك يكذبون في الدنيا ، ويحلفون على الكذب ، فيردّ عليهم أهل العلم الذين كانوا يجادلونهم في الدنيا بأنهم لبثوا إلى يوم البعث .

وهذا هو يوم البعث الذي كذبوا به ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون بهذا اليوم

(١) انظر: « تفسير جامع البيان » ١٠ م / ج ٣٤ / ٢١ - ٣٦ ، « تفسير القرآن العظيم » ٤٤٦ / ٣ ، ٤٤٧ .

(٢) سورة الروم ، آية ، ٥٤ - ٥٧ .

لتكذيبهم به ، ثم يعقب المولى على هذا الجدل بقوله : هذا اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما يتمنون ^(١).

وهذا دليل آخر على البعث ، نقل المولى فيه المنكرين ، من موقف التذكير بخلقهم إلى موقف الحسرة ، والندامة ، حيث صور لهم ذل انكسارهم وأجيج نيران الحسرة تتلظى في قلوبهم ، بسبب تكذيبهم بيوم البعث .

ومنه قوله تعالى : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَنَذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنَّى لَنفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) » ^(٢).

ويذكر المولى - عز وجهه - في هذه الآيات ، الدليل على قدرته على البعث ، والنشر ، بضرب الدليل للمنكرين من ذات أنفسهم ، فليتربصوا في خلقهم ، فهو الذي خلق أباهم آدم أولاً من تراب ، ثم جعل نسله من مني ضعيف يخرج من صلب الرجل ، وترائب المرأة ، فنفخ فيه الروح ، وشق السمع والبصر ، وجعل لهم الأفئدة لعلهم يتفكرون ، فيعرفون نعمة الله عليهم ، وبعد هذه النعم العظيمة يتساءل هؤلاء الجاحدون عن حقيقة البعث ، أننا لعائدون إلى الحياة من جديد بعد أن نفنى ، ونصير

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٤٤٩ / ٣ ، « تفسير جامع البيان » - ١٠٣ / ٢١ ، ٣٧ ، ٣٧ ،

« التفسير الكبير » - ٣ / ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) سورة السجدة ، آية ، ٧ - ١٤ .

عظماً بالية ؟ حيثذ يقرر المولى - سبحانه - هذا الأمر ، ويعلمهم أنه حق ، وذلك حين يتوفاهم ملك الموت إذا انقضت آجالهم ، ويعودون إلى من كذبوا بقلائهم ، يوم يقف هؤلاء المكذوبون موقف الذلة والانكسار بين يدي ربهم ، ويقرون بما كذبوا به من قبل ، ويعلنون طاعتهم لله ، وانصياعهم لأوامره ، ويطلبون منه العودة إلى دنيا العمل ، ليكتسبوا الحسنات ، ولكن هيهات ، ولات ساعة مندم ، ثم يذكر المولى - سبحانه - عظم مشيئته وقدرته التي لا تُحدُّ فلو شاء لألهمهم رشدهم من قبل ، وكانوا مهتدين ، ولكن سبق منه القول ، أم يملأ جهنم من الثقلين ، ثم يعود لخطاب هؤلاء المنكرين وهم في مقام العذاب ، فيلومهم ، ويزيد من عذابهم بهذا التوبيخ الأليم ، بأن يذوقوا العذاب جزاء لهم على تكذيبهم وإنكارهم (١) .

ومن ذلك قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » (٩) « (٢) .

وقوله : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (١١) « (٣) . في هذه الآيات الكريمة ، يُدلل المولى - سبحانه - على المعاد ، بإحياء الأرض بعد موتها ، فهو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسوقه إلى البلد المجدب ، الميت ، فينزل المطر على تلك الأرض الياباب ، فتتهتز ، وتنبت الزرع الأخضر ، وتعود فيها الحياة ، وكما أحيا الله هذه الأرض الميتة ، فكذلك يحييكم بعد أن تصيروا عظماً ناخرة ، بقدرته - سبحانه - وهذا دليل من الآفاق يضر به المولى - عز وجل - لإثبات حقيقة البعث .

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » : ٣ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٢) سورة فاطر ، آية ، ٩ .

(٣) سورة ، فاطر ، آية ، ١١ .

ثم يردف الدليل بدليل آخر من الأنفس ؛ لإثبات قدرة الله حيث يذكر - سبحانه - بين الفينة والأخرى ، بأنه هو الذي خلق آدم من تراب ، ثم جعل نسله من نطفة ، ثم جعلهم أزواجاً وهو - سبحانه - التام علمه ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء ، فهو يعلم ما تحمل كل أنثى ، ومتى تضع ، وكل ذلك في علمه ، ولا يعمر من إنسان ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب مسطور ، وذلك على الله يسير ، وهذا من تمام علمه ، وعظيم إحاطته سبحانه (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لُحْمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) وَأَيَّةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) » (٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، يدلل المولى - سبحانه - على قدرته على البعث بعد الموت ، فيبين أولاً ، مصير من كان من المكذبين الأولين ، حيث أهلكهم فلا رجعة لهم إلى الدنيا ، وإنما الموعد ، واللقاء ، في الآخرة ، يوم البعث ، والنشور ، يوم يُحضر الأولين ، والآخرين ثم يضرب - عز ذكره - لهولاء المنكرين ، آية من آيات البعث الكونية ، وهي آية الأرض الميتة ، التي فقدت كل معاني الحياة ، فأحيها بقدرته ، وأخرج منها الحب ، الذي جعله لهم طعاماً ، وأخرج منها الحقائق المختلفة ، من النخيل ، والأعناب ، وأجرى فيها العيون ، وكل ذلك من نعمه وآلائه التي لا

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ٢٢ / ٨٠ - ٨١ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٥٥٦ / ٣ ،

« التفسير الكبير » - ١٣م / ٢٦ / ٧ - ١٠ .

(٢) سورة يس ، آية : ٣١ - ٣٦ .

تعد، ولا تحصى جعلها لعبادة بعد ذكر الشكر على ما رزقهم ؟ ثم تذلل الآيات بتسبيح المولى وتقديسه ، وتنزيهه ، فهو الذي خلق كل ألوان الثمار من الأرض ومن البشر جعل الذكور ، والإناث ، ومما لا يحيط به علمنا جعل الأزواج ، فتعالى الله عما يصفون (١) .

ثم تذكر الآيات بعد ذلك ، دلائل القدرة الإلهية العظيمة ، حتى لا تدع معها مجالاً للشك في قدرة المولى سبحانه - على البعث ، الحشر ، والنشر .

ثم تعود الآيات لذكر استنكار المشركين ، واستبعادهم للبعث : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) » (٢) .

فها هم يستبعدون وقوع البعث وما وعدوا به من حساب ، وعقاب ، فتعرض الآيات عن تحديد ذلك الموعد المرتقب ، وتنقل بهم إلى مقام المعاينة الحقيقية ، حين تقع الصيحة ، وتأخذهم في خضم غفلتهم وسهوهم ، ولهوهم ، وفي خضم نقاشهم في حقيقة البعث ، فلا يستطيعون توصية في أهلهم ، ولا في أموالهم .

ومن كان خارج بيته لا يستطيع الرجوع إليه ، ثم تكون بعد ذلك نفخة البعث من

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ٢٣ ج ٣٥٤٠ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٥٧٧/٣ ، ٥٧٨ ،

« التفسير الكبير » - ١٣م / ٢٦ ج ٦٤ - ٦٨ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٤٨ ، ٥٣ .

القبور ، فإذا هم يحثون السير إلى ربهم ، ويقولون فيما بينهم : يا ويلنا من بعثنا من منامنا؟ ثم يرجعون القول إلى أنفسهم ، ويقولون : هذا يوم البعث الذي وعدنا الرحمن ، وجاء به المرسلون ثم تذكّرهم الآيات أن ذلك الأمر العظيم ، ما كان إلا بصيحة واحدة ، أمر بها المولى - سبحانه - فإذا الأولون ، والآخرون بين يديه قائمون ، في هذا اليوم العظيم لا يظلم الله أحداً ، ، ولا تُجزى كل نفس إلا بما عملت (١) .

ثم تذكر الآيات بعد ذلك ، مصير الصالحين ، وما هم فيه من نعيم مقيم في جنات النعيم ، ومصير المجرمين المكذبين وما هم فيه من عذاب أليم .

ثم تأتي الآيات بعد ذلك ، بدليل من الأنفس ، يثبت قدرة الله على البعث .

قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) » (٢) .

نزلت هذه الآيات في أحد مشركي قريش (٣) فتعجب المولى - سبحانه - من هذا الانحطاط البشري في التفكير ! فكيف ينسى هذا الجاهل خلقه ، وينكر بحماقة قدرة الله على إحياء العظام بعد أن ترم وتبلى ، وهو قد خلق هذا المنكر من نطفة

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - م - ١٠ / ج ٢٣ / ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة يس ، آية ٧٧ - ٨٣ .

(٣) راجع ص ٥٨ .

حقيرة، فإذا به يجادل في آيات الله بغير علم ولا هدى، وليعلم أن الذي ابتدأ خلق هذه العظام من قبل أن لم تك شيئاً، قادر على إعادتها إلى الحياة، ثم يزواج بين دلائل الأنفس، ودلائل الآفاق، لإثبات البعث، كما جرت على هذا النهج معظم الآيات فيأمر الإنسان بالنظر إلى آيات الله، وعظائم قدرته، الذي يخرج من الشجر الأخضر المليئ بالماء، والرطوبة، ضدتهما وهي النار، التي يوقدون منها، وليعلم أن الذي خلق السموات، والأرض وهي أكبر من خلق الإنسان، قادر على أن يعيده إلى الحياة، والذي تتجلى قدرته في كلمة «كن فيكون» هو الذي بيده ما في السموات والأرض، وكل شيء بأمره، وفي أمره، وإليه المرجع، والمآل.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَنذَرْنَا مَنَّا وَكُنَّا تَرْابًا وَعِظَامًا أَنْنَا لَمُبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَلِئَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِّن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)» (١).

في هذه الآيات الكريمة، يعرض لنا القرآن الكريم، صورة من صور إنكار المشركين، للبعث والنشور، حيث يوجه الخطاب إلى محمد ﷺ أن يسأل هؤلاء المنكرين أخلقهم أشد على الله، أم خلق السموات؟، أليس خالق هذا الحق العظيم، الذي يرويه، بقادر على إعادتهم إلى الحياة بعد فنائهم، وبلائهم؟. يذكرهم بحقارة خلقهم، من طين يلتزق بعضه ببعض، ثم يعيد الخطاب إلى محمد ﷺ ويقول له:

(١) سورة الصافات، آية: ١١ - ٢٤.

إنك عجبت يا محمد ، من إنكارهم هذا ، ولكنهم كلما رأوا آية من آيات قدرة الله ، وثبتت عليهم الحجة ، ، فإذا هم يستهزؤون ويقولون : إنه سحر مبين ، كيف نعود إلى الحياة نحن ، أو آباؤنا الأولون ، بعد أن نصير تراباً بالياً ، وعظماً دارساً ؟ حينئذ قل لهم يا محمد : نعم سوف تبعثون بعد ذلك ، وتحشون بين يدي ربكم ، وأنتم صاغرون ، حقيرون ، فليس بعثكم على الله بعسير ، - إنما هي صيحة واحدة فإذا أنتم قيام بين يدي الله تنظرون أهوال ذلك اليوم العظيم . يقول « الألوסי » : واكتفى في الجواب على إنكارهم البعث على هذا المقدار ، ولم يقم دليل عليه اكفتاء بسبق ما يدل على جوازه في قوله سبحانه (فاستفتهم) ... إلخ (١) .

ثم تخطفهم الآيات من مقام الجدل إلى مقوف الحسرة ، والندامة ، في ذلك اليوم العظيم ، الذي يفصل فيه بين الناس ، اليوم الذي به يكذبون ، فلا يسمعون إلا كلمات التقريع ، وسيئات العذاب تلون أجسادهم ، حين يأمر العظيم - سبحانه - بحشرهم مع أشباههم ، وأشياعهم إلى جهنم ، وبئس المصير ، ثم يأمر بإيقافهم ، وسؤالهم عن كل ما فعلوه في دنياهم ، لتجزى كل نفس بما عملت (٢) .

ثم تأخذ الآيات بعد ذلك ، في ذكر مصير المكذبين ، الضالين ، وذكر مصير المؤمنين المهتدين ، حتى تصل إلى هذا الموقف الذي يدور حواره بين مؤمنين من أهل الجنة : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتُنْكَلُ لِمَنْ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَتُؤْذِنَانَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَتُنَا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ تُتْرَدِينَ (٥٦) وَلَوْ أَنَّ نِعْمَةَ رَبِّي لَكُنْتُ مِنْ

(١) انظر : « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » - شهاب الدين محمود الألوסי - ٧٨/٢٣ - مكتبة دار التراث - القاهرة .

(٢) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٠م / ج ٢٣ / ٢٨ - ٣٢ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٤ - ٦ .

الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) « (١) .

فهنا لم تذكر الآيات جدالاً حياً بين من آمن بالبعث ، ومن كفر به ، وإنما انتهجت أسلوباً آخر ، حيث ذكرت مصير من آمن بالبعث مباشرة ، ومدى ما هو فثيه من بهجة ، وسعادة حين وجد ما ودعه ربه حقاً ، ومن خلاله بينت الآيات مصير من أنكر البعث ، وما هو فيه من عذاب أليم دون أن تثبت قدرة الله على البعث بأي دليل ، وإنما اكتفت بذكر مصير الفريقين .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) » (٢) .

لم تعرض الآيات بعد ذكر هذا الدليل ، شبهة منكري البعث ، لمعرفة ضمنتها ، ولسبق ورودها في آيات أخرى ، بحيث يلا يخفى على القارئ مضمون الشبهة .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) » (٣) وهنا يرد دليل القدرة الإلهية على البعث ، في ثانيا تعداد آلاء الله على العباد ، لإثبات ألوهيته ، ووحدانيته (٤) .

وتعرض الآيات مرة أخرى عن ذكر الشبهة ، منعاً للتكرار المخل ، ولظهور المقصود دون حاجة إلى إعمال الفكر .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ

(١) سورة الصافات ، آية : ٥١ - ٦١ .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .

(٣) سورة الزخرف ، آية : ١١ .

(٤) سبق توضيح معنى هذه الآية في سور مختلفة .

بَخْلَقْنَهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) « (١) .

تشد الآيات الأذهان ، والقلوب إليها ، بالابتداء بهذا السؤال الإنكاري ، للتعجب من حال المنكرين للبعث ، الذين ظنوا بالله الظنون ، وأنكروا قدرته العلية على إحيائهم بعد موتهم ، ونشرهم بعد بلائهم ، وقالوا : هذا أمر عجيب ! فلقت الآيات أذهانهم إلى خلق السموات والأرض ، وهي من أعظم آيات الله الماثلة أمامهم ، فلم يعجزه خلقهما ، والذي لم يعجز عن هذا الخلق العظيم ، فقدرته على إحياء الموتى من باب أولى ، أمر يسير ، فهو القادر على كل شيء ، لا يعجزه من أمر خلقه شيء ، فهذه دلالة من الآفاق ، تثبت قدرة الله ، ساقها مثلاً لعل هؤلاء المنكرين عن غيهم يرجعون .

وقد أثبتت الآيات قدرة الله على البعث ولم تنص على شبهة المنكرين ، وجدالهم في حقيقة البعث ، وانتهجت سبيلاً آخر ، هو انتزاع هؤلاء المنكرين من مقام التقرير ، إل يحميم العذاب ، فإذا بهم مكبكون في النار ، يقسمون بالله أن وعده حق ، فيزيدهم عذاباً مع عذابهم ، وذلك ما كانوا به يكفرون .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْنَاهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ

(١) سورة الأحقاف ، آية ٣٣ ، ٣٤ .

الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ، (١) .

يُيِّنُ المولى - عز ذكره - في هذه الآيات ، أصل هذا الإنسان المجادل ، المنكر لدرة الله على بعثه (٢) ، ثم يقسم - عز ذكره - بذاته العلية ؛ وهو العظيم الذي خلق السموات ، والأرض وجعل لها مشارق ، ومغارب بأنه قادر على أن يبدل هؤلاء على الله بعزيز ، ثم يأمر - عز وجل - نبيه ﷺ أن يدعهم وشأنهم ، ويذرهم في لهوهم ، وجهلهم ، حتى يأتي يوم الحق ، الذي فيه يفزعون ، يوم يخرجون من قبورهم مسرعين ، تعلوهم الذلة والصغار ، وكأنهم يسعون إلى علم منصوب ، وهو ذلك اليوم الذي يُوعَدُونَ (٣) .

وهكذا أجابت الآيات عن إنكار المشركين للبعث ، ولم تنص على ذكر الشبهة ، وعُرف ذلك ضمناً ، وأرجعتهم لیتفكروا في ابتداء خلق أنفسهم ؛ ثم أعرضت عن جدالهم ، وذلك بأمر النبي ﷺ أن يدعهم وشأنهم حتى لا يفيقوا إلا وهم إلى القيامة يحشرون .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا (٢٠) » (٤) .

وردت دلائل قدرة الله على البعث في هذه الآيات ، في معرض تذكير نوح -

(١) سورة المعارج ، آية : ٣٩ - ٤٤ .

(٢) انظر الآيات السابقة التي تحدثت عن خلق الإنسان .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٢م ج ٢٩ / ٥٥ ، ٥٦ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٤) سورة نوح ، آية : ١٣ - ٢٠ .

عليه السلام - لقومه بنعم الله عليهم ، فيستنكر - عليه السلام - على قومه ، عدم تعظيمهم لله - عز وجل - وهو الذي خلقهم وتدرج في خلقهم من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة إلى عظام ، حتى استكمل خلقهم وهو الذي خلق السموات السبع ، وجعلها طباقاً بعضها فوق بعض ، ثم جعل القمر نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، وهو الذي خلقهم من تراب ، ثم يميتهم ، ويعيدهم إليها ، ثم إذا شاء بعثهم منها خلقاً سوياً ، وهو الذي بسط الأرض ، ليسعوا فيها ويسيروا في طرقها ، ويبحثوا عن رزقهم الذي جعله الله فيها (١) .

ولم تجادل الآيات المنكرين في أمر البعث ، ولم تصرح بشبهتهم وإنما أثبتت البعث عن طريق تعداد آلاء الله على عباده ، فالذي يسر هذه النعم ، ليس بعاجز عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم وفنائهم ، وهو على كل شيء قدير .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّيْلَ يَسِرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) » (٢) .

يذم - عز ذكره - في هذه الآيات ، ذلك الإنسان المنكر للبعث ، فيلغنه على كفره وجحوده ، لقدرة الله ، ثم يذكّره بحقارة ما خلق منه بقوله : « مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ » (٣) .

استفهام يقصد به التحقير ، ثم يجيب - سبحانه - بأنه خلق هذا المنكر من نطفة

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٢م / ج ٢٩ / ٦١ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤٥٣/٤ ، ٤٥٤ .

(٢) سورة عبس ، آية : ١٧ - ٣٢ .

(٣) سورة عبس ، آية : ١٨ .

حقيرة ، ثم قدر رزقه ، وعمله ، وأجله ، وسعادته ، وشقائه ، ثم دله على طريق الخروج من بطن أمه ، ثم هو الذي يميتة إذا حان أجله ، ويجعل له قبراً ، ثم إذا شاء بعثه ، وأعادته كيوم خلقه أول مرة ، ليحاسبه على أعماله ، ثم إن هذا الإنسان الكفور ، لم يؤد ما خلقه الله من أجله ، ثم توجه الآيات أنظار أولئك الجاحدين ، إلى آية من آيات اله في الآفاق ، وهي عملية إنبات الزرع ، وإخراج الطعام ، فالله - جلّت قدرته - هو الذي ينزل المطر على الأرض الميتة ، فتتهز ، وتسري فيها الحياة ، فتنبت الزروع ، والثمار للإنسان ، والحيوان ^(١) . فتبارك الله في علاه .

فالآيات لم تصرح بذكر شبهة منكري البعث ، وإنما تجبت من كفرهم ، وإنكارهم مباشرة ، ثم أوردت دلائل لقدرة الإلهية ، في الأنفس والآفاق .

ثم تأخذ الآيات في وصف ذلك اليوم العظيم ، موضحة مصير أصحاب الجنة ، ومصير أصحاب السعير ، ثم تصف أهواله حتى تتراءى أمام الأعين أحداث ذلك اليوم .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) » ^(٢) .

نصت الآيات على إثبات البعث بدليل من الأنفس ، فوجهت أنظار أولئك المكذبين ، المنكرين لقدرة الله على بعث الإنسان بعد موته ، ونشره بعد بلائه ، فوجهت أنظارهم إلى ابتداء خلقهم ، وأن الذي خلق هذا الإنسان المكابر ، من هذا المنى الضعيف ، قادر على إعادته إلى الحياة وذلك عليه يسير ^(٣) . وقد ورد ذكر هذه

(١) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٢م / ج ٣٠ / ٣٤ ، ٣٦ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٥٠٣ / ٤ ، ٥٠٥ .

(٢) سورة الطارق ، آية : ٥ - ٨ .

(٣) انظر : « تفسير جامع البيان » - ١٢م / ج ٣٠ / ٩١ - ٩٤ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٥٣١ / ٤ ، ٥٣٢ .

الدلائل في عدة مواضع سابقة :

وبهذا نخلص إلى أن شبه المنكرين ترجع إلى أحد أصليين :

١ - إنكار البعث والحساب والجزاء اتباعاً للهوى والشهوات .

٢ - إنكار البعث والحساب والجزاء بسبب الشبهات التي يطلقها المنكرون ، ولو عرفوا الله حق المعرفة ما تسارعت إلى نفوسهم الشبهات ^(١) .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يدخل إلى النفس الإنسانية من كل سبيل ، ليفرغ ما يريد بين جوانحها ، فإذا بها تثوب إلى خالقها ، وتعرف أن الله حق ، وأن الرسل حق ، وأن البعث حق ، وإن استبدت الأهواء الشيطانية ببعض النفوس فعتت عن أمر ربها ورسله ، إلا أنها في أعماقها تعلم صدق ما يقول ، فتغلب الشهوة ، والخوف المفزع من فكرة الرقيب والحساب على جوانب الخير فتسوق الإنسان إلى الهاوية .

الطريقة الثالثة : الإخبار عن وقوع البعث والحساب خبراً قاطعاً مع طبي الدليل لو ضوحه ^(٢) .

وفي هذا المسلك لا ينص القرآن الكريم على ذكر شبه المنكرين للبعث ، ومجادلاتهم ، وذلك لوضوحها ، واستقرارها ، وعدم الحاجة إلى تكرارها ، لاستيفاء الآيات السابقة طرحها ، ونقاشها ؛ لذا فإنه اقتصر في هذا المسلك على ذكر مشاهد القيامة ، وأحوال ذلك اليوم العظيم حتى تتراءى أحداثه وأحواله أمام الأنظار ؛ فينتزع النفوس من الأبدان ، وترجف القلوب ، وتضطرب القرائن ، لهول ما ترى ، وتسمع .

(١) انظر : « التفسير الكبير » ، ١٥م / ج ٣٠ / ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) « منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان » ، ص ٢٩٠ .

ويحسب القارئ لأول وهلة ، أن ذكر مشاهد القيامة قد جاءت للدلالة على صدق وقوع البعث ، والحساب ، والجزاء ، ورداً على المنكرين الجاحدين للبعث فقط ، دون المؤمنين المصدقين به ، وفي حقيقة الأمر ، أن تلك الآيات التي تصف أهوال القيامة ، وشدائدها قد جاءت حقاً كدليل لإثبات البعث ، والنشور ؛ فهي تتحدث عن اليوم الآخر ، وعن أحداثه وتصفه بكل دقة دون نقاش مع المنكرين في صدقه ، وكأن هذا الأمر مفروغ منه ، وحقيقة لا مراء فيها .

لذلك نرى أن وصف مشاهد القيامة قد جاء في السور المكية أثناء نزوله في المجتمع المشرك واستمر نزولها في السور المدنية على المجتمع المسلم الموحد (١) .

ومع أن هذا الجانب من الآيات لا يختص بمجال بحثي ، لعدم احتواء آياته على الجدل القرآني مع منكري البعث ، إلا أن الدراسة في هذا المقام تقتضي ملامسة بعض تلك الآيات ، باعتبارها طريقة انتهجها القرآن الكريم في إثبات البعث ، وسوف أذكر بعضاً من تلك الآيات التي تصف أهوال القيامة ، ومشاهدها ، دون التعرض لتفاصيلها ودقائقها .

فمن تلك الآيات ما جاء في قوله تعالى عند وصف مصير المؤمنين ومصير الكافرين: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٣٢) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي

(١) انظر : « دراسات قرآنية » ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) « (١) .

يبين المولى — عز ذكره — في هذه الآيات ، صورة من صور ذلك النعيم المقيم ، الذي أعده لمن آمن به ، وصدق ببلقائه ، ففي الجنة مقامهم ، يتحلون بالذهب واللؤلؤ ، ولباسهم فيها الحرير ، وهذا نوع من النعيم الحسي الذي أنعم الله به عليهم ، ثم يأتي النعيم المعنوي ترسمه على شفاههم معاني الحمد ، والثناء لله — عز وجل — الذي أذهب عنهم ما يحزنهم وما يسوؤهم فهو الله غافر الذنب ، مديم النعم ، الذي جعل مقامهم في جنات النعيم لا يرون فيها تعباً ولا نصباً .

ثم تصف الآيات مصير أولئك المكذبين ، المنكرين ، ففي النار مقامهم ، لا يأتيهم الموت دفعة واحدة فيستريحون من شواظ جهنم ، ولا يخفف عنهم العذاب ، وهذا جزاء من كفر ، وكذب ، ثم تصور الآيات مدى ما هم فيه من ألم ، وعذاب بقوله : « وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » (٢) . ثم تتعالى صيحاتهم لعلهم من العذاب يُنْقَذُونَ ، فلا مجيب لهم ، إلا مزيداً من اللوم ، والتقريع « أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ » فقد عُمرُوا في الدنيا ، وامتد بهم الأجل لعلهم عن غيهم يرجعون وجاءتهم الرسل بالآيات ، فما زادهم ذلك إلا طغياناً ونفوراً ، فاليوم ذوقوا ما كذبتُم به ، ولا نصير لكم ، ولا مجيب ، وهذا ما فعلتموه بأنفسكم .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٣ - ٣٧ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

الْإِنْسَانَ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) » (١) .

وهنا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يعرضه القرآن الكريم ، في هذه السورة فالسما تشقق وتنقاد إلى ربها ، وتسلمه زمامها ، وهذه الأرض تصبح قطعة واحدة مستوية لا عوج فيها ولا أمتاً ، وتلقي ما في جوفها من أجساد بالية ، وعظام خاوية إلى ظهرها ، ثم تنقاد إلى ربها وتسلمه زمامها ، ثم تُذكر الآيات هذا الإنسان المنكر بالبعث ، المكذب بقدره الله على إخراج ، تذكره ببقائه مع الله ثم تُفصل في ذكر مصير من يأخذ كتابه بيمينه فحسابه يسير ، ويرجع إلى أهله والفرحة تملأ جوانحه ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو على نفسه بالويل والثبور ، وتكون النار مأواه ، فقد كان قبل ذلك مسروراً بين أهله ، وظن أن الله لا يقدر علي بعثه بعد موته ، حتى رأى ما رأى .

ومن ذلك قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) » (٢) .

فالقارعة اسم من أسماء القيامة ، وهذه التسمية كما يقول « سيد قطب » - رحمه الله - فيها ما يلقي صورة القرع ، واللطم على حين غفلة (٣) ، وبعد التهويل

(١) سورة الانشقاق ، آية : ١ - ١٥ .

(٢) سورة القارعة ، آية : ١ - ١١ .

(٣) « مشاهد القيامة في القرآن » - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، دار الشروق القاهرة ، بيروت .

من شأن ذلك اليوم العظيم ، أخذت الآيات في وصف مشهد قصير من مشاهد الشدة يوم البعث ، فالناس مبثوثون كالفراش ، وهذه الجبال الرواسي متطايرة كالصوف المنفوش ، ثم يُنصب الميزان لتقييم الأعمال ، فمن ثقلت موازينه بالحسنات فقد فاز ونجا ، ومن خفت موازينه فقد خاب وخسر ، ثم يُفصل في ذكر العذاب ، على حين اقتضت في وصف النعيم ، وذلك ليلقي مزيداً من الرعب في نفوس المنكرين والمكذبين ، فمن يكذب بهذا اليوم ها هو يهوي إلى الحضيض ، فعبّر بقوله : « فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ (٩) » (١) . وهو تعبير غامض ، ليزيد من غموض مصيرهم ، مما يسبب كثرة الفرع ، وشدة الهلع من ذلك المصير المجهول ثم يفسر سؤاله بقوله : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ » (٢)

وعلى هذا المنوال تسير آيات القرآن الكريم في وصف أهوال القيامة ، وأحداثها ، حتى أن القارئ يشعر بنسيم الجنة يلامس وجنتيه ، وعبير أشجارها يختلط بدمه ، وهو يتقلب في نعيمها ، ثم لا يلبث أن تلفحه نيران جهنم ، فلا يسمع إلا أنين المعذنين ، وصريخ المستصرخين ، ولا يرى إلا أجساداً تُجر قُلُوبُهم في جهنم ، ويُصب من فوق رؤوسهم الحميم .

ثم لا يلبث القارئ أن يسأل نفسه من أي الفريقين هو ، فإن كان من أهل الفوز والنجاة جدّ واجتهد لينال المزيد والمزيد من النعيم ، وإن كان من أهل الخسران جدّ واجتهد في إنقاذ نفسه قبل أن يحين الأجل . وعلى هذا النهج تسير آيات القرآن في وصف مشاهد اليوم الآخر ، تراوح بين مشهد المؤمنين في النعيم ، ومشهد المكذبين في الجحيم ، وتارة يكون التفصيل والإطناب في وصف مشاهد العذاب ، وتارة أخرى في وصف مشاهد النعيم حيث تكون مع المكذبين في مقام خطاب في الدنيا ،

(١) سورة الفارعة ، آية : ٩ .

(٢) سورة الفارعة ، آية : ١٠ - ١١ ، انظر : « مشاهد القيامة في القرآن » ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

ثم لا ينتهي المقام إلا وهي تلقي بهم في نار جهنم ، فلا تدع نفوس المكذبين تستريح بعد عناء الجدل ، وإنما ترجهم رجاً ، ثم تأخذهم بتلابيبهم إلى موقف العرض والحساب ، ثم إلى أشد العذاب وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآني الكريم في خطابه مع النفس البشرية ، فيذيق المؤمنين منهم النعيم الحسي ، والمعنوي ، ويذيق الكافرين المكذبين العذاب الحسي والمعنوي من خلال آياته وسوره ، وهذه من دلائل الإعجاز في هذا الكتاب الكريم .

ثالثاً : الدراسة البلاغية للآيات :

لم تقتصر دلائل الإعجاز في القرآن الكريم على تنوع الأسلوب عند مخاطبة النفس البشرية تبعاً لتنوع الأجواء المحيطة ، والظروف التي تعيشها النفس البشرية ، وإنما يكمن الإعجاز أيضاً في نواحي أخرى كثيرة ، منها تلك الناحية البيانية التي أذهل العرب علوها ، وحسن منطقتها ، وكانت هي الناحية التي اقتصر القرآن الكريم في النهاية على تحدي العرب في الإتيان بمثلا .

وقد كثرت نواحي الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم ، حتى فاضت بها المؤلفات ، وهي لم تبلغ ما ترمي إليه من إيضاح مكان الإعجاز في الآيات . والعذر في ذلك سابق ومقبول وهو أن هؤلاء بشر ، وهو كلام المولى – سبحانه وتعالى – فأين تلك العقول التي تستطيع أن تستوعب هذه الطاقات الإعجازية المركزة؟!

وقد وردت نواحي الإعجاز البياني في كل سورة في القرآن الكريم ، وحفلت آيات البعث بخضم زاخر من هذا الإعجاز الرائع . وسوف أذكر فيما يلي بعض ما ورد في الآيات التي تتحدث عن بعض مشاهد القيامة من نواحي الإعجاز البلاغي ، والتي ورد الاستشهاد بها على الطريقة الثالثة من طرق عرض القرآن الكريم لقضية البعث .

فلقد اتضحت في الآيات موضع الدراسة ، بعض مكان الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم . فمن ذلك مثلاً ما نجد من الخصائص التي تميز بها أسلوب القرآن الكريم من رقة الألفاظ وجزالتها ، والتنويع في استخدام هذين العنصرين تبعاً لتنوع المشاهد التي تتحدث عنها الآيات .

فحين تطلع على مشهد المؤمنين ، ومشهد المعذنين من خلال هذه الآيات يتضح لك روعة سريان الأسلوب القرآني في وصف مشاهد النعيم ، وشدة وجزالته عند وصف مشاهد العذاب اقرأ إن شئت قوله تعالى : « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) » (١) .

فها أنت تتذوق النعيم من خلال ألفاظ هذه الآية ، وتلمسه من بين حروفها ، وكلماتها ، تسري كلماتها سريان النسمات الرقيقة التي تمتع أصحاب الجنة ، وتلمس فيها ملمس الحرير ، الذي يزين أجسادهم ، وترى فيها بريق الذهب ، وصفاء اللؤلؤ ، وتجتمع لك الراحة ، والنعيم من خلال إطلائك من بين حروفها ، وكلماتها ، فالجو كله سرور ، ونعيم ، والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها ، وإيقاعها مع هذا الجو الحاني، الرخيم ، حتى الحزن ، لا يتكأ عليه بالسكون الجازم ، بل يُقال الحَزَن بالتسهيل ، والتخفيف ، والجنة « دارالمقامة » والنصب ، واللغوب ، لا يمسانهم مجرد مساس ، (والإيقاع الموسيقي) (٢) للتعبير كله هادئ ، ناعم ، رتيب (٣) .

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٣ - ٣٥ .

(٢) ينبغي أن نُنزه القرآن الكريم وألفاظه عن مثل هذه الاصطلاحات التي لا تليق به ؛ فنقول بدلاً من ذلك : التناسق الصوتي .

(٣) « الظلال » - ٥٠ - ج ٢٢ / ٢٩٤٤ .

وتلقت إلى الجانب الآخر فترى القلق ، والاضطراب ، وعدم الاستقرار على حال^(١) .

استمع إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) » وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ (٣٧) » (٢) .

ألا تصخُّ سمعك شدة الألفاظ ، وجزالتها ، التي تعبر عن شدة الموقف ؟ ألا تسمع كلماتها بحروفها ؟ ألا تترك أنفك رائحة العذاب من خلال سكنات الكلمات ، وحرركاتها ؟

تأمل قوله (يَصْطَرِخُونَ) : « تسمع من خلاله ذلك الصوت الغليظ المحشرج ، مختلط الأصداء ، متناوح من شتى الأرجاء ، إنه صوت المبذوين في جهنم ، وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا » (٣) .

ثم تأمل شدة الرد من المولى - سبحانه - في شدة اللفظ على المعذنين حين يطلبون النجاة : « أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ؟ (٤) » إنه ردٌ حاسم ، يحمل التأنيب القاسي من خلال همزة الاستفهام ، وإعادة اللفظ القوي ، الذي يحز في تلك النفوس المعذبة ، حز السيف على رأس القتيل .

وهكذا ترى جزالة ألفاظ القرآن الكريم ، أو سهولتها من خلال هذين المشهدين ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤٥ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٦ - ٣٧ .

(٣) « الظلال » - م - ٥٠ / ج ٢٢ / ٢٩٤٥ .

(٤) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

تجد في مشهد النعيم الجرس اللين ، والإيقاع الرتيب ، يقابلها الجرس الغليظ ، والإيقاع العنيف في مشهد العذاب ، فيتم التقابل ، ويتم التناسق في الجزئيات ، والكليات (١) .

ومن مميزات الأسلوب القرآن ، الدقة في استعمال الألفاظ ، وتتضح لنا هذه الدقة من خلال الآيات موضع الدراسة ، قف أمام قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » (٢) .

تجد أن المشهد مشهد نعيم وسرور ، فالجو كله يسر ، وراحة ، لذلك جاءت الألفاظ سلسلة ، موحية معبرة عن ألوان النعيم ، فانظر كيف دق ، ورق القرآن الكريم في استعمال هذه الألفاظ بذاتها للتعبير عن هذا المعنى بذاته .

ثم قارن بين الألفاظ في هذا السياق وبين قوله تعالى : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » (٣) .

ألا تجد شدة ذلك الموقف ، بشدة هذا اللفظ أنه صوت ضجيج أولئك المعذبين في نار جهنم تنقله إلى أسماعنا كلمة « يَصْطَرِخُونَ » .

ألا ترى في نطقك لهذه الكلمة وأنت تضغط على حروفها ؟ ألا ترى الشدة فيها وأنت تنطق الصاد ، والطاء ، والخاء ، في كلمة واحدة ، إنه لقرآن عظيم نطق بالألفاظ والحروف فأنطق بالإعجاز الممزوج بالروعة والإعجاب .

وهكذا تتضح لنا براعة القرآن الكريم في حسن استعمال الألفاظ المعبرة عن

(١) هـ الظلال ١ - ٥م / ج ٢٢ / ٢٩٤٥ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٤ .

(٣) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

المشاهد بكل دقة وروعة .

ولم تختص بلاغة القرآن الكريم بهذا النوع من الإعجاز فقط. وإنما هناك نواحي من الإعجاز البلاغي قد حفلت بها الآيات ، ونبعث من بين حروفها علوم البلاغة بألوانها ، وأفنانها .

فكما ورد في الآيات من علم المعاني من الأسلوب الإنشائي « الاستفهام » ولنا معه وقفات طويلة في الصفحات القادمة وهنا نخرج عليه سريعاً .

من ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) » (١) .

الاستفهام موجه من المولى - عز وجل - إلى أصحاب النار ، وقد وقع الاستفهام بالهمزة الداخلة على حرف النفي « أَوْ لَمْ » وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ، وقصد به هنا ، التوبيخ (٢) .

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .

(٢) « تفسير البحر المحيط » ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي - ٣٠٣ / ٧ - ط ٢ - ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م دار الفكر - بيروت ، « الكشف » : ٦١٥ / ٣ ، تفسير البيضاوي المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » - عبد الله بن عمر الشيرازي الشهير بالبيضاوي - ٢٧٤ / ٢ - ط ١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، تفسير أبي السعود المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » - لأبي السعود محمد بن محمد العمادي - ١٥٤ / ٧ ج ١ - ط ١ - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ، « روح المعاني » : ٢٠١ / ٢ ، « الفتوحات الإلهية لتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية » ، لسليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل - ٣ / ٩١ - ط ١ - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر - « معترك الأقران » : ١ / ٤٣٣ ، « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » - برهان الدين أبي الحسن البقاعي - ٦٣ / ١٦ - ط ١ - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

والتوبيخ هنا موجه لهؤلاء الكافرين حين لم يستغلوا فرصة إمهالهم في الدنيا ، ويعملوا لما بعد الموت ، وقيل : قصد به التوقيف والتقدير ^(١) . والمقصود - والله أعلم - قد عمرناكم في الدنيا ولم تتذكروا . وقيل : قصد به الإنكار ^(٢) ، أي ألم نهملكم عمراً في الدنيا حتى تتذكروا ، وتعملوا لهذا اليوم ^(٣) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) » ^(٤) .

الاستفهام وقع في قوله : « مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وقد جاء باستخدام أداة الاستفهام (ما) وقصد به الاستعظام والتعجب ^(٥) . والتهويل من شأنها ^(٦) . ثم عطف عليها استفهام آخر ، « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وذلك تأكيداً لهولها ، وفظاعتها ^(٧) ، وإشباعاً للتهويل الأول ، فهو للإنكار ، والمعنى « أنت لا تعلم هول القارعة ، وشدته ، وفظاعته ، يعني على سبيل التفصيل ؛ لأن العلم به على هذا الوجه ، إنما يكون في القيامة عند المعينة ، وأما في الدنيا فعلمك به إنما

(١) البحر المحيط : ٢٠٣ / ٧ ، نظم الدرر : ٦٣ / ١٦ ، حاشية الشهاب ، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي - ٢٢٨ / ٧ - دار صادر - بيروت .

(٢) روح المعاني : ٢٢ / ٢٠١ ، إرشاد العقل السليم - م / ٤ ج / ١٥٤ ، الفتوحات الإلهية : ٤٩٧ / ٣ ، حاشية الشهاب : ٢٢٨ / ٧ .

(٣) انظر : « الفتوحات الإلهية » : ٤٩٧ / ٣ .

(٤) سورة القارعة ، آية : ١ - ٣ .

(٥) « البحر المحيط » : ٥٠٦ / ٨ ، « الفتوحات الإلهية » : ٥٧٧ / ٤ .

(٦) « أنوار التنزيل » : ٢ / ٢٥٠ ، « تفسير القرآن العظيم » : ٤ / ٥٨٠ ، « إرشاد العقل السليم » - م / ٥ ج / ١٩٢ ، « التفسير القرآني للقرآن » - عبد الكريم الخطيب - م / ٨ ج / ٣٠ / ١٦٦٢ - دار الفكر العربي .

(٧) « إرشاد العقل السليم » - م / ٥ ج / ٩٢ / ١٩٢ - ١٩٤ .

هو على سبيل الإجمال» (١).

ومن الوصل ما جاء في قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» (٢). عطفت هذه الجملة على ما قبلها وهو قوله: «مَا الْقَارِعَةُ» (٣)، وقد وقع العطف بالواو.

كما اشتركت الجملتان في كونهما اسميتان، وهي جمل إنشائية لفظاً، ومعنى، والجملة الأولى، «القارعة» لها محل من الإعراب، إذ أنها وقعت خبر المبتدأ، وعطفت الجملة الثانية على الأولى فشاركتها في الحكم الإعرابي.

وبلاغة الوصل في هذا الموضع، للإيغال في غموض أمر القارعة، وسر كونها؛ فالوصل بين الجمل التي تستفهم عن حقيقتها، يؤدي إلى مزيد من إيقاع الخوف في النفوس، وزيادة في شد الأذهان إلى تفسيرها – والله أعلم –.

ومن الذكر ما جاء في قوله تعالى: «الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (٣٥) (٤).

فقد أعاد الفعل المنفي، والتصريح بنفي الثاني من استلزام نفي الأول له، وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما (٥).

ومن الحذف ما جاء في قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ» (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) (٦).

حذف المبتدأ لأن ذكره يبعث في النفس السأم، لشدة وضوحه، لقرب الحديث

(١) «الفتوحات الإلهية»: ٤ / ٥٧٧.

(٢) سورة القارعة، آية: ٣.

(٣) سورة القارعة، آية: ٢.

(٤) سورة فاطر، آية: ٣٥.

(٥) «إرشاد العقل السليم» – ٥م/ج ٧/ ١٥٤.

(٦) سورة القارعة، آية: ١٠، ١١.

عنه، وتأمل الفرق بين هذا الأسلوب الموجز، وبين أن يقال: ما أرداك ما هية، هي نار حامية، من الإسراع إلى ذكر النار بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها (١).

ومن الإيجاز « بالقصر » ما جاء في قوله تعالى: « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) » (٢) ثقل الموازين بالأعمال الصالحة على اختلافها، من معاملات وعبادات، وطاعات، وغيرها عبر عنها بثقل الموازين، والعيشة الراضية، هي الجنة، وما فيها من نعيم مقيم، عبر عن كل هذا النعيم الحسي، والمعنوي، بكلمة واحدة هي « راضية » يقول « صاحب الظلال » في وصف هاتين الجملتين: يدعها مجملة بلا تفصيل، تُوقع في الحس ظلال الرضى، وهو أروح النعيم (٣).

وهكذا نجده في هاتين الجملتين قد أوجز الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من ثواب، بكل روعة وجمال.

ولقد تنوعت أساليب الإطناب في آيات البعث. فمن ذلك الإطناب؛ التفصيل بعد الإجمال منه ما جاء في قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَنَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ (١٤) » (٤).

فقد أجمل القول أولاً في قوله « إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » (٥). ثم

(١) « من بلاغة القرآن » أحمد أحمد بدوي، ص ١٢٠ - مطبعة نهضة مصر - الفجالة - القاهرة.

(٢) سورة الفارعة، آية: ٦، ٧.

(٣) ٣٩٦١/٣٠ ج/٦م.

(٤) سورة الانشقاق، آية: ٦ - ١٤.

(٥) سورة الانشقاق، آية: ٦.

فصلٌ هذا الإجمال بقوله : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ... » إلخ ^(١) حيث فصل مصير الإنسان المؤمن ، ومصير الكافر ^(٢) . وكذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » ^(٣) ، ^(٤) .

وقوله : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » ^(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ^(٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ^(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ^(٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ^(٨) فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ^(٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ^(١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ^(١١) » ^(٤) .

أجمل القول في الآية الأولى بذكر هيئة الناس يوم القيامة ، بقوله : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » ^(٥) ، فهو إجمال لحال الناس حينئذٍ ، فذلك هو المقصود بذكر اسم الناس الشامل لأهل السعادة وأهل الشقاء ، فلذلك كان تفصيله بحالين : حال حسن ، وحال فظيع ، بقوله : « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ^(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » ^(٦) . ثم يأخذ في تفصيل صور العذاب .

وصور العذاب أشد تفصيلاً في القرآن من صور النعيم على العموم ؛ لأن الإطالة فيها أوقع في الحس وأروع للنفس ^(٧) .

(١) سورة الانشقاق ، آية : ٦ .

(٢) انظر : « التحرير والتنوير » ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ٢٢٢/٣٠ - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤ م ، « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » ، محمد الأمين الشنقيطي : ١١٦/٩ - عالم الكتب ، بيروت ، « غرائب القرآن » - هامش الطبري - ١٢م / ج ٣٠ / ٥٣ .

(٣) سورة القارعة ، آية : ٤ .

(٤) سورة القارعة ، آية : ٤ / ١١ .

(٥) سورة القارعة ، آية : ٤ .

(٦) سورة القارعة ، آية : ٦ ، ٧ .

(٧) « مشاهد القيامة في القرآن » : ص ٦٥ .

ومنه : الإيضاح بعد الإبهام :

منه : قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمَّهُ هَابِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارٍ حَامِيَّةٍ (١١) » (١) ، في التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص ، وفيه كذلك غموض يمهّد لإيضاح بعده ، يزيد في عمق الأثر المقصود « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ » ؟ (٢) سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن ؛ لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك ، ثم يجيء الجواب كنبرة الختام « نَارٍ حَامِيَّةٍ » (٣) إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية (٤) . وبهذا تكون جملة «نَارٍ حَامِيَّةٍ» بيان لجملة « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ » (٥).

ومن التذليل ما جاء في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) » (٦) قوله : « كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ » (٧) جملة تذييلية (٨) ، مقررّة لمضمون الجملة قبلها .

ومن الإظهار :

ما جاء في قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) » (٩) .

(١) سورة القارعة ، آية : ٨ - ١١ .

(٢) سورة القارعة ، آية : ١٠ .

(٣) سورة القارعة ، آية : ١١ .

(٤) « الظلال » - ٦م / ج ٣٠ / ٣٩٦١ .

(٥) « التحرير » : ٣٠ / ٥١٥ ، وانظر : « مشاهد القيامة في القرآن » ، ص ٦٦ .

(٦) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .

(٧) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .

(٨) « التحرير » : ٢٢ / ٣١٨ .

(٩) سورة القارعة ، آية : ١ ، ٢ .

فقد أعاد هنا لفظ « القَارَعَةُ » وكان الأصل أن يقال : « القارعة ، ما هي ؟ دون إظهار اسمها مرة أخرى ، ولكنه أبرز الاسم مرة ثانية للتخويف والتهويل (١) ، والتعظيم وإظهار الفخامة فيه (٢) .

علم البيان :

أما بالنسبة لعلم البيان فقد ورد منه في الآيات « التشبيه » ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى تعالى : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) » (٣) .

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يصوره لنا القرآن الكريم بهذه الصورة القرية؛ ليمثلها الفكر ، فيعرف أي يوم هو ؟ فشبه الناس بالفراش المبعوث والفراش : هي الطير التي تراها تنهافت على النار سميت بذلك لفرشها ، وانتشارها (٤) .

وقيل : الفراش ، فرخ الجراد حين يخرج من بيضه من الأرض ، يركب بعضه بعضاً ، وقد يطلق على ما يطير من الحشرات ، ويتساقط على النار ليلاً (٥) . ووجه الشبه ، الكثرة ، والانتشار ، والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير الفراش إلى النار (٦) .

وقيل وجه الشبه : لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل واحدة

(١) « صفوة التفاسير » : ٣ / ٥٩٦ .

(٢) « الطراز » : ٢ / ١٤٨ ، « البرهان » ، « الزركشي » : ٢ / ٤٨٦ .

(٣) سورة القارعة ، آية : ٤ ، ٥ .

(٤) تفسير الخازن « المسمى » لباب التأويل في معاني التنزيل « - لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن - ٢٣٦ / ٧ - المكتبة التجارية - مصر .

(٥) « التحرير » : ٣٠ / ١٥٢ .

(٦) « الكشف » : ٤ / ٧٨٩ ، « روح المعاني » : ٣٠ / ٢٢١ ، « إرشاد العقل السليم » - ٥٠م / ج ٩ / ١٩٣ .

تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدلَّ بهذا التشبيه على أن الخلق في البعث يتفرقون ، فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر ^(١) . وقيل : يدلَّ هذا التشبيه على أن الناس إذا بعثوا فزعوا ، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة ^(٢) .

وذكر صاحب « الطراز » أن هذا التشبيه من التشبيه المطرد . الذي يقول فيه : « اعلم أن المبالغة في التشبيه لا يمكن حصولها إلا إذا كان المشبه به أدخل في المعنى الجامع بينهما » .

ويقول أيضاً : « لا بد من اعتبار زيادة المشبه به على المشبه في تلك الصفة الجامعة بينهما » .

والزيادة على أوجه ، منها : تشبيه صورة بصورة ، كقوله تعالى : « كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » ^(٣) شبه الناس يوم القيامة في الضعف ، والهوان بالفراش ، لما فيه من الدقة ، وضعف الحال ^(٤) .

وقيل وجه الشبه كثرة الاكتظاظ على أرض المحشر ^(٥) . وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى :

أحدها : ما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - قال « الناس عالم ومتعلم ، وسائر الناس همج رعاع » فجعلهم الله في الأخرى كذلك « جزاءً وفاقاً » ^(٦) .

(١) « تفسير الخازن » : ٢٣٦ / ٧ .

(٢) « التفسير الكبير » : ١٦م / ١٦ج ٣٢ / ٧٢ .

(٣) سورة القارعة ، آية : ٤ .

(٤) الطراز ١ / ٣٠٤ .

(٥) « التحرير » : ٣٠ / ٥١٢ .

(٦) رواه الدارمي في كتاب « المقدمة » باب : ٣٢ ، ورواه الطبراني في « المعجم الكبير » - تحقيق : حمدي السلفي - ٢٤٧/١٠ - واللفظ مختلف - ط ١ - ١٤٠٠ هـ .

ثانيها : أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ، فقال « كَالْفَرَّاشِ » ؛ لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش ، لأن الفراش لا يعذب ، وهؤلاء يعذبون ، ونظيره «أَوَلَيْكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» (١) .

وفي قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » (٢) تشبيه أيضاً ، حيث شبه الجبال في ذلك اليوم العظيم ، بالصوف المصبوغ ألواناً ؛ لأنها ألوان ، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها (٣) .

وقيل : إن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ » (٤) ثم إنه سبحانه يفرق أجزائها ، ويزيل التآليف والتراكيب عنها ؛ فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً .

وقيل : إنما ضمَّ بين حال الناس وبين حال الجبال ، كأنه - تعالى - نبه على أن تأثير تلك القارعة في الجبال ، هو أنها صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها ! فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه ؛ ويحتمل أن يكون المراد إن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حرمتها (٥) .

وقيل : إن هذا التشبيه وقع لإظهار باهر القدرة ، مبالغة في الرد على من أنكر

(١) « التفسير الكبير » ١٦م / ج ٣٢ / ٧٢ . سورة الأعراف ، آية : ١٧٩ .

(٢) سورة القارعة ، آية : ٥ .

(٣) « الكشف » ٤ : ٧٩٠ ، وانظر : « إرشاد العقل السليم » ٥م / ج ٩ / ١٩٣ .

(٤) سورة فاطر ، آية : ٢٧ .

(٥) « التفسير الكبير » ١٦م / ج ٣٢ / ٧٢ ، وانظر : « تفسير الخازن » : ٧ / ٢٢٦ .

المعاد الأخروي وتكديماً لمن حاك في صدره استبعاد ذلك (١) .

وقوله تعالى : « فَأُمُّ هَآوِيَّةٌ » (٢) ذكر « الزمخشري » أنه فيه تشبيهاً ؛ حيث قيل : للمأوى أم ، على التشبيه ؛ لأن الأم مأوى الولد ، ومفزعه (٣) فنار جهنم تؤوي هؤلاء المجرمين كما يأوي الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم كما تضم الأم أولادها إليها (٤) .
فالتشبيه تهكمي على هذا الوجه (٥) .

ومن علم البديع : ما ورد من « المقابلة » في قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) » (٦) . فقد قابل بين جزاء المؤمن المصدق بوعد الله ، وبين جزاء الكافر المكذب بما جاء من عند الله . ولا شك أن هذه المقابلة بين الجزاءين تجعل الإنسان يضع نفسه في كل موقف ، ويتساءل مع أيهما يحشر ؟ فإن كان مع الأول جدّ لطلب المزيد ، وإن كان مع الآخر جدّ لطلب النجاة ، وهذه إحدى فوائد المقابلة التي تعرض في آيات القرآن الكريم .

ومن المقابلة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَآوِيَّةٌ (٩) » (٧) .

(١) الطراز : ١ / ٣٠٥ .

(٢) سورة القارة ، آية : ٩ .

(٣) « الكشف » : ٤ / ٧٩٠ ، وانظر : « التفسير الكبير » ١٦م / ج ٣٢ / ٧٤ .

(٤) « صفوة التفاسير » : ٣ / ٥٩٦ ، وانظر : « حاشية الشهاب » : ٨ / ٣٩٣ .

(٥) المرجع السابق الأخير .

(٦) سورة الانشقاق ، آية : ٧ - ١٢ .

(٧) سورة القارة ، آية : ٦ - ٩ .

قابل بين الآية الأولى ، والآية الثانية ^(١) ، فشغل الموازين بالحسنات يؤدي إلى العيشة الراضية في الجنة ، وخف الموازين يؤدي إلى نار جهنم ، وقد قابل القرآن بين الحالين ، فَسَمَتْ بهذه المقابلة عدالة الخالق - عز ذكره - في تقرير مصير كل منهما ، ما كان لنا أن نعرف مقدار هذه العدالة الإلهية عند الحساب ، والجزاء ، لولا مجيئها بهذه الصورة في هذا الموضع بالذات.

(١) انظر : «الصفوة» : ٥٩٧/٣ .

الجدل

أولاً : تعريف الجدل :

١- الجدل لغة :

جَدَلَ الحبلُ : فَتَلَّهُ ، وَزِمَامٌ مجدول وهو الجدِيل (١) . والجَدَلُ : اللَّدْدُ في الخصومة والقدرة عليها ، وقد جادله مجادلة وجِدَالاً . ورجل جَدِلَ ومِجْدَلٌ ومِجْدَالٌ : شديد الجَدَلِ . ويقال : جَادَلَتِ الرجلَ فجَدَلْتَهُ جَدَلًا أي غلبته . ورجل جَدِلَ إذا كان أقوى في الخصام ، وجَادَلَهُ أي خاصمه مُجَادَلَةً وجِدَالاً ، والاسم الجَدَلُ ، وهو شدة الخصومة . الجَدَلُ : مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة (٢) .

٢- الجدل اصطلاحاً :

هو القتال للخصم عن مذهب إلى مذهب بطريق الحجة (٣) . وقيل : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم (٤) .

(١) أساس البلاغة ، للإمام جار الله أبي القاسم محمود الزمخشري ، تحقيق الأستاذ : عبد الرحيم محمود ، مادة (جدل) ص ٥٣ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) لسان العرب ، للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، ١٠٥/١١ ، مادة (جدل) - دار الفكر - بيروت .

(٣) الجدل على طريقة الفقهاء ، الشيخ أبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ، ص ١ .

(٤) مناهج الجدل في القرآن الكريم ، ص ٢٠ .

ثانياً : أنواع الجدل :

الجدل نوعان :

- ١ - جدل مذموم : وهو الجدل على الباطل . وهو المنهي عنه في الحديث .
- ٢ - جدل محمود : وهو طلب المغالبة لإظهار الحق ^(١) ، لقوله تعالى : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ^(٢) .
- يقول الرازي : ولا شك أن المراد بقوله بالحكمة أي بالبرهان والحجة . فكانت الدعوة بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأموراً بها ^(٣) .

ثالثاً : طرق مجادلة القرآن الكريم لمنكري البعث :

ورد الجدل في القرآن على ثلاثة أوجه هي :

- أ - الأدلة والبراهين والحجج التي ردّ بها على المنكرين ، أو وردت لتثبيت العقائد ، وتقرير قواعد الملة التي أرسل الله بها رسله عليهم السلام - وهذا النوع من الأدلة ، وإن كان فيه معنى الإلزام والإفحام إلا أنه مشتمل على التوجيه والإرشاد ، وكثر هذا النوع من الأدلة عند تقرير حقيقة البعث والجزاء .
- ب - ما ورد في القرآن بطريق الحوار ، والقصد منها الاسترشاد ، وحب الاستطلاع ، والنظر للعظة والعبرة ، كما حدث بين الخليل عليه السلام وربه .
- ج - الشبه والدعاوى الباطلة التي ترد على ألسنة المنكرين والمشككين ، ويتولى القرآن دحضها والرد عليها . وجدل هؤلاء القوم يعد من الجدل بالباطل ^(٤) ، قال

(١) لسان العرب ، ١١ / ١٠٥ .

(٢) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .

(٣) التفسير الكبير ، ١٢ / ج ٢ / ٩٠ / ٩١ .

(٤) مناهج الجدل في القرآن الكريم ، ص ٢١-٢٢ ، بتصرف .

تعالى : « وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » (١) .

ويقول « السيوطي » في جدل القرآن : « ما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبني من كليات المعلومات العقلية والسمعية ، إلا وكتاب الله قد نطق به ، ولكن أوردته على عادات العرب دون دقائق وطرق المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَانُ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » (٢) .

والثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة ؛ هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليلهم ما يقنعهم ، وتلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أبنائها ما يرى على ما أدركه منهم الخطباء (٣) .

منهج القرآن في استدلاله على حقيقة وقوع البعث :

لقد ورد جدل منكري البعث في القرآن الكريم على طريقة الاستفهام ، والتعجب من حقيقته ، ولم يكن لهم في هذه المسألة منطق جدلي فلسفي ، وليس لهم من دليل سوى الإنكار أو الاستبعاد (٤) .

وكان من الممكن أن يُعرض القرآن الكريم عن مجادلة منكري البعث ، يثبت حقيقته مباشرة بمختلف الأدلة الحسية ، والعقلية ، دون الالتفات إلى ما أثاره

(١) سورة غافر ، آية : ٥ .

(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٤ .

(٣) الإنشقاق ، ١٧٢/ ٢ .

(٤) انظر : التفكير الفلسفي في الإسلام ، للإمام عبد الحليم محمود - ص ٨٠ - ط ٤ - مطبعة الدار المصرية - القاهرة .

المشركون من شبه ، ولكنه عمد إلى عرض شبه المنكرين وجادلهم ؛ لمرامي عظيمة ، تهدف إلى الإجابة عن كافة التساؤلات التي من الممكن أن تشغل الفكر الإنساني على مر الزمان .

وقد جاء باستدلالات مختلفة ، أسمى من جدل المنطقيين ، المتفلسفين . فقد عمد إلى الاستدلال بالأمور الحسية ، البديهية ، التي لا يعجز العقل البشري عن إدراكها ، يقرأها الدهماء فلا تعلو على أفهامهم ، وينعم النظر فيها العلماء والحكماء فيستنبطون منها الحقائق الصادقة ، والحجج الملجمة ، وكلما ازداد فيها المتبصر نظراً زادته استبصاراً ، وعلماً على مما يهتدي إليه بنفسه (١) .

ومن استدلال القرآن على حقيقة البعث نذكر ما يلي :

١ - قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) » (٢) .

وقع الاستدلال على البعث في الآية الكريمة بطريقتين :

أ - الاستدلال على الإعادة بالبده : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ... » (٣) .

ب - الاستدلال على القدرة على البعث بخلق السموات والأرض وما فيهن : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » (٤) ، وهذا أعظم ، وأكبر من خلق الناس .

٢ - قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ

(١) انظر : تاريخ الجدل ، محمد أبو زهرة ، ص ٦٢ . ط ١ - ١٩٣٤ م - دار الفكر العربي .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٩ .

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ (١) .

ورد الاستدلال على البعث في هذه الآية بمن أ ماتهم الله ثم أحياهم (٢) .

٣ - قوله تعالى : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ » (٣) .

٤ - قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ » (٤) .

الاستدلال على البعث بمن أ ماتهم الله ثم أحياهم .

٥ - قوله تعالى : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ » (٥) .

وهذا أيضاً من الاستدلال على البعث بمن أ ماته الله ثم أحياه .

٦ - قال تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٢ . مناهج الجدل ، ص ٣٠٥ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ « (١) .

الاستدلال بإحياء الطير بعد موتها ، وهو من إحياء الموتى .

٧ - قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ » (٢) .

الاستدلال على البعث بقياس الإعادة على البدء . قيل : وذكر مادة ما منه الخلق بقوله « من طين » لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني ؛ لأنهم استبعدوا أن يعاد خلق الإنسان بعد أن صار تراباً ، وتكررت حكاية ذلك عنهم في القرآن الكريم ، قد اعترفوا بأنهم يصيرون تراباً بعد الموت ، وهم يعترفون بأنهم خلقوا من تراب ؛ لأن ذلك مقرر بين الناس في سائر العصور ، فاستدلوا على إنكار البعث بما هو جدير بأن يكون استدلالاً على إمكان البعث ؛ لأن مصيرهم إلى تراب يقرب إعادة خلقهم ، إذ صاروا إلى مادة الخلق الأول ، فلذلك قال الله هنا : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ .. » (٣) ، وقال في آيات الاعتبار بعجيب تكوينه : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ... » (٤) . وأمثال ذلك . وهذا القدح في استدلالهم يسمى في اصطلاح علم الجدل « القول بالموجب » والمنته عليه من خطأ استدلالهم يسمى فساد الوضع (٥) .

(١) سورة البقرة ، آية : ٣٦٠ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢ .

(٤) سورة الإنسان ، آية : ٢ .

(٥) التحرير ، ٧ / ١٣٠ .

٨ - قال تعالى : « وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) » (١) .

وجاء الاستدلال على البعث في هذه الآية بطريقتين :

أ - الاستدراك (٢) « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » (٣) .

وأيضاً قد يسمى هذا النوع من الاستدلال ، بالإسجال وهو الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب به (٤) . كما وقع الاعتراف منهم في هذه الآية .

ب - الإسجال « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » (٥) ، حيث ثبت اعتراف الخصم بما كان ينكره قبل ذلك ، وذلك عن طريق نقل هذه الصورة من العذاب لأمثالهم ، واعترافهم بما أنكروه وندامتهم على ما فرطوا فيه .

٩ - قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ

(١) سورة الأنعام ، آية : ٢٩ - ٣١ .

(٢) حاشية الشهاب ، ٤ / ٤٧ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ .

(٤) الإنشقاق ، ٢ / ١٣٧ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٣١ .

سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْمَاءِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ (١).

وهذا الآية أيضاً من الاستدلال على صحة القول بالحشر والنشر (٢)، وذلك عن طريق قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر، والنبات (٣)، إذا القادر على إحياء الأرض بعد موتها، يجب كونه أيضاً قادراً على إحياء الأجساد بعد موتها (٤).

١٠ - قوله تعالى: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾» (٥).

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآية بعدة طرق هي:

(أ) قياس الإعادة على البدء «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» (٦) إذ أنه تعالى لما كان قادراً على أن يخلقنا ابتداءً من غير مثال سبق، فلأن يكون قادراً على إيجادنا مرة

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٧.

(٢) التفسير الكبير، ٧م/ ١٤ج- ١٣٨.

(٣) الإتيان، ٢/ ١٣٦، وانظر: مناهج الجدل، ص ٣١٦.

(٤) التفسير الكبير، ٧م/ ١٤ج- ١٤٣.

(٥) سورة يونس، آية ٤-٨.

(٦) سورة يونس، آية: ٤.

أخرى مع سبق الإيجاد الأول ، كان أولى (١) .

(ب) الجدل على طريقة العلة والمعلول : وذلك بأن يكون أحدهما علة للآخر (٢) . إذ جعل البعث ، ووجود اليوم الآخر لعللة الحساب ، والجزاء ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (٣) ، ويمكن أن يسمى هذا النوع من الاستدلال أيضاً الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء (٤) .

(جـ) الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور في هذه الآية ، مما يدل على التوحيد من وجهه ، وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الآخر ، وهو أن خلق الشمس والقمر وجعله منازل ليتوصل المكلف بذلك إلى معرفة السنين والحساب ليتمكن ترتيب مهمات معاشه ، فكما اقتضت الحكمة تمييز المحسن من المسيء بعد الموت ، اقتضت كذلك خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذي لا نفع له إلا في الدنيا (٥) .

(د) الاستدلال على البعث بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار ، وخلق ما في السموات والأرض ، وهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات البدء وإثبات المعاد (٦) وقد أعقب المولى - سبحانه - هذه الدلائل بذكر مصير من أنكر البعث .

(١) التفسير الكبير ، ٩م / ج ١٧ / ١٧ .

(٢) المعجزة الكبرى ، ص ٣٥٢ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٤ .

(٤) مناهج الجدل ، ص ٣٢٠ .

(٥) التفسير الكبير ، ٩م / ج ١٧ / ٣٣ ، بتصرف .

(٦) المرجع السابق ، ٩م / ج ١٧ / ٣٧ ، بتصرف .

١١ - قال تعالى : « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ » (٣٤) « (١) .

جاء الاستدلال على البعث هنا بقياس الإعادة على البدء ؛ ولكن هذه الحجة وردت على سبيل السؤال ، والاستفهام ، فما الفائدة ؟

والجواب : إن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ، ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول ، كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب ، ولما كان الدليل ظاهراً جلياً ، أمر رسوله بأن يعترف بذلك ، وذلك تنبيهاً على أن هذا الكلام بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه إلى إقرار الخصم به ، وأنه سواء أقر ، أو أنكر ، فالأمر متقرر ظاهر (٢) .

١٢ - قال تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » (٤٥) « (٣) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآية عن طريق التقرير والإثبات مباشرة ، وذلك بذكر حال المكذبين به يوم القيامة .

١٣ - قال تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٤٨) « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٤٩) « (٤) .

(١) سورة يونس ، آية : ٣٤ .

(٢) التفسير الكبير ، م ٩ / ١٧٥ - ١٨٨ ، ٨٩ ، بتصرف .

(٣) سورة يونس ، آية : ٤٥ .

(٤) سورة يونس ، آية ك ٤٨ ، ٤٩ .

حين ذكر المنكرون شبهتهم ، لم يجب القرآن عن هذه الشبهة ، وإنما أمر الرسول ﷺ أن يجيب بجواب يحسم المادة ، وهو قوله : قل لا أملك لنفسي (١) وذلك متعباً طريقة الاستدلال برد المسائل إلى أمور بديهية معروفة ، أو حقائق معروفة ، مشهورة ، مألوفة ، يخر المجادل أمامها صاغراً (٢) ؛ حيث أثبت النبي ﷺ أن النفع والضرر بيد الله ، وهذه حقيقة معروفة لا يُمارى فيها أحد ، وبهذا يخلص إلى أن تعيين الوعد إنما هو بيد الله وحده .

١٤ - قال تعالى : « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) » (٣) .

نجد أن هذه الآية لم تذكر الاستدلال على صحة وقوع البعث مباشرة ، وإنما نهجت في جدلها مع المنكرين منهجاً آخر ، حيث أمر المولى - سبحانه - نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله « إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ » (٤) ؛ ولذلك فائدة ترجع إلى أمور عديدة :

أحدها : أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ، ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء وأكدته بالقسم فقد أخرجه عن الهزل ، وأدخله في باب الجد .

ثانيها : أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي ، ومنهم

(١) التفسير الكبير ، ٩م / ١٧ج - ١٠٧ .

(٢) المعجزة الكبرى ، ص ٣٨٤ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٥٣-٥٦ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٥٣ .

من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي ، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم ، فإن الأعرابي^(١) الذي جاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوته ، ورسالته ، اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم ، فكذا ههنا^(٢) .

وعندما جرت هذه الآية مجرى الإقناعيات ، جاءت الآية التالية لها بمثابة البرهان القاطع على صحة البعث لمن لا ينتفع إلا البرهانيات ، فقال تعالى : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^(٣) ، ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية ؛ لأنه تعالى قد ذكر في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة . ولما أخبر سبحانه عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار ، وبحصول الحشر ، والنشر ، وجب القطع بوقوعه ، فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. »^(٤) مقدمة توجب الجزم بصحة قوله : « أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

(١) « عن أنس بن مالك قال : بينما نحن جلوس مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد ، دخل رجل على جمل فأنأخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد ؟ والنبي - صلى الله عليه وسلم - متكئ بين ظهرانيهم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئ ، فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أجبتك . فقال الرجل للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك . فقال : سل عما بدا لك . فقال : أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم ، نعم . قال : أنشدك بالله ، الله أمرك أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال : اللهم ، نعم . فقال : أنشدك بالله ، والله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : اللهم ، نعم . قال : أنشدك بالله ، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنياءنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - اللهم ، نعم . فقال الرجل : أنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي » صحيح البخاري بشرح الكرمانى ، ١٨١٦/٢ ، ط ٢ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، دار حياة التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

(٢) التفسير الكبير ، ٩م / ١٧ - ١١١ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٥٥ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٥٥ .

حق» (١)، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال : « هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢)، فإنها قياس الإعادة على الابتداء. فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول « إي وربِّي » (٣) ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة (٤).

١٥ - قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » (٥).

أثبت المولى سبحانه البعث هنا عن طريق الاستدلال بخلق السموات والأرض، يقول « الرازي » في هذه الآية : « أثبت بهذا الدليل كونه تعالى قادراً على كل المقدورات » (٦). ثم انتهج طريقة أخرى في الجدل وهي طريقة العلة والمعلول فقال : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (٧)، فعلة وجود اليوم الآخر للابتلاء، والاختبار، وليعلم المسيء من المحسن، ويجازي كل مخلوق بعمله.

١٦ - قال تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٨).

(١) سورة يونس، آية : ٥٥.

(٢) سورة يونس، آية : ٥٦.

(٣) سورة يونس، آية : ٥٣.

(٤) التفسير الكبير، ٩م/ج ١٧/ ١١٢، ١١٣.

(٥) سورة هود، آية : ٧.

(٦) التفسير الكبير، ٩م/ج ١٧/ ١٨٧.

(٧) سورة هود، آية : ٧.

(٨) سورة الرعد، آية : ٥.

ورد الجدل هنا عن طريق التقرير . حيث ذكر شبهتهم ، ولم يورد الدليل على حقيقة البعث ، بل أخذ في تقرير حقيقة البعث عن طريق وصفهم بالكفر ، ووجوب استحقاقهم العذاب الشديد ، لكونهم منكرين لهذا اليوم .

ويمكن أن نطلق على هذا المنهج في الجدل العلة والمعلول ، حيث جعل علة استحقاقهم العذاب ، تكذيبهم بالبعث .

١٧ - قال تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لَيَسْئِلَنَّهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) » (١) .

جاء الجدل في هذه الآية على طريقة بيان أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه ، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد ، فلما ثبت ها هنا حقيقة موجودة لا محالة ، وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها ووقفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف ، إذ كان الاختلاف مركزاً في فطرنا ، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله ، إلا بارتفاع هذه الجبلية ، ونقلها إلى صورة غيرها ، صحت ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف ، والعداء وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها ، فقد صار الخلاف موجوداً كما ترى ، أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون (٢) .

(١) سورة النحل ، آية : ٣٨-٤٠ .

(٢) الإتيان ، ٢ / ١٣٦ ، وانظر : هامش كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم ، للإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ، تحقيق : د . زاهر الألمي ، ص ٩٠ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - مطابع الفرزدق التجارية .

ويمكن أن يسمى هذا النوع من الجدل ، طريقة العلة والمعلول ، وأساسه الربط بين القضايا التي تصور أجزاء الحقائق في هذا الوجود بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شيء آخر ، وبمقدار قوة الاستدلال ، وذلك بأن يكون أحدها علة للآخر ، إذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ^(١) ، فقد بين سبحانه في هذه الآية العلة من وجود البعث « لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » ^(٢) .

١٨ - قال تعالى : « وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَأَنْتَ لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » ^(٣) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ^(٤) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ^(٥) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ^(٦) » ^(٧) .

ورد الجدل هنا بطريق التحدي : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ^(٤) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » ^(٤) ، وقياس الإعادة على الابتداء ، فالقادر على الابتداء يجب أن يكون قادراً على الإعادة ، وهذا كلام تام وبرهان قوي ^(٥) . فلما أخذتهم الحجة ، ولزمهم حكمها ، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم : « متى هو » ^(٦) ؟ فأجيبوا بقولهم : « عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا » ^(٧) .

يقول « ابن الوزير » في هذه الآية : وهذه أقصم آيات الله لظهور أهل الريب ، ومن هنا أنكرت طائفة من المبتدعة عذاب القبر لمجموع علمين عندهم : نظري

(١) المعجزة الكبرى ، ص ٣٥٢ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٣٩ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ٤٩ - ٥٢ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٥٠ .

(٥) التفسير الكبير ، م ١٠ / ج ٢٠٦ / ٢٢٦ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٥١ .

(٧) سورة الإسراء ، آية : ٥١ .

وضروري تجريبي، أما النظري فهذه المسئلة ، وأما الضروري التجريبي فوجدناهم على طول التجارب عظاماً بالية ، وقد تطابق السمع على رد ذلك وصدعت به النصوص الصريحة الصحيحة (١) .

١٩ - قال تعالى : « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) » (٢) .

جاء الاستدلال على البعث ، بقصة أصحاب الكهف ، الذين أنامهم الله في الكهف مئات السنين ، ثم بعثهم ، وهذا يعد من الاستدلال بالقصص القرآني .

٢٠ - قال تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأَحِيطْ بِثَمَرِهِ فَأُصْبِحَ بِقَلْبٍ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) » (٣) .

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، ص ١٤٨ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة الكهف ، آية : ٣٢ - ٤٢ .

جاء الجدل القرآني في هذه الآية على صورة المحاوره بين المؤمن بالبعث ، والكافر ، ويعد الاستدلال بهذا النوع من قياس التمثيل ، وقد سلك القرآن الكريم في استدلاله هذا المسلك على أدق وجه ، وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية ، والبداهة العقلية^(١) . وهو من الأمثلة الموضحة التي تثبت كمال سلطان الله ، وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الإنسان إزاء قدرة الله تعالى^(٢) .

٢١ - قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٦٦) **أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** (٦٧) **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا** (٦٨) **ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا** ... إلى آخر الآيات » (٣) .

جاء الجدل هنا عن طريق إلزام الخصم بالحجة ، وذلك بقياس الإعادة على البدء قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذه الاختصار لما قدروا عليها ، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً ، ثم إنه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه ، أحدها : حشرهم مع قرنائهم من الشياطين الذين أغوهم . وثانيها : إحضارهم على أذل صورة إلى جهنم . وثالثها : أن من كان أشدهم تمرداً في كفره خص بعذاب أعظم (٤) .

٢٢ - قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ**

(١) مناهج الجدل ، ص ٧٢ .

(٢) المعجزة الكبرى ، ص ٣٥٩ .

(٣) سورة مريم ، آية : ٦٦ - ٧٠ .

(٤) التفسير الكبير ، م ١١ - ج ٢١١ / ٢٤١ - ٢٤٢ ، بنصرف .

سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوقَى وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ (١) .

في هذه الآيات إقامة للحجة التي تُلقم المجادلين في البعث حجراً، إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم (٢) ، وقد استدلل على حقيقة البعث بدليين :

أولهما : الاستدلال بالتدرج في خلق الإنسان . وهذا دليل من الأنفس .

والثاني : جاء بدليل من الآفاق ، وهو الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها (٣) .

قال « ابن أبي الأصبع » : في هذه الآية ومنه - أي من المذهب الكلامي - نوع منطقي ، تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة ، فإن الإسلاميين من أهل المنطق قد استنتجوا منها خمس نتائج من عشر مقدمات ، وسياقها مفصلة على الترتيب :

قوله تعالى : « ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ... » (٤) لأننا قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه سبحانه أخبر بزلزلة الساعة معظماً لها ، وذلك مقطوع بصحته ، لأنه خبر أخبر به من

(١) سورة الحج ، آية : ١-٧ .

(٢) روح المعاني ، ١٧ / ١١٥ .

(٣) روح المعاني ، ١٧ / ١١٥-١٢٢ ، التفسير الكبير ، م ١٢ / ج ٢٣ / ٩ ، ١٠ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٦ .

ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته ، منقول إلينا بالتواتر ، فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق .

وأخبر سبحانه أن يحيي الموتى : لأنه تعالى أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر ، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي فعلها الله سبحانه من أجلهم ، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو يحيي الموتى ، وأخبر أنه على كل شيء قدير ، لأنه أخبر أنه يعم الشياطين ، ومن يجادلهم فيه بغير علم ، بعذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير ؛ فهو على كل شيء قدير .

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب ، إلى قوله : « لَكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا » (١) .

وضرب سبحانه لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء ، فتتهز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان ما أخبر به فأوجده بالخلق ، ثم أعده بالموت ، ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم فأحيها بالخلق ، ثم أماتها بالمحل ، ثم أحيها بالخصب ، وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع الشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عياناً ، صدق خبره في الإتيان بالساعة ، ولا تأتي الساعة إلا يبعث من في القبور ، إذ هي عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، « فالساعة آتية لا ريب فيها » ، وهو سبحانه يبعث من في القبور (٢) .

ثم تناقلت الكتب التي جاءت بعد « ابن أبي الأصبع » قوله هذا بلا نقص أو

(١) سورة الحج ، آية : ٦ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

زيادة^(١). حتى جاء «الآلوسي» فعلق في تفسيره على هذا القول ، وقال : إنه يدلّ على قصور باع قائله في هذا العلم ، ثم قال : وقد يقال في بيان ذلك إن النتائج الخمس هي : الجمل المتعاطفة الداخلة في حيز الباء ،

واستنتاج الأولى : بأنه لو لم يكن الله - سبحانه - هو الحق ، أي الواجب الوجود لذاته لما شُهد بعض الممكنات من الإنسان ، والنبات ، وغيرها ، والتالي باطل ضرورة ، فالله تعالى هو الحق ، ودليل الملازمة برهان التمانع .

واستنتاج الثانية : بأنه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حياً ، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأحيا الأرض ، فالله - تعالى - قادر على إحياء الموتى ، ووجه الملازمة ظاهر .

واستنتاج الثالثة : بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى ، فهو سبحانه على كل شيء قدير ، لكنه تعالى قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير . ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن ، وإحياء الموتى ممكن ، والقدرة على بعض الممكنات دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي ، وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل ، حتى زعم أنه من الممتنعات ، فإذا ثبت أنه - سبحانه - قادر عليه بما سبق ، ثبت أنه - تعالى - قادر على سائر الممكنات بالطريقة الأولى .

واستنتاج الرابعة : بأن الساعة أمر ممكن ، وعد الصادق بإتيانه ، وكل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه ، فهو آت ، فالساعة آتية ، أما إن الساعة أمر ممكن ؛ فلأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال ، وأما أنها وعد الصادق بإتيانها ، فللآيات القرآنية المتحدى بها.

(١) منها الإنتقان، ١٣٥/٢ - معترك الأقران ، ٤٥٦-٤٥٨ ، مفاتيح الغيب ، م١٢/ج ٢٣/٩ ، ١٠ .

وأما أن كل أمر ممكن وعد الصادق يأتيانه فهو آتي فلاستحالة الكذب.

واستنتاج الخامسة : بنحو ذلك .

ولا يتعين استنتاج كل بما ذكر بل يمكن بغير ذلك ، واختياره لتسارعه إلى الذهن .
وربما يقتصر على ثلاث من هذه الخمس بناء على ما علمت بين قوله تعالى « وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى » (١) ، وقوله تعالى : « وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢) وكذا بين قوله سبحانه : « وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا » (٣) وقوله سبحانه : « وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (٤) .

ويعد من الخمس قوله تعالى : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » (٥) ، واستنتاجها بأن يقال : زلزلة الساعة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وكل ما هذا شأنه فهو شيء عظيم ، فزلزلة الساعة شيء عظيم ، والتقوى واجبة عليكم ، المدلول عليه بقوله تعالى : « اتَّقُوا رَبَّكُمْ » (٦) ، واستنتاجه بأن يقال : التقوى يندفع بها ضرر الساعة ، وكل ما يندفع به الضرر واجب عليكم ، فالتقوى واجبة عليكم .

ولا يخفى أن ما ذكر أولاً وأولى ، إلا أنه لو كان مرادهم لكان الظاهر أن يقولوا : إن في قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ... » (٧) إلى قوله : « وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ

(١) سورة الحج ، آية : ٦ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٦ .

(٣) سورة الحج ، آية : ٧ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٧ .

(٥) سورة الحج ، آية : ١ .

(٦) سورة الحج ، آية : ١ .

(٧) سورة الحج ، آية : ٧ .

في القُبُورِ» (١) خمس نتائج دون أن يقولوا : إن في أول سورة الحج إلى آخره . ويناسب هذا القول ما ذكر ثانياً إلا أنه يرد عليه أن المتبادر من كلامهم كون كل من النتائج مذكوراً صريحاً، ولا شك أن التقوى واجبة عليكم ليس مذكوراً كذلك ، وإنما المذكور ما يدلّ عليه في الجملة .

وهو أيضاً ليس بقضية ، كما لا يخفى ، وقد تكلف بعض الناس لبيان ذلك غير ما ذكرنا . رأينا ترك ذكره أولى فتأمل (٢) .

ثم جاء أحد الباحثين المحدثين (٣) ، وعلّق على كلام « الآلوسي » وقال : إنه أحسن في استنتاجه ، إلا أنه أخلّ في الاستنتاج الثالث ، ويمكن أن يستقيم إذا قيل فيه : بأنه لو لم يكن الله تعالى قادراً على إحياء الموتى لما كان على كل شيء قدير . لكنه قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير إلخ .

٢٣ - قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ إلى آخر الآيات » (٤) .

جاء الاستدلال على البعث هنا بقياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها ، بالمطر والنبات وجاء الاستدلال أيضاً بتوجيه أنظار الناس إلى المخلوقات ، وإلى ما في

(١) سورة الحج ، آية : ٨ .

(٢) روح المعاني ، ١٧ / ١٢١-١٢٢ .

(٣) د . زاهر الأُلعي في كتابه مناهج الجدل ، ص ٣١١-٣١٢ .

(٤) سورة الحج ، آية : ٦٣-٦٦ .

الكون من الآيات والمملوكات الذي دلّ على قدرة الصانع ، وعلم المبدع وأيضاً بقياس الإعادة على البدء .

٢٤ - قال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْكَالِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) » (١) .

جاء الاستدلال علي البعث في هذه الآيات بعدة طرق هي :

الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة ، وأكوان الفطرة .

الاستدلال بخلق السموات .

الاستدلال بنزول الأمطار ، وكيفية تأثيراتها في النبات .

الاستدلال بأحوال الحيوانات ، وجمعه بين الانتفاع بها وبالفلك في البحر (٢) .

٢٥ - قال تعالى : « أَيْدِعْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) »

(١) سورة المؤمنون ، آية : ١٢-٢٢ .

(٢) التفسير الكبير ، ١٢م / ٢٣ج - ٨٤-٩٠ .

هِيَاهُتْ هِيَاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) « (١) .

جاء الجدل القرآني في هذه الآية على طريقة العلة والمعلول ، وذلك أنه جعل علة إيقاع العذاب بهم هو لتكذيبهم الرسول ، وكل ما جاء به ، ومن ضمن ذلك التكذيب بالبعث فكان العذاب واقع بهم علة لذلك .

٢٦ - قال تعالى : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) » (٢) .

ورد الجدل في حقيقة البعث في هذه الآيات بطريقتين :

الأول : طريق الإسجال حيث أورد على لسان المنكرين كلاماً يبين الاعتراف بذلك البعث واستقلال مدة لبثهم في قبورهم يوم القيامة « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ ... » (٣) .

والطريق الثاني : الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعده تأبى أشد الإباء أن تترك الإنسان مهملاً بدون حساب « أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ... » (٤) ،

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٣٥-٤١ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ١١٢-١١٦ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية : ١١٢ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ١١٥ .

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز ، الذي لا يكون أوجز منه ، والبيان الجليل ، الذي لا يتوهم أوضح منه ، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه (١) .

٢٧ - قال تعالى : « أَمَّنْ يَدُّ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَهُ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلْ أَدَارِكُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنْتَنَا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) » (٢) .

جاء جدال المنكرين بعدة طرق :

إثبات البعث عن طريق قياس الإعادة في البدء ، ثم بالتحدي حيث طالبهم بالبرهان على صدق ما يقولون إذ لا بد في الدعوى من دليل ، وبرهان (٣) .

ثم ذكر طريق آخر من طرق الاستدلال بإحاطة علم الله ، وشمول قدرته على

(١) شرح الطحاوية ، ٢ / ١٧٧ .

(٢) سورة النمل ، آية : ٦٤-٧٥ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ، ١٢م / ٢٤٤ / ٢١٠ .

البعث وغيره « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... » (١) فأثبت أنه تعالى كما اختص بالقدرة اختص بعلم الغيب، وإذا ثبت ذلك ثبت كونه الإله المعبود (٢). ثم أورد الشبهة وهي ناشئة عن شكهم في كمال القدرة، أو في كمال العلم، فإذا ثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات، وعالم بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها، وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الأصلين فيما قبل هذه الآية، لا جرم لم يحكه في هذه الآية، فحكي عنهم أنهم تعجبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا تراباً وطعنوا في ذلك (٣).

ثم أورد استدلال آخر وذلك بتوجيه أنظار هؤلاء المجادلين إلى الحقائق بعد إلزامهم وإفهامهم (٤)، حيث يأمرهم بالسير في الأرض، والنظر إلى عاقبة المكذبين من قبلهم، فإن السنن لا تحيد، ولا تحايي، والسير في الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال، فيها عبرة، وفيها تفتح لنوافذ مضيئة، وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحييها (٥). وهنا يمس القرآن العقل والوجدان، عن طريق هذا التهديد المخبأ خلف ستار الكلمات.

٢٨ - قال تعالى: « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

(١) سورة النمل، آية: ٦٥.

(٢) انظر: التفسير الكبير، ١٢م/ج ٢٤/٢١١.

(٣) التفسير الكبير، ١٢م/ج ٢٤/٢١٣، بتصرف.

(٤) المرجع السابق، ١٢م/ج ٢٤/٣٨٤.

(٥) الظلال، ٥م/ج ٢٠/٢٦٦٣.

الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) « (١) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات بعدة طرق هي :

الاستدلال على البعث بقياس الإعادة على البدء « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ... » (٢) ، وهذا دليل من الأنفس .

ثم جاء بدليل من الآفاق ، وهو الاستدلال على البعث بتوجيه الأنظار إلى ابتداء المخلوقات في الأرض ، ثم إعادتها ، والاستدلال بعجائب الكون « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... » (٣) .

ثم جاء الاستدلال بطريق العلة والمعلول ؛ حيث جعل استحقاقهم العذاب بسبب تكذيبهم بالبعث والجزاء . ثم جاء الجدل بطريق التحدي ، حيث تحداهم أن يخرجوا عن سيطرة الله إن استطاعوا ، « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ... » (٤) .

٢٩ - قال تعالى : « أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٢٣-١٩ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية : ١٩ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢٠ .

(٤) سورة العنكبوت ، آية : ٢٢ .

أَسَاؤُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْغِضُ بَيْنَهُمْ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ» (١).

جاء الاستدلال على البعث بطرق عدة في هذه الآيات منها :

الاستدلال أولاً بالقصص القرآني ، حيث أمرهم بالسير في الأرض والتفكر في عاقبة من قبلهم من الأقوام المكذبة .

ثم جاء الاستدلال بطريق العلة والمنعول « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاؤُوا ... » (٢) حيث جعل علة استحقاقهم العذاب بسبب تكذيبهم الرسل وما جاءوا به ومن ضمن ذلك التكذيب بالبعث .

ثم الاستدلال على الإعادة بالبده ، فمن خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون (٣) .

ثم جاء الاستدلال بطريق العلة والمنعول ثانية حيث ذكر مصير المكذبين، ومصير

(١) سورة الروم ، آية : ٩-٢٠ .

(٢) سورة الروم ، آية : ١٠ .

(٣) التفسير الكبير ، م ١٣ ، ج ٢٥ / ١٠١ .

المصدقين ، وجعل مصير كل منهما علة لتصديقه أو تكذيبه بالبعث .

ثم ذكر استدلالاً آخر وهو الاستدلال بإخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي وذلك متمثل في أشياء كثيرة نعايشها .

ثم أتى بدليل من الآفاق وهو إحياء الأرض بعد موتها « وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... » (١) وبعد هذه الاستدلالات تأتي النتيجة الحتمية ، وتقرير صدق وقوعها ، « وكذلك تخرجون » (٢) ثم جاء باستدلال آخر وهو قياس القدرة على خلق الناس من تراب ، ومن لا يعجزه ذلك فلا يعجزه شيء سبحانه .

٣٠ - قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) » (٣) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات ، بذكر بعض دلائل القدرة الإلهية ومنها:

الاستدلال على البعث بقيام السموات والأرض بلا عمد (٤) ، وكان مدلولها القدرة على الحشر (٥) . ثم قياس الإعادة على البدء .

(١) سورة الروم ، آية : ١٩ .

(٢) سورة الروم ، آية : ١٩ .

(٣) سورة الروم ، آية : ٢٥-٢٧ .

(٤) التفسير الكبير ، ١٣م / ٢٥ج / ١١٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

٣١ - قال تعالى : «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزَّلُ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) » (١) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآية بإحياء الأرض بعد موتها .

٣٢ - قال تعالى : « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ » (٢) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات بعدة طرق هي :

قياس الإعادة على البدء ، وذكر دليل من الأنفس « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... » (٣) .

(١) سورة الروم ، آية : ٤٨-٥٠ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ٧-١٤ .

(٣) سورة السجدة ، آية : ٧ .

ثم أثبتته بطرق الإسجال ، حيث أورد الاعتراف على لسان المكذبين يوم القيامة «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ...» (١) .

ثم جادلهم بطريق العلة والمعلول ، حيث جعل استحقاقهم العذاب علة لتكذيبهم «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ» (٢) .

٣٣ - قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مُّرِقٌ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) » (٣) .

جاء جدل القرآن لهم في هذه الآيات ، عن طريق إلزام الخصم بالحجة بتوجيه الأنظار إلى الكون ، وتهديهم بأحداث كونية ضخمة (٤) إذا لم يرتدعوا عن هذا التكذيب والافتراء .

٣٤ - قال تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) » (٥) . وقال تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ

(١) سورة السجدة ، آية : ١٢ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ١٤ .

(٣) سورة سبأ ، آية : ٧-٩ .

(٤) الظلال ، م ٥ / ج ٢٢ / ٢٨٨٩ .

(٥) سورة فاطر ، آية : ٩ .

مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) « (١) .

جاء الاستدلال على البعث بالاستدلال بخلق النبات ، وإحياء الأرض بعد موتها .
ثم أتى باستدلال آخر وهو الاستدلال بالنشأة الأولى ، وكذلك الاستدلال بعلم
الله المحيط بكل شيء (٢) .

٣٥ - قال تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا
تَنْبَتِ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) » (٣) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات ، بالاستدلال بإحياء الأرض بعد
موتها، وإخراج النبات ، والجنات ، والمياه من جوفها .

ثم جاء باستدلال آخر جامع ، ذكر ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات ،
والثمار ، ويدخل فيها الدلائل النفسية ، ويدخل ما في أقطار السموات ، وتحوم
الأرضين فقال : « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ... » (٤) .

٣٦ - قال تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا

(١) سورة فاطر ، آية : ١١ .

(٢) منهاج الجدل ، ص ٣٠٢ .

(٣) سورة يس ، آية : ٣٣-٣٦ .

(٤) سورة يس ، آية : ٣٦ .

وَلَيْلًا مِّنْ بَعَثْنَا مِنْ مُّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) « (١) .

جاء الاستدلال علي البعث بتقرير حقيقته حيث ترك جوابهم واستدل علي البعث بإمكانه بدليل القدرة ، فالخلق والفعل مطلقا مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان (٢) . ودليل القدرة يقضي إلى تقرير حقيقة البعث « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً ... » (٣) .

ثم جاء باستدلال آخر على طريق الإسجال « يَا وَلَيْلًا مِّنْ بَعَثْنَا » (٤) .

٣٧ - قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) » (٥) .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى شبهة منكر البعث ، جاء الجواب من وجهين :

أحدهما : جدل يتضمن فساد شبهته من جهة أنه استبعد الإعادة والحياة في عظام

(١) سورة يس ، آية : ٥٤-٤٨ .

(٢) مناهج الجدل ، ص ٣١٩ .

(٣) سورة يس ، آية ٤٩ .

(٤) سورة يس ، آية : ٥٣ .

(٥) سورة يس ، آية : ٧٧-٨٣ .

وحش وترك نفسه ، وذلك أهم من إحياء الحيوان البهيم ، لأن إيجاد الحيوان البهيم كان لأجل الإنسان .

الوجه الثاني : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(١) إلى آخر السورة فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف ، وحكم العقل من رد شيء كان إلى ما كان ، على ما لا يخفى .

وقوله سبحانه : « الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا » معناه : إيجاد شيء مما ينافيه وينافره ، فلا بد من قوة من خارج تغلب على المتنافرين المتنافيين بفعل ذلك .

« أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » ^(٢) معناه : من قدر على خلق السموات والأرض قدر على خلق هذا النوع اللطيف ، والشكل الضعيف ، وإذا قدر على إيجاداه قدر على رده بعد نفاذه .

ثم أخبر سبحانه عن نفسه بماذا يخلق الأشياء ويكون ، فقال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ^(٣) ، وعند ذلك نزهة - تعالى - نفسه العلية فقال : « فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ^(٤) ، فعم الموجود والمعدوم ، والإبداء والإعادة . وجعل الرجوع خاتمة الكلام ، لأن الإنكار له ، والأدلة أقيمت عليه ^(٥) .

وذكر شيخ الإسلام « ابن تيمية » في هذه الآية قوله : إنه قياس حذف إحدى

(١) سورة يس ، آية : ٧٩ .

(٢) سورة يس ، آية : ٨١ .

(٣) سورة يس ، آية : ٨٢ .

(٤) سورة يس ، آية : ٨٣ .

(٥) استخراج الجدل من القرآن الكريم ، ص ٩١-٩٣ .

مقدمته لظهورها ، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... » ^(١) وهذا الاستفهام إنكار متضمن للنفي ، أي لا أحد يحيى العظام وهي رميم ، فإن كونها رميمًا يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة ، المنافية للحياة التي مبنها على الحرارة والرطوبة ، ولتفرق أجزائها ، واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات .

والتقدير : هذه العظام رميم ، ولا أحد يحيى العظام وهي رميم ، فلا أحد يحييها ، ولكن هذه السالبة كاذبة ، ومضمونها امتناع الإحياء ، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ، ببيان مكان ما هو أبعد من ذلك ، وقدرته عليه فقال : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(٢) .

وقيل فيها أيضًا : لو رام أعلم البشر ، وأفصحهم ، وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة ، أو يمثلها ، بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ، ووضح الأدلة ، وصحة البرهان لما قدر . فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد ، اقتضى جواباً ، فكان في قوله : « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » ^(٣) ما يفي بالجواب ، وأقام الحجة ، وأزال الشبهة . لما أراد سبحانه تأكيداً للحجة ، وزيادة تقريرها فقال : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(٤) فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالإنشاء الأول على النشأة الأخرى ^(٥) .

(١) سورة يس ، آية : ٧٨ .

(٢) سورة يس ، آية : ٧٩ .

(٣) سورة يس ، آية : ٧٨ .

(٤) سورة يس ، آية : ٧٩ .

(٥) الطحاوية ، ١٧٥/ ٢ .

وقد تحدث عن هذه الآيات أيضاً الفيلسوف « الكندي » كما نقله عنه الأستاذ « أبو ريدة » فقال في تفسير الكندي لهذه الآيات : إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى ، وهي :

١ - وجود الشيء من جديد بعد كونه ، وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، ولا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاداه وإبداعه عن عدم ، وإن كان لا يوجد بالنسبة للشيء هو أسهل ، و شيء هو أصعب . هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (١) .

٢ - ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر (٢) ممكن وواقع تحت الحس ، لذا فإنه يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى ، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو : أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق ، هذا الدليل موجود في آية « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ... » (٣) .

٣ - خلق الإنسان أو إحياءه بعد الموت ، أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. » (٤) ، وقد علق صاحب شرح « الطحاوية » على هذه الآية بقوله : ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من

(١) سورة يس ، آية : ٧٩ .

(٢) انظر هذا القول أيضاً في الإتيان ، ١٣٦/ ٢ ، وفي شرح الطحاوية ، ١٧٧-١٧٥/ ٢ .

(٣) سورة يس ، آية : ٨٠ .

(٤) سورة يس ، آية : ٨١ .

الشيء الأجل الأعظم ، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم ، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد اقتداراً^(١) .

٤ - الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافاً لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا ... »^(٢) ، وهذه الآية في رأي «الكندي» إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم الفعل الإلهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته ، قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر ، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلهي ، وأنه إبداع بالإرادة الخالقة ، والقدرة المطلقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمني .

فأي بشر - كما يقول الكندي - يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله - جلّ وتعالى - إلى رسوله ﷺ - فيها من إيضاح أن العظام تحي بعد أن تصير رميماً ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشيء يكون من نقيضه؟! كلت عن ذلك الألسن المنطقية المتحيلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر وحجبت عنه العقول الجزئية^(٣) .

٣٨ - قال تعالى : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِّنْ خَلْقٍ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ

(١) شرح الطحاوية ، ١٧٦/ ٢ .

(٢) سورة يس ، آية : ٨٢ .

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، تحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة . ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م - مطبعة الاعتماد بمصر .

لَأَرْبَ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) » (١) .

ورد الجدل في هذه الآيات بطريقتين :

الأول : طريق الاستفهام التقريري ، وهو الاستفهام عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها ، وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطب بالحق ، ولاعترافه بإنكار الباطل (٢) ، وهذا النوع من أحسن جدل القرآن بالبرهان ، فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات ، أو أن تكون بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة ، كانت برهانية (٣) . واعلم أن القرآن لا يستدل في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية المعروفة عند أهل المنطق ، بل يستدل بالقضايا ، والمقدمات التي يسلمها الناس ؛ لتكون أدعى للانقياد للحق ، ومجانبة الباطل ، لا شك أن في الاستفهام إشارة ، وبياناً لما في النفوس ؛ ليكون الإلزام أبلغ وأقوى (٤) .

وقد ورد هذا الاستفهام مقروناً بالاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان ،

(١) سورة الصافات ، آية : ١١-٢٤ .

(٢) مناهج الجدل ، ص ٦٩ .

(٣) منهج الفرقان في علوم القرآن ، محمد علي سلامة ، نقلاً عن كتاب مناهج الجدل ، ص ٦٩ .

(٤) مناهج الجدل ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

من سموات وأرض ، وما بينهما ^(١) . والاستدلال على الشيء يقع بأحد طريقين :
أحدهما : أن يقال إنه قدر على ما هو أعظم منه ، وأشد ، وبالتالي فهو عليه أقدر .
وهو المراد من قوله : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ... » ^(٢) .

ثانيهما : أن يقال : إنه قدر عليه في إحدى الحالتين ، والفعل ، والقابل باقيين كما
كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه ، وهو المراد من قوله : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ... » ^(٣) .

ثم أورد فيما بعد تعجبهم ، بعد ظهور هذه الحجة الجليّة ، وأورد شبهتهم ، ثم إنه
تعالى أمر نبيّه - صلى الله عليه وسلم - أن يجيبهم عن سؤالهم عن صدق البعث
بقوله : قل يا محمد : نعم وأنتم داخرون . وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من
الجواب ؛ لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن ، وإذا ثبت
الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق . فلما قامت
المعجزات على صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - كان واجب الصدق ، فكان
مجرد قوله : « قل نعم » دليلاً قاطعاً على الوقوع ؛ ولك لأنه يبيّن الإمكان بالدليل
العقلي ، ويبيّن وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا
البيان كالأمر الممتنع ^(٤) .

ثم استدل على إمكان البعث بدليل آخر ، وهو أن الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم
المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع إلى مادة وإلى زمان ، وبالتالي فأمر البعث

(١) انظر : مناهج الجدل ، ص ٣١ .

(٢) سورة الصافات ، آية : ١١ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ١١ .

(٤) التفسير الكبير ، م ١٣ / ج ٢٦ / ١٢٨ .

عليه هين « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ .. » (١) .

ثم أورد طريقاً آخر في الجدل وهو الإسجال ، حيث نقل الكلام على لسانهم في ذلك اليوم فقال : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتُنْكَلَمِ الْمُسَدِّقِينَ (٥٢) أَتَذَرُنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطْلَعُوا فَرَاهُ فِي سُوءِ الْحُجِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كُدتُ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) » (٢) .

ويمكن أن يسمى هذا النوع من الجدل أيضاً ذكر العلة والمعلول ، حيث جعل استحقاقهم للنعيم مرتباً على تصديقهم بالبعث .

٣٩ - قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) » (٣) .

جاء الاستدلال على إمكان البعث ، بالاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها .

٤٠ - قال تعالى : « وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) » (٤) .

وهنا أيضاً الاستدلال على البعث بإحياء الأرض بعد موتها .

٤١ - قال تعالى : « إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ

(١) سورة الصافات ، آية : ١٩ .

(٢) سورة الصافات ، آية : ٥١-٦١ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .

(٤) سورة الزخرف ، آية : ١١ .

بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) « (١) .

جاء جدل القرآن للمنكرين في هذه الآيات ، عن طريق توجيه أنظارهم إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أول الأمر (٢) . حيث يأمرهم بالنظر إلى عاقبة قوم تُبَّع ، ومن قبلهم من الأمم التي حلَّ بها عذاب الله ؛ وفي هذا الأسلوب تهديد أي تهديد ! ثم يوجِّه أنظارهم إلى المخلوقات ، وإلى ما في الكون ، مما يدل على قدرته - سبحانه - (٣) وإكمال التهديد في الآية السابقة .

يقول « الرازي » وليس في هذه الآية شبهة ، وإنما حكوا هذا القول تقليداً فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد (٤) .

٤٢ - قال تعالى : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَّا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اإِنْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) » (٥) .

(١) سورة الدخان ، آية : ٣٤-٤٢ .

(٢) المعجزة الكبرى ، ص ٣٨٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٨٥ .

(٤) التفسير الكبير ، ١٤م / ٢٧ / ج ٢٤٩ .

(٥) سورة الجاثية ، آية : ٢٤-٢٦ .

جاء جدل القرآن في هذه الآية عن طريق « بيان أن دعوهم خالية من الحجة وأن البرهان قام على النقيض من ذلك » (١) ، بقوله : « وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (٢) وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى (٣) .

ثم أثبت البعث بطريق آخر ، وهو قياس الإعادة على البدء ، فما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقاً (٤) .

٤٣ - قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) » (٥) .

جاء جدل القرآن في هذه الآيات ، على طريقة الاستفهام التقريري ، والاستدلال بخلق السموات والأرض : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ .. » (٦) .

كما جاء بطريقة أخرى في الجدل وهي طريقة الإسجال ، في قوله تعالى : « وَيَوْمَ

(١) مناهج الجدل ، ص ٨٠ .

(٢) سورة الجاثية ، آية : ٢٤ .

(٣) التفسير الكبير ، م ١٤ / ج ٢٧ / ٢٧٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٥) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ ، ٣٤ .

(٦) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

يُعرضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ...» (١) .

٤٤ - قال تعالى : « قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ... » (٢) .

ذكرت السورة في بدايتها شبهة المنكرين للبعث حين استبعدوا عودتهم إلى الحياة بعد أن يصبحوا عظاماً بالية ، ثم تولى الرد عليهم وجادلهم بالحجج الدامغة ، وذلك على طريقة الاستدلال بالتعميم ثم التخصيص ، حيث تذكر قضية عامة تؤدي إلى إثبات الدعوى بإجمالها ، ثم يتعرض المستدل إلى جزئيات القضية ؛ فيبرهن على أن كل جزء منها يؤدي إلى إثبات الدعوى المطلوب إثباتها ، أو أنها في مجموعها تؤدي إلى إثبات الدعوى (٣) ، حيث قال : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » (٤) ، وقال : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » (٥) ، وقال : « وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » (٦) ، وقال : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ » (٧) .

فنجد في هذه الآيات تجزئة في الاستدلال ، بحيث يعتبر كل جزء دليلاً قائماً

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٤ .

(٢) سورة (ق) ، آية : ١-٣ .

(٣) المعجزة الكبرى ، ص ٣٥١ .

(٤) سورة (ق) ، آية : ٤ .

(٥) سورة (ق) ، آية : ٦ .

(٦) سورة (ق) ، آية : ٧ .

(٧) سورة (ق) ، آية : ٩-١١ .

بذاته ، ومن مجموعته دليل كلي يثبت قدرة الله سبحانه على البعث والنشور . وهكذا نجد أن جدل القرآن في هذه الآيات يتجه إلى إرشاد المجادل ، والأخذ بيده إلى الحق ، وتوجيه نظره إلى حقائق الأشياء، وما في الكون من عبر (١) .

ثم اتجهت الآيات إلى طريقة أخرى، وهو ما يسمى بقياس التمثيل وذلك في قوله تعالى : « أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » (٢) .

حيث يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ، ويبين الجهة الجامعة بينهما (٣) ، وفي هذه الآيات نجد عقد المشابهة بين أول الخلق وإعادته في أبلغ تعبير، وأسلم تقرير ، وأن في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، قياس ما في الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد ، وفيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، ويقع مستقبلاً ، كما وعد، والله لا يخلف الميعاد(٤) ، ثم جاء بقياس الإعادة على الابتداء فقال : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) » (٥)

٤٥ - قال تعالى : « نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ

(١) تاريخ الجدل ، ص ٦٩ .

(٢) سورة (ق) ، آية : ١٥ .

(٣) تاريخ الجدل ، ص ٦٨ .

(٤) مناهج الجدل ، ص ٧٣ .

(٥) سورة (ق) ، آية : ٤٣ .

فَلَوْلَا تَذَكُّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) « (١) .

بعد أن استبعد المنكرون البعث أجابهم بقوله : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ... »^(٢)، حيث قرر الحقيقة مباشرة ، وقوله « قل » إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور^(٣) ، وأكد صدق وقوعها ثم أردفها بعد ذلك بذكر الدلائل ، وأخذ في جدالهم في أمر البعث ، على طريقة الاستدلال بالمقابلة بين الشيئين أو أمرين ، أو شخصين ، تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين ، وإذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ، وقد كان هذا النوع من ينايع الاستدلال في القرآن الكريم^(٤) ، ومن هذه المقابلة ما ورد في هذه الآيات :

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ »^(٥) .. إلخ وقد جاء الاستدلال على طريقة المقابلة كما يلي :

(١) سورة الواقعة ، آية : ٥٧-٧٤ .

(٢) سورة الواقعة ، آية : ٤٩ .

(٣) التفسير الكبير ، ١٥م / ج ٢٩ / ١٧٢ .

(٤) المعجزة الكبرى ، ص ٣٤٥ .

(٥) سورة الواقعة ، آية : ٥٧ .

(أ) قياس الإعادة على البدء ^(١) . ثم اتجه إلى الإلزام على الإقرار بأن الخالق في الابتداء هو الله تعالى ، ولما كان قادراً على الخلق أولاً كان قادراً على الخلق ثانياً ^(٢) . وذلك عن طريق الاستفهام التقريري .

(ب) تقرير حقيقة البعث ، فمن قدر على الإحياء والإماتة وهما ضدان ، ثبت كونه مختاراً فيمكن الإحياء ثانياً منه بعد الإماتة ^(٣) « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ » ^(٤) .

(ج) الاستدلال على إمكان البعث بطريق الاستفهام التقريري « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٢﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ... » ^(٥) .

حيث ذكر بعد دليل الخلق دليل الزرق ، والأول به الابتداء وهذا به البقاء.

ثم قال تعالى : « لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ... » ^(٦)

وهو تدرج في الإثبات، وبيانه أنه لما قال « أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ » ^(٧) لم يبعد من معاند أن يقول : نحن نحراث ، وهو بنفسه يصير زرعاً ، لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ، فقال تعالى : لو سلم لكم هذا الباطل ، فما تقولون في سلامته عن الآفات التي تصيبه ، فيفسد قبل اشتداد الحب ، وقبل انعقاده ، أو قبل اشتداد الحب ،

(١) أضواء البيان ، ٧ / ٧٨٤ .

(٢) التفسير الكبير ، ١٥٠ / ج ٢٩ / ١٧٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٤) سورة الواقعة ، آية : ٦٠ ، ٦١ .

(٥) سورة الواقعة ، آية : ٦٣ ، ٦٤ .

(٦) سورة الواقعة ، آية : ٦٥ .

(٧) سورة الواقعة ، آية : ٦٤ .

وقبل ظهور الحبّ فيه ، فهل تحفظونه منها أو تدفعونها عنه ، أو هذا الزارع بنفسه يدفع عن نفسه الآفات ، كما تقولون إنه بنفسه ينبث ، ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى ، وحفظه عنها بفضل الله ، وعلى هذا أعاده ليذكر أموراً مرتبة بعضها على بعض فيكون الأمر (الأول) للمهتدين ، و(الثاني) للظالمين، و(الثالث) للمعاندين الضالين، فيذكر الأمر الذي لا شك فيه في الآخر، إقامة للحجة على الضال المعاند (١) .

ثم قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ... » (٢) وهذه نعمة أخرى يذكرهم بها ، وبقدرته على منعها . ثم قال : « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ... » (٣) حيث استدل على البعث في هذه الآية بإخراج النار من الشجر الأخضر ، حيث تتولد النار مع حرها ويسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته (٤) .

وقيل وجه دلالة النار على البعث : أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح ، وتشب بالنفخ ، فالحجر والشجر كالقبر ، والقدح والنفخ كالنفخة في الصور (٥) . فهي تذكرة بصحة البعث ، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر ، لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت (٦) .

٤٦ - قال تعالى : « كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

(١) التفسير الكبير ، ١٥م / ج٢٩ / ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) سورة الواقعة ، آية : ٦٨ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٧١ .

(٤) مناهج الجدل ، ص ٣١٨ .

(٥) استخراج الجدل ، ص ٩٦ .

(٦) التفسير الكبير ، ١٥م / ج٢٩ / ١٨٤ .

وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يَوْفُضُونَ (٤٣) ۝ (١) .

الغرض من هذه الآيات الاستدلال على صحة البعث (٢) ، وذلك بقياس الإعادة على الابتداء . ثم أخذ في تقرير حقيقة البعث عن طريق وصف أحداث ذلك اليوم .

٤٧ - قال تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا (٢٠) » (٣) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات بطرق عدة هي :

١ - الاستدلال بالتدرج في خلق الإنسان ، فبدأ بدلائل الأنفس ، ثم أعقبه بدلائل الآفاق .

٢ - الاستدلال بخلق السموات ، والقمر ، والشمس .

٣ - ثم عاد مرة أخرى واستدل على البعث بالاستدلال بالبدء على الإعادة .

٤ - ثم عاد مرة أخرى ، وذكر دليلاً آخرًا من الآفاق ، وهو خلق الأرض وتهيئة السبل فيها للإنسان .

(١) سورة المعارج ، آية : ٣٩-٤٤ .

(٢) التفسير الكبير ، ١٥م / ج ٣٠٢ / ١٣٢ .

(٣) سورة نوح ، آية : ١٣-٢٠ .

٤٨ - قال تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) » (١) .

ثم قال تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) » (٢) .

وردت مجادلة المنكرين في هذه الآية بطرق عدة هي :

١ - تقرير حقيقة البعث بقوله : « بَلَى قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٣) » فيكون المقصود ، كنا قادرين على أن نسوي بنانه في الابتداء ، فوجب أن نبقي قادرين على تلك التسوية في الانتهاء (٤) . وبهذا يكون الاستدلال بالابتداء على الإعادة . وعلى التفسير الثاني للآية: بلى قادرين على أن نسوي بنانه أي نجعلها في كفة صحيفة مستوية ، لا شقوق فيها ، فخف البعير (٥) ، . يكون الاستدلال ببيان قدرة الله التي تتمثل فيها هو أكبر من خلق الإنسان ، وهو تسوية البنان .

٢ - الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء (٦) .

(١) سورة القيامة ، آية : ٣-١٢ .

(٢) سورة القيامة ، آية : ٣٦-٤٠ .

(٣) سورة القيامة ، آية : ٧ .

(٤) التفسير الكبير ، ١٥م / ٣٠ج / ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٦) مناهج الجدل ، ص ٣٢٠ .

٣ - الاستدلال بالخلقة الأولى على البعث ^(١) ، حيث ذكر تلك القدرة العظيمة في التدرج في خلق الإنسان ، إلى أن أتم خلقه ، وجعل منه الزوجين الذكر والأنثى .

٤٩ - قال تعالى : « يَقُولُونَ أَأَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) » (٢) .

وقال تعالى : « أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) » (٣) .

بين صحة البعث بعدة طرق هي :

١ - الاستدلال على البعث بقدرة الله وعظمته وسهولة ذلك الأمر عليه « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) » (٤) .

٢ - ثم أورد بعد ذلك دلائل من الآفاق وهي : الاستدلال بخلق السموات ورفعها بغير عمد ، وتعاقب الليل والنهار ، والاستدلال بخلق الأرض ، وبسطها وإخراج الماء والزرع منها ، واستدلال بخلق الجبال . (٥) .

(١) التفسير الكبير ، م ١٥٠ / ج ٣٠ / ٢٣٤ .

(٢) سورة النازعات ، آية : ١٠ - ١٤ .

(٣) سورة النازعات ، آية : ٢٧ - ٣٣ .

(٤) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٥) انظر التفسير الكبير ، م ١٦٠ / ج ٣١ / ٤٩ .

وكل هذه دلائل من الآفاق ، وهي من الدلائل الكونية الظاهرة ، فمن أوجد هذه الأشياء ليس البعث عليه بأمر عسير ، سبحانه .

٥٠ - قال تعالى : « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدائقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) » (١) .

جاء الاستدلال على البعث في هذه الآيات بعدة طرق هي :

١ - الاستدلال بخلق الإنسان ، وقياس الإعادة على البدء . وهذا دليل من الأنفس .

٢ - أتى بدليل من الآفاق ، حيث استدل بقدرته الله على إنزال الماء ، وشق الأرض ، وإخراج النبات المختلف ، فالقادر على هذا كله لا يعجز عن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد موته .

٥١ - قال تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) » (٢) .

جاء الاستدلال على البعث هنا ، بدلالة تولد الإنسان عن النطفة ، ودلالة ذلك على وجود الصانع المختار وهو من أظهر الدلائل ، ويدل قطعاً على صحة البعث والحشر والنشر ، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها

(١) سورة عبس ، آية : ١٧-٣٢ .

(٢) سورة الطارق ، آية : ٨-٥ .

إنساناً سوياً ، وجب أن يقال : إنه بعد موته ، وتفرق أجزائه لا بد أن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء ، وجعلها خلقاً سوياً ، كما كما أولاً ، ولهذا السر لما بين الله تعالى دلالته على المبدأ ، فرع أيضاً دلالته على صحة المعاد (١) .

وهكذا نرى أن جدل القرآن ليس كجدل « السوفسطائيين » الذين اعتمدوا على قوة المهاترة ، واللجاج ، والحجاج على حساب التفكير ، والحجة الواضحة ، ولم يهتموا بالبحث عن الحقيقة لذاتها ، بل أنكروها ، وجعلوا همهم منصباً على البحث عن وسائل النجاح في الحياة اليومية ، فوجدوا أن خير طريق للغلبة هي إقناع سامعيهم بأي أسلوب ، ولو كان ذلك على سبيل التفرير بهم ، وتخثيروا لذلك أسلوب الخطابة الطنانة التي تعتمد على زخرف القول ، واختراع الحجج الزائفة .

وليس هو كذلك الجدل عند العقلانيين من أمثال « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » وغيرهم ، الذين لم يستطيعوا بمناهجهم الجدلية الذاتية المتهافنة ، أن يصلوا إلى حقائق الوقائع ، بل هم دائماً في تناقض ، وتعارض ، وتلبيس بين الحق والباطل (٢) .

ولكن نجد القرآن هو ذلك النوع من الجدل والذي تفرد به ، حين يعمل على توجيه نظر المجادل ، أو القارئ ، إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أول الأمر ، أو بعد إلزامه ، وإفحامه ، يكون تصارييف البيان ومناحي التأثير ، والعبارات التي تخاطب الوجدان ، وتمس مواطن الإحساس ، تتنوع المناهج ، وتتكرر المعاني بدون أن تفقد جدتها وطلاوتها ، بل مع التكرار تزداد الفائدة وتكثر الثمرات ، وتنوع

(١) التفسير الكبير ، ١٦م / ٣١٠ / ١٣٠ ، بتصرف .

(٢) الجدل في القرآن ، د . حسن الشراوي ، ص ١٧ ، ص ٢٢ . منشأة دار المعارف بالأسكندرية .

الأساليب من استفهام إلى تعجب إلى تهديد إلى إخبار ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال ومصادره (١) .

واعلم أنه - تعالى - يبدأ بدلائل الأنفس لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، وبعدها يذكر دلائل الآفاق ، لأنها أعظم وأبهر ، وأدل على القدرة .

وتارة نجده يبدأ بدلائل الأنفس لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه ، وبعدها يذكر دلائل الآفاق لأن الأنفس حاضرة لا حاجة بالعقل إلى التأمل فيها (٢) فحين يتجه إلى دلائل الأنفس ، وذكر خلق الإنسان وأطواره ، يكون ذلك أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله من المخلوق المنكر ، وحين يتجه إلى دلائل الآفاق ، يكون انتزاع الاعتراف أقوى بقدرة الله المتمثلة في هذه الآيات الكونية العظيمة (٣) .

وهكذا نجد عقلانية الاحتجاج التي تقطع حجة المعاند ، وتلزمه الاعتراف بما ينكر متمثلة في الآيات السابقة ، وغيرها كثير مما حفل به الذكر الحكيم ، ويضيق المقام عن حصرها وتداركها ، وإنما لنا في هذا المقام الإشارة والتنبيه ، ومن أراد الحصر والاستقصاء فكتاب الله لا يعز على قاصديه .

رابعاً : الدراسة البلاغية لهذا الجدل :

أولاً : من خصائص الأسلوب القرآني :

لقد أعجز القرآن الكريم العرب ، بفصاحته ، وبلاغته ، وعلو بيانه . لم يأت بكلام خارج عما اعتادوه من الحروف ، والألفاظ ، وإنما هو جنس ما يعلمونه وينطقونه ، ومع ذلك فقد أعجزهم ، وخبأ ألبابهم ، وتقلب نظرك في آياته ، وكلماته ، فلا تدري أين يكمن إعجازه ، هل هو في ذلك النظام البديع ؟ أم في ذلك التركيب

(١) تاريخ الجدل ، ص ٧٠ .

(٢) التفسير الكبير ، ١٥م / ٣٠ج / ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) انظر : أضواء البيان ، ٨ / ٥٢٧ .

العجيب؟ أم هو في تلك الألفاظ الرائعة؟ أم في تلك الحروف المعبرة التي بنيت عليها الألفاظ؟ أم أنه يعود إلى أسباب أخرى تعجز عن إدراكها .

وبما أن المقام ليس مقام حصر ، واستيفاء بمقدار ما هو مقام لفت ، وتنبيه ؛ ولذا فقد رأيت أن أبدأ دراستي لأوجه البلاغة في الآيات موضع الدراسة ، ببعض تلك الخصائص ، والسمات التي أحاطت القرآن الكريم بالهيبة ، والجلال والروعة ، والإعجاز.

ورأيت أن أبدأ بالألفاظ ، لأنها بمثابة اللبنة الأساسية التي يقوم عليها البناء الكلي، ومن بين حروفها يبدأ معين الإعجاز بالنبع والتدفق .

١- الدقة في التعبير :

الكلمة هي تلك المادة الخام التي يتشكل منها الكلام ، ويعلو ذلك الكلام، أو يسفل ، بعلو كلماته أو إسفافها .

وقد بلغ القرآن الكريم المرتبة العليا ، والمكان الأسمى بعلو ألفاظه ، وفصاحتها ، لست بهذا القول أغفل النظم ، والتركيب ، وإنما لكل مقامه ، ولكن زبدًا في وصف البيان من القواعد .

يقول الراغب الأصفهاني في وصف ألفاظ القرآن الكريم : فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرامته ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حُذِّق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عدها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها ، والمشتقات منها ، هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى إلى أطايب الثمرة ، وكالحشالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة (١) .

(١) المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، ص ٦ . تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط الأخيرة - ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

وترد كل لفظة في القرآن الكريم مشبعة بكل المعاني المرادة في الموضع الذي استقرت فيه ، فلا تجد غيرها أولى بموضعها منها ، فدل ذلك على دقة استعمال القرآن الكريم لألفاظه ، وإتيان كل لفظ في موضعه ، إن أردت استداله انقض البنيان ، وخر من السقف .

واستعمال الألفاظ في مواضعها سمة أساسية في أسلوب القرآن الكريم ، بل قد حث القرآن على اختيار الألفاظ ، والدقة في التعبير ، وعدم التهاون في استعمال الألفاظ قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا... » (١) ؛ فورد هذا النهي عن استعمال كلمة « رَاعِنَا » لما فيها من اللبس والتمويه ، ولما لها من معنى في العبرية مدموم ، إذ معناها : الرعن ، وهو الحمق ، أو الاستهزاء ، لذا فقد نهى المؤمنين عن مخاطبة النبي ﷺ بها (٢) .

إذاً فاستعمال الكلمة دعامة أساسية قامت عليها التراكيب ، والأبنية في الأسلوب القرآني .

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد ، وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه ، وجل نظره (٣) .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠٤ .

(٢) انظر : من بلاغة القرآن ص ٥٧ ، ٥٨ ، من كنوز القرآن - بحوث لغوية متنوعة - ، محمد السيد الداودي ، ص ١٧ ، دار المعارف - مصر .

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضيء الدين بن الأثير ، ١/١٦٤ ، تحقيق : د . أحمد الحوفي ، د . بدوي طبانة - دار نهضة مصر - الفجالة - القاهرة .

والقرآن الكريم قد يستعمل لفظاً معيناً دون مرادفه ؛ لأن للفظ القرآن الذي أتى عليه خاصة في دلالة على المراد ، وميزة في إشارته إلى المقصود لا تكون لمرادفه^(١) .
وإن أردت أن تستبين ذلك فانظر إلى هذه الألفاظ المنتقاة من الآيات التي بين أيدينا .

قال تعالى : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (٧٢) »^(٢) .

الدرء : الميل إلى أحد الجانبين ، فادارأتم فيها : هو تفاعلتهم^(٣) . ونجد أن هذه الكلمة أصدق في التعبير عن الغرض ، وتصوير المعنى من كلمات أخرى قريبة معناها مثل (تدافعتم) ، (اختلفتم) ، (تخاصمتن) ، حيث ساعد تضعيف الدال ومدها ، واتباعها بالراء المفتوحة ، والهمزة الساكنة ثم التاء المضمومة والميم الساكنة ، على تصور الاختلاف والخصومة ، وما يحدث بين المتخاصمين من تدافع وشقاق ، وكأن الكلمة القرآنية هنا تبين أن خلاف القوم لم يكن هيناً ، وإنما بلغ من العنف درجة لا تفي بتصوير مداها إلا كلمة (ادارأتم) بجرسها المعبر عن الغرض أدق تعبير^(٤) .

ثم قف أمام جلال الألفاظ في قوله تعالى : « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا » (٣٦) »^(٥) .

واسأل نفسك ، لماذا عبر بكلمة « رددت » ، ولم يعبر « برجعت » ، مثلاً ؟ .

(١) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ، د . عبد الفتاح لاشين ، ص ١٣٧ ، ط ١ - ١٤٠٢ هـ -

١٩٨٢ م - دار الرائد العربي - بيروت - لبنان .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٢ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ، ص ١٦٩ .

(٤) من بدائع النظم القرآني ، د . السيد عبد الفتاح حجاب ، ص ١٣ ، ١٤ ، مطبعة الجندي .

(٥) سورة الكهف ، آية : ٣٦ .

قال « الراغب » : الردُّ إلى حالة كان عليها ^(١) ، وذكر منها هذه الآية .

وقيل في سر التعبير بهذا اللفظ دون غيره : إن الأولى بكلام هذا المنكر أن يقال : رددت ، وذلك لما تقدم من وصف الجنتين اللتين حوتا مراده ، واشتملتا على ما أراده ، وتقديره فيهما : أنهما يدومان له ، والرد عن الشيء يتضمن معنى كراهية للمردود ، نقول : قصد فلان فلاناً فرد عنه ، وقصد فلاناً فرجع عنه ، فلما كان القائل يُنقل عن جنته ، وهو خلاف محبته كان استعمال اللفظ الذي يدل على الكراهية فيه أولى ، وليس في رجوع ما في رد من كراهة ، وهو أن يلحقان المردود ، ولا يلحقان المرجوع فافتراقاً لذلك ^(٢) .

وإذا أنعمت النظر في قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » ^(٣) .

وفي قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ^(٤) .

تعود على نفسك بالسؤال ، ما السر الذي جعله يعبر في الآية الأولى بلفظ « هامة » وفي الآية الثانية بلفظ « خاشعة » ؟ وتعلم أن القرآن الكريم لا يلقي الألفاظ على علائها ، وإنما لكل لفظ موقع هو به أحق ، فما سر هذا الاختلاف ؟

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص ١٩٢ .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني لأبي عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي ، ص ٢٨٢ - ط - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م . منشورات دار الأفاق الجديدة .

(٣) سورة الحج ، آية : ٥ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .

نقول : إذا قرأت ما قبل هاتين الآيتين ، تجلّى لك هذا السر ؛ لأن جو السياق الأول جو بعث ، وإحياء ، وإخراج ، فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « هامة » ثم تهتز ، وتربو ، وتثبت من كل زوج بهيج .

وترى الجو في السياق الثاني ، هو جو عبادة ، وخشوع ، وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ، وربت ، ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات ، والإخراج كما زاد هناك ؛ لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود .

ولم تجئ « اهتزت وربت » هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك ، إنهما هنا تخيلان حركة الأرض بعد الخشوع ، وهذه الحركة هي المقصودة هنا ، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين ، المتحركين في المشهد حركتهم ^(١) .

إعجاز لا يعرفه كلام البشر ؛ لأنه واقع في اللفظة المفردة تحمل صورة كاملة لو زريد التعبير عنها في أسلوب بشري لتطلبت جملاً متعددة ^(٢) .

وإن أردت المزيد من دقة القرآن في استعمال ألفاظه ، فإليك قوله تعالى : « وَقَالُوا **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** (١٥) **أَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ** (١٦) » ^(٣) .

وقوله تعالى في السورة ذاتها : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَأُنْكَرُ

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ١١٨ ، ط ٧ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، دار الشروق - بيروت - القاهرة .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه ، ص ٢٧٩ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ١٥ ، ١٦ .

لَمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَتَذَرُنَا مُتْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ » (١) .

ما السر الذي جعله يعبر في الأولى بقوله « مبعوثين » وفي الثانية بقوله « لمدِينون »؟.

السر في ذلك – والله أعلم – أن الأول حكاية ما قاله الكفار من إنكار البعث ؛ والمبعوث هو الذي يبعث من قبره ، ويحيا بعد موته .

والمدين هو المجازي بما كان من كسبه . والبعث قبل الجزاء وهو يفعل من أجله، وحكاية الآخر الذي قال : إنا لمدِينون ، إنما هي عند حصوله في النار وهو الجزاء الذي أنكره لقوله تعالى : « قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ » (٢) فهذا المؤمن الذي حكى الله تعالى عنه قوله ، وأنه أخبر عن قرينه في الدنيا بأنه كان ينكر أن يحيا ، ويدان بما صنع هو الذي رآه في سواء الجحيم ، « قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ » (٣) . فالتفريع على ما أنكر يقع إذا تحقق ، وحصل فيه من كفر ، نعوذ بالله من عقابه .

وانظر إلى ذلك الاضطراب الذي يخالغ نفوس المكذبين بالبعث وقد تمثل في هذه الآية : « بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥٨﴾ » (٤) أصل المرج الخلط ، يقال : مرج أمرهم ، اختلط (٥) . فقد عبّر بهذه اللفظة لأن ما ذكره يحصل الاختلاط، لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب ، بل تارة كانوا يقولون كاهن،

(١) سورة الصافات ، آية : ٥١-٥٣ .

(٢) درة التنزيل ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ . سورة الصافات ، آية : ٥٤-٥٥ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ٥٦-٥٧ .

(٤) سورة (ق) ، آية : ٥ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٦٥ .

وأخرى مجنون ، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة ... بعد نسبته إلى الجنون ، وكذا إلى الشعر بعد السحر ، وإلى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج . نقول : كان الواجب أن ينتقلوا ن الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته ، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ، ولسانه ، وذلك لأن هذه مراتب ثلاث : الأولى الشك ، وفوقها التعجب ؛ لأن الشاك يكون الأمران عنده سَيِّئَيْن ، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب ، لكنه لا يقطع به ، والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلك .

فكأنهم كانوا شاكين ، وصاروا ظانين ، وصاروا جازمين ، فلما غيروا الترتيب حصل عليه المريج ، ووقع المريج ، وفيه لطيفة وهي : أن إطلاق لفظ المريج على ظنهم ، وقطعهم بنبي عن عدم كون ذلك الجزم صحيحاً ؛ لأن الجزم الصحيح لا يتغير . وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطرباً ، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع في اعتقاده تردد ، ولا يوجد معتقده تعدد (١) . وهكذا نرى دقة القرآن الكريم في تعبيره ، واستعمال ألفاظه متمثلاً في هذه الآية الكريمة .

اقرأ قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » (٦) (٢) .

ثم انظر إلى قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٣٣) (٣) .

(١) التفسير الكبير ، ١٤م / ٢٨٨ / ١٥٤ .

(٢) سورة (ق) ، آية : ٦ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

ثم ارجع البصر كرتين تستشف من خلالها روعة الأسلوب القرآن ، ودقة استعماله للألفاظ ، والكلمات !! ألا تري كيف أنه استعمل في الآية الأولى لفظ «النظر» ، وفي الآية الثانية لفظ « الرؤية » إن ذلك الاستعمال لم يأت من فراغ ، وإنما نبع من الحكمة ، والجلال . وفي ذلك الاستعمال لطيفة ، وهي أنهم في الآية الأولى لما استبعدوا أمر الرجوع بقولهم « أَتَذَّابُنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » (١) استبعد استبعادهم ، وقال « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ » (٢) لأن النظر دون الرؤية ، فكأن النظر كان في حصول العلم بإنكار الرجوع ، ولا حاجة إلى الرؤية ، ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد . وهناك لم يوجد منهم إنكار مذكور فأرشدهم إليه بالرؤية التي هي أتم من النظر ، ثم إنه تعالى كمل ذلك ، وجمله بقوله « إلى السماء » ولم يقل في السماء ، لأن النظر في الشيء ينبي عن التأمل ، والمبالغة ، والنظر إلى الشيء ينبي عنه ، لأن « إلى » للغاية ، فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى النظر فيه ، فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية» (٣) .

وعندما تقف أمام جلال القول الإلهي في قوله تعالى : « وَأَغْطِشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا » (٢٩) (٤) . تتساءل لم عبّر بهذه اللفظة « وأغطش » ، دون « أظلم » مثلاً ، لهي مساوية لها من حيث الدلالة اللغوية ؟

أقول : إن « أغطش » تمتاز بدلالة أخرى من وراد حدود اللغة ، فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعم الركود ، وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة .

(١) سورة (ق) ، آية : ٣ .

(٢) سورة (ق) ، آية : ٦ .

(٣) التفسير الكبير ، م ١٤ / ج ٢٨ / ١٥٥ .

(٤) سورة النازعات ، آية : ٢٩ .

وفي التعبير شدة في الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة ، والقوة ، الذي^(١) تتحدث عنه الآيات ، ولا يفيد هذا المعنى كلمة (أظلم) ، إذ هي تعبر عن السواد الحالك ، ليس غير^(٢) .

وكذلك نجد الحال في كلمة «أخرج» ، وأخرج ضحاها ، أي أضاءه ، ولكن استعمال الألفاظ يتمشى في تناسق السياق^(٣) ، إذ أن «أخرج» تدل على الشدة والقوة في الأداء ولكن كلمة أضاء ، تدل على سريان العمل بكل سهولة ، ويسر ، والموقف موقف بناء سماء ، ورفع سمك ، تحتاج الأجواء المحيطة إلى هذه القوة في التعبير فاستعمل كلمة «أخرج» دون غيرها لأداء المعنى المطلوب ، في تداخل تام مع الأحداث الدائرة .

يقول تعالى في ذم الإنسان الكافر : « قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ »^(٤) .

فلماذا استعمل هنا لفظ «القتل» في الدعاء على الإنسان ، دون لفظ الموت ، مع أن كليهما هلاك ؟

جاء التعبير القرآني بلفظ « قُتِلَ » ، دون لفظ « يموت » ، لأن «القتل» دعاء على الإنسان^(٥) الكافر الذي ليس له منهج سماوي يعصمه من الزلل ، وكلمة « قُتِلَ » ، تعني : أنه لو وجد هذا الإنسان الإنصاف لجاء مَنْ يقتله ، ويريح الناس من شره ، أما الموت فالكل سيموت وليس الكل سيقتل ، كما أن كلمة القتل وضعت لتناسب

(١) مباحث في إعجاز القرآن ، ص ١٣٠ ، وانظر : الظلال ، ٦م / ج ٣ / ٣٨١٦ .

(٢) المرجع السابق الأخير .

(٣) الظلال ، ٦م / ج ٣ / ٣٨١٦ .

(٤) سورة عبس ، آية : ١٧ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ، ص ٢٩٣ .

الإنسان ، الذي ليس له منهج سماوي يهتدي به في الحياة الدنيا ^(١) .

وهكذا لذت الأسماع ، وطربت الأنفس ، وسجدت الأقدام ، إجلالاً لهذا البيان المعجز ، من خلال هذا الاستعراض القليل لبعض من ألفاظ القرآن الكريم ، وإلا فبحر ألفاظه لا يُحَد ، وروعة بيانه لا تُرَد ، « وألفاظ هذا الكتاب الكريم ... كيفما أردتها ، وكيفما تأملتھا ، وأين اعترضتها من مصادرها ، أو مواردها ، ومن أي جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العذب » ^(٢) .

وإذا أردت الإحاطة بمعاني اللفظة منفردة ، ومعانيها مع أخواتها مجتمعة تقاصر عقلك البشري عن حمل الثقل المعنوي الذي أحيطت به ، وأسرار مفردات القرآن ، ومركباته فوق عقول العالمين ^(٣) .

وانظر إلى هذه الحقيقة التي أعلنها « ابن عطية » فيما يحكي « السيوطي » عنه ، وهو يتحدث عن القرآن الكريم ، إذ يقول : « لو نزعنا منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد » ^(٤) .

٢- الرقة والجزالة :

عندما ننظر بتدبر إلى آيات الذكر الحكيم ، نجد أن هناك اختلافاً في الأداء

(١) من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة - د . عبد الفتاح لاشين ، ص ١٠١ - ١٤٠٣ هـ -

١٩٨٣ م - الرياض - دار المريخ .

(٢) إعجاز القرآن ، الرافعي ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن القيم وحسه البلاغي ، ص ١٣١ .

(٤) مناهل العرفان ، ٢ / ٢٢١ .

الأسلوبي في مواضع أوامره ونواهيه ، ووصف العذاب ، تختلف عنها في مواضع ملاطفاته لأنبياء الله ، والصالحين من عباده ، ومواضع وصف الجنات ، والنعيم . نجد القوة ، والجزالة الأسلوبية تتفجر بها مواطن العذاب ، ووصف النار ، وأحداث الساعة.

ونجد الرقة والسلاسة في الأسلوب تسري بين حنايا وصف الجنات ، والنعيم ، وخطاب الأنبياء والصالحين .

ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً ، متوعراً ، عليه عنجهية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ، ولذاذته في السمع ، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً ، سفسفاً ، وإنما هو اللطيف ، الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس .

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك وحشياً الألفاظ ، ولا متوعراً .

ثم انظر إلى ذكر الرحمة ، والرأفة ، والمغفرة ، والملاطفات في خطاب الأنبياء ، وخطاب المنبيين ، والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ، ولا سفسفاً (١) .

تأمل أنغام الهيبة والرغبة ، إذ يفيض بهما سياق الكلام عن قيام الساعة وأهوالها الجسم ، وذكر قدرة الله القاهرة ، ومثول العبد للحساب عند ربه ، تجدها أنغاماً ذات سطوة ، وهيمنة ، تحطم كبرياء الجاحد أو العاصي ، وتقهر غروره ، وتبدد

(١) المثل السائر ، ١ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

اعتداده ، ووجاهته (١) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآثَمَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) » (٢) .

وإن أردت المزيد فإليك سورة (ق) « فالسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ، وذكر الخلق ، وتكرير الرقيب ، وذكر السائق ، أو القرين ، والإلقاء في جهنم ، والتقديم بالوعيد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب والقرون ، والنقيب في البلاد ، وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسي فيها ، وسوق النخل ، والرزق وذكر القوم ، وحقوق الوعيد ، فهناك المناسبة المعنوية بين الحرف المفرد (ق) الذي يدل بوضعه على الشدة ، والجهر ، وبين معاني هذه السورة التي ملئت بالحروف القافية . وحرف القاف من الحروف الشديدة الجهرية . فناسب ذلك مع الغرض من السورة ، حيث إن نزولها كان مهاجمة المشركين ، وتقرير الوعيد لهم ، وإثبات الحساب والموت والبعث ، وما يحف ذلك من مكروه يفرون منه ، ويهربون » (٣) .

فانظر إلى جزالة ألفاظها ، وقوتها ، التي تفرع القلوب قرعاً ، وتهز النفوس هزاً ، فتعذب الكافرين بألفاظها قبل أن يروا ما يوعدون ، وتنقل قوارع الساعة ، وضجيج

(١) المعجزة الخالدة ، د . حسن ضياء الدين عتر ، ص ٢٧٣ - ط ٢ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، دار ابن حزم ، بيروت .

(٢) سورة الحج ، آية : ٤-١ .

(٣) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

الناس وخرّ الجبال وتصافق البحار ، وتشقق السموات بالألفاظ والكلمات ، قبل النظر ، والمعاناة ... فالله أكبر على عظمة هذا التنزيل ، وعلو بيانه .

٣- التصوير الفني :

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة الحسية المتخلية عن المعنى الذهني ، الحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة (١) .

انظر إليه وقد خلع الحياة على هذا المشهد ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ... ﴾ (٢) .

إن المشهد لم يرسم للحس قوياً واضحاً موحياً . مشهد الموت والبلى والخواء يرسم بالوصف : « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » (٣) محطمة على قواعدها . ويرسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرّ على القرية . هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره : « أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا » (٤) . وهكذا يلقي التعبير القرآني ظلاله وإيحاءاته ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر (٥) .

ألا تتمثل لك تلك القرية الخاوية ، وقد تهدمت منازلها ، وخلت طرقاتها ، فلم تعد تسمع فيها غير صفير الرياح يعصف بباقيها .

(١) التصوير الفني في القرآن ، ص ٣٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

(٥) الظلال ، ١٣ / ج ٣ / ٢٩٣ .

إن الأسلوب القرآني قد نقل لك هذا المشهد الموحى من خلال حروفه وكلماته ، وكأنما تلك الحروف والكلمات آلة تصوير حيّة تجوب بك أنحاء القرية ، لتكون برفقة ذلك المار .

ثم انظر إلى ذلك الأسلوب العجيب ، وهو ينقل لك الحدث العظيم؛ فيها هو الرجل المار يجلس تحت ظل شجرة ، ويربط حماره في أحد أغصانها ، وفجأة ها هو ذا لا حراك ، والحصار كذلك قد سكن . وتسحب ألفاظ القرآن شريط الحياة مقدار مائة عام، وفجأة تدب الحياة في أوصال ذلك الميت ، انظر إليه يحرك رأسه يمينا وشمالا كأنما نشط من عقال ، ثم انظر إلى المعجزة تتمثل أمامه ، ينظر إلى حماره فإذا هو عظام بالية ، وفجأة تتراكب تلك العظام ، واستمع إلى قعقتها كيف ينقلها لك الأسلوب القرآني ، وانظر إليها وهي تكتسي باللحم ، وكأنما هو ثوب يُنشر ليشملها ، ثم تسري فيه الحياة .

انظر إليه يحرك رأسه ، وأذنيه ، ويرفع صوته بالنهيق . ثم لا تنسى أن تلتفت إلى ذلك الطعام ، وتحشر أنفك لتشم رائحته ، إنه لم يتعفن ، ولم تغير طعمه السنون .

— سبحان الله — ، ما أعظم قدرته ، وأعز شأنه — ألا ترى كيف نقلت كلمات القرآن الكريم ، تلك الصورة الموحية ، المؤثرة ، وجعلتك ترقب أحداثها بكل دقة . إنه ذلك الأسلوب العظيم الذي أعجز العرب قاطبة ، وسيظل معجزاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهكذا تتمثل لك المشاهد ، والأحداث ، المحكية ، وإذ بها أمام ناظريك ، ترقب تفاصيلها بكل إعجاب ، ودهشة .

انظر إلى تلك الريشة السحرية في الأسلوب القرآني وهي تنقل لك هذا المشهد :

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١)» (١).

انظر إليهم من خلال وصف القرآن الكريم وهم موقوفون على ربهم ، يعلو الخزي وجوهمهم ، وتستشعر الخجل نفوسهم ، ثم يوجه إليهم الخطاب المخجل : « أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ » (٢) ؟ فياله من سؤال ! « قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا » (٣) في خضوع وخزي واستسلام ، ثم لم يزد على أن قال : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » (٤) . ولقد كانوا في وقتهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، لا تحط عنهم ، ولا تستريح كواهلهم ، إلى أن يساقوا إلى الجحيم ، بعد صدور الأمر العظيم (٥) .

فانظر إلى هذا التعبير الذي يرسم صورة حيّة للخزي في يوم القيامة ، ويصور هؤلاء المجرمين شخوصاً قائمة يتملأها الخيال ، وتكاد تبصرها العين لشدة وضوحها وتسجيل هيئتها « ناكسوا رؤوسهم » وعند من ؟ « عند ربهم » ، فيخيل للسامع أنها حاضرة لا متخيلة (٦) . ثم انظر إلى ذنوبهم وقد خلعت عليها الحياة ، فهم يحملونها على ظهورهم فلطالما حملتهم في دنياهم .

(١) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ .

(٥) مشاهد القيامة في القرآن ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٦) التصوير الفني ، ص ٢٩ .

وانظر إلى تلك الهيئة التي يكونون عليها ، هيئة ذلك المتعب الذي أحنى ظهره؛
ليتمكن من حمل ما وضع عليه ، وليس ذلك الحمال الذي يحمل ما كُلف به بكل
جِدَّة ونشاط ، وإنما هو حمال قد علت قسامته الذلة والانكسار ، يتمنى لو يتوارى
من القوم من سوء ما يحمل ، ولكن أتى له ذلك — فله درُ شأن هذا التنزيل — معجز
إذا أمر ، معجز إذا نهى ، معجز إذا حدَّث ، معجز إذا وصف « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ
يُؤْمِنُونَ (٥٠) » (١) ..

قف أمام قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن
تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن
يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥٠) » (٢) .

تجد أن هذه الريشة السحرية من الألفاظ والكلمات والتراكيب ، التي تُخلع على
المشاهد فتبعث فيها الحياة متمثلة في صورة الأرض الهامدة الخاشعة ، التي ترى
على قسامتها خشوع الهيئة والجلال لخالقها ، ثم فجأة تهتز ، وتحرك وتنفخ ،
وتخرج ألوان النبات من جوفها . فانظر إلى صورة السكون والخمود تعقبه الحركة
والحياة ، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني ، لما كانت هناك ضرورة لهذا
التنوع .

ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، وإنما يريد الصورة
كذلك ؛ والصورة تقتضي هذا التنوع ؛ ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة ،

(١) سورة المرسلات ، آية : ٥٠ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٥ .

أو في المشهد المعروض ، ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن « التصوير » عنصر أساسي في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجرداً ، إنما ينبض بطبيعته بصورة حيّة للمعاني ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة ، حسب اختلاف الأجزاء والألوان .

ثم لننظر في « وحدة الرسم » ، وفي أجزاء الصورة كذلك . وحدة الصورة هي : مخلوقات حيّة تخرج من الموت ، أو مشاهد حياة .

والأجزاء هي : نقطة تندرج في مراحلها المعروفة ، ونبتة تصير زوجاً بهيجاً ، وهي تراب ميت تخرج منه تلك النطفة ، وأرض هامة تخرج منها هذه النبتة . والجو العام ، هو جو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء (١) .

وحينما نقرأ قوله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) » (٢) . يمتلكك شعور الإعجاب ، والدهشة من روعة التصوير ، وإضفاء الحياة على الجوامد؛ فهذا الماء الدافق ينبثق من ظلام مجهول في كيان الإنسان ، كما ينبثق الشعاع في كبد الظلام ، والذي يدفع به إلى الأرحام قادر على رجعه « تبلى السرائر » ، وهذا تناسق آخر في الهيئة والحركة ، بين الدفع والرجع على نحو من الأنحاء (٣) .

هذا هو أسلوب القرآن الكريم ، يجعلك تنسى أنك أماك كلام يُتلى ، ويضعك

(١) التصوير الفني ، ص ١١٩ بتصرف .

(٢) سورة الطارق ، آية : ١٠-٥ .

(٣) مشاهد القيامة ، ص ٧٩ .

أمام الواقع، فإذا بك ترقب صوراً، ومشاهداً تنبض بها الحياة، وتجدد بها الانفعالات^(١)، وتستنطق الوجدانات، وإذا أنت تعيش اللحظة المقصودة بكل مشاعرك، وكيانك. فأأي أسلوب هذا؟ وأية روعة هذه؟ وأي جلال هو؟

ثانياً: علم المعاني:

١- التوكيد:

وهو فنّ في البلاغة قيّم؛ لما له من أهمية واضحة في تأكيد المعنى المراد في نفوس المخاطبين.

يقول «ابن العلوي»: «واعلم أن التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد»^(٢).

ولذا «استخدم القرآن التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه، وإقراره في أفئدتهم، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم»^(٣).

وبما أن القرآن الكريم يهدف في المقام الأول إلى ترسيخ العقائد، والعبادات في النفوس، عن طريق الأسلوب المعجز، والاستخدام الرائع لفنون الكلام، فإنه لم يغفل هذا اللون من البلاغة.

ولما كان الإيمان بالبعث، وما يتبعه من حساب، وعقاب، أحد ركائز الدين

(١) انظر المعجزة الخالدة، حسن عتر، ص ٢٤٢، مباحث في إعجاز القرآن ص ١٣٧.

(٢) الطراز، ١٧٦/٢.

(٣) من بلاغة القرآن، ص ١٤٣.

الإسلامي الخفيف ، وأحد أصوله الثلاثة ، التي هي : الإيمان بالله ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، قال تعالى في ذم من ينكر ذلك اليوم : « إلهكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » (٢٢) « (١) .

ونظراً لأهمية هذا اليوم العظيم ، فقد اتخذ القرآن الكريم من أسلوب التوكيد مدخلاً لتقرير هذه العقيدة في النفوس المنكرة ، مع المراوحة في استخدام أساليب التوكيد بين مقام وآخر . تبعاً لقوة الإنكار أو ضعفه ، كما أن هذا الأسلوب قد استخدمه المنكرون للبعث أثناء مجادلته في هذه القضية ، وذلك لبيان مدى تمكن هذا الإنكار في نفوسهم . وسأوضح جوانباً من هذا التوكيد في الآيات موضوع الدراسة .

فيما أن عقيدة الإيمان قد واجهت موجة عارمة من الإنكار والاستهزاء ، من قبل المشركين ، والكفار . إلا أننا قد نجد أن القرآن الكريم يثبت الموت ويؤكد بمؤكدات عدة ، وهو الذي لا مجال لإنكاره ، على حين نجده في مقام آخر ينزل المنكرين للبعث منزلة المعترفين ، لا كالمترددين أو المنكرين حشاً لهم على النظر في الأدلة (٢) المحيطة بهم وفي أنفسهم ، وفي الآفاق ؛ ليتبين لهم الحق .

يقول السيوطي : « وقد يترك التأكيد وهو معه منكر ؛ لأن معه أدلة ظاهرة ، لو تأملها لرجع عن إنكاره » (٣) .

ونجده في مقام آخر يجادلهم في حقيقة البعث ، ويؤكد لهم صدق وقوعه ،

(١) سورة النحل ، آية : ٢٢ .

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي - ٨١ / ١ . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر .

(٣) الإنفاق ، ٢ / ٦٤-٦٥ .

مستخدماً في ذلك أساليب التوكيد المختلفة .

ومما ورد مؤكداً من آيات البعث ، نذكر هذه الآيات على سبيل التمثيل ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء .

ما جاء في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٩) (١) .

وقع التوكيد في هذه الآية في قوله « جميعاً » فهي مؤكدة لما فيه من العموم، فإن كل جزء في هذا العالم واستمراره على حاله ، ذو أثر فعال في انتظام هذا الكون النظام الذي يليق به (٢) ، وقد جاء هذا اللفظ ليدلّ دلالة واضحة على أن كل ما في هذا الكون من دقائق ، ومخلوقات ، وأسرار ، وعجائب ، مُوجدها هو الله تعالى وحده دون سواه .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (٧٢) (٣) .

وقع التوكيد في هذه الآية في قوله : « وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » (٤) ، حيث أراد المولى – عز ذكره – أن يؤكد لهؤلاء القوم الذين تستروا على القاتل ، بأنه – سبحانه – سوف يخرج القاتل لا محالة ؛ لذلك أكدت الجملة بينائها على الاسمية ، وبناء اسم الفاعل على المبتدأ المفيد لتأكيد الحكم ، وتقويه (٥) .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٩ .

(٢) الكشف ، ١ / ٧٨ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٧٢ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٧٢ .

(٥) روح المعاني : ١ / ٢٩٣ .

ومن ذلك قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (٢٤٣) « (١) .

وقع التأكيد في هذه الجملة « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » (٢) بإن واللام ، والجملة الاسمية (٣) حيث أراد المولى - عز ذكره - بيان عظيم فضله ، وواسع امتنانه على الناس جميعاً فجاء الكلام مؤكداً بهذه التأكيدات ، مع أن الكلام لم يكن مع منكر لهذا الفضل ، ولكنه نزل غير المنكر ، منزلة المنكر ، لإقرار هذا الفضل في النفوس . و « أن » أصيلة في التوكيد كما نصت على ذلك كتب النحو (٤) ، وكذلك اللام التي تفيد تحقيق معنى الجملة . إزالة الشك ، وهي لام الابتداء ، وإنما أخرت ، لدخول « إن » المشددة على الجملة (٥) .

يقول السيوطي : « إذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات ؛ لأن إن أفادت التكرير مرتين ، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً » (٦) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .

(٣) البحر المحیط ، ٢ / ٢٥١ .

(٤) انظر : الكتاب - لسيبويه ، ٢٣٣ / ٤ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ٢ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م - دار الجيل للطباعة .

مفني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن هشام ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١ / ٥٥ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

(٥) شرح المفصل - للشيخ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ، ٩ / ٢٥ ، المطبعة المنيرية - مصر .

(٦) الإنفاق ، ٢ / ٦٥ .

بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) « (١) .

وردت هذه الآية في مجادلة منكري البعث ، للنبي - ﷺ - فالقضية لا أساس لها لديهم ، بل هم بها مكذبون ، وحتى يثبتوا عدم إيمانهم ، أو اعتقادهم بوقوع البعث ، جاء كلامهم مؤكداً بحشد من المؤكدات ، وذلك دليل على تماديهم في الغفلة ، والضلال .

فقد ورد إنكارهم مؤكداً بأن النافية ، فلم يكتفوا بالإخبار عن المحصور فيقولوا (هي حياتنا) ولكن جاءوا بالنفي ، والحصار ، أي لا حياة ، إلا هذه الحياة الدنيا فقط ، ووصف الحياة بالدنيا وصف على سبيل التوكيد ، إذ لا حياة عندهم إلا هذه الحياة (٢) . ثم نفوا البعث بقولهم : « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » فقد صرحوا في هذه الآية بالنفي المحض ، وأكدوا ذلك بالباء الداخلة في الخبر على سبيل المبالغة في الإنكار (٣) .

فموقفهم من القضية إذاً يحتم عليهم الإتيان بمنطقهم على هذا المنوال ، من تتابع أدوات التوكيد ، واختلافها ، وهذا يفيد شدة الإنكار ، وعمق الكفر بالقضية . فلو جاء بكلامهم خالياً من التوكيد ، أو جاء بمؤكد واحد ، لظن السامع أن هناك جهلاً بأطراف القضية ، أو قصوراً في فهمها ، لكن حين جاء الكلام وفي ثناياه هذا الحشد

(١) سورة الأنعام ، آية : ٢٩-٣١ .

(٢) البحر المحیط . ١٠٥/ ٤ - روح المعاني ، ١٣١/ ٧ ، إرشاد العقل السليم ، ٢م/ ٣/ ١٢٤ ،

التحرير والتنوير ، ١٨٧/ ٧ .

(٣) المراجع الثلاثة الأولى السابقة .

من أدوات التوكيد ، تبين أن القوم به كافرون ، ولأصوله منكرون . وفي مقام رد القرآن الكريم على هؤلاء المنكرين ، نجده يسأل هؤلاء المنكرين حين يقفون أمام ربهم عن حقيقة هذا الأمر ، فنجدهم يؤكدون حقيقته وصدق وقوعه في ذلك الموقف ، وذلك حين يقع الإقرار ، والاعتراف مؤكداً بأغلظ الأيمان ^(٢) ، يقول « البيضاوي » : « إقرار مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء » ^(١) ، ويقول « الألوسي » : « أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال تيقنهم بحقيقته ، وإيداناً بصدور ذلك عنهم برغبة ، نشاط ، طمعاً بأن ينفعهم ، وهيهات ^(٣) .

ثم تؤكد الآية الكريمة ، مدى خسران هؤلاء المنكرين ، وذلك مؤكداً - بقدر ، والباء الزائدة في قوله : « بلقاء » ، فأكد حقيقة خسرانهم ، بسبب تكذيبهم بهذا اليوم بمؤكدين فقط ، وذلك لأنه قد عرض لهم من صور العذاب ما يغني عن المزيد من أدوات التوكيد ، وأساليبه ، فاكتفى بهذين المؤكدين ، ليجعل هذه النفوس المنكرة ، تجول فيما لا حد له ، ولا نهاية من صور العذاب ، على حين كان المقام يقتضي في مثل هذا الحال ، الإتيان بحشد من المؤكدات ، ولكنه نزل المنكر ، منزلة السائل المتردد ، حثاً له على النظر في الأدلة ^(٤) .

وهكذا نجد أن الآية الكريمة ، تحكي إنكارهم للبعث أولاً ، وتأكيد هذا الإنكار ،

(١) التفسير الكبير ، ٦م / ١٢ جـ / ١٩٦ ، تفسير النسفي ، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ، ١م / ٢ جـ / ٩ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - البحر المحيط ، ٤ / ١٠٥ ، إرشاد العقل السليم ، ٢م / ٣ جـ / ١٢٤ .

(٢) أنوار التنزيل ، ١ / ٢٩٨ .

(٣) روح المعاني ، ٧ / ١٣١ .

(٤) عروس الأفراح - ١ / ٢١٨ .

ثم تؤول بهم في النهاية ، إلى الإقرار به ، وتأکید مجيئه (١) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (٢) .

وقع التوكيد في هذه الآية في قوله « وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » (٣) فهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة السابقة « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ » (٤) ، والتقدير والله أعلم . وعد الله وعداً ، وفي حقاً ، حق ذلك حقاً ، وذلك لأن الرجوع إليه سبحانه ، وعد منه بالبعث ، وذلك الوعد حقاً منه سبحانه (٥) ، وأكد البعث أيضاً بقوله : « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » (٦) حيث أكد ذلك بأن مع ضمير الشأن ، وذلك للتنبيه على قدرته مضمناً بيان حكمته ، معللاً لوجوب الرجوع إليه (٧) .

وقد اقتضت الجملة الإتيان بهذه المؤكدات ، لما في أمر البعث من الجدل ، والإنكار ، فالخبر ملقى إلى قوم منكرون له ، لذلك لزم تأكيده بهذه المؤكدات ، قطعاً لكل حجة ، وإجلاء لكل شبهة .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

(١) التفسير الكبير - ٦م / ج ١٢ / ١٩٦ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٤ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٤ .

(٤) سورة يونس : ٤ .

(٥) البحر المحیط ، ٥ / ٢٤ . إرشاد العقل السليم ، ٢م / ج ٤ / ١١٩ . أنوار التنزيل ، ١ / ٤٢٨ . روح

المعاني ، ١١ / ٦٦ . التحرير والتنوير ، ١١ / ٩٠ ، ٩١ .

(٦) سورة يونس . آية : ٤ .

(٧) نظم الدرر ، ٩ / ٦٩ .

قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ؛ (١) .

وقع التوكيد في الآية الكريمة في قوله : « قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » (٢) حيث أعاد الجملة بتمامها في الجواب ، وذلك لمزيد التحقيق ، والتثبيت (٣) .

فعندما سأل المولى عز ذكره - هؤلاء المشركين عن من يبدأ الخلق ثم يعيده ، تولى - سبحانه وتعالى - الإجابة عن هذا السؤال عن طريق أمره للرسول - ﷺ - بإعادتها ، وذلك لتأكيد تفرد بهذا الأمر ، وقدرته عليه دون سواه . وقطعاً لكل طريق يدخل به المشركون مدخل شبهة . وكذلك لتأكيد وتثبيت حقيقة البعث في نفوس المنكرين .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَسْتَنْبِشُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) » (٤) .

وقع التوكيد بإظهار الجملة التي تضم بعد قوله « إِي وَرَبِّي » (٥) ؛ مؤكدة بالقسم الذي لم يذكر للإلزام وإنما لتوكيد ما أنكروه و « إن » و « اللام » ، وقد زيد تقريراً ، وتحقيقاً بقوله : « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » (٦) .

(١) سورة يونس ، آية : ٣٤ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٣٤ .

(٣) البحر المحیط ، ٥ / ١٥٥ . إرشاد العقل السليم ، ٢م / ٤ / ١٤٣ . روح المعاني ، ١١ / ١١٣ . نظم الدرر ، ٩ / ١١٥ - ١١٧ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٥٣ .

(٥) سورة يونس ، آية : ٥٣ .

(٦) البحر المحیط ، ٥ / ١٦٩ . إرشاد العقل السليم ، ٢م / ٤ / ١٥٤ . روح المعاني ، ١١ / ١٣٦ . سورة يونس ، آية : ٥٣ .

وقد لزم الإتيان بكل هذه المؤكدات ؛ لأنه في مقام الرد على منكري البعث ، إذاً فالموقف موقف إنكار ، وعناد ، يتطلب تحقيق الأمر ، وتثبيتته في نفوس المنكرين ، وإجلاء الشبه من دواخلهم .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » (١) .

أرادت الآية تأكيد قصر لبث المنكرين في دنياهم ، حين يرون ما يكذبون به ، فيظنون أنهم ما لبثوا غير ساعة ، وأكدوا تشبيه قصر حياتهم في الدنيا بالساعة ، بقولهم « كأن » وهو حرف للتشبيه المؤكد ، وإنما تستعمل حيث يقرى الشبه حتى يكاد الرائي يشك أن المشبه هو المشبه به (٢) كما أكدوا هذا القصد يالا وهي أداة للقصر تفيد التحقيق .

ثم أوضحت الآية مدى خسران هؤلاء المكذبين حين يلاقون ربهم ، وأكدت ذلك الخسران بحرف التحقيق « قد » .

ثم أكدت الآية ، عدم هدايتهم ، ومدى ما هم فيه من ضلالة ، وأكدت ذلك بالنفي « بما » التي هي في النفي يازاء « إن » في الإثبات (٣) .

ومن التوكيد كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٤) .

(١) سورة يونس ، آية : ٤٥ .

(٢) الإنشقاق ، ١/ ١٦٨ .

(٣) البرهان - الزركشي ، ٢/ ٤١٧ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٥ .

أورد - عز ذكره - في هذه الآية ، إنكار المشركين للبعث على هيئة تعجب من قولهم ، وأكد هذا العجب ، بالواو الزائدة في قوله « وإن » وعندما أقول « زائدة » لا أقصد تلك الزيادة المخلة ، وإنما أقصد الزيادة التي تزيد المعنى وضوحاً ؛ لأن زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى .

كما أكد إنكار هؤلاء المشركين ، وذلك بتكرار همزة الاستفهام « إذا - إنا » وذلك بقصد المبالغة في الإنكار ^(١) ، فالتكرير إنما يأتي لما أهم من الأمر ، بصرف العناية إليه ؛ ليثبت ، ويتقرر ^(٢) . وأكد كذلك باللام في قوله (لفي) فإن اللام تفيد تأكيد مضمون الجملة ^(٣) . وقد ألقى المنكرون هذه الشبهة ، مؤكدة بهذه المؤكدات ، وذلك لبيان ما نفوسهم من شك وكفر وضلال .

ثم أخذت الآية تبين مصير هؤلاء القوم ، مؤكداً تأكيداً لا ريب فيه ، قال تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٥) ، (٤) .

فقد ذكر اسم الإشارة ثلاث مرات ، وذلك لفائدة عظيمة تُرجى ، حيث أرادت الآيات فضح هؤلاء القوم على رؤوس الأشهاد ، وشدّ الوثاق المسك بهم من أعناقهم ، حتى تجعل دويّ الأغلال يقرع قلوبهم قرعاً ، ويشدّ أعناقهم شداً ، فهذا لظى جهنم يوسع وجوههم ، وها هم أولاء بين أهل المحشر سماتهم واضحة ، فليس

(١) الفتوحات الإلهية ٢ / ٤٩١ ، إرشاد العقل السليم م ٣ / ج ٥ / ٦ .

(٢) المثل السائر ، ٣ / ١٢ .

(٣) البرهان ، الزركشي ، ٢ / ٤٠٨ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٥ .

ثمة شك في أمرهم ، بأنهم أصحاب النار (١) .

وقد أدى التوكيد في هذا الموضوع ما يُقصد به . وذلك عن طريق التكرير ، الذي هو أبلغ من التوكيد ، وهو من محاسن الفصاحة (٢) .

يقول « ابن الأثير » : « فتكرير لفظ (أولئك) لمكان شدة النكير ، وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث (٣) ، ثم أكدت الآيات المضمرة بالضمير المنفصل في قوله : « أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٤) ، وهو كما يقول « الزركشي » من مؤكدات الجملة ، وقد نص « سيويه » على أنه يفيد التأكيد (٥) ، وقد أفاد التوكيد بالضمير المنفصل كون هذا العذاب الموصوف بهذه الصفات لهؤلاء المنكرين دون غيرهم . فله دُرُّ هذا التنزيل ، تشم من وصفه للنعيم رائحة الجنة ، وفجأة يزكم أنفك دخان جهنم من خلال حروفه ، وكلماته .

ومن التوكيد كذلك ما ورد في قوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبينَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) » (٦) .

في هذه الآية الكريمة ، يردُّ إنكار المشركين ، المكذبين بالبعث ، بأسلوب جديد،

(١) انظر : التفسير القرآني للقرآن ، ٤م / ج-١٣ / ٧٣ .

(٢) الإقتان ، ٦٦/ ٢ .

(٣) المثل السائر ، ١٢/ ٣ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٥ .

(٥) البرهان - الزركشي - ٤٠٩/ ٢ .

(٦) سورة النحل ، آية : ٣٨-٣٩ .

حيث ورد القسم (١) مصرحاً به ، والقسم عند النحاة جملة يؤكد بها الخبر (٢) ، وقد لجأ المنكرون إلى القسم وذلك تأكيداً لنفي البعث والنشور .

ثم جاء الرد مؤكداً بمؤكدات عدة ؛ لأن المخاطبين منكرون ، فلزم التأكيد بأكثر من مؤكداً ، وجاء بلفظ (بلى) أي يبعثهم ، وكذلك أكد بالمصدر وعداً ، والمصدر حقاً ، وكلاهما مصدران مؤكداً لمضمون الجملة السابقة (٣) ، ولقد ردّ عليهم أبلغ رد حيث أثبت ما نفوه ، وأكدت ثلاث مرات (٤) . ثم نفى علمهم بذلك اليوم بقوله « ولكن » وأكد جهلهم ، وعدم علمهم ، بالواو الزائدة ، التي ترد للتأكيد كما ذكر ذلك « السيوطي في كتابه » (٥) ، وكذلك بـ « لكن » التي تأتي للاستدراك ، والتوكيد (٦) ، حيث تأتي لتأكيد حكم ما قبلها (٧) .

ثم أوضحت الايات ، بعضاً من تلك الفوائد الجليّة ، التي من أجلها وجد اليوم الآخر ، وأكدت ذلك بعدة مؤكداً منها ، لام الابتداء (ليين) ، « ليعلم » ، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة (٨) ، يقول « ابن الأثير » عن فائدتها : « أنه إذا عبّر عن أمر يعزّ وجوده ، أو فعل يكثر وقوعه ، جيء باللام تحقيقاً لذلك » (٩) .

(١) البحر المحيط ، ٥ / ٤٩٠ .

(٢) أساليب بلاغية - الفصاحة - البلاغة - المعاني - د . أحمد مطلوب . ص ٩٧ ، ط ١ ، وكالة المطبوعات - الكويت .

(٣) سبق توضيحها في الآية رقم ٤-٦ من سورة يونس .

(٤) حاشية الشهاب ، ٥ / ٣٣١ . البحر المحيط ، ٥ / ٤٩٠ . الفتوحات الإلهية ، ٢ / ٥٧١ . التفسير الكبير ، م ١٠ / ج ٢٠ / ٣١ . أنوار التنزيل ، ١ / ٥٤٤ . إرشاد العقل السليم ، م ٣ / ج ٥ / ١٣ .

(٥) الإنقان ، ٢ / ٦٦ .

(٦) مغني اللبيب ، ١ / ٣٨٣ . معاني الحروف لأبي الحسن على الرماني ، تحقيق : د . عبد الفتاح شلبي ، ص ١٣٣ ط ٢ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م بصائر ذوي التمييز ، ٤ / ٤٦٧ .

(٧) عروس الأفراح ، ١ / ٢١٩ .

(٨) البرهان ، الزركشي ، ٢ / ٤٠٨ .

(٩) امثل السائر ، ٢ / ٢٣٥ .

ثم أكدت الآيات في نهاية المطاف ، مدى قدرة الله - سبحانه وتعالى - على البعث ، وأن أمره هين عليه يسير بقوله : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) » (١) . حيث وقع التوكيد يائماً ، وهي تجيئ لخبر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة (٢) .

فالأية تريد تحقيق أمر ثابت ، ومعلوم ، وهو قدرة الله - عز وجل - على كل شيء ، ومن هذه القدرة قدرته تعالى ، على البعث ، والنشور ، ثم أكدت هذا الأمر أيضاً «بأن» المخففة من الثقيلة ، ولا معنى لها في هذا الموضع غير التوكيد (٣) . واقتضى المقام الإتيان بهذا الحشد من المؤكدات ، وذلك لتثبيت دعائم هذه العقيدة في أذهان الكثيرين ، حتى تبدو القضية وكأنها واقع ملموس لا مراء في قبول حقيقته ، والتصديق به .

ومن هذا القبيل : ما جاء في قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) » (٤) .

وقع التوكيد في قوله : « لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » (٥) حيث أراد المولى عز ذكره - أن يبين لرسوله - ﷺ - مدى تمكن هذا الاعتقاد الخاطئ من نفوس المنكرين ، فجزم - جل وعلا - جزمًا مؤكداً بهذه الإجابة التي سوف يرددها

(١) سورة النحل ، آية : ٤٠ .

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص ٢٤٤ .

(٣) المغني ، ١ / ٥٢ .

(٤) سورة هود ، آية : ٧ .

(٥) سورة هود ، آية : ٧ .

المنكرون للبعث ، لذا فقد جاء هذا الخبر مؤكداً باللام الموطئة للقسم ، وما يتبعها من نون التوكيد ^(١) ، وكذلك التوكيد بأسلوب القصر وهو النفي مع الاستثناء إلا في هذا الموضع ، وذلك لمزيد التحقيق ، والتأكيد لمقولة هؤلاء المنكرين ، الذين تمكن هذا الاعتقاد من نفوسهم ، ونزل منها كل منزل ، فأصبحوا لا يرون سواه ، ولا يعتقدون بغيره .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) » (٢) .

في هذه الآيات الكريمة ، يريد المولى - سبحانه - أن يبين مدى شدة إنكار المشركين للبعث والنشور . فجاء الاستفهام الصادر منهم عن حقيقة ذلك اليوم مكرراً ، وذلك لتأكيد الإنكار ، وجاءت (ما) للتوكيد كذلك ، ثم جاء ما بعد هذا الاستفهام مؤكداً باللام ^(٣) ، وسوف .

قال « الجرجاني » في نظم القرآن : « ليست اللام فيه للتأكيد فإنه منكر فكيف يحقق ما ينكر ، وإنما قاله حكاية لكلام النبي - ﷺ - الصادر منه بأداة التأكيد ، فحكاها فنزلت الآية على ذلك » ^(٤) .

(١) التحرير ، ٩/ ١٢ .

(٢) سورة مريم ، آية : ٦٦- ٧٠ .

(٣) انظر : تفسير الجلالين ، هامش الفتوحات الإلهية ، ٧٢/ ٣ . البحر المحيط ، ٦/ ٢٠٦ ، ٢٠٧ . روح

المعاني ، ١٦/ ١١٧ . التحرير ، ١٦/ ١٤٥ .

(٤) الإتقان ، ٢/ ٦٥ .

ثم أكدت الآيات حقيقة البعث ، والنشور ، بعدة مؤكدات ، وذلك في مقام الرد على هؤلاء المنكرين . حيث أكدت بالقسم « فوربك » فإنه قسم عظيم ؛ لتضمنه التمدح بأعظم قدرة ، وأكمل عظمة ، لأنه حاصل من رب العباد سبحانه (١) .

وأكد أيضاً بلام التوكيد « لنحشرنهم ، لنحضرنهم ، لننزعن ، لنحن » وبنون التوكيد الثقيلة كذلك في الأفعال الثلاثة الأولى ، فقد كررت الآية لام التوكيد في أربعة مواضع ، ونون التوكيد الثقيلة في ثلاثة مواضع « وأكثر ما تستعمل هذه اللام في جواب القسم ، لتحقيق الأمر المقسم عليه ، وذلك في الإيجاب دون النفي ، لأنها لا تستعمل في النفي .. فإن أضيفت إليها النون الخفيفة والثقيلة كان أبلغ في التأكيد » (٢) .

وأكد كذلك في الآيات ، بتكرار الاسم ، وهو أحد أقسام التوكيد الصناعي ، وذلك بإعادة كلمة الإنسان : « ويقول الإنسان ... أو لا يذكر الإنسان .. » وذلك لقصد التأثير الخفي في نفس ذلك المنكر ، والدخول إلى أعماقه من حيث لا يعلم ، بلامسة شغاف قلبه بهذه الكلمة من رب العزة والجلال ، وذلك أوقع في نفس المخاطب ، وأدعى للوم ، والتقريع ، الذي ترمي إليه الآيات من طرف خفي . كذلك وقع التأكيد بكلمة « كل » التي يؤكد بها الجمع وحققها أن تكون مضافة إلى اسم منكر شائع في الجنس (٣) وهو من التوكيد المعنوي الذي هو فرع من التوكيد

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لأبي محمد زكي الدين المعروف بابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق : د . حفني شرف ، ص ٣٢٩ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - ١٣٨٣هـ - مطابع شركات الإعلانات الشرقية .

(٢) المثل السائر ، ٢ / ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) بدائع الفوائد ، شمس الدين محمد بن أبي بكر المشتهر بابن القيم الجوزية ، ٢ / ٢٣٧ - دار الفكر ، المخصص ، لأبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي المعروف بابن سيده ، م ٤ / جده / سفر ١٤ / ص ٥٨ - ١٣٩٨هـ ، دار الفكر - بيروت .

الصناعي « ثم لتزرعن من كل شيعه » فإن هذا اللفظ يفيد تأكيد إيقاع العذاب على كل رؤساء الضلال في أقوامهم دون استثناء أحد منهم ، وفائدته كما يقول السيوطي : « رفع توهم المجاز وعدم الشمول » (١) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » (٢) .

تريد الآية الكريمة ، أن توقظ النفس الإنسانية من سباتها العميق ، وتطلّعها على أهوال يوم القيامة ، فتزاهي تهز النفوس بحروفها وكلماتها ، لتلتفت إلى ما ينجيها في ذلك اليوم العظيم ولتثبت حقيقته بطريق الترهيب ، لذا نجد أن أدوات التوكيد قد تنوعت في هذه السورة ونأخذ منها (إِنَّ) حيث أكد بها شدة هول الساعة ، وهي من أقوى أدوات التوكيد ، ومن فوائده دخولها على الجملة أنك « ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها ، وتأتلف معه ، وتمتد به حتى كأن الكلامين قد أفرغاً إفراغاً واحداً ، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر » (٣) ، ويقول « صاحب البرهان » ، و« صاحب التحرير » ، أن « إِنَّ » وردت هنا لتوكيد الأمر بالتقوى (٤) ، كما قوع التوكيد هنا بالجملة الاسمية (٥) .

ثم قال تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » (٦) .

(١) الإنفان ، ٦٦/ ٢ .

(٢) سورة الحج ، آية : ١ .

(٣) دلائل الإعجاز ، ص ٢٤٣ .

(٤) ١٨٨/ ١٧ ، ٤٠٦/ ٢ .

(٥) عروس الأفراح ، ١ ، ٢٢٠ .

(٦) سورة الحج ، آية : ٢ .

هذه الآية تبين شدة فزع الناس في ذلك اليوم العظيم ، حتى يبدو للرائي أنه قد ذهبت عقولهم بسكر ، ولكن الأمر ليس كذلك ، لذا أكدت الآية نفى السكر عنهم بالتعبير بالجملة الاسمية ، وذلك لتأكيد استمرار النفي الحاصل قبل ، ثم أكدت كذلك بزيادة الباء في قوله « بِسْكَارَى » (١) . وزيادة الباء في خبر (ما) الثانية ، كزيادتها في خبر ليس ، فإنها إن زيدت في خبر ليس كانت من مؤكدات الحكم (٢) .

كما وقع تأكيد كون هذا الذهول بسبب شدة العذاب بـ (لكن) التي هي من مؤكدات الحكم (٣) .

ومنه أيضاً ما ورد في قوله : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) » (٤) .

فقد وردت هذه الآية ؛ لإثبات حقيقة البعث ، ولكننا نرى ، أن الموت الذي لا مجال لإنكاره قد وقع توكيده ، بأن ، واللام ، واسمية الجملة ، وصيغة النعت الذي هو للثبوت (٥) ، في حين أن البعث الذي كثر منكره أكد بأن فقط . فما السر في ذلك ؟

لقد كثرت آراء العلماء حول هذا السر ، وكثرت تعليقاتهم ، آخذ منها الأصل ، والجديد في هذا الموضوع ، فأقول : إن « أبا حيان » ذكر سبب تأكيد الموت بهذه المؤكدات ، دون البعث ، وذلك ليكون الموت نصب عيني الإنسان ، وهاجسه

(١) سورة الحج ، آية : ٢ .

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد ، ٢٢١/ ١ .

(٣) عروس الأفراح ، آية : ٢١٩/ ١ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ١٥ ، ١٦ .

(٥) روح المعاني ، ١٨/ ١٧ .

الوحيد ، حتى يعمل لما بعده ، ولا يغفل عن ترقبه فإن مآله إليه ، في حين أن البعث الذي هو مجال للشك والإنكار ، خلا من هذه التوكيدات ، وذلك لأنه أبرز في صورة المقطوع به ، الذي لا يمكن فيه نزاع ، ولا يقبل إنكار ، وأنه واقع ، وقوعاً حتمياً لم يحتج معه إلى مزيد توكيد ^(١) .

ويقول « الألوسي » في ذلك ما نصه : « ولم يؤكد - سبحانه - أمر البعث تأكيده لأمر الموت ، مع كثرة المترددين فيه ، والمنكرين له ، اكتفاء بتقديم ما يعني عن كثرة التأكيد ، ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد ، من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأ خلقاً آخر يستغرق العجائب ، ويستجمع الغرائب ، فإن في ذلك أدلّ دليل على حكمته وعظيم قدرته - عز وجل - على بعثه وإعادة وأنه - جل وعلا - لا يهمل أمره ، ويتركه ... بعد موته نسياً منسياً مستقراً في رحم العدم ، كأن لم يكن شيئاً ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه - تعالى شأنه - أحكم خلق الإنسان ، وأتقنه ، بالغ - عز وجل - في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد ، حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده ، وسمع أن الله - جل جلاله - أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتيان ، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت ، وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث لم أر أنني سبقت إليه ^(٢) . ومن المفسرين من علل لنقص توكيد البعث عن الموت وذلك تنبيهاً على ظهوره ^(٣) .

وذهب « القزويني » إلى أن القرآن الكريم بأسلوبه هذا قد نزل المخاطبين بالموت ،

(١) البحر المحيط ، ٦ / ٣٩٩ .

(٢) روح المعاني ، ١٨ / ١٧ .

(٣) انظر : نظم الدرر ، ١٣ / ١١٨ .

منزلة من يبالغ في إنكاره ، وذلك لتماديهم في الغفلة ، والإعراض عن العمل لما بعده .

وأكد إثبات البعث تأكيداً واحداً ، وذلك لأن أدلته ظاهرة ، وكان جديراً بأن لا تُنكر ، لذا نزل المخطئين منزلة المترددين ، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته ، وحثاً لهم على النظر فيها ^(١) .

هذا هو تحليل « الإمام القزويني » لهذه الآية ، ثم جاءت كتب البلاغة من بعده ، وتناقلت ما قال دون زيادة .

وأضيف إلى ذلك – والله أعلم – أنه أكد الموت بهذه التأكيدات ، دون أن يكون للبعث مثل هذا التأكيد وهو مما يُنكر ؛ وذلك لأنه قد سبق تأكيد البعث بمختلف الطرق ، والأساليب في الآيات السابقة ، ولم يكن هذا التأكيد لأي قضية أخرى ، كالموت مثلاً ؛ لذا فإنه أراد التعريض بجهل ، وحماسة ، من ينكر البعث ، فإن من ينكر قدرة الله على البعث ، فهو بطريق أولى ينكر قدرته على غيره من الأمور والتي منها الموت ، وبما أنهم لا ينكرون الموت ، بل هو الحقيقة الماثلة أمام أعينهم عشية وضحاها ، جعل إنكارهم للبعث ، كمن ينكر الموت ، فهم من الجهالة بمكان ، حتى أنهم يحتاجون إلى من يؤكد لهم الموت ، وهم يرون آيات الله في كل ما حولهم ، فمن احتاج إلى تأكيد البعث ، احتاج إلى تأكيد أية حقيقة ماثلة أمامه ، وذلك لأن فكره ، وعقله ، قدران عليهما الجهل ، فهما يحتاجان إلى مزيد من القرع ، لتستيقظ الفطرة السليمة في أعماقه فيقر بالبعث .

(١) الإيضاح في علوم البلاغة – مختصر تلخيص المفتاح – لجلال الدين أبو عبد الله القزويني ، ص ١٥ ، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – ميدان الأزهر ، عروس الأفراح ، ٢١٦/١ .

ومن التوكيد كذلك ما جاء في قوله تعالى « أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ » (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُوَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) » (١) .

فهذه الآيات حكاها القرآن الكريم على لسان المنكرين للبعث ، فهم يؤكدون إنكارهم لهذه القضية ، وعدم إيمانهم بها ، لذا فقد جاء كلامهم في الإنكار مؤكداً بطرق مختلفة .

منها توكيد الضمير المتصل بمثله في قوله : « أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ » كما ثنى ذكر الضمير (أَنْكُمْ) للتوكيد أيضاً ، وذلك لطول الفصل بينهما (٢) ، كما وقع التوكيد بأن (٣) ، وذلك لإثارة مزيد من الشبه حول هذه الحقيقة ، فإذا نظر هذا المنكر إلى نفسه ، وواجهها بهذه الحقيقة ، ونظر إلى بدنه السليم المعافى ، وخلع عليه رداء البلي ، جاء الشيطان من هذا المدخل ، فكيف يصدق أنه هو نفسه ، سوف يعود بعد البلى كما هو عليه الآن ، فما يكون منه إلا أن يصيح بأعلى صوته ؛ لا لا بعث بعد الموت ، لذا جاء حديث بعضهم لبعض يدور حول توجيه العدم إلى بعضهم ، فكيف

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٣٥-٤٠ .

(٢) الكشف ، ٣ / ٧١٧ ، روح المعاني ١٨ / ٣٠ ، إرشاد العقل السليم . ٣م / ٦- ١٣٤ ، أنوار التنزيل ، ٢ / ١٠٤ .

(٣) ولا فرق بين المكسورة والمفتوحة في تأكيد مضمون الجملة . الفصل في علم العربية - أبي القاسم الزمخشري ، ص ٢٩٣ . دار الجليل - بيروت . المخصص ، م ٤ / جده / سفر ١٤ . الغني ، ١ / ٣٩ . بدائع الفوائد ، ٢ / ٦٩ .

يصدقون بعودة بعد ممات وفناء .

ثم جاء استبعادهم مكرراً (هيهات هيهات) لتأكيدهِ بُعد تلك الحقيقة^(١) عن طريق تكرار اسم الفعل^(٢) ، على سبيل التوكيد ، لبيان مدى استبعادهم^(٣) .

ثم جاء توكيد هذا الإنكار مرة أخرى في قولهم : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »^(٤) حيث أكدوا انحصار حياتهم في الحياة الدنيا فقط، لذلك جاء أسلوب الحصر هنا بإن النافية ، وإلا ، وذلك لمزيد من التوكيد في كون حياتهم هي الحياة الدنيا فقط^(٥) .

ثم أكدوا ، وصرحوا بعدم إيمانهم بهذا النبي ، الذي يدعي أن هناك بعثاً بعد الموت « وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ »^(٦) وقع توكيد عدم إيمانهم بما النافية ، والباء الزائدة في خبر ما^(٧) .

ثم تولى القرآن الكريم الرد عليهم ، مؤكداً وقوع ندامتهم حين يقع بهم العذاب فقال : « عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ »^(٨) فورد التأكيد بحتمية حصول الندامة بالتأكيد

(١) روح المعاني ، ١٨ / ٣١ . إرشاد العقل السليم ، ٣م / ٦٤ / ١٣٤ .

(٢) البرهان ، الزركشي ، ٢ / ٣٨٦ .

(٣) بدیع القرآن ص ١٥١ ، تحرير التحرير ، ص ٣٧٦ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ٣٧ .

(٥) النهر الماد من البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، هامش البحر المحيط ، ٦ / ٤٠٥ - ط ٢ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، دار الفكر - بيروت .

(٦) سورة المؤمنون ، آية : ٣٨ .

(٧) مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للقرطبي - شرح التلخيص ، ١ / ٢١٩ . البرهان - الزركشي ، ٢ / ٤١٧ ، روح المعاني ، ١٨ / ٣٣ .

(٨) سورة المؤمنون ، آية : ٤٠ .

(بما) في قوله (عما) ^(١) التي تفيد تأكيد القلة ، أي قلة مكثهم ، أو قلة الفترة الزمنية الحاصلة بين تكذيبهم للبعث ، وحصول الهلاك . وأكد كذلك باللام « ليصبحن » ونون التوكيد الثقيلة ، وذلك لتأكيد وقوع العذاب ، وشدة ندامة المكذبين يوم يرون ما يوعدون صدقاً .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) » ^(٢) .

هنا تريد الآية الكريمة أن تبين قدرة المولى - سبحانه - على تشكيل هذا السحاب ثم إنزال المطر من خلاله ، وتريد أن تبين حال الناس قبل نزوله ، لذلك وقع التكرار في قوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ » ^(٣) حيث أعاد ذكر (من قبله) ، وذلك للتوكيد ، وليلد على أن عهدهم بالمطر قد تطاول ، - وبُعد - فاستحكم بأسهم ، وتمادى إبلاهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك . كما ذكر ذلك « الزمخشري » ، وغيره ^(٤) . وقيل : التكرير للتأكيد ، وأفاد كما قال « ابن عطية » : الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلas إلى الاستبشار ^(٥) .

(١) انظر : تأويل مشكل القرآن ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة . شرحه ونشره : السيد أحمد صقر .

ص ٢٥٢ . ط ٣ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، المكتبة العلمية - بيروت - لبنان . روح المعاني ، ٣٣/١٨ .

نظم الدرر ، ١٣/ ١٤٠ . النهر الماد من البحر المحيط ، ٦/ ٤٠٥ . أنوار التنزيل ، ٢/ ١٠٤ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٤٨-٤٩ .

(٣) سورة الروم ، آية : ٤٩ .

(٤) انظر : الكشاف ، ٣/ ٤٨٥ . أنوار التنزيل ، ٢/ ٢١٦ . إرشاد العقل السليم ، ٤م/ ٧ج/ ٦٤ .

البحر المحيط ، ٧/ ١٧٨ .

(٥) روح المعاني ، ٢١/ ٥٣ .

وقيل : إن التأكيد وقع لبيان عظم خفتهم ، وعدم قدرتهم ^(١) ووقع التوكيد أيضاً باللام في قوله (لمبلسين) لبيان شدة إبلاسه قبل نزول المطر .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ^(١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ^(١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ^(١٤) » ^(٢) .

ترمي الآيات إلى توضيح شدة ندامة المنكرين حين يرون العذاب ، فيرجعون القول إلى ربهم أنهم صدقوا بما وعدهم به وأكدوا يقينهم بقولهم : (إِنَّا مُوقِنُونَ) ، حيث عدلوا إلى التحدث بالجملة الاسمية المؤكدة إظهاراً لثبات يقينهم ، لعل ذلك يجدي نفعاً في تحقيق ما طمعوا فيه ، وإجابة ما سألوه من الرجعة ^(٣) .

ولكن سبق القول من رب العالمين ، بأن يملأ جهنم من الجنة والناس وأكد ذلك بـ(لكن) واللام ، ونون التوكيد الثقيلة في (لَأَمْلَأَنَّ) والتي هي بمثابة تكرير الفعل ثلاث مرات ^(٤) . وكذلك بقوله (أجمعين) ، وذلك ليعلم هؤلاء وأمثالهم ، أن الله شديد العقاب .

فهذه جهنم التي كانوا بها يكذبون . ها هم اليوم ، يتذوقون صنوف عذابها ، وأكد ذلك بقوله « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

(١) نظم الدرر ، ١٥ / ١٢١ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ١٢ - ١٤ .

(٣) البرهان ، الزركشي ، ٢ / ٤١٩ .

(٤) التفسير الكبير ، م ١٣ / ج ٢٥٩ / ١٧٩ . نظم الدرر ، ١٥ / ٢٥١ .

الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (١) فهو تكرير للتأكيد ، وتعيين للمفعول المطبوع للذوق ، والإشعار بأن سببه ليس فقط هو إنكارهم لهذا اليوم ، وإنما هناك أسباب أخرى، طويت في هذه الآية تشمل فنون من المعاصي ، والآثام ، ولذلك لم ينتظم الكلام في سلك واحد ، للدلالة على استقلال كل منها في استيجاب العذاب ، وفي إبهام المدح أولاً ، وبيانه ثانياً بتكرير الأمر ، وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما ، من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى (٢) .

ومن التوكيد أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) » (٣) .

في هذه الآية يريد المولى - عز ذكره - أن يوقظ معاني الفطرة السليمة في نفوس المنكرين حتى يؤمنوا بالبعث وما بعده ، فيلفت أنظارهم إلى الأقوام السابقة أين هم؟ فهم لا يسمعونهم ولا يرجعون إليهم قولاً ، ويؤكد ذلك بقوله : « أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » (٤) حديث وقع التوكيد بأن ، ولا النافية .

كما أكد سبحانه ، بعثهم ، وإحضارهم جميعهم بين يديه للحساب ، وأكد ذلك « بأن » الخفيفة التي هي بمنزلة ذكر الفعل مرتين (٥) .

يقول « الرازي » في (إن) هنا أن لها وجهان :

(١) سورة السجدة ، آية : ١٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، ٤م / ٧ج / ٨٤ . روح المعاني ٢١ / ١٣٠ . الفتوحات الإلهية ، ٣ / ٤١٦ . أنوار التنزيل ، ٢ / ٢٣٥ . نظم الدرر ، ١٥ / ٢٥٣ .

(٣) سورة يس ، آية : ٣١ ، ٣٢ .

(٤) سورة يس ، آية : ٣١ .

(٥) البرهان - الزركشي - ٢ / ٤١٩ .

أحدهما : أنها مخففة من الثقلة واللام في (لما) فارقة بينهما وبين النافية، وما زائدة مؤكدة في المعنى ، والقراءة حينئذٍ بالتخفيف في (لما) .

الثاني : أنها نافية و (لما) بمعنى إلا ، قال « سيبويه » : يقال : نشدتك بالله لما فعلت بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذٍ بالتشديد في لَمَّا ، يؤيد هذا ما روي أن أياً قرأ (وما كل إلا جميع) ، وفي قول « سيبويه » : (لَمَّا) بمعنى (إلا) وارد معنى مناسب، وهو أن (لما) كأنها حرفاً نفي جمعاً ، وهما : لم – وما – فتأكد النفي^(١). وقيل : إن (لما) وضعت في معنى إلا فكأنها (لَمْ) ضمت إليها (ما) وصارا جميعاً حرفاً واحداً وخرجا من حد الجحد .

قيل وما يدل علي ذلك أن (لما) يكون (إلا) مع (إن) التي تكون جحد قوله تعالى : « **إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ** »^(٢) على قراءة الأنصار^(٣) ، وذهب «الزمخشري» : أن قوله (لما جميع) ، (ما) صلة للتأكيد^(٤) وذهب غيره إلي أن (ما) مزيدة للتوكيد^(٥) .

كما وقع التوكيد أيضاً بقوله (جميع) التي تفيد اجتماعهم ، والإتيان بهم في هذا الموقف . وقضى المقام الإتيان بهذا الحشد من المؤكدات ؛ وذلك للدلالة على جمعهم دون تخلف أحد منهم يوم القيامة ، وفي هذا الموقف بذاته .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « **قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَأُتْرِدِينَ** »^(٦) فقد وقع

(١) التفسير الكبير ، م ١٣ / ج ٢٦ / ٦٤ .

(٢) سورة (ص) ، آية : ١٤ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ، ٤ / ٤٤٥ .

(٤) الكشف ، ٤ / ١٤ .

(٥) انظر : أنوار التنزيل ٢ / ٢٨١ ، إرشاد العقل السليم ، م ٤ / ج ٤ / ١٦٦ . نظم الدرر ، ١٦ / ١٢١ .

(٦) سورة الصافات ، آية : ٥٦ .

التوكيد هنا بالقسم بالله العظيم (تالله) ثم إن الخفيفة (إن) ثم باللام (لتردين) ، وذلك إقراراً منه ، وتوكيداً بأغلظ الأيمان ، على أنه لو استمع لهذا القرين في دنياه ، فإنه هالك لا محالة فتطلب الموقف الإتيان بالتوكيد على هذا المنوال .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَأَنذَرْنَا مُنْذَرًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) » (١) .

فهذا إنكار من المشركين للبعث ، والحساب ، والجزاء ، وقد جاء هذا الإنكار مؤكداً بتكرير الهمزة في (أنا) وذلك للمبالغة والتشديد في الإنكار ، وكذلك التعبير بالجملة الاسمية ، وتقديم الظرف (أنا لمبعوثون) وتحلية الجملة بإن واللام ، للإشعار بأن البعث مستتكر في نفسه . وفي هذا أشد الاستنكار . وكذلك زاد التأكيد في ترك الإتيان بصيغة الاستقبال ، والإتيان بالفعل كأنه كائن (مبعوثون) ، ثم زادوا وقالوا (أو آباؤنا الأولون) وذلك أشد في الإنكار (٢) .

وبسبب هذه المبالغة في الإنكار ، فإن الله - سبحانه وتعالى - قد رد عليهم الجواب في كل مبالغة بمبالغة أخرى فقال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ (٥١) لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) » (٣) .

ورد التأكيد على بعثهم ، هم وآباؤهم إن ، كما أنه قدم ذكر الأولين على

(١) سورة الواقعة ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) التفسير الكبير ، م ١٥٠ / ج ٢٩ / ١٧٣ . إرشاد العقل السليم ، م ٤٠ / ج ٧ / ١٨٧ . روح المعاني ، ٧٧ / ٢٣ . أنوار التنزيل ، ٢ / ٢٩١ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٤٩ - ٥٦ .

الآخرين ؛ وذلك حين أخرج المنكرون ذكرهم ، لكون بعثهم أشد في الاستبعاد، فقدّم ذكر الآباء في الرد عليهم وذلك للمبالغة في الرد (١) .

كما وقع التأكيد بدخول اللام على قوله (لمجموعون) والإتيان بصيغة اسم المفعول ، الذي يدل على معنى السوق ، والدفع ، والقهر ، بالإضافة إلى معنى الجمع (٢) .

ثم وقع التوكيد في قوله (إنكم) وذلك لتأكيد أن الخطاب ، والتهديد موجه إلى هؤلاء القوم دون غيرهم ، وأن العذاب بوصفه هذا واقع عليهم . كما أكد أيضاً باللام في قوله (لأكلون) لتأكيد أكلهم من هذا النوع من الأشجار ، بالإضافة إلى اسمية الجملة التي تدل على الاستمرار والحدوث . ثم قال لهم إمعاناً في ترهيبهم (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ) (٣) وإعادة فشاربون توكيد لفظي ، وفائدته زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة ، حيث أنهم يزدادون شرباً مع أنه يزيدهم عذاباً (٤) .

ثم أردفت الآيات بعد ذلك ، بذكر بعض من دلائل القدرة الإلهية العظيمة، حتى وصلت إلى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُمْسِرُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) » (٥) . فقد وقع التوكيد في

(١) التفسير الكبير ، م ١٥ / ج ٢٩ / ١٧٢ . روح المعاني ، ٢٧ / ١٤٥ .

(٢) التفسير الكبير ، م ١٥ / ج ٢٩ / ١٧٣ . التفسير القرآني للقرآن ، م ٧ / ج ٢٧ / ٧٢٠ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٥٥ .

(٤) التحرير ، ٢٧ / ٣١١ .

(٥) سورة الواقعة ، آية : ٦٣-٦٥ ، ٦٨-٧٠ .

الآية الأولى باللام في قوله : « لجعلناه » ، على حين لم يرد التوكيد بها في الآية الثانية ، وإنما جاءت مجردة عن اللام في قوله : « جعلناها » . فما سرُّ ذلك ؟

لقد تنبه المفسرون إلى هذه اللطيفة ، وأفاضوا في التعليل لذلك ، ولما فيها من الدقة ، والروعة ، والإعجاز ، أحبت أن أعرج عليها ، في مظانها من كتب التفسير ، والبلاغة ، واستخلص منها ما جدُّ من الآراء .

ذهب بعض المفسرين إلى تعليل وجدو اللام المؤكدة في آية المطعوم دون آية المشروب ، وذلك للدلالة على أن أمر المطعوم مقدَّم على أمر المشروب ، وأن الوعيد يفقده أشد ، وأصعب من قبل . فالمشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ^(١) .

ومنهم من علل لذلك السبب ، وقال : أن وجود اللام في آية المطعوم ، دون آية المشروب ؛ وذلك لبيان أن عصمته تعالى للزرع ، والماء ، عما يخل بالتمتع بهما نعمة أخرى ، بعد نعمة الإثبات ، والإنزال ، مستوجبة للشكر ، وللفرق بين المطعوم والمشروب في الأهمية وصعوبة الفقد ^(٢) .

ويقول « ابن الأثير » في ذلك : « إنما جاءت كذلك ؛ لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف ، والعادة . والموجود من الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة ، فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله طعاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، إذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ، فلذلك قرّن بلام التأكيد زيادة في

(١) الكشف ، ٤ / ٤٦٥-٤٦٧ . البحر المحيط ، ٨ / ٢١٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، ٤م / ٨ج / ١٩٨ . روح المعاني ، ٢٧ / ١٤٩ .

تحقيق أمره، وتقرير إيجاده» (١).

ويقول «ابن أبي الإصبع» في ذلك: «لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً مما يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزراع، ولهذا قال سبحانه: «أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» (٢) أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء، وأن جفافه من حرارة الشمس، وعدم السقي، أو تواتر مرور الإعصار، فأخبر - سبحانه - أنه الفاعل لذلك كله على الحقيقة، وأنه قادر على جعله لو شاء حطاماً في حالة نموه، وزمن شيبته ونضارته، فلما كان هذا التوهم محتملاً أوجبت البلاغة تأكيد فعل الجعل فيه، وإسناده لزارعه على الحقيقة، ومنشئه لرفع هذا التوهم، ولما كان إنزال الماء من السماء محالاً بما يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحداً من جميع الخلق قادر عليه، لم يحتج إلى تأكيد الفعل في جعله أجاباً؛ فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحداً ينزل الماء من السماء أجاباً، ولا عذاباً الذي هو أسهل من الأول وأهون (٣).

ويقول «الزركشي» في ذلك أيضاً: «إن جعل الحرث طعاماً قلب للمادة والصورة، وجعل الماء أجاباً قلب لكيفية فقط، وهو أسهل وأيسر» (٤).

وبهذا يتبين لنا روعة الأسلوب القرآني في استخدامه للتوكيد، حيث تزدحم العبارات والألفاظ بجملته من المعاني العظيمة التي أضفاها التوكيد على الأسلوب القرآني، فلا تملك النفس تجاه هذا الأسلوب إلا الإيمان الصادق بكل ما احتواه من معتقدات وتأكيدات.

٢ - النداء :

وهو من الأساليب الإنشائية التي استخدمها القرآن الكريم لما له من اختصاص

(١) المثل السائر، ٢ / ٢٣٦.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٦٤.

(٣) بديع القرآن، ص ٦٩.

(٤) البرهان، ٣ / ٨٩.

في إيقاظ المشاعر ، وتحقيق الأهداف . ولم تخل آيات البعث من هذا النوع من الإنشاء.

ومما جاء فيه النداء بـ « يا » ما جاء في قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) » (١) .

وقع النداء بـ « يا » والمقصود من النداء هنا الاختصاص . يقول « أبو حيان » : وفي نداء بني إسرائيل لنبيهم باسمه سوء أدب منهم معه ، إذ لم يقولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله ، أو يا كليم الله ، أو غير ذلك من الألفاظ التي تشعر بصفات التعظيم ، وهي كانت عادتهم معه ، « يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » (٢) ، « يَا مُوسَى جَعَلْ لَنَا إِلَهًا » (٣) ، « يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ » (٤) . وقد قال الله لهذه الآية : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » (٥) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا » (٦) .

النداء قولهم : « يا حسرتنا » والحسرة هي شدة التألم ، ونداؤها مجاز ، أي : هذا أوانك فاحضري .

وقيل : أي شدة التلهف ، والتحسر على ما فات ، وقوله : فاحضري ليس المقصد

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٦١ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٣٨ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٣٤ .

(٥) سورة النور ، آية : ٦٣ . انظر البحر المحيط ، ١ / ١٢٠ .

(٦) سورة الأنعام ، آية : ٣١ .

طلب حضورها ، بل الاعتراف بما قوع لهم من شدة الندم ، والتحسر (١) .

قال « الزجاج » : معنى دعاء الحسرة ، تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة : « قالوا يا حسرتنا » والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة ، وهذا أبلغ من أن يقال : الحسرة علينا في تفريطنا (٢) .

وقيل : المقصود بالنداء : التعجب ، والندم (٣) .

ومن النداء بلا أداة قوله تعالى : « إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » (١٠) ، (٤) .

قيل في هذا النوع من النداء : لا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب في القرآن الكريم بل ينادى مجرداً من حرف النداء ؛ ولعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربه من ربه (٥) .

وقصد بالنداء في هذه الآية الدعاء ؛ إذ دعوا الله بأن يهيء لهم من أمرهم الذي صاروا إليه من مفارقة دين أهليهم ، وتوحيد الله رشداً ، وهي الاهتداء ، والديمومة عليه (٦) .

ومن النداء بـ « يَا أَيُّهَا » ما جاء في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ

(١) الفتوحات الإلهية ، ٢ / ٢١ ، وانظر ، روح المعاني ، ٧ / ١٣٢ .

(٢) التفسير الكبير ، ٦م / ج ١٢ / ١٩٨ .

(٣) التحرير ٧ / ١٩٠ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ١٠ .

(٥) من بلاغة القرآن ، ص ١٦٨ .

(٦) البحر المحيط ، ٦ / ١٠٢ .

السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾» (١) .

قال «الزمخشري» وغيره : كرر في القرآن النداء بـ «يَا أَيُّهَا» دون غيره ؛ لأن فيه أوجهاً من التأكيد ، وأسباباً من المبالغة : منها ما في «يا» من التأكيد ، والتنبيه ، وما في «ها» من التنبيه ، وما في التدرج من الإيهام في «أي» إلى التوضيح ، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد ، لأن كل ما نادى الله عباده من أوامره ، ونواهيه ، وعظاته ، وزواجره ، ووعدِهِ ، ووعدِهِ ، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية ، وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه - أمور عظام ، وخطوب جسام ، ومعان ، واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (٢) .

وقد جاء النداء في هذه الآية ، وقصد به التنبيه ، إذ نبه تعالى على سبب اتقائه ، وهو ما يؤول إليه من أهوال الساعة (٣) .

ومن النداء بلا أداة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون» (٣٩)» (٤) .

جاء النداء بغير حرف ، وهو من نداء - الرسول عليه السلام - لربه - عز وجل - قيل : إن هذا الرسول لعاد ، وقيل : المراد بهؤلاء ثمود (٥) . والأرجح أنه صالح عليه السلام وقصد بالنداء هنا الدعاء ، والاستنصار على قومه .

(١) سورة الحج ، آية : ١ .

(٢) معترك الأقران ، ١ / ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، الإنقان ٢ / ٨٣ .

(٣) البحر المحیط ، ٦ / ٣٤٩ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية : ٣٩ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٢٥٥ .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا... إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ » (١) ، وهذه أيضاً من النداء بلا أداة ، وقصد به هنا الدعاء ، والاستغاثة ، إذ يستغيث هؤلاء المجرمون بربهم حين يرون العذاب الأليم (٢) .

٣ - الأمر :

وهو من أنواع الإنشاء التي حفلت بها آيات القرآن الكريم وقد يأتي الأمر على حقيقته ، وقد يخرج إلى أغراض أخرى يدل عليها سياق الكلام وأساليب المقام .

ومما ورد في آيات البعث من الأمر ، ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (٣) .

جاء الأمر في قوله : « مُوتُوا » ، قال « الزمخشري » : جيء به على هذه العبارة ، للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ، ومشيبته . وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف (٤) .

وقيل : الأمر بمعنى الخبر ، أو أن الله - تعالى - قال لهم على لسان ملك : موتوا ، فماتوا (٥) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

(١) سورة السجدة ، آية : ١٢ .

(٢) انظر : البحر المحيط ، ٢٠١ / ٧ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .

(٤) الكشف ، ٢٩٠ / ١ .

(٥) الفتوحات الإلهية ، ١٩٧ / ١ .

قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ، (١) .

وقع الأمر في قوله « قل » وقد أتى الأمر على حقيقته ؛ إذ أمره بأن ينوب عنهم في الجواب ، يعني أنه لا يدعهم لمواجههم ، ومكابرتهم ، أن ينطقوا بكلمة الحق ، مكلم عنهم (٢) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً » (٣) .

جاء الأمر في قوله « قل » والأمر فيه للتعجيز ، والإهانة ، وليس على تصور حقيقته ، بل المراد : إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة (٤) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (٥) .

الأمر جاء في قوله « قل » ، وقد جاء على حقيقته ، أي قل لهم تحقيقاً للحق ، وإزاحة للاستبعاد ، وإرشاداً إلى طريقة الاستدلال (٦) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ » (٧) .

(١) سورة يونس ، آية : ٣٤ .

(٢) الكشف ، ٣٤٦/ ٢ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٠ .

(٤) الفتوحات الإلهية ، ٦٢٩/ ٢ ، انظر الطراز ، ٢٨٣/ ٣ ، حاشية الشهاب ، ٣٩/ ٦ ، روح المعاني ، ٩١/ ١٥ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٦) روح المعاني ، آية : ٩٢/ ١٥ .

(٧) سورة الحج ، آية : ١ .

الأمر في قوله « اتقوا » المأمور به مطلق التقوى ، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل ، وترك ما يندرج فيه الإيمان بالله تعالى ، واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع ، اندراجاً أولاً لكن على وجه يعم الإيجاد ، والدوام ^(١) .

ومن الأمر كذلك ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » (٦٩) ^(٢) .

الأمر في قوله « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا » والأمر للتهديد لهم على تكذيبهم ، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم ^(٣) .

ومن الأمر ما جاء في قوله تعالى : « فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٥٠) ^(٤) .

الفعل : « فانظر » فعل أمر ، والمراد بالأمر هنا التنبيه على عظيم قدرته – تعالى – وسعة رحمته – عز وجل – مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث ^(٥) ، إذاً فالنظر المأمور به ، نظر الاستبصار والاستدلال ، وليستدلوا على أن من يقدر على ذلك قادر على إحياء الموتى ^(٦) .

وانظر إلى قوله تعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا

(١) روح المعاني ، ١٧ / ١١٠ .

(٢) سورة النمل ، آية : ٦٩ .

(٣) الفتوحات الإلهية ، ٣ / ٣٢٥ ، وانظر ، الصفوة ، ٢ / ٤٢٢ .

(٤) سورة الروم ، آية : ٥٠ .

(٥) روح المعاني ، ٢١ / ٥٣ ، ٥٤ .

(٦) التفسير الواضح ، محمد محمود حجازي ، ٢١ / ٣٦ ، ط ٩ – ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م ، وانظر

التحريز ، ٢١ / ١٢٣ .

يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ (١) .

تجد أن الأمر وقع في قوله « احشروا » وهو على حقيقته ، إذ هو أمر من الله - سبحانه - بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ، وقيل من الموقف إلى الجحيم ، وهو خطاب من الله - تعالى - للملائكة ، أو من الملائكة بعضهم لبعض (٢) .

وإذا أنعمت النظر في قوله : « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ... » (٣) .

تجد أن قوله « فليعمل » أمر ، ولكن ليس أمر على حقيقته ، وإنما خرج إلى معنى آخر ، وهو معنى الإرشاد الصادق بالواجبات ، والمندوبات (٤) ، حتى يصل الإنسان إلى مثل هذا النعيم الموصوف في الآيات ، إذا فالأمر فيه معنى الحث والإرشاد ، والترغيب .

وحين تقف أمام قوله تعالى : « فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ » (٥) ، تجد أن مقولة الكافرين هذه « فَأْتُوا » ليس المقصود بها الأمر على حقيقته ، وإنما هو خطاب هؤلاء المنكرين لمن يعددهم بالبعث والنشور ، أن يأتوا بآبائهم ، ولا يقصدون الأمر على حقيقته ، وإنما خرج الأمر إلى معنى التعجيز (٦) . والاستهزاء والسخرية .

ومن الأمر كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ .

(٢) روح المعاني ، ٢٣ / ٧٩ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ٦١ .

(٤) التحرير ، ٢٣ / ١٢٠ .

(٥) سورة الدخان ، آية : ٣٦ .

(٦) انظر الكشاف ، ٤ / ٢٧٩ ، الصفوة ، ٣ / ١٧٩ .

أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ (٦) .

الأمر واقع في قوله « فذوقوا » وقد خرج إلى معنى التهكم بهم ، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعده الله ، ووعيده (٢) .

وحينما تقف أمام قوله تعالى : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٤﴾ » (٣) . تجد أن الأمر في قوله : « واستمع » وهو أمر بالاستماع ، يقول « الألوسي » : والظاهر أنه أريد حقيقته ، والمستمع له محذوف تقديره : « واستمع لما أخبر به من أهوال يوم القيامة ، ويُنْذِرُ ذلك بقوله : « يوم ينادي المنادي » (٤) .

وقيل : في ذلك تهويل ، وتعظيم لشأن المخبر به ، والمحدث عنه (٥) .

وإذا قرأت ما جاء في قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ » (٦) . تجد أن الأمر يكمن في قوله « فسبح » وقد جاء على حقيقته ، فأحدث التسبيح وهو أن يقال : سبحان الله إما : تنزيهاً له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته . وإما : تعجباً من أمرهم في نمط الآله ، وأياديه الظاهرة . وإما : شكراً لله على النعم التي عدها ، ونبه عليها (٧) .

وحين تقف أمام جلال القدرة في قوله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » (٨) .

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٤ .

(٢) الكشف ، ٤ / ٣١٣ .

(٣) سورة هـ ، آية : ٤١ .

(٤) روح المعاني ، ٢٦ / ١٩٣ . سورة هـ ، آية : ٤١ .

(٥) الكشف ، ٤ / ٣٩٣ .

(٦) سورة الواقعة ، آية : ٧٤ .

(٧) الكشف . ٣ / ٤٦٨ .

(٨) سورة الطارق ، آية : ٥ .

تجد أن الأمر في قوله « فليُنظر » المراد به نظر العقل ، وهو التفكير المؤدي إلى علم شيء بالاستدلال (١) .

وهكذا رأينا كيف استخدم القرآن الكريم ، هذا النوع من الكلام وكيف أبرز ما يريد من أهداف وأغراض من خلال تسخير الكلمات ، والألفاظ في مثل هذا النوع من الأسلوب الإنشائي .

٤ - الاستفهام :

وهو ضرب من البلاغة ، له روعته ، وبيانه ، لم تخل منه آيات الذكر الحكيم ، وقد أضاف إليها مزيداً من السحر ، والجمال .

وكثر استخدامه في هذا النوع من الآيات ، التي نحن بصدد الحديث عنها وذلك لأن المقام يتطلب التنويع ، والمغايرة في الأساليب البلاغية ، كما يتطلب تجديد الفكر ، وإعماله ، فيما تُلقى الآيات من الدلائل ، ومن ثم تقرير ما ترمي إليه ، وتثبيته في نفوس المخاطبين .

وقد جاء أسلوب الاستفهام في هذه الآيات من جانبين :

الجانب الأول : هو جانب المولى - عز ذكره - حين تريد الآيات تقرير حقيقة البعث ، والجزاء .

الجانب الثاني : هو جانب المنكرين المكذبين بالبعث ، حيث يستبعدون هذه الحقيقة . لذا ورد الاستفهام في هذه الآيات بكثرة وعلى طرق مختلفة فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ... » إلى آخر الآيات (٢) .

ورد الاستفهام هنا « بكيف » ، وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ، وقصد

(١) التحرير ، ٣ / ٢٦١ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

به التعجب والتويخ والإنكار^(١)، وذلك لأن (كيف) ترد للسؤال عن الحال، فصار المعنى: كيف تكفرون بالله وحالكم حال عالم بالقصة، وهي أنكم كنتم أمواتاً فأحياكم... إلخ، فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها، استلزم ذلك إنكار وجوده فهو أبلغ من الإنكار بالهمزة^(٢)، فكأن المنكر يطلب من المخاطب إبداء أسباب تزيل العجب، فإذا عجز عن ذلك، كان ذلك أدعى للووم، والوعيد^(٣).

وقيل: إن الاستفهام هنا، وإن كان بصورة الاستخبار، فالمراد به التبكيت، والتعنيف، وذلك لأن عظم النعم تقتضي عظم معصيته المنعم، لذا فقد ذكر لهم المولى سبحانه - الأصل الكلي في هذه النعم، وهو إيجادهم من العدم، وتذكيرهم بها، ليزجرهم على ما أقدموا عليه من الكفر به، وذلك ليبعثهم على التمسك بالإيمان^(٤).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (٢٤٣) »^(٥).

(١) مفتاح العلوم، السكاكي، الإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر، ضبط وشرح: الأستاذ: نعيم زرزور، ص ٣١٤ - ط ١ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -، عروس الأفراح، ٢/ ٣٠٥ تأويل مشكل القرآن - ص ٥٢٠ - الإيضاح - ص ٨٤.

(٢) حاشية الشهاب، ٢/ ١٠٩، الفتوحات الإلهية، ١/ ٣٥ - روح المعاني، ١/ ٢١٢ - إرشاد العقل السليم، ١م/ ١ج/ ٧٦، الكشف ١/ ١٢١ أنوار التنزيل، ١/ ٤٧، تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ١/ ٢١٣، دار الشعب - القاهرة، معترك الأقران، ١/ ٤٣٥.

(٣) التحرير ١/ ٣٧٤.

(٤) التفسير الكبير، ١م/ ١ج/ ١٤٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٤٣.

وقع الاستفهام هنا بالهمزة التي دخلت على حرف النفي (ألم) فصار الكلام تقريراً لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب ، وأرباب التواريخ وكذلك كل من جاء بعدهم ، وسمع بهم ، وذلك إيداناً بأن قصتهم من الشهرة ، والشيوع ، بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الإقرار برؤيتهم ، وسماع قصتهم ، ويعجب بها ، فقد استوى في الخطاب الرائي ، والسامع بحالهم ، قصداً إلى المبالغة في شهرته ، وعراقته في التعجب ، والتنبيه على حالهم ، حتى يعتبر من يسمع بهم ، فالاستفهام هنا للتقرير والتعجب والتنبيه ، وذلك لأن الاستفهام الحقيقي ممنوع من الله تعالى (١) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ » (٢) .

الاستفهام هنا وقع (بأنى) ، وهي بمعنى متى ، أو كيف ، ويكون السؤال هنا على سبيل التلهف ، والتشوق إلى عمارة هذه القرية ، مع استشعار اليأس عنها على أبلغ وجه وأكده ؛ ولذا أراه الله أبعد الأمرين في نفسه ثم في غيره ؛ وذلك لإزاحة ما يختلج في خلده ، لتثبيت إيمانه إن كان القائل مؤمناً ، لأن سؤاله يكون حينئذٍ اعترافاً بالعجز عن معرفة طريق الإحياء ، واستعظماً لقدرة المحيي .

وإن كان القائل كافراً ، فإن سؤاله يكون على سبيل الاستبعاد والشك في قدرة

(١) البحر المحيط ، ٢ / ٢٤٩ - أنوار التنزيل ١ / ١٢٩ ، إرشاد العقل السليم ، ١م / ١ج / ٢٣٧ ، روح المعاني ، ٢ / ١٦٠ ، الفتوحات الإلهية ، ١ / ١٩٧ ، هامش الكشف ، ١ / ٢٩٠ ، تفسير المنار للأستاذ الشيخ محمد عبده - تأليف : السيد محمد رشيد رضا - ٢ / ٣٦١ ، ٣٦٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، التحرير ، ٤٧٦ / ٢ ، ٤٧٧ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

الله على هذه القرية ^(١) ، ويكون ما حصل له في نفسه ، وفي غيره إثباتاً لتلك القدرة العظيمة التي خالَج نفسه الشك فيها . ويرى « الزركشي » أن المقصود بالاستفهام هنا: هو التمني ، أي كيف وما أعجب معاينة الإحياء ^(٢) ، وقيل : إن كان كافراً فهو على الشك في قدرة الله ، وإن كان نبياً حمّله على الاستبعاد بحسب مجاري العرف والعادة لا على سبيل الإنكار لقدرة الله تعالى ، أو كان المقصود منه طلب الدلائل لأجل التأكيد ^(٣) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام - : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّ قَلْبِي قَالَ فَاخْذُ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ^(٤) .

الاستفهام هنا ورد بطريقتين :

الطريق الأول : هو سؤال الخليل - عليه السلام - ربه عن كيفية إحياء الموتى ، وقد ورد سؤاله « بكيف » والاستفهام « بكيف » ، إنما هو سؤال عن حال شيء موجود ، متقرر الوجود عند السائل والمستول ، والاستفهام بها هنا عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ، فأراد الخليل - عليه السلام - أن يترقى من علم اليقين ، إلى عين

(١) البحر المحيط ، ٢/ ٢٩١ - أنوار التنزيل ، ١/ ١٣٦ - هامش الكشف ، ١/ ٣٠٨ . إرشاد العقل السليم ، ١٢/ ١ج/ ٢٥٦ - روح المعاني ٣/ ٢١ - نظم الدرر ، ٤/ ٥٤-٥٩ ، التفسير الكبير ، ٤م/ ٤ج/ ٣٢ - الفتوحات الإلهية ، ١/ ٢١٢ - التحرير ، ٣/ ٣٦ ، الإيضاح - ص ٨١ - تأويل مشكل القرآن ، ص ٥٣٥ ، عروس الأفراح ، ٢/ ٢٨٩ حاشية الدسوقي ، ٢/ ٢٨٢ .

(٢) البرهان - ٢/ ٣٤١ .

(٣) تفسير الخازن ، ١/ ٢٣١ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

اليقين ، ففونه : « أرني كيف » طلب لمشاهدة الكيفية ^(١) فالاستفهام هنا للتقرير ، ولم يكن عن شك من الخليل - عليه السلام - في قدرة ربه فقد قال - ﷺ - فيما رواه البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » ^(٢) ، إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلي ولكن ليطمئن قلبي » ^(٣) .

فالسؤال عن كيفية الإحياء ، ولا يشترط من الإيمان الإحاطة بصورتها ، فإنما هي طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه ^(٤) . فأراد بالرؤية رؤية العين ، ولم يرد بها رؤية القلب ^(٥) ولذلك قال - عليه السلام - بعد ذلك : « ولكن ليطمئن قلبي » أي لتسكن حرارة قلبي وأعلم بأن خليلك مستجاب الدعوة ^(٦) .

ثم جاء الاستفهام الثاني ، موجه من المولى - عز ذكره - إلى نبيه - عليه السلام - وهو سبحانه أعلم فقال : « أو لم تؤمن » : فقد علم سبحانه أن خليله ، أثبت الناس إيماناً ، ولكن سأل هذا السؤال ، للتقرير ^(٧) والإيجاب أي قد آمنت ^(٨) . أو تسأل

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ١١٠٧/ ٢ ، انظر أرشاد العقل السليم ٢٥٦ - تفسير الخازن ، ٢٣٦/ ١ ، ٢٣٧ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب ١٣ ج ٦/ ٤١٠ ، وباب ١٧ ج ٦/ ٤١٥ ، وباب ٢١ ج ٦/ ٤١٨ وفي تفسير سورة البقرة ج ٨/ ٢٠١ ، وفي تفسير سورة يوسف باب ١٤٥ ج ٨/ ٣٦٦ ، وفي كتاب التعبير باب ٩ ج ١٢/ ٣١٨ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

(٤) هامش الكشف ، ٣٠٨/ ١ .

(٥) محات بلاغية ، في معاني القرآن للأخفش الأوسط ، د . فتحي فريد . ص ٤٥ - ص ٤٧ ط ١ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

(٦) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس - ص ٣٧ - المكتبة الشعبية .

(٧) محات بلاغية في معاني القرآن للأخفش الأوسط ، ص ٤٧ . الجامع لأحكام القرآن ، ١١٠٨/ ٢ - التحرير ، ٣٨/ ٣ .

(٨) النهر المناد من البحر المحيط ، ٢٩٧/ ٢ .

ولم تؤمن ^(١) . وذهب « الرازي » إلى أنه قد يكون المقصود من السؤال ، أن يجيب بما أجاب به : ليعلم السامعون أنه - عليه السلام - كان مؤمناً بذلك عارفاً ، وأن المقصود من هذا السؤال شيء آخر ^(٢) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) » ^(٣) .

الاستفهام جاء في قوله : « أليس هذا بالحق » حيث وقع بالهمزة الداخلة على حرف النفي (ليس) فعلى هذا يكون الاستفهام للتقرير ، يقول « القرطبي » - رحمه الله - : فليس المراد به الاستفهام ، بل المراد إنكار ما دخلت عليه الهمزة ، وهو عدم الكفاية فيكون المراد الإثبات ^(٤) أي هذا الحق ، فإنكار النفي ليس مقصوداً بالذات بل ، وسيلة للإثبات على أبلغ وجه وعلى هذا فيصح أن يقال : إن الهمزة فيه للتقرير كما يصح أن يقال إنها للإنكار ^(٥) .

ومن قال : إنها للتقرير ، أراد تقرير ما دخل عليه النفي ^(٦) . فقد ذهب « القرطبي » إلى أنها للتقرير والتوبيخ هنا - والمعنى : أليس هذا البعث كائناً موجوداً ؟ ^(٧) كما قال بهذا صاحب التحرير ^(٨) .

(١) الفتوحات الإلهية ، ١ / ٢١٦ .

(٢) التفسير الكبير ، ٤م / ٧ج / ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٠ .

(٤) الإيضاح - شروح التلخيص ، ٢ / ٢٩٧ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) عروس الأفراح ٢ / ٢٩٧ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن ، ٢ / ٢٤٠٨ .

(٨) ١٨٨ / ٧ .

إذا الآية الكريمة تريد أن تقرر حقيقة البعث ، والحساب ، والجزاء ، عن طريق الاستفهام الذي يجعل المخاطب يرجع إلى نفسه يبحث عن الجواب ، ثم لا يلبث أن يبطأ رأسه خجلاً لما عرف من الحق .

يقول « المجراني » - رحمه الله - : واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع ، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ، ويرتدع ، ويعي الجواب (١) .

والخطاب في الآية ، موجه للكافرين الجاحدين لقدرة الله - تعالى - فيحتمل أن يقال : الاستفهام للتوبيخ (٢) ، بمعنى أنهم وبخوا على عدم معرفتهم لهذا الحق من قبل .

وقيل : الاستفهام هنا ، تقرير لهم على تكذيبهم (٣) .

وقيل : سؤال إنكار وإخزاء وإذلال (٤) . وقيل : سؤال تأنيب وتعذيب (٥) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) » (٦) .

الاستفهام في هذه الآية ورد على السنة المكذبين بالبعث ، وقد وقع بالهمزة

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٣ ، ص ٩٤ .

(٢) عروس الأفراح - ٢ / ٢٩٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم ، ٢م / ج ٣ / ١٢٤ - وانظر - أنوار التنزيل ١ / ٢٩٨ - روح المعاني - ٧ / ١٣١ .

(٤) نظم الدرر - ٧ / ٨٨ .

(٥) التفسير القرآني للقرآن . ٢م / ج ٧ / ١٥٦ .

(٦) سورة الرعد ، آية : ٥ .

المكررة وقصد به هنا الإنكار المفيد لكمال الاستبعاد ، وتكرير الهمزة لتأكيد الإنكار^(١) والتعجب^(٢) .

لذا فهو استفهام إنكار وتعجب ، وتكذيب ، قال أحد المفسرين في ذلك : (وقد جاء هذا القول منهم في صورة هذا الاستفهام الإنكاري ، للإشارة إلى أنه كان سؤالاً مردداً بينهم ، يلقي بعضهم إلى بعض ، في تساؤل منكر ، وفي استفهام خبيث « إذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد » ؟ ولا يجدون جواباً لهذا إلا زراً العيون ، أو زماً الشفاه ، أو ليّ الألسنة ، تحدث بما في قلوب القوم من سخرية واستهزاء !^(٣)) .

ومن الاستفهام أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالُوا أَتُذَكِّرُنَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) » (٤) .

الاستفهام جاء على ألسنة المنكرين للبعث ، وقد جاء في هذه الآية بطرق مختلفة ، ولأسباب مختلفة .

فالاستفهام الأول وقع بالهمزة المكررة (إذا - إنا) ، فهو استفهام تعجب ، وإنكار ، واستبعاد^(٥) وتكرير الهمزة لتقوية الإنكار ، وتأكيده^(٦) .

(١) إرشاد العقل السليم ، م ٣ / ج ٥ / ٦ .

(٢) نظم الدرر ، ١٠ / ٢٨٢ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ، م ٤ / ج ١٣ / ٧٣ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٤٩ ، ٥١ .

(٥) البحر المحييط ، ٦ / ٨١ ، حاشية العلامة الشيخ أحمد الصاوي ، على تفسير الجلالين ، ٢ / ٣٥٢ -

المكتبة الإسلامية ، انظر إرشاد العقل السليم ، م ٣ / ج ٥ / ١٧٧ .

(٦) إرشاد العقل السليم ، م ٣ / ج ٥ / ١٧٧ - وانظر - أنوار التنزيل ، ١ / ٥٧٣ - روح المعاني ١٥ / ٩١ .

الفتوحات الإلهية ، ٢ / ٦٥٠ - حاشية الشهاب ٦ / ٣٨ - التحرير ، ١٥ / ٢١٩ - نظم الدرر ١١ / ٥١٨ .

إذا هؤلاء المنكرون ، أنكروا عدوتهم إلى الحياة بعد أن يصبحوا عظاماً بالية ، واستبعدوا تلك العودة تعجبوا من كلام الرسول ﷺ بمثل هذا القول . ثم عادوا واستفهموا عن له القدرة العجيبة على إعادتهم إلى الحياة بعد الموت .

ووقع الاستفهام (بمن) وهي توضع للسؤال عن الجنس من ذوي العلم ^(١) . وقصد بالاستفهام هنا التهكم ^(٢) ، والاستبعاد ، والشك في تلك القدرة التي سوف تعيدهم إلى الحياة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم أردفوا السؤال بآخر ، حين سألوا عن وقت حصول ذلك الأمر الموعود به ، فجاء الاستفهام (متى) التي يستفهم بها عن الزمان ^(٣) . وذلك علي سبيل التهكم ^(٤) ، والاستبعاد أيضاً ، فهم لا يريدون السؤال عن وقته حقيقة ، وإنما قصدوا بذلك التهكم به ﷺ واستبعاد حصول مايسألون عنه .

ومن الاستفهام كذلك ما جاء في قوله تعالى : « قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) » ^(٥) .

الاستفهام هنا موجه من الرجل المؤمن إلى صاحبه المشرك في قوله (أكفرت) حيث وقع الاستفهام بالهمزة ، فهو استفهام إنكار ، وتوبيخ ، وتقريع ^(٦) . وذلك لأن الاستفهام الذي للتوبيخ يكون (المقصود به التعبير والتقريع على أمر قد وقع) ^(٧) فهو

(١) مفتاح العلوم - ص ٣١١ .

(٢) التحرير ، ١٢٨/ ١٥ .

(٣) مفتاح العلوم - ص ٣١٣ .

(٤) التحرير ، ١٢٨/ ١٥ .

(٥) سورة الكهف ، آية : ٣٧ .

(٦) البحر المحیط ، ١٢٧/ ٦ . روح المعاني ، ٢٧٨/ ١٥ - الفتوحات الإلهية ، ٢٤/ ٣ .

(٧) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، لابن يعقوب المغربي - شروح التلخيص ، ٢٠٠/ ٢ .

ينكر على صاحبه هذا كفره بالله ، وذهب صاحب التحرير إلى أن الاستفهام هنا خرج عن حقيقته وقصد به التعجب والإنكار^(١) وقيل : للاستبعاد ؛ لأنه يستبعد كفر المخلوق بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود ، ويستبعد إنكار البعث ممن علم أن الله خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلاً^(٢) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) »^(٣) .

ورد الاستفهام هنا بطريقتين :

الأول : الاستفهام الوارد على ألسنة منكري البعث : (إذا ما مت) الاستفهام بالهمزة المكررة وقصد به الاستنكار ، والاستهزاء ، والتكذيب^(٤) ، والاستبعاد^(٥) ، وذهب قوم إلى أن المقصود بالاستفهام هنا ، الجحد ، والإنكار^(٦) .

فهم ينكرون حقيقة البعث ، ويستبعدون حصوله ويتساءلون عن حقيقة ذلك الأمر بكل سخرية ، وخبت ، ودهاء ، وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالاستفهام هنا هو النفي ؛ والمعنى (لا إحياء بعد الموت ، وما زائدة للتوكيد وكذا اللام)^(٧) .

(١) ٣٢٢/ ١٥ .

(٢) أضواء البيان ، ٤ / ١٠٣ .

(٣) سورة مريم ، آية : ٦٦ ، ٦٧ .

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . محمد بن علي الشوكاني ، ٣ / ٣٤٣ - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - دار الفكر .

(٥) الكشف ، ٣ / ٣١ ، إرشاد العقل السليم ، ٣ / ٥ ج ٢٧٤ ، روح المعاني ، ١٦ / ١١٨ . أنوار التنزيل ، ٢ / ٣٦ ، وانظر ، التحرير ، ١٦ / ١٤٥ .

(٦) البحر المحيط ، ٦ / ٢٠٧ - نظم الدرر ، ١٢ / ٢٣٣ .

(٧) الفتوحات الإلهية ، ٣ / ٧٢ .

الثاني : الاستفهام الوارد من المولى - عز ذكره - « أولاً يذكر الإنسان » فقد وقع بالهمزة وخرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر ، وهو الإنكار ، والتوبيخ ، ووسطه همزة الاستفهام بين المعطوف عليه ، وحرف العطف ، والمعنى ، أنكر الإنسان قدرتنا على بعثه ، ولا يذكر قدرتنا على نشأته الأولى ^(١) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » ^(٢) .

الاستفهام هنا وقع بالهمزة الداخلة على حرف النفي (أَلَمْ) . وهو موجه من المولى - عز ذكره - إلى كل منكر للبعث ، وإلى كل من سمع .

وقد ذهب بعض كتب التفسير إلى أن الاستفهام هنا قد خرج عن معناه الأصلي ، وقصد به التقرير ، والمعنى : قد رأيت ^(٣) .

وذهب آخرون إلى أن الاستفهام هنا ، قد قصد به الإنكار ^(٤) . فقد أنكر المولى - عز ذكره - على هؤلاء القوم عدم اعتبارهم بما يرون من الآيات العظيمة التي تثبت قدرة الله - عز وجل - على البعث ، فأنكر عليهم عدم شكرهم ، وعدم اعتبارهم بهذه الآيات ^(٥) .

(١) الكشف ، ٣ / ٣٢ . وانظر ، إرشاد العقل السليم ، ٣م / ٥ ج / ٢٧٤ ، روح المعاني ، ١٦ / ١١٨ الفتوحات الإلهية ، ٣ / ٧٢ - التحرير ، ١٦ / ١٤٥ وفتح القدير ، ٣ / ٣٤٣ - حاشية الصاوي ، ٣ / ٤٤ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٦٣ .

(٣) انظر أنوار التنزيل ، ٢ / ٩٥ - روح المعاني ، ١٧ / ١٩٢ - الفتوحات الإلهية ، ٣ / ١٧٨ - حاشية الشهاب ، ٦ / ١١٣ .

(٤) انظر نظم الدرر ، ١٣ / ٨٣ - التحرير ، ١٧ / ٣١٨ .

(٥) المرجع السابق الأخير .

وأميل إلى من قال أن الاستفهام هنا ، قُصد به التنبيه ^(١) إلى آية من آيات الله ،
متمثلة أمام هؤلاء المنكرين ، يرونها بكرة ، وعشياً ولا يرون فيها قدرة الخالق العظيم ،
على البعث ، فهذه الأرض الميتة تبعث أمامهم كل يوم ، أفلا يعقلون ؟ .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تَرْجِعُونَ » (١١٥) ^(٢) .

وهذا الاستفهام موجه من المولى - عز ذكره - إلى كل من أنكر البعث ، وشك
في أمره ، إذ خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ، إلى معنى التوبيخ لهم على هذه
الغفلة عن حكمة الله في خلقهم ^(٣) .

وأرى - والله أعلم - أن المولى - جلّت قدرته - أراد بهذا الاستفهام التعريض
بغفلتهم ، والتهمك من جهلهم الذي نزل بهم إلى مستنقعات الجهل ، والانحطاط ،
حتى أنهم ظنوا أن خلقهم ليس إلا عبثاً .

أفلا يتفكرون في أن من خلق هذا الكون ، وسيره بكل حكمة ، وانتظام ، تعلق
مراتبه عن العبث ؟ ولكنهم قوم يجهلون !

أو يكون الاستفهام - والله أعلم - إنكارياً ، توبيخياً والمعنى : أيطن الإنسان أنا
خلقناه عبثاً ، فما الغاية من خلقه ابتداءً ؟

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٧١) ^(٤) .

الاستفهام وارد على ألسنة المكذبين بالبعث ، وقد وقع هنا « بمتى » والاستفهام

(١) انظر معترك الأقران ، ٤٣٦/ ١ - أساليب بلاغية ، ص ١٢٣ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية : ١١٥ .

(٣) أنوار التنزيل ، ١١٣/ ٢ - روح المعاني ، ٧١/ ١٨ .

(٤) سورة النمل ، آية : ٧١ .

«بمّتي»، يطلب بها التصور، وقد يكون المراد بها طلب التصديق^(١)، وذلك استعجالاً للعذاب الذي وعدوا به على سبيل الاستبعاد، والاستهزاء، والإنكار؛ لذا فقد سموه وعداً إمعاناً في السخرية، والاستهزاء، والتهكم^(٢). والاستبعاد هو «عد الشيء بعيداً حساً أو معنى، وقد يكون منكرأ مكروهاً غير منتظر أصلاً»^(٣) كما هو الحال بالنسبة للمنكرين، في هذه الآية.

ومنه قوله تعالى: «أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)» (٤).

الاستفهام موجه من المولى - تعالى - إلى منكري البعث، وقد وقع بالهمزة الداخلة على حرف النفي (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا، أَوْ لَمْ يَسِيرُوا)، فالأول استفهام إنكار، واستقبح، حيث أنكر عليهم المولى - عز وجل - عدم تفكرهم في أنفسهم، واستقبح منهم هذه الغفلة، والتمادي في الضلال^(٥).

وكذلك الاستفهام الثاني، وقع بالهمزة الداخلة على حرف النفي (أَوْ لَمْ يَسِيرُوا)، وهو استفهام تقرير، وتوبيخ أي قد ساروا في الأرض، ونظروا إلى ما حلَّ

(١) عروس الأفراح - ٢٧٣/ ٢.

(٢) روح المعاني، ١٦/ ٢٠ - نظم الدرر، ٢٠٩/ ١٤ - الفتوحات الإلهية، ٣٥٤/ ٢ - حاشية الشهاب، ٣٤/ ٥.

(٣) حاشية الدسوقي - ٣٠٦/ ٢.

(٤) سورة الروم، آية: ٨، ٩.

(٥) إرشاد العقل السليم، ٤م/ ٧ج/ ٥١ - روح المعاني، ٢١/ ٢٢، ٢٣ - نظم الدرر، ٤٧/ ١٥.

بالأقوام السابقة ، حينما ظلموا أنفسهم ، وكذبوا رسلهم ، وتويع لهم بعدم اتعاظهم بما حدث للأقوام المكذبة قبلهم ^(١) .

وقد يكون المقصود - والله أعلم - بالإضافة إلى ما سبق ، التنبيه على خلق الإنسان ، وما سواه من المخلوقات في هذا الكون العظيم ، وذلك لمعرفة قدرة الله ، وعظيم سلطانه .

وقد يكون المقصود من الثاني - والله أعلم - بالإضافة إلى ما ذكرت ، الوعيد لهؤلاء المكذبين إن لم يردعوا ، أن يحل بهم ما حلَّ بالأقوام السابقة من العذاب الأليم .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) » ^(٢) .

الاستفهام هنا موجه من بعض منكري البعث إلى بعض ، وقد وقع الاستفهام (بهل) وهي لطلب التصديق ^(٣) ، وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي وقصد به التعجب ، والاستهزاء ^(٤) . وذلك لأنهم يرون البعث أمراً مستحيلاً ، فتعجبوا من كلام النبي ﷺ ^(٥) وسخروا منه ، واستهزؤا به ، حتى أنهم تظاهروا بعدم معرفته ، ونزلوه منزلة المجهول ، تحقير : (رجل) .

(١) البحر المحيط ، ١٦٤/ ٧ - الكشف ، ٤٩٦/ ٣ - أنوار التنزيل ، ٢١٦/ ٢ . إرشاد العقل السليم ، ٤م / ٧ج / ٥٢ - روح المعاني ، ٢١/ ٢٢ ، ٢٣ ، الفتوحات الإلهية ، ٣٨٦/ ٣ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٧ .

(٣) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، ٣٦/ ٢ ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .

(٤) البحر المحيط ، ٢٥٩/ ٧ - التفسير الكبير ، ١٣م / ٢٥ / ٢٤٣ - روح المعاني ، ١٠٩/ ٢٢ .

(٥) البحر المحيط ، ٢٥٩/ ٧ .

وقيل إن المراد بالاستفهام هنا ، هو الاستبعاد والاستهزاء . أي استبعاد أمر البعث ، والاستهزاء بالنبي ﷺ حين يعدمهم بذلك ^(١) وقيل : إن المراد به هنا التعجب ، والإنكار ^(٢) . وقيل : المراد به السخرية والاستهزاء ، والإنكار ^(٣) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) » ^(٤) .

الاستفهام في هذه الآية ورد بطريقتين :

الأول : الاستفهام الموجه من المولى - عز ذكره - إلى منكري البعث ، حيث وقع فيه الاستفهام بالهمزة الداخلة على حرف النفي « أولم » وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ، وقصد به الإنكار والتعجب ^(٥) وفيه كذلك تقبيح بليغ لهذا الإنكار ، والجحود لنعمة الله على هذا الإنسان المنكر الذي لم يتفكر في خلقه ، واستعجب من قدرة الله على بعثه ، ولم يستعجب من خلقه له ^(٦) .

الثاني : الاستفهام الصادر من هذا الإنسان المنكر لقدرة الله على البعث ، وقد وقع (بمن) « من يحيى العظام » ، وخرج الاستفهام هنا عن معناه الحقيقي ، وقصد به الإنكار ^(٧) ، والاستبعاد ^(٨) ، أي منكرًا لذلك اليوم ، مستبعداً حصوله .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٥٣٤ .

(٢) نظم الدرر ، ١٥ / ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن . م ٦٠ / ج ٢٢ / ٧٨٠ .

(٤) سورة يس ، آية ٧٧ ، ٧٨ .

(٥) إرشاد العقل السليم ، م ٤٠ / ج ٧ / ١٨١ - روح المعاني ، ٢٣ / ٥٣ - الفتوحات الإلهية ، ٣ / ٥٢٥ .

(٦) أنوار التنزيل ، ٢ / ٢٧٨ - حاشية الشهاب ، ٧ / ٢٥٧ .

(٧) الكشف ، ٤ / ٣١ - إرشاد العقل السليم ، م ٤٠ / ج ٧ / ١٨١ - حاشية الشهاب ، ٧ / ٢٥٤ .

(٨) المرجع السابق الأخير - أنوار التنزيل ، ٢ / ٢٨٧ .

كما قصد به أيضاً الاستهزاء بالرسول ﷺ وبالغوا في الاستهزاء، حين سموه وعدا، والهبوا، وهيجوا، وزادوا في التكذيب بقولهم (إن كنتم صادقين) ^(١)، فكان قولهم هذا، استهزاء بالرسول ﷺ واستعجالاً للعذاب الموعود ^(٢).

ومنه قوله تعالى: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» ^(٣).

ورد الاستفهام هنا من المولى - عز وجل - إلى كل من أنكر البعث، وقد وقع بالهمزة (أهم - أم من)، وقد خُرج الاستفهام هنا على عدة وجوه، فقد ورد في بعض كتب التفسير، أن الاستفهام هنا قد خرج عن معناه الأصلي، إلى معنى التقرير ^(٤).

وقيل: خرج إلى معنى الإنكار ^(٥). وقيل: المراد به التوبيخ ^(٦)، وقيل: المراد به التهكم ^(٧) من هؤلاء المنكرين.

وقد يكون المراد - والله أعلم - التحقير من شأن هذا الإنسان المعاند، وتذكيره بحقارة خلقه، بدليل قوله بعده: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» ^(٨). ثم قال عز وجل

(١) نظم الدرر، ١٦ / ١٨٩.

(٢) البحر المحيط، ٧ / ٣٤٠.

(٣) سورة الصافات، آية: ١١.

(٤) انظر البحر المحيط، ٧ / ٣٥٥ - روح المعاني، ٢٣ / ٧٥ - الفتوحات الإلهية، ٣ / ٥٣١ - حاشية الشهاب ٧ / ١٦٣.

(٥) روح المعاني، ٢٣ / ٧٥ - حاشية الشهاب، ٧ / ١٦٣.

(٦) الفتوحات الإلهية، ٣ / ٥٣١.

(٧) نظم الدرر، ١٦ / ١٩٩.

(٨) سورة الصافات، آية: ١١.

— في السورة ذاتها : « أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) » (١) .

جاء الاستفهام من المولى — عز ذكره — إلى أصحاب الجحيم ، حين يرون أشد العذاب .

فيسألهم المولى تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ » حيث وقع الاستفهام هنا (بما) ، وخرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر أراده — عز وجل — وهو : التوبيخ ، والتهكم بهم ، حين عجزوا عن التناصر (٢) .

في مثل هذا الموقف الذي يحتاج فيه الإنسان إلى أدنى عون ، أو مساعدة .
ومن الاستفهام كذلك ما جاء في قوله تعالى : « أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) » (٣) .

الاستفهام موجه من المولى — سبحانه — إلى كل من أنكر البعث وعاند ، وقد جاء الاستفهام بالهمزة (أَفَعَيَيْنَا) ، وقد خرج الاستفهام عن معناه الأصلي ، وقُصد به الإنكار (٤) وقال آخرون : إن المقصود بالاستفهام هنا ، هو توقيف للكفار ، وتوبيخ ، وإقامة الحجة الواضحة عليهم (٥) .

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ — ٢٥ .

(٢) البحر المحیط ، ٣٥٧/ ٧ — نظم الدرر ٢٠٩/ ١٦ .

(٣) سورة فرق ، آية : ١٥ .

(٤) الكشف ، ٣٨٢/ ٤ — أنوار التنزيل ٤٢١/ ٢ — روح المعاني ، ١٧٢/ ٢٦ ، ١٧٨ . إرشاد العقل

السليم ، ٤م/ ٨ج/ ١٢٧ ، ١٢٨ — الفتوحات الإلهية ج ٤/ ١٩١ .

(٥) البحر المحیط ، ١٢٣/ ٨ .

ومنه قوله تعالى : «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» (٣٠) (١) .

ورد الاستفهام في هذه الآية بطريقتين :

الأول : الاستفهام الموجه من المولى – سبحانه – إلى جهنم، وقد جاء (بهل)، وخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي، واختلف أهل التفسير في معناه .

فذهب بعضهم إلى أن المقصود بالاستفهام هنا ، هو تقرير وتوقيف، لا سؤال استفهام حقيقة (٢) . وذهب آخرون إلى أن المراد به، استفهام تحقيق لوعده (٣) .

ومنهم من قال : إن المراد به ، بيان لتصديق قوله تعالى : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» (٤) .

وقيل السؤال لتوبيخ الكفرة، لعلمه – تعالى – بأنها امتلأت أم لا (٥) .

الثاني : الاستفهام الذي نطقت به جنهم، كجواب لسؤال الرحمن الرحيم، وقد جاء بهل : «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»، وقد اختلف أهل التفسير في تخريج هذا الاستفهام علي وجوه نذكر منها ما يلي : قيل أن المراد بقول جهنم «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» سؤال رغبة في الزيادة، والاستكثار من الداخلين فيها (٦) ، لفرط كثرتهم ، أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة (٧) .

(١) سورة ق ، آية : ٣٠ .

(٢) البحر المحیط، ١٢٧/٨ .

(٣) الفتوحات الإلهية، ١٩٦/٤ .

(٤) التفسير الكبير، ١٤م/١٧٤ج/٢٨ . سورة السجدة، آية : ١٣ .

(٥) تفسير النسفي، ١٨٠/٤ .

(٦) انظر البحر المحیط، ١٢٧/٨ – الكشف، ٣٨٢/٤ – الفتوحات الإلهية، ١٩٦/٤ – التفسير الكبير .

١٤م/١٧٤ج/٢٨ .

(٧) انظر الكشف، ٣٨٢/٤ .

وقيل : إن الاستفهام منها للإنكار (١) .

وقيل : إن الاستفهام منها « لبيان استكثارها الداخلين ، كما أن من يضرب غيره ضرباً مبرحاً ، أو يشتمه شتماً قبيحاً فاحشاً ، ويقول المضروب : هل بقي شيء آخر؟ ويدل عليه قوله تعالى : «لَأَمْلَأَنَّ» لأن الامتلاء لا بد من أن يحصل ، فلا يبقى من جهنم موضوع خال حتى تطلب المزيد» (٢) .

وقد ذكر صاحب (حاشية الشهاب) الوجوه الثلاثة في تفسير هذا الاستفهام ، مجملة فيما يلي :

الوجه الأول : أنها تمتلئ بحيث لا تقبل الزيادة مع اتساعها ، فيكون الاستفهام إنكارياً معناه : النفي لقوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً .

الثاني : أن المراد ، الدلالة على سعتها بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغ وخلو ، كأنه يطلب الزيادة فالاستفهام للتقرير ، أو على حقيقته ، لكنه بالفرض ، والتقدير .

الثالث : أنه تمثيل لشدة توقدها وزفيرها ، وتهافت الكفرة ، والعصاة ، وقذفهم فيها ، حتى كأنها طالبة للزيادة (٣) .

وقد سئل العلامة «ابن تيمية» - رحمه الله - عن ذلك فقال : «قد قيل إنها تقول : «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي ليس فيّ محتمل للزيادة ، والصحيح أنها تقول : «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» على سبيل الطلب أي هل من زيادة تراد فيّ ، والمزيد ما يزيده الله فيها من الجن

(١) الفتوحات الإلهية ، ١٩٦/٤ .

(٢) التفسير الكبير ، م ١٤٤/٢٨ ج ١٧٤ .

(٣) حاشية الشهاب ، ٦١/٨ .

والإنس، كما في الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه» ويروى «عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط»^(١). فإذا قالت حسبي حسبي كانت قد اكتفت بما ألقى فيها، ولم تقل بعد ذلك هل من مزيد، بل تمتلئ بما فيها لانزواء بعضها إلى بعض فإن الله يضيقها على من فيها لسعتها، فإنه قد وعدا ليملاؤها من الجنة والناس أجمعين، وهي واسعة فلا تمتلئ حتى يضيقها على من فيها^(٢).

ومن الاستفهام كذلك ما جاء في قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ» (٥٨) «أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ» (٥٩) «نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» (٦٠) «عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ» (٦١) «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (٦٢) «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ» (٦٣) «أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» (٦٤) «لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» (٦٥) «إِنَّا لَمَغْرُمُونَ» (٦٦) «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» (٦٧) «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ» (٦٨) «أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ» (٦٩) «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ» (٧٠) «أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ» (٧١) «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ» (٧٢)^(٣).

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة رقم ٥٠ وفي كتاب الإيمان، باب ١٢، وفي باب التوحيد باب ٢٥/٧ ورواه مسلم في كتاب الجنة رقم ٣٥، ٣٧، ٣٨، ورواه الترمذي في كتاب الجنة باب ٢٠، وفي كتاب التفسير رقم ٥٠ ورواه أحمد ٣٦٩/٢، ٥٠٧، ١٣/٣.

(٢) التفسير الكبير للإمام العلامة تقي الدين ابن تيمية. تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ٦٨/٦٧ - ط ١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(٣) سورة الواقعة آية: ٥٨ - ٥٩ - ٦٣ - ٦٨ - ٦٩ - ٧١ - ٧٢.

الاستفهام في هذه الآيات الكريمة، موجه من المولى - جلَّت قدرته - إلى كل من أنكر البعث أو شك فيه.

وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي، وقُصد به التقرير^(١)، أو يكون المقصود بهذا الاستفهام - والله أعلم - التنبيه على بعض من دلائل القدرة الإلهية العظيمة، وأن من لا يعجزه كل هذا، لا يعجزه إعادة هذا الخلق بعد الفناء، يقول صاحب «التفسير القرآني»: «إنها نعم ظاهرة، من شأنها إذ ذكرت أن تُدير الأنظار إليها، وأن توجه العقول نحوها، من غير داع يدعو الأنظار إلى النظر، أو يلفت العقول إلى التفكير والتدبير»^(٢).

ومن الاستفهام كذلك ما جاء في قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ»^(٣).

وقد وقع الاستفهام بالهمزة (أَيَحْسَبُ) وهو موجه من الله - عز وجل - إلى منكر البعث، وقد خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي، إلى معنى التقرير^(٤) والتوبيخ^(٥)، والتفريع.

وقيل: خرج الاستفهام هنا إلى معنى الإنكار، أي إنكار الواقع، واستقبحه^(٦).
ومنه قوله تعالى: «يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ»^(٧).

(١) إرشاد العقل السليم، م/٤ ج/٨١٩٧ - روح المعاني ٢٧/١٤٥ - ١٤٧.

(٢) م/٧٣٠ ج/٢٧٧.

(٣) سورة القيامة، آية: ٣.

(٤) انظر البحر المحيط، ٨/٣٨٥.

(٥) انظر البحر المحيط، ٨/٣٨٥ - الفتوحات الإلهية، ٤/٤٤٦.

(٦) إرشاد العقل السليم، م/٥ ج/٩٦٤ - روح المعاني، ٢٩/١٣٨.

(٧) سورة القيامة، آية: ٦.

وقد وقع الاستفهام هنا من المنكر للبعث ، وقد جاء بأداة الاستفهام (أيان)، والمقصود بالاستفهام هنا التعنت، والتكذيب، والاستبعاد لوقوع البعث (١) .

ومن الاستفهام كذلك ما جاء في قوله تعالى : «أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» (٢) . جاء الاستفهام هنا على ألسنة منكري البعث، وقد وقع (بالهمزة) وهو لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار (٣) .

وقيل : وقع الاستفهام هنا، للاستهزاء، وإنكار البعث (٤) .

ومنه قوله تعالى : «أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً» (٥) .

الاستفهام هنا جاء على ألسنة المنكرين أيضاً وقصدوا به تأكيد إنكارهم للبعث (٦) . وهكذا نرى كيف استخدم الاستفهام في بعض آيات البعث، وعرضت منه هنا ماشاء الله لي، على سبيل الإشارة والتنبيه، وإن كانت همتي قد تقاصرت عن الإحاطة ببلاغة القرآن الكريم في هذه المواضع، فأرجو أن أكون قد بلغت ما في نفسي من الإيحاءات الخاصة التي يتركها التبصر في مثل هذا النوع البلاغي في آيات القرآن الكريم .

(١) الكشف، ٦٦٠/٤ - البحر المحيط، ٣٨٥/٨ - أنوار التنزيل، ٥٤٨/٢ - إرشاد العقل السليم،

٥م/٩ج/٦٦. التفسير الكبير ١٥٢م/١٠ج/٣٠ - الفتوحات الإلهية. ٤٤٦/٤ .

(٢) سورة النازعات، آية: ١٠ .

(٣) روح المعاني، ٢٧/٢٠ - ٣١ - إرشاد العقل السليم. ٥م/٩ج/١٠١ - حاشية الشهاب، ٣١٤/٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٤٩٨/٤ - الفتوحات الإلهية، ٤٧٩/٤ .

(٥) سورة النازعات، آية: ١١ .

(٦) روح المعاني ٢٧/٣٠ - ٣١ إرشاد العقل السليم. ٥م/٩ج/٩٨ - ١٠١ - الفتوحات الإلهية .

٤٧٩/٤ .

٥ - الفصل والوصل :

وهو من أهم أبواب البلاغة ، وأدقها ، بل قد جعله بعضهم البلاغة بعينها ، فلا يكون البليغ بليغاً إلا إذا كانت له دراية بمواطن الفصل ، والوصل . ومن كان به أعلم لم يقصر علمه عما سواه من أبواب البلاغة .

يقول «الجزجاني» في هذا الباب : (اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ؛ ذلك لغموضه ، ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة^(١) .

ويقول فيه السكاكي : (وبلغ من الغموض إلى حيث قصر بعض أئمة علم المعاني البلاغة على معرفة الفصل والوصل ، وما قصرها عليه إلا لأن الأمر كذلك ، وإنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموض هذا الفن ، وأن أحداً لا يتجاوز هذه العقبة من البلاغة ، إلا إذا كان خلف سائر عقباتها خلفه)^(٢) .

إذا فالعلم بهذا الفن هو المحك في البلاغة ، والمرتقى إليه عسير ، قصر في أبواب الفصاحة ، والبيان ، بينما تجلّى نجمه في سماء القرآن الكريم ، حتى تقاصرت دونه الرقاب ، وعجزت عن معرفة أسرار الأفهام ، ولي مع ذلك وقفات استضيء بها في

(١) دلائل الإعجاز . ص ١٧ ، ص ١٧١ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٥١ .

بحثي هذا راجية من المولى القدير أن يلهمني الحق والصواب، فالوصل كما جاء في قوله تعالى : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (١).

وقع الوصل هنا بالفاء أولاً في قوله (فَأَحْيَاكُمْ) والفاء تفيد «الترتيب»، والتعقيب، والسببية» (٢).

وقد أفادت هنا التعقيب، لأن الإحياء يحدث عقب الإمامة (٣) ثم عطف عليه بثم في قوله : «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وثم تفيد التراخي والتراخي المستفاد من ثم في هذه الآية بالنسبة إلى زمان الإحياء دون زمان الحياة، فإن زمان الإمامة غير متراخ عنه، وكذلك قوله «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» فهو يدل على تراخ هذا الإحياء عن زمان الإمامة (٤).

يقول صاحب الكشف: «لَمْ كَانَ العطف الأول بالفاء والإعقاب بثم؟ قلت: لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت، إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن النشور» (٥).

وقد وقع العطف بين هذه الجمل لوجود الجامع بينها، فهي متفقة في الخبرية لفظاً، ومعنى، وبينها اتحاد في المسند إليه، كما أنها تعطي صورتين متضادين وهما: الموت،

(١) سورة البقرة، آية: ٢٩.

(٢) الإنشقاق، ١٦٦/٢.

(٣) إرشاد العقل السليم ٧٧/١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الكشف ١٢٢/١ وانظر الفتوحات الإلهية، ٣٦، ٣٥/١.

والحياة، وليس هناك ما يمنع من العطف. وهذا ما أسماه أهل البلاغة بالتوسط بين الكمالين.

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن. أن الآية الكريمة تريد أن تُجلى عظمة قدرة الله على الإحياء والإماتة، ثم البعث والنشور في آية قرآنية واحدة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (١) .

فالوصل هنا قد وقع «بثم» في قوله «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ» حيث عطف هذه الجملة على قوله «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» وهذه الجملة لا محل لها من الإعراب حيث أنها صلة الموصول. وقد وقع العطف بـ «ثم» التي تعطي معنى التراخي والمهلة (٢) ، كما أنها تعطي معنى التشريك في الحكم والترتيب (٣) ؛ ولكن العطف بـ «ثم» هنا لما بين الخلقين من التفاوت، وليس المقصود منه التراخي في الوقت (٤) ، ويرى «الألوسي» أن ثم هنا لأحد الأمرين إما للتراخي في الوقت، أو لتفاوت ما بين الخلقين (٥) .

ويقول «البيضاوي» لعله لتفاوت ما بين الخلقين، وفضل خلق السماء على خلق الأرض (٦) . ويقول «صاحب التحرير»: إذا كان خلق السموات متأخراً عن خلق

(١) سورة البقرة، آية: ٢٩

(٢) الكشف ١٢٣/١

(٣) الإقتان، ١٦٠/١

(٤) الكشف، ١٢٤/١، البحر المحيط، ١٣٤/١.

(٥) روح المعاني، ٢١٥/١، البحر المحيط، ١٣٤/١.

(٦) أنوار التنزيل ٤٨/١

الأرض؛ فهي للتراخي الترتبي لا محالة مع التراخي الزمني، وأن كان خلق السموات سابقاً «فثم» للترتيب الرتبي لا غير . والظاهر هو الثاني (١) .

ولكنني أرى أنه لما كان خلق الأرض أولاً ثم كان خلق السماء، ثم عاد بعد ذلك سبحانه ودحا الأرض (٢)؛ فإن ثم للتراخي الرتبي، وقد اتحدت هذه الجمل في كونها خبرية لفظاً ومعنى، كما أنها اتحدت في المسند إليه وهو الله – سبحانه وتعالى – كما أن بينها شبه تضاد (السموات والأرض) وأن كان بينهما غاية الخلاف من جهة الارتفاع، والانحطاط؛ لكنهما يتعاقبان على محل واحد في التضاد (٣)، وليس هناك مانع من العطف، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

ومنه أيضاً قوله تعالى : «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» (٤) فقد عطفت هذه الآية على ما جاء في قوله تعالى قبلها : «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٥) .

وقع العطف بينهما بالواو التي هي لمطلق الجمع (٦)، إذ وقع الوصل بها بين قوله : «يَسْتَنْبِئُونَكَ» وقوله «يَقُولُونَ» والجملة الأولى «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» مقول القول لها محل من الإعراب، وعطفت الثانية عليها فشاركها في الحكم الإعرابي، إذ أفعالها محل من الإعراب وهو الإشتراك في الإعراب كما اتحدت الجملتان في كونهما

(١) ٣٨٢/١ - ٣٨٤ .

(٢) انظر جامع البيان، م/١٠٣/١٥٣ .

(٣) علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، أحمد مصطفى المراغي، ص ١٥١، دار العلوم - بيروت - لبنان .

(٤) سورة يونس، آية: ٥٣

(٥) سورة يونس، آية: ٤٨

(٦) الإتقان، ١/١٧٨

خبريتين لفظاً ومعنى، كما اتحدت الجملتان في بعض الجزئيات، فهما فعليتان، وأفعالهما مضارعة، والمسند إليه واحد، وهو المنكرون للبعث، وهذا جامع معنوي، مع عدم وجود المانع من العطف، إذ أفعطف الجملة الثانية على الأولى لقصد التشريك في الإحكام الإعرابي.

وبلاغة الوصل هنا، بينت مدى إنكار هؤلاء الكفار للبعث، وما يعدهم به النبي - ﷺ - من العذاب الشديد، ومدى استهزائهم بما يدعوههم إليه، فلولا استهزاؤهم به ما أنكروا البعث، والرجوع إلى الله تعالى.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَأَنْذَأُكُمْ تَرَابًا أُنْثَأُ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١).

وصلت هذه الجمل ببعضه، وذلك بحرف العطف «الواو»، وعطف الشيء على الشيء بالواو يوجب التشريك في الحكم (٢). فقد عطف جملة «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» على جملة «وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» وكذلك عطف جملة «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» (٣).

فقد اتحدت هذه الجمل في كونها جمل خبرية لفظاً ومعنى، كما اتحدت في بعض الجزئيات فجميعها جمل اسمية، والمسند إليه واحد وهم هؤلاء الكفار، المكذبون، مع عدم وجود المانع من العطف؛ ويسمى هذا التوسط بين الكمالين.

(١) سورة الرعد، آية: ٥

(٢) مواهب الفتاح ١٢/٣.

(٣) التحرير، ٩٠/١٣، ٩١.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)» (١) .

فقد وقع العطف بـ«ثم» ثم بـ«الفاء»، حيث بدأت الآية بخلق آدم – عليه السلام – ولما عطف عليه خلق نسله وهو الخلق الثاني كان العطف بـ«ثم» ؛ لما بينهما من التراخي، ولما كان ما بعده من الخلق من غير تراخ عطف بالفاء. ولما انتهى إلى آخر خلقه جعل العطف بـ«ثم» (٢) ، والجمل التي وقع بينها العطف هي : «خلقنا، جعلنا، خلقنا، خلقنا، كسونا، أنشأنا». وقد اشتركت في كونها جمل فعلية، وأفعالها ماضية، كما اتحدت في المسند إليه، وليس هناك مانع من العطف وهذا توسط بين الكمالين.

وسر الوصل هنا هو بيان قدرة الله – عز وجل – على خلق هذا الإناسن، وتدرج خلقه في هذه المراحل العجيبة حتى يستوي ، وإنما هو آية من آيات الله جلَّت قدرته. وقد أدى الوصل معنى لا تتجلى روعة آدائه بغيره، فقد صور وقوع هذا العذاب العظيم بجميع صنوفه، وألوانه على أولئك الكفار ، مما يجعل قلوبهم تفر فرعاً من ترادف هذا الوصف في سياق واحد.

ومن ذلك أيضاً قوله : «أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» (٣) .

(١) سورة المؤمنون، آية: ١٢ – ١٤ .

(٢) المثل السائر، ٢/٢٣٠ وانظر تخريج آخر في الفتوحات الإلهية، ٣/١٨٥ .

(٣) سورة الروم، آية: ٩ .

عطفت جملة (فَيَنْظُرُوا) على جملة (يَسِيرُوا) ^(١) ، وقع العطف بالفاء التي توجب التعقيب مع الترتيب، فالسير في الأرض يعقبه التفكير والنظر في آيات الله. والجملة الأولى استفهامية، فهي إنشائية لفظاً ومعنى، إذ معناها سيروا، والجملة الثانية إنشائية لفظاً ومعنى؛ إذ معناها انظروا، فكلتا الجملتين إنشائيتان مع اتحادهما في بعض الجزئيات فكلاهما فعليتان، وأفعالهما مضارعة، مع اتحادهما في المسند إليه، مع عدم وجود المانع من العطف، وهذا يسمى التوسط بين الكمالين.

وبلاغته في هذا الموطن؛ هو الدعوة إلى الجمع بين السير في الأرض، والنظر في الآيات، مع التفكير فيها؛ لأن مجرد السير لا يجدي كما أن هذا التفكير لا يكون إلا بالنظر في آيات الله .

ومنه قوله تعالى : «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ^(٢) .

وقع الوصل بين قوله تعالى «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ» وبين قوله «ثُمَّ يُعِيدُهُ»، وقوله «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وقد وقع العطف في كل «بثم» وهي هنا للتراخي الرتبي، وذلك لأن شأن الإرجاع إلى الله أعظم من إعادة الخلق إذ هو المقصود من الإعادة ومن بدء الخلق ^(٣) . والجملة الأولى لها محل من الإعراب، إذ أنها وقعت خيراً للمبتدأ، وعطفت الثانية عليها فشاركها في الحكم فهناك جامع لفظي ^(٤) . كما اتفقت هذه الجمل في كونها جمل خبرية لفظاً ومعنى، كما أنها تعطي صورة متضادين وهما الحياة، والموت، مع عدم وجود المانع من العطف ، ويسمي هذا التشريك في الحكم الإعرابي ^(٥) .

(١) لإرشاد العقل السليم، ٥٢/٧، روح المعاني، ٢٣/٢١.

(٢) سورة الروم، آية: ١١

(٣) التحرير ٦١/٢١

(٤) عروس الأفراح، ٥/٣.

(٥) فن بلاغة النظم العربي، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د. عبد العزيز عرفة ٥٣/٢، ط ٢، - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م عالم الكتب بيروت، علوم البلاغة. ص ١٤٩.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ»^(١) .

وقع العطف بين قوله «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» وقوله «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً» وقوله «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا» حيث جاء العطف بـ «ثم» التي تفيد التراخي الرتبي ، وذلك لوجود فترة زمنية بين كل مرحلة وأخرى.

اتفقت الجمل في كونها خبرية لفظاً ومعنى ، مع وقوع الاتحاد بين هذه الجمل في المسند إليه . كما أنها جمل فعلية ، وأفعالها ماضية ، وليس هناك مانع من العطف ، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ»^(٢) . فقد عطفت هذه الجملة على قوله : «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ»^(٣) . وهذه الجملة بدل من موضع «كَمْ أَهْلَكْنَا» ، و «التقدير أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ»^(٤) وقد وقع العطف بالواو التي تفيد التشريك في الحكم.

ويرى صاحب «التحرير» أن هذا العطف واقع موقع الاحتراس من توهم المخاطبين بالقرآن أن قوله «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» مؤيد اعتقادهم انتفاء البعث^(٥) وعلى هذا

(١) سورة الروم، آية: ٥٤ .

(٢) سورة يس، آية: ٣٢ .

(٣) سورة يس، آية: ٣١ .

(٤) إسماء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، ٢٠٣/٢، دار مكتبة الهلال - بيروت - لبنان.

(٥) ١١/٢٢ .

الاعتبار يكون هذا من كمال الانقطاع مع إيهام خلاف المراد .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» (٢٤) (١) .

وقع الوصل بين جملة «حشروا» وجملة «فاهدوهم» وجملة «وقفوهم» وقد وقع العطف في قوله «فاهدوهم» بفاء التعقيب ، إشارة إلى سرعة ورودهم على النار عقب حشرهم ، ووقع العطف بالواو في قوله «وقفوهم» التي أشركته في الحكم بعطفه على فاء التعقيب ، فكان الأمر يقتضي إيقافهم على الفور في ابتداء السير بهم (٢) .

والجمل المعطوفة (احشروا - اهدوهم - قفوهم) جميعها جمل إنشائية لفظاً ومعنى ، كما اتحدت في بعض الجزئيات فقد اشتركت في المسند إليه وهم المأمورون بذلك (ملائكة العذاب) ، كما أنها جمل فعلية ، وليس هناك مانع من العطف ، فهو توسط بين الكمالين.

ومنه أيضاً قوله تعالى : «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (٣) .

وقع الوصل بين قوله «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا» وقوله «وَأَلْقَيْنَا» وقوله «وَأَنْبَتْنَا» . وقد وقع العطف بالواو التي تفيد مطلق التشريك . والجمل : «مددنا - ألقينا - أنبتنا» . جميعها جمل خبرية ، كما أنها تشترك في بعض الجزئيات فجميعها فعلية ، وأفعالها

(١) سورة الصافات، آية: ٢٢ - ٢٤ .

(٢) التحرير ٩٩/٢٣ .

(٣) سورة، ق، آية: ٧ .

ماضية، والمسند إليه واحد. وهذا الفن يسمى بالتوسط بين الكمالين.

ومنه أيضاً قوله تعالى : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» (١).

وقع الوصل بين قوله «نُحْيِي» وقوله «نُمِيتُ». وقوله «إِلَيْنَا الْمَصِيرُ» وقد وقع العطف بالواو.

وجملة «نُحْيِي» لها محل من الإعراب ، إذ أنها وقعت خبراً للمبتدأ ، والآية تريد إشرافاً الجملة الثانية في الحكم الإعرابي، وبين الجملتين تناسب، إذ المسند إليه في كل منهما واحد ، وهو الله - عز وجل - والمسند فيهما «نُحْيِي ، نُمِيتُ». متناسبان لأنهما ضدان ، فبين الجملتين جهة جامعة، وليس فيهما ما يمنع من العطف، ومن ثمَّ وجب عطف الثانية على الأولى بالواو .

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر، الذي يحيي ويميت ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا جمعت له الآية الكريمة بين الإحياء، والإماتة، ولو ترك العاطف، فقليل في غير القرآن الكريم مثلاً : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ» من غير - واو عطف. كان قولك : «نُمِيتُ» رجوعاً عن قولك «نُحْيِي» وإبطالاً له .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله : «نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)» (٢).

وقع الوصل بين قوله «نُبَدِّلُ» وقوله «وَنُنشِئُكُمْ» وقد وقع العطف بالواو .

وجملة «نُبَدِّلُ» ، وجملة «وَنُنشِئُكُمْ» جمل خبرية ، كما أنها تشترك في بعض الجزئيات؛ فهي جمل فعلية، وأفعالها مضارعة، كما أن المسند إليه واحد وهو الله

(١) سورة، ق، آية: ٤٣.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٦٠ . ٦١.

- سبحانه وتعالى - وليس هناك مانع من العطف . وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

وفائدة الوصل هنا بينت قدرة الله - سبحانه وتعالى - على تغيير خلقهم يوم القيامة، وإنشائهم فيما لا يعلمون من الصفات والأحوال^(١) . والذي يقدر على ذلك كله هو على بعثهم أقدر.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)»^(٢) .

فقد وقع العطف بين قوله « أَنْبَتَكُمْ » وقوله « يُعِيدُكُمْ » وقوله « يُخْرِجُكُمْ » وكان الوصل أولاً بشم التي تفيد التراخي الربّي، وذلك لما بين الإنشاء، والإعادة من الزمان الممتد الواقع فيه التكليف ثم عطف عليه بالواو على الرغم من وجود التراخي الزمني بين الإعادة ، والإخراج لما فيه من طول الإقامة تحت القبور، ولكن لما كانت أحوال البرزخ والآخرة في حكم شيء واحد ، فكأنه قضية واحدة وقع العطف بالواو^(٣) .

وجملة « أَنْبَتَكُمْ » وجملة « يُعِيدُكُمْ » وجملة « يُخْرِجُكُمْ » ، جميعها جمل خبرية لفظاً ومعنى، كما أنها جمل فعلية، والمسند إليه واحد. كما أن بينها تضاد، وهما الموت، والحياة، وليس هناك مانع من العطف ، وهذا ما يسمى في البلاغة بالتوسط بين الكمالين.

ومن ذلك القبيل ما جاء في قوله تعالى : «أَلَمْ يَكُ نُفُفَةً مِّن مَّنِي يُمْنِي (٣٧) ثُمَّ كَانَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣١٦/٤.

(٢) سورة نوح، آية: ١٧، ١٨.

(٣) روح المعاني، ٧٦/٢٩، التحرير ٢٠٥/٢٩.

عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨)»^(١).

وقع الوصل بين قوله « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً... » وقوله « كَانَ عَلَقَةً » وقوله « فَخَلَقَ » وقوله « فَسَوَّى » وقوله « فَجَعَلَ ». وقد وقع العطف أولاً « بَئْسَ » للدلالة على التراخي الرتبى؛ حيث أن كونه علقه ، تالياً لكونه نطفة ، ولما كان تكوينه علقه هو مبدأ خلق الجسم ، عطف عليه ، بالفاء لأن العلقه يعقبها خلق المضغة إلى أن يتم تسويتها خلقاً كاملاً وتنفتح فيه الروح ^(٢) ، ويعقب ذلك كونه إما ذكراً أو أنثى .

وجملة « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً » إنشائية لفظاً ، خبرية معنى ، ومعناها كان نطفة ، وجملة « كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ » جميعها جمل خبرية لفظاً ، ومعنى ، وقد اتفقت مع الجملة الأولى في أنها خبرية معنى ، وجملة « أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً » وجملة « كَانَ عَلَقَةً » اجتمعت في المسند إليه ، وهو الإنسان .

كما أن جملة « خلق - سوى - جعل » اجتمعت في المسند إليه وهو الله تعالى . وليس هناك مانع من العطف ، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين . وسر الوصل في هذا الموضع ، بيان حقارة أصل الإنسان ، ومدى ضعفه إلى جانب بيان قدرة الله الجليل ودقة صنعه .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) »^(٣) .

وقع الوصل بين قوله « خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) »

(١) سورة القيامة، آية: ٣٧ - ٣٨ .

(٢) التحرير ٣٦٨/٢٩ .

(٣) سورة عبس، آية: ١٨ - ٢٢ .

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ، وقع العطف أولاً بالفاء في قوله «فَقَدَرَهُ» ؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة، وملازماً لها، عطفه عليها بالفاء، ثم جاء العطف بعد ذلك بـ «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ» وذلك لأن بين خلخته في بطن أمه ، وإخراجه منه، وتسهيل سبيله، مُهْلَةً، وزماناً، ثم وقع العطف بعد ذلك بـ «ثُمَّ أَمَاتَهُ» وذلك لوجود فترة من الزمان بين إخراجه من بطن أمه، وبين موته، ثم وقع العطف بعد ذلك بالفاء «فَأَقْبَرَهُ» لأنه ليس بين موته وإقباره فترة من الزمن، وإنما يأتي قبره إثر موته مباشرة؛ لذلك وقع العطف بالفاء. ثم وقع العطف بـ «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ» وذلك لوجود فترة زمنية ممتدة بين قبره ، وبين بعثه ونشوره (١) .

والجمل : «خلقه - قدره - السبيل يسره - أماته - أقبره - إذا شاء أنشره» .
جميعها جمل خبرية لفظاً ومعنى ، والمسند إليه واحد وهو الله - سبحانه وتعالى -
وليس هناك مانع من العطف، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين .

وقد أدى الوصل في هذا الموضع ما لا يؤديه تركه، فقد تلاحت سلسلة تاريخ الإنسان في هذا الكون، منذ بدء خلقه، حتى نشره، في صورة عجيبة، تحكي دهوراً، ودهوراً من وجود الإنسان ، بل من قبل وجوده، حتى إعادته خلقاً آخر، وذلك في بضع كلمات.

الفصل :

ومما ورد في ذلك ما جاء في قوله تعالى : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

(١) المثل السائر، ٢٩/٢ . التحرير. ١٢٤/٣ .

جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١) .

فقوله «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» معطوف على قوله تعالى «وَكُنْتُمْ أََمْوَآتًا» ولكن ترك العطف هنا، إما لكونه كالنتيجة له أو للتنبيه على الاستقلال في إفادة ما أفاده، وذكر أنه بيان نعمة أخرى مترتبة على الأولى، وذلك لأن خلق الأرض وما فيها، وجعله منفعة للبشر إنما هو إكمال لإيجاد البشر؛ لأن فائدة الإيجاد لا تكمل إلا بوجود مقوماته^(٢) . وعلى هذا يكون هذا الفصل لمراعاة كمال الاتصال بين الجملتين.

ومن ذلك أيضًا قوله : «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا...إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ»^(٣) .

جملة (قال كم لبثت) فصلت عما قبلها ، وذلك لأن في قوله (قال) استئناف مبني على سؤال مقدر، فكأنه قيل: فماذا قال له بعد بعثه؟ فقيل : قال: كم لبثت^(٤) ؟ فالتقدير هنا ليس عن سبب عام ، ولا سبب خاص، وإنما قدر هذا على الاستئناف^(٥) . ومن ذلك أيضًا ما جاء في قوله تعالى : «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨، ٢٩.

(٢) انظر روح المعاني، ١/٢١٤. التحرير ١/٣٧٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٩.

(٤) إرشاد العقل السليم ١م/ج ١/٢٥٣. روح المعاني ٢٢/٣.

(٥) عروس الأفراح. ٦٠/٣.

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» (١) .

فجمله « إِنَّهُ يَبْدَأُ » استئناف (٢) معناه التعليل لقوله تعالى : «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا» فإن غاية البدء والإعادة هو مجازاة الله المكلفين على أعمالهم (٣) .

فالجمله الأولى ليست وافية بالنسبة إلى الجمله الثانية ، فجاءت الجمله الثانية بياناً للأولى ، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال ، إذ ترك العطف بين الجملتين ، بمشابهة الجمله الواحدة ، ويجوز أن يكون ترك العطف بينهما لما بينهما من شبه كمال الاتصال (٤) ؛ لأنه لما ذكر أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده ، تبادر إلى الذهن سؤال ولم؟ فقليلك : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ » .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ... إلى آخر الآيات» (٥) .

فصلت جملة «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ» عن الجمله التي قبلها ، فهي مستأنفة كالنتيجة للجمله السابقة كلها ، لأنه لما أخبر سبحانه ، بأنه هو الذي خلق الشمس والقمر ، عمد إلى ذكر الحكمة من ذلك ، والتنبيه إلى ما فيهما من الحكمة (٦) .

(١) سورة يونس، آية: ٤

(٢) الكشف، ٣٢٨/٢، أنوار التنزيل، ٤٢٨/١، روح المعاني، ٦٦/١١، البحر المحيط، ١٢٤/٥، إملأ ما من به الرحمن، ٢٤/٢ .

(٣) الكشف، ٣٢٨/٢، إرشاد العقل السليم، م٢م/٤ج/١١٩ .

(٤) التحرير ٩٠/١١

(٥) سورة يونس، آية: ٥

(٦) التحرير ٩٦/١١

فكانت الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى ؛ لذا فقد ترك الوصل بينهما ؛ لأنهما بمثابة الجملة الواحدة ؛ وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .

وفصلت كذلك جملة « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » عن الجمل التي قبلها ، لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، فقد وقعت جواباً لسؤال مقدر ، اقتضته الجملة السابقة حين قالت : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » فتبادر إلى الذهن سؤال ولِمَ ؟ ف قيل : « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) » (٣) .

فقد فصلت جملة « قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا .. » عن الجملة السابقة لها ، ويرى « السكاكي » كونها إما بدل بالمطابقة مع التأكيد ، أو على الاستئناف لما في قوله تعالى : « مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » من الإجمال المحرك للسامع أن يسأل ماذا قالوا ؟ (٤) .

ويرى آخرون أن هذا من باب البديل المطابق ، وعلى هذا فهو يجعله من كمال الاتصال علي حين يرى غيرهم أنه من شبه كمال الاتصال ، لأن قوله تعالى « قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا .. » إنما جاء جواباً عن سؤال مقدر من الجملة التي قبلها « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » فكأنه قيل : ماذا قال الأولون ؟ فجاءت الجملة الثانية جواباً عن هذا السؤال المقدر (٥) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ »

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٨١ ، ٨٢

(٢) مفتاح العلوم ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

(٣) انظر البلاغة فنونها وأقنائها ، د . فضل حسن عباس ، ص ٣١٧ ط ١ - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، دار الفرقان - الأردن .

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١) .

وقع الفصل بين «فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ . . .» وقوله «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى» فقد اختلفت الجملتان في الخبر ، والإنشاء ، فالأولى «فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ» وهي إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى» خبرية لفظاً ومعنى ، لذلك ترك العطف بينهما ، لأن العطف يقتضي التألف ، والتناسب بينهما ، وهما متباينتان تبايناً تاماً ، وليس هناك ما يمنع من الفصل ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون بكمال الانقطاع بلا إيهام خلاف المقصود .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» (٢) .

فقد فصلت الجملة الثانية «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» عن سابقتها ، فهي استئناف بياني ، وذلك لأن غرابة حالهم ، وفساد توهمهم أنهم ما لبثوا في دنياهم غير ساعة ، يثير سؤال سائل عن سبب هذا الوهم ؟ فكان قوله تعالى : «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» إجابة لهذا السؤال الذي أثارته الجمل السابقة (٣) ؛ لذلك وجب ترك العطف هنا ، وهذا ما يسمى بشبه كمال الاتصال .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» (٣٣) (٤) .

(١) سورة الروم ، آية : ٥٠

(٢) سورة الروم ، آية : ٥٥

(٣) التحرير ، ١٢٩/٢١

(٤) سورة يس ، آية : ٣٣

فصلت الجملة الثانية «أَحْيَيْنَاهَا» عن الجملة الأولى ، وذلك لأن قوله «أَحْيَيْنَاهَا» استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية^(١) ؛ فوقعت الجملة الثانية موقع التأكيد المعنوي من الجملة الأولى ، فإن إحياء الأرض الميتة آية ، لذلك ترك العاطف لقوة اتصال الجملة الثانية بالأولى ، وهذا ما يسمى في علم البلاغة بكمال الاتصال . ويرى صاحب «التحرير» أن جملة «أَحْيَيْنَاهَا» في موضع الحال من الأرض ، وهي حال مقيدة؛ لأن إحياء الأرض هو مناط الدلالة على إمكان البعث بعد الموت ، أو تكون جملة «أَحْيَيْنَاهَا» بدل اشتمال من جملة «آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ» أو استئناف بيان كأن سائلاً سأل: كيف كانت الأرض الميتة ؟ وموت الأرض ، جفافها وجراذتها ، لخلوها من حياة النباتات فيها ، وإحيائها : خروج النبات منها من العشب ، والكأ ، والزرع^(٢) . وقيل : «أَحْيَيْنَاهَا» جملة تفسيرية للآية^(٣) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ»^(٤) .

فصلت جملة «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» عن سابقتها ، وذلك لأن قوله «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» بدل اشتمال من «كَمْ أَهْلَكْنَا»^(٥) والمعنى ؛ ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين أنفاً ومن غيرهم كونهم غير راجعين إليهم^(٦) . فكانت الجملة

(١) الكشاف، ١٤/٤

(٢) التحرير، ١٣، ١٢/٢٢

(٣) إملأ ما من به الرحمن، ٢٠٣/٢

(٤) سورة يس، آية: ٣١

(٥) الكشاف ١٣/٤، ١٤، أنوار التنزيل، ٢٨١/٢ - إملأ ما من به الرحمن، ٢٠٣/٢ البحر المحيط، ٣٢٣/٧

(٦) إرشاد العقل السليم، ١٦٦/٧، روح المعاني، ٥/٢٣

الثانية بيان لما أجملته الجملة الأولى ، لأن الإجمال والعموم في الجملة الأولى لم يف بالمطلوب ، ولذلك ترك العاطف بينهما ، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .
ومنه أيضاً قوله تعالى : «وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ» (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» (٢٨) (١) .

فصلت جملة «قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» عن سابقتها ، وذلك لأن «قَالُوا» استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر ، نشأ من حكاية تساؤلهم ، كأنه قيل : كيف تساءلوا ؟ فقيل : قالوا : أي الأتباع للرؤساء ، أو الكل للقرناء (٢) «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا» ولذلك ترك العاطف بين الجملتين ، لما بينهما من شبه كمال الاتصال .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ» (٥٤) (٣) .

فقد فصلت هذه الجملة عن الجملة السابقة لها في قوله تعالى : «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ» (٥١) (٤) . حيث وقعت الجملة الثانية ، بل اشتغال من الجملة الأولى ، لأن قوله «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ» هي مما اشتمل عليه قوله الأول ، إذ هو تكملة للقول الأول (٥) ؛ لذلك ترك العاطف بينهما ، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال .
ومن ذلك أيضاً قوله تعالى «فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ» (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتَرْدِينِ» (٥٦) (٦) .

ترك العاطف بين الجملة الأولى «فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ» وبين الجملة

(١) سورة الصافات آية: ٢٧ . ٢٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم . م ٤٠ / ج ٧ / ١٨٠ .

(٣) سورة الصافات ، آية: ٥٤

(٤) سورة الصافات ، آية: ٥١

(٥) التحرير ، ١١٧ / ٢٣

(٦) سورة الصافات . آية: ٥٥ . ٥٦

الثانية «قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ تُثْرَدِينَ» وذلك لأن الجملة الثانية وقعت جواباً لسؤال مقدر نشأ من الجملة السابقة، فحين اطلع فراه في سواء الجحيم، تبادر إلى الذهن سؤال، فماذا قال حين اطلع فراه؟ قيل: «قَالَ: تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ تُثْرَدِينَ...»^(١) وهذا ما يسمى في البلاغة بشبه كمال الاتصال.

ومنه أيضاً قوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ (١٤)»^(٢).

فقد ترك العطف بين قوله «كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ» وما قبلها، وذلك لأن جملة «كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ» مؤكدة للجملة السابقة، فلذلك فصلت ولم تعطف، لأنهما بمثابة الجملة الواحدة^(٣). أو تكون الجملة الثانية «كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ» بدل مطابق من الجملة الأولى وهذا ما يسمى بكمال الاتصال.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله: «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨)»^(٤).

فقد فصلت جملة «قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» عن الجملة السابقة لها، وذلك لأنها وقعت جواباً لسؤال مقدر، نشأ من الجملة السابقة له كأنه قيل – والله أعلم – فماذا قال الله تعالى؟ فقيل، قال: «لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ»^(٥).

(١) التحرير، ١١٧/٢٣

(٢) سورة (ق) آية: ١٢ – ١٤

(٣) التحرير، ٢٩٦/٢٦

(٤) انظر سورة (ق)، آية: ٢٧، ٢٨

(٥) إرشاد العقل السليم، ٤م/ج ١٣١/٨، روح المعاني، ١٨٦/٢٦

فلذلك ترك العطف بينهما ، لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

ومنه قوله تعالى : « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) (١) .

ترك العطف بين قوله « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » وبين قوله « رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا » وذلك لأن الجملة الثانية بدل بعض من كل ، فإنه لما ذكر بناء السماء في الآية الأولى ، فإن ذلك البناء يشمل رفع سمكها ، وتسويتها ، ولكنه عاد في الجملة الثانية فقال « رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا » فهو بدل بعض من كل وهو البناء ، لأن رفع السمك والتسوية بعضا من البناء ، أو تكون الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى ، فإن الجملة الأولى أجملت البناء فجاءت الثانية ويّنت ذلك المجمل ، وعلى كل من الوجهين تكون الجملة فصلت عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال .

ومنه قوله تعالى « إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » (٨) (٢) .

فصلت هذه الجملة عما قبلها ، وذلك لأنها استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » (٥) (٣) ؛ لأن السامع يتساءل عن سبب توجيه الأنظار إلى خلق الإنسان ، وإذا كان النظر للتفكر والاستدلال ، تكون جملة « إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » استئناف بياني ينتزل منزلة نتيجة الدليل (٤) . وعلى هذا يكون ترك العاطف بين الجملتين لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

(١) سورة النازعات، آية: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة الطارق، آية: ٨.

(٣) سورة الطارق، آية: ٥.

(٤) التحرير، ٣٠/٢٦٤.

٦ - الجملة الحالية :

لقد اتفق أهل البلاغة ، على إلحاق الكلام في الحال التي تكون جملة ، بباب الفصل، الوصل ، وذلك لوجود الشبه بينهما في أن الحال تأتي تارة مع الواو ، وأخرى بدونها ، فهي شبيهة بالفصل والوصل في هذا ^(١) . وقد أسماه « بهاء الدين السبكي » بالتذنيب ^(٢) ، لذلك لا بد لي من الوقفات القصيرة عليه لإلحاقه بهذا الفصل.

فمن ذلك ما جاء في بعض الآيات قيد الدراسة من قوله تعالى :

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ^(٣) ، فهي جملة حالية مقترنة بالواو على إضمار (قد) ^(٤) ، فاقترنت جملة الحال بالواو ، وذلك لسر بلاغي دقيق ، فإنه لما قصد استئناف الخبر ، والقصد إلى عدم ضم هذه الجملة إلى الفعل الأول في الإثبات ، جيء بها مقترنة بالواو؛ فقد استنكر عليهم المولى - سبحانه - الكفر به في بداية الآية ، ثم استأنف الخبر بتذكيرهم بابتداء خلقهم ، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجاء بالواو ، فإنها كما يقول « الجرجاني » : « إن لم تكن عاطفة فإن ذلك لا يخرجها من أن تكون بمنزلة العاطفة وفي أنها جاءت لتربط جملة ليس من شأنها أن تربط بنفسها » ^(٥) .

(١) مفتاح العلوم ص ٢٧٢

(٢) عروس الأفراح، ٣/ ١١٦ .

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨

(٤) الكشف، ١/ ٢١١ . البحر المحیط ١/ ١٣٠ . معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ١/ ٢٤

ط ٣ - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م - عالم الكتب - بيروت ت، تفسير النسفي ١/ ٣٨ . التحرير ١/ ٣٧٥ -

إملاء ما من به الرحمن ١/ ٢٧ ، بصائر ذوي التمييز ٤/ ٢٤٢ حاشية الصاوي ١/ ١٨ .

(٥) دلائل الإعجاز، ص ١٦٥ ، ١٦٦

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : ﴿... وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...﴾^(١) ، فهذه الجملة حال من الفاعل وهو صاحبه المؤمن^(٢) ، وقد اقترنت جملة الحال هنا بالواو ؛ لأنه قصد بها استئناف الخبر ، عدم وصل المعنى الأول بالثاني ، فهنا أرادت الآية الكريمة أن تبين لنا تلك الصورة التي كان الحديث فيها يدور بين هذين الشخصين ، وأرادت أن تنقل لنا جميع أبعاد ذلك المشهد ، فكانت هذه الجملة الحالية ، هي العين الناقلة لتلك الأبعاد جميعاً ، ما كان لنا أن نحوي ذلك المشهد لولا نقله بهذه الصورة .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : ﴿... وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ...﴾^(٣) .

جاءت جملة الحال هنا مقترنة بالواو^(٤) ؛ وذلك لأنه قصد بها استئناف الخبر ، ولم يقصد بها ضمها إلى الخبر الأول في الإثبات ، ويكون المعنى – والله أعلم – ليأكلوا من ثمر هذا الشجر والحال أنه لم تعمله أيديهم ، وليس في استطاعتهم أن يخرجوا منه شجراً ، ولا ثمرأ^(٥) فاستأنف بذلك خبراً آخر أوحى به جملة الحال المقترنة بالواو ، ما كان لنا أن نتبين فحواه لولا مجيئه بهذه الصورة . فسبحان الذي سجدت لآياته أسرار البيان .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : ﴿... لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾^(٦) ، فالجملة حال^(٧)

(١) سورة الكهف، آية: ٣٧

(٢) التحرير ٣١٩/١٥ – البحر المحيط ١٢٧/٦ – النهر الماد من البحر المحيط، ١٢٦/٦، أضواء البيان ١٠٥/٤

(٣) سورة يس، آية: ٣٥

(٤) إرشاد العقل السليم، م٤/ج٧/١٦٦

(٥) التفسير القرآني للقرآن، ٩٣١/٢٣

(٦) سورة ق، آية: ١٠

(٧) إملأ ما من به الرحمن ٢٤١/٢

من «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ...»^(١) ، بطريق الترادف ، و من ضميرها في «بَاسِقَاتٍ» على التداخل^(٢) . جاءت بغير الواو ؛ لأنه قُصد ضمها إلى الجملة السابقة حتى تصيران كالجملة الواحدة في نقل صورة النخل ، فتكتمل بذلك معالم النخل المقصود هنا بالذات ، وهو ذلك النخل الذي طلعه متراكب بعضه على بعض ، في صورة إعجازية عظيمة ، وما كان لهذه الصورة أن تنقل بهذه الدقة والوضوح في أذهاننا لولا ارتباط هاتين الجملتين ببعضهما .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً»^(٣) .

فجملة «لَا تَرْجُونَ» في موضع الحال من ضمير المخاطبين^(٤) ، وجاءت جملة الحال هنا خالية من الواو ؛ وذلك لأنه من دعوة نوح لقومه إلى الإيمان بالله^(٥) ؛ لذلك وصلت بما قبلها ، فلم تأت واو الحال لشدة اتصالها بما سبق ؛ لأن ما تدعو إليه أمراً واحداً ، وقال «أبر حيان» فيها : إن فيها التنبيه على تدرج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى^(٦) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً»^(٧) .

فهذه الجملة حال من ضمير (لَكُمْ) ، أو ضمير (تَرْجُونَ)^(٨) وجاءت جملة

(١) سورة ق، آية: ١٠

(٢) إرشاد العقل السليم، م/٤ج/٨/١٢٧

(٣) سورة نوح آية: ١٣

(٤) الكشف، ٤/٦١٧، البحر المحيط ٨/٣٣٩، إرشاد العقل السليم، م/٥ج/٩/٣٨، التحرير ٢٩/١٩٩

(٥) التفسير القرآني للقرآن، ٢٩/١١٩٨ .

(٦) البحر المحيط، ٨/٣٣٩ .

(٧) سورة نوح، آية: ١٤

(٨) الكشف، ٤/٦١٨، البحر المحيط، ٨/٣٣٩، إرشاد العقل السليم، م/٥ج/٩/٣٨، تفسير النسفي،

م/٢ج/٤/٢٩٦ - التحرير، ٢٩/٢٠١ - التفسير القرآني للقرآن، ٢٩/١١٩٨

الحالقة بالواو ؛ وذلك لأنه قصد استئناف هذا الخبر عما سبق ، وعدم اشتراكه مع ما سبق في الإثبات ؛ فالآيات السابقة دعوة إلى الإيمان ، أما في هذه الآية فتذكير بأصل الإنسان ، وحكمة الله الجليلة في التدرج في خلقه ، فهذا الخبر مستقل عما سبق ، لذلك جاءت جملة الحال مقترنة بالواو .

٧ - الحذف والذكر :

يذكر القرآن ما يذكره ، مما يبدو أن السياق يجيز حذفه عندما يكون في هذا الذكر تثبيتاً للمعنى ، وتوطيداً له في النفس ، ويكون في ذكره فضلاً عن ذلك معانٍ لا تستفاد إذا حذفت ^(١) . وقد ورد منه الكثير في آيات البعث نذكر بعضاً منها فيما يلي :

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « ... وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ » و « وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ » ^(٢) .

فقد أعاد في هذه الآية ذكر الفعل وذلك لاختلاف المنظور إليه ، فالمأمور به أولاً هو النظر إليها من حيث الدلالة على المكث المديد ، وثانياً هو النظر إليها من حيث تعثرها الحياة ومباديهها ^(٣) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « ... أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ^(٤) .

فقد أعاد ذكر اسم الإشارة ، وذلك زيادة إيضاح ، وتقريراً لألوان العذاب الموعود

(١) من بلاغة القرآن، ص ١١٨

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٩

(٣) روح المعاني، ٢٣/٣ - إرشاد العقل السليم، م/١ ج/١ ٢٥٤

(٤) سورة الرعد، آية: ٥

بها هذه الفئة من الناس (١) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢٣) (٢) .

أعاد ذكر اسم الإشارة ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة ، فإن قال قائل : لو اكتفى بقوله «أُولَئِكَ» مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر ، ثم قلنا : لا ؛ وذلك لأنه لو قال : أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع إلا فيهم ، ولكن واحداً منها وحدة يمكن أن يوجد في غيرهم ، فإذا قال أولئك يئسوا لهم عذاب ، أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (٣) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» (١٢) ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين (١٣) ويوم تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) (٤) .

أعاد في هاتين الآيتين ذكر قوله «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» وذلك لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف (٥) ، وتهويل ما يقع فيه (٦) .

ومنه قوله تعالى : «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

(١) انظر أساليب بلاغية، ص ١٥٩

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٢٣

(٣) التفسير الكبير م ١٣/٢٥/٥٠.

(٤) سورة الروم، آية: ١٢، ١٤.

(٥) التفسير الكبير م ١٣/٢٥/١٠٢.

(٦) إرشاد العقل السليم، م ٤/٧/٥٣.

الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾» (١) .

أعاد في هذه الآية ذكر الفعل ، وكرره للتأكيد ، والتشديد ، وتعيين المفعول المطوي للذوق ، والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان ، بل له أسباب آخر من فنون الكفر ، والمعاصي ، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا ، وعدم نظم الكل في سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منهما في استيجاب العذاب ، وفي إيهام المذوق أولاً ، وبيانه ثانياً بتكرير الأمر ، وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى (٢) .

ومنه قوله تعالى : «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» (٣) . بعد قوله تعالى : «مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» (٧٨) .

ذكر المسند «الإحياء» للرد على المخاطب (٤) . هذا بالنسبة للذكر ، أما بالنسبة للحذف فللغاية ذاتها التي ذكرت في الذكر ، فنجد أن القرآن الكريم يحذف حروف ، أو كلمات ، أو جمل من آياته ، وذلك لنتكة بلاغية قد تصل إليها عقول البشر ، وقد تنقاصر دونها .

فمن حذف الحروف ما ورد في قوله تعالى : «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا» (٥) حذف من الكلام حرف «قد» والتقدير - والله أعلم - وقد كنتم (٦) .

(١) سورة السجدة، آية: ١٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم، م٤/ج٧/٨٤ .

(٣) سورة يس، آية: ٧٨ .

(٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع، السيد أحمد الهاشمي، ص ١٢٠ ط ٦ دار الكتب - بيروت لبنان .

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٨ .

(٦) البرهان، ٣/٢١٤ .

ومن الحذف كذلك ما جاء في قوله تعالى : «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» (١) . في الكلام حذف دلت عليه الجملة «كذلك يحيي الله الموتى» والتقدير والله أعلم فضرِبوه فحيي (٢) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» (٣) .

قوله «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» عطف على مقدر يستدعيه المقام «أي فماتوا كما أفاده ثم أحياهم ، وإنما حذف للاستغناء عن ذكره ، لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته . أو على قال ، لما أنه عبارة عن الإمامة إن قلت : أن هؤلاء ماتوا مرتين ، وهو مناف للمعروف إن موت الخلق مرة واحدة ، قلنا لا منافاة ، إذ الموت هنا عقوبة مع بقاء الأجل كما في قوله في قصة موسى : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» و ثم موت بانتهاء الأجل ، وتلخيصه ، أماتهم الله قبل آجالهم عقوبة ، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ، وميتة العقوبة بعدها حياة بخلاف ميتة الأجل ، أو لأن الموت هنا خاص بقوم ، و ثم عام في الخلق كلهم ، فيكون «ما» هنا مستثنى إظهاراً للمعجزة (٤) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «وَلَنَجْْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَنَنْظُرُ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا» (٥) .

قوله «وَلَنَجْْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ» معطوف على محذوف ، قدره الشارح بقوله : لتعلم ، أي لتعلم كيفية إحياء الأموات ، أو لتعلم تمام قدرتنا على إحياء الموتى ، وغيره وهذا المعطوف عليه المحذوف متعلق بفعل آخر محذوف دل عليه السياق ، وهو ما ذكره

(١) سورة البقرة، آية: ٧٣.

(٢) روح المعاني، ١/٢٩٤ - البرهان ٣/٢٠٥، ٢٠٦ - التفسير الكبير، ٢م/ج ٣/١٢٥.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٣.

(٤) الفتوحات الإلهية ١/١٩٧، روح المعاني ٢/١٦١، وانظر الظلال ١م/ج ٢/٢٥٩.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٩.

المفسر بقوله : فعلنا ذلك ، وعبارة « أبي السعود » ولنجعلك آية للناس ؛ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، أي ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعائن ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل ، لنجعلك آية للناس^(١) .

ومنهم من قدره متأخراً ، وقيل : إنه متعلق بما قبله ، والواو زائدة ، وعلى تقديره فهو معطوف على « لبثت » أو على مقدر بطريق الاستئناف ، أي فعلنا ذلك لتعائن ما استبعدت ، أو لتهدي ولنجعلك ، وقيل : إنه عطف على « قال »^(٢) .

وأيضاً قوله « فلما تبين له » أي اتضح اتضاحاً تاماً له ما دل عليه الأمر من كيفية الإحياء بمباديه ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر ، المذكور ، وإنما حذف للإيدان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر ، وللإشعار بسرعة وقوعه ، كأنه قيل : فأنشرها الله تعالى ، وكساها لحماً فنظر إليها فتبين له كفيته ، فلما تبين ذلك « قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(٣) .

ومن الحذف أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ... »^(٤) .

قوله « لِّيَطْمَئِنَّ » اللام متعلقة بمحذوف بعد « لكن » تقديره : ولكن سألتك كيفية الإحياء للاطمئنان ، ولا بد من تقدير حذف آخر قبل « لكن » حتى يصح معه الاستدراك ، والتقدير ، بلى آمنت ، ما سألت غير مؤمن ولكن سألت ليطمئن قلبي ،

(١) الفتوحات الإلهية، ٢١٣/١، ٢١٤، إرشاد العقل السليم، م/١ ج/١/٢٥٤.

(٢) روح المعاني ٢٣/٣، وانظر البحر المحيط، ٢٩٣/٢.

(٣) روح المعاني ١١٧/١٦.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦٠.

والطمأنينة السكون^(١). وقوله « فَخُذْ » الفاء لجواب شرط محذوف ، أي إن أردت ذلك فخذ^(٢).

ومن الحذف كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ... »^(٣). قوله « وَلَوْ تَرَىٰ » يقتضي له جواباً تفخيماً للأمر ، وتعظيماً للشأن ، جاز حذفه لعلم المخاطب به ، وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر ، وهو المضاف إليه ، ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم . وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى : أنك لو قلت لغلامك ، والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب . ذهب بفكره إلى أنواع المكروه ، من الضرب والقتل ، والكسر ، وعظم الخوف ولم يدر أي الأقسام تبغي ، ولو قلت والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت الجواب ؛ لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف ، ومنهم من قال جواب « لو » مذكور من بعض الوجوه ، والتقدير : ولو ترى إذ وقفوا على النار ينوحون ، ويقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب^(٤).

ومنه كذلك قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ... »^(٥).

« لو » جوابه محذوف ، تقديره : لرأيت أمراً شنيعاً . وإنما حذف ليكون أبلغ ما

(١) روح المعاني ٢٨/٣ ، البحر المحيط ٢/٢٩٩.

(٢) الفتوحات الإلهية ، ٢١٦/١ ، روح المعاني ٢٨/٣ ، إرشاد العقل السليم ، م١/ج١/٢٥٦.

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢.

(٤) التفسير الكبير ، م٦/ج١٢/١٩٠ - انظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للإمام عز الدين

عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ، ص ١٤٠ ، قدم له : رمزي دمشقية ، ١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ،

دار البشار الإسلامية - بيروت لبنان . والبرهان للزركشي ، ٣/١٨٣ - أنوار التنزيل ١/٢٩٧.

(٥) الأنعام ، آية : ٣٠.

يقدره السامع (١) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (٢) .

العامل في «إذ» محذوف ، وتقديره : أنبعث ، أو نحشر إذا كنا ؟ دل عليه «مبعوثون» (٣) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ» (٤) .

الفعل محذوف، أي فضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع ، أي أوجدناه، وخلقناه فيهم ، وهذا هو المعنى الحقيقي (٥) .

ومنه كذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ...» (٦) .

قيل هنا : جمل ثلاث محذوفة ، تقديرها : فأووا إلى الكهف ، وناموا، وأجاب الله دعاءهم حيث قالوا ربنا آتنا ... إلخ (٧) .

ومن ذلك أيضاً من جاء في قوله تعالى : «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَنَذَا مَا مِثُّ لُسُوفٍ أُخْرِجُ حَيًّا» (٨)

(١) الصفوة، ٣٨٥/١، التفسير الكبير ١٩٠/١٢، وانظر معترك الأقران، ٣٠٦/١.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٤٩ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٢٩١/٢، وانظر أنوار التنزيل، ٥٧٣/١.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١ .

(٥) الفتوحات الإلهية ٧/٣، وانظر روح المعاني، ٢١١/١٥ أنوار التنزيل، ٥/٢.

(٦) سورة الكهف، آية: ١٧ .

(٧) الفتوحات الإلهية ١١ / ٣ ، وانظر : روح المعاني ٢٢١/١٥ .

(٨) سورة مريم ، آية : ٦٦ .

في الكلام معطوف محذوف لقيام القرينة عليه ، أي إذا ما مت وصرت رميمًا لسوف ... إلخ (١).

ومنه كذلك قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (٥) (٢).

ترك المفعول لتفخيمه كما وكيفاً ، أي خلقناكم على هذا النمط البديع ، لنبين لكم ما لا تحصره العبارة من الحقائق ، والدقائق التي من جملتها أمر البعث ، فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي ، جزم بأن من قدر على خلق البشر أولاً من تراب لم يذق ماء الحياة قط ، وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصرفه في أطوار الخلقة ، وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار ، والأحوال من المخالفة ، والتباين ، فهو قادر على إعادته ، بل هو أهون في القياس (٣).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» (١١٥) (٤).

الفاء عاطفة على محذوف هو المضاف إليه ، وتقديره : أغفلتم ، وتلاهيتم ،

(١) روح المعاني ١٦/١١٧.

(٢) سورة الحج آية ٥.

(٣) روح المعاني ١٧/١٧ ، وانظر أنوار التنزيل ٨٣/٢.

(٤) سورة المؤمنون آية: ١١٥.

وتعاميتهم ، فحسبتم إلخ^(١).

ومن الحذف ما جاء في قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦)» (٢).

قوله : « فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ » الفاء لجواب شرط محذوف تقديره : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يوم البعث ، أي قد تبين بطلان قولكم^(٣).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ...» (٤).

المفعول به محذوف ، وتقديره : أي فذوقوا العذاب (٥)، وقد حذف المفعول به لنكتة بليغة ، وهو ترك تعيين الشيء الموعود بإذاقتهم إياه ، زيادة في التهديد ، والوعيد فإن ترك التعيين يجعل النفس تذهب كل مذهب في تحديد نوع ذلك الشيء، وذلك أدخل في التهديد .

ومن ذلك ما جاء من قوله تعالى : « قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) » (٦) حذف القسم، وجوابه ، فإن معناه : « ق ، والقرآن المجيد لتبعثن » ، والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله : « أَتَذَرُنَا مِتًّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » (٧) (٨).

(١) الإشارة إلى الإيجاز ص ١٧٦ وانظر الفتوحات الإلهية ٣/٣٠٥.

(٢) سورة الروم آية ٥٥، ٥٦.

(٣) المثل السائر، ٣٠٥/٢، أنوار التنزيل ٢/٢٢٤

(٤) سورة السجدة، آية: ١٤.

(٥) البرهان ٣/١٦٤.

(٦) سورة ق آية: ١، ٢.

(٧) المثل السائر، ٣٠٧/٢ وانظر الفوائد المشوق، ص ١١٣.

(٨) سورة ق آية: ٤.

ومنه قوله تعالى : «أَعِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً» (١) «أَعِذَا» منصوب بمحذوف تقديره : أَعِذَا كُنَّا عِظَامًا نَرَد ، ونبعث (٢) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ» (٣) . حذف من الآية حرف ، وذلك في قوله « مم » حذف ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر ، للفرق بين الاستفهامية والخبرية (٤) .

٨ - الإيجاز والإطناب :

وهو من أبواب البلاغة التي تتباين فيها القدرات ، وتعتمد على عندنا القداح ، أو تستغل في مقياس الفصاحة ، والبيان ، وقد بلغ من جلال هذا الفن أن جعل هو البلاغة بعينها فليل (البلاغة الإيجاز في غير عَجَز ، والإطناب في غير خطل) (٥) .

وقيل : (الإيجاز بلاغة ، والتقصير عي ، كما أن الإطناب بلاغة ، والتطويل عي) .

ولكل واحد من الإيجاز ، والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم (٦) .

وقد بلغ هذا الفن مبلغ الإعجاز ، في آيات القرآن الكريم ، فعند ورود آياته

(١) سورة النازعات آية ١١ .

(٢) الكشف ، ٦٩٤/٤ .

(٣) سورة الطارق ، آية ٥ .

(٤) البرهان ، الزركشي ، ٢١٣/٣ .

(٥) الصنائع الكتابة والشعر ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، ص ١٤ تحقيق علي البجاوي ،

محمد أبو الفضل إبراهيم - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت .

(٦) النكت في إعجاز القرآن ، ص ٧٢ .

بأسلوب الإيجاز ، يتضاءل العقل البشري عن الإحاطة بتلك المعاني العظيمة التي طويت في هذه الألفاظ القليلة ، وتسقط أقلام الكتّاب عن تداركها ، والإحاطة بكنهها ، فيزيدهم إعجازاً .

وقد ورد الإيجاز في آيات القرآن الكريم ، بطريقيه المعروفين في كتب البلاغة ، وهما : الإيجاز بالحذف ، « فقد يتناول بهذا الحذف كلمات ، وجمالاً كثيرة ، متلاحقة ، ومتفرقة ، في القطعة الواحدة ، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ، ووضوح ، وفي طلاوة ، وعذوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه ، أن لفظة أوسع منه قليلاً ، فإذا ما طلبت سرّاً ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات ، أو الجمل المطوية ، في كلمة هنا ، وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة ، وأمر عليها جندرة البيان ، بيد صنّاع فأحكم بها خلقه وسواه ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نير مشرق ، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي ، ولا بما صار إليه من استغناء ، واكتفاء ، إلا بعد تأمل ، وفحص دقيق » ^(١) . وهذا النوع من الإيجاز قد سبق الحديث عنه ، عند الحديث عن الذكر والحذف فيها حصلت الكفاية .

أما النوع الثاني من الإيجاز ، وهو إيجاز القصر (له في البلاغة موقع عظيم ، دقيق المجرى صعب المرتقى ، لا يختص به من أهل الصناعة إلا واحد بعد واحد ، « ومهما عظم المطلوب قلّ المساعد » ^(٢) .) والتنبه له عسر : لأنه يحتاج إلى فضائل تأمل ، وطول فكرة ، لحفاء ما يستدل عليه ، ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه في ممارسة علم البيان ، وصار له خليقة وملكة ^(٣) .

(١) النبأ العظيم ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) الطراز ، ١١٩/٢ .

(٣) الصناعتين ص ٢٦٥ .

وقد حفل القرآن الكريم بمثل هذا النوع الدقيق من الإيجاز ، ومما ورد منه في آيات البعث ما جاء في قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢٨) ، (١) .

وهكذا في أية واحدة قصيرة ، يُفتح سجل الحياة كلها ، ويُطوى ، وتُعرض في ومضة ، صورة البشرية في قبضة الباري ، ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ، وإليه مرجعها في الآخرة ، كما كانت منه نشأتها في الأولى . وفي هذا الاستعراض السريع ، يرسم ظل القدرة القادرة ، ويلقي في الحس إحياءاته المؤثرة العميقة (٢) .

ومنه قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٩) (٣) .

هكذا في ومضة « خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » ، أو شيء مما خلق في الأرض ، يستغرق في مواضع أخرى آيات طوالاً ، حينما يريد التفصيل والتطويل (٤) . ولكنه في هذه الآية يوجز هذا الإيجاز البليغ الذي يحيط بمعاني جليلة .

ومنه قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... » (٥) .

فهو هنا قد اختصر تلك الرحلة الطويلة التي يمر بها السحاب حتى يصير سحاباً ،

(١) سورة البقرة، آية ٢٨ .

(٢) الظلال م١/ج١/٤٧ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٩ .

(٤) التصوير الفني ص ١٣٢ .

(٥) سورة الأعراف، آية ٥٧ .

ومن ثم حتى يصبح مطراً والتي يعرفها علماء الطبيعة ، والمتخصصون في هذا المجال ،
ومن ثم تلك الرحلة الطويلة التي يمر بها النبات حتى يستوي ، ويشمر ، فقد صبَّ
القرآن الكريم هاتين الرحلتين في هذا القلب المعجز من الحروف والكلمات ، فأوجز ،
وأعجز ، وبلغ الغاية .

ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٤٩) (١) .

وها هو ذا مرة أخرى يوجز في كلمة واحدة كل تلك المصائب ، والمحن ،
والأدواء ، والهموم ، التي تنزل بالإنسان في دنياه في قوله « ضَرًّا » ثم يوجز في كلمة
جامعة كل ما ينعم به الله على الإنسان من نعم ظاهرة ، وباطنة ، في كلمة واحدة
في قوله « نَفْعًا » وهكذا حصر تلك الأحوال التي يقلب فيها الإنسان منذ خلقه وإلى
موته في هاتين الكلمتين ، بإيجاز عجيب ، حوى من المعاني ما يعجز الفكر عن
الإحاطة بها .

ومنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ
مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ
(١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)
لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) » (٢) .

« وهذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة التي دلت على تخويف وإرهاب ، ترق له

(١) سورة يونس آية ٤٩ .

(٢) سورة ق آية ١٦ - ٢٢ .

القلوب وتتشعر منه الجلود ، وهي مشتملة على قصرها على حال الإنسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس ، وتصوير ذلك الأمر الفظيع في أسهل لفظ وأقربه ، وما مررت عليها إلا جددت لي موعظة ، وأحدثت عندي إيقاظاً^(١) .

ومنه قوله تعالى : «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)»^(٢) الإيجاز واقع في قوله : « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » فدل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض ، قوتاً ، ومتاعاً للناس ، من العشب ، والشجر ، والخطب واللباس ، والنار والملح والماء لأن النار من العيدان ، والملح من الماء ، والشاهد على أنه أراد ذلك كله قوله تعالى : « متاعا لكم ولأنعامكم»^(٣) .

ومن هذا الأسلوب أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)»^(٤) .

لقد بلغت هذه الآية قمة الإيجاز ، وقمة الإعجاب وكثر وصف علماء البلاغة لها . يقول ابن الأثير : قتل الإنسان دعاء عليه ، ما أكفره ، تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله عليه ، ولا نرى أسلوباً أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ، ولا أخشن مساً ، ولا أدل على سُخْط مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه !^(٥) .

وقيل فيها أيضاً : وهذه الجملة بلغت نهاية الإيجاز ، وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ ، دال على السخبط ، بالغ حد المذمة ، جامع للملامة ، ولم يسمع مثلها قبلها ، فهي

(١) المثل السائر، ٢/٣٢٢ .

(٢) سورة النازعات آية ٣٠ ، ٣١ .

(٣) الصناعتين ص ١٧٧ ، التحرير ٨٧/٣٠ - تأويل مشكل القرآن ص ٥ .

(٤) سورة عبس، آية ١٧ .

(٥) المثل السائر ٢/٣٢٠ .

من جوامع الكلم القرآنية^(١).

وكما تجلّى إعجاز القرآن في أسلوب «الإيجاز» نجده يتجلّى كذلك عند استخدامه للإطناب، ولالإطناب ميزته وعلوه في البلاغة، وهذا النوع من علم البيان، كثير المحاسن، واسع الخطوط لطائفه بديعة، ومداخله دقيقة^(٢) وهو كما يقول «الرماني»: الإطناب كمن سلك طريقاً بعيداً، لما فيه من النزعة الكثيرة، والفوائد العظيمة، فيحصل في الطريق إلى غرضه من الفائدة، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب^(٣).

وقد جاء الإطناب في آيات الذكر الحكيم على أروع أسلوب، وأفصح بيان، وجاء بأنواعه المختلفة التي عرفت في علوم البلاغة، وقد وردت هذه الألوان في آيات البعث، نذكر بعضاً منها.

فمن الإطناب، التكرار وقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن التوكيد، وفي هذا المقام سوف أتطرق إلى أنواع أخرى من الإطناب، فمن هذه الأنواع:

١ - التفصيل بعد الإجمال:

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لَمَّا لبثُوا أَمَدًا (١٢)» (٤).

(١) التحرير ١٢١/٣٠ وانظر حاشية الشهاب ٣٢٣/٨ الفوائد المشوق ص ١٠٢ أنوار التنزيل ٥٦٩/٢.

(٢) الطراز ٢٤٤/٢.

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٢.

(٤) سورة الكهف آية ٩ - ١٢.

ذلك ملخص للقصة ، ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف ، وحالتهم بعد دخوله ونومهم ، ويقظتهم ، وإرسالهم واحداً منهم ، ليشتري لهم طعاماً ، وكشفه في المدينة وعودته ، وموتهم وبناء المعبد عليهم ، واختلاف القوم في أمرهم . . . إلخ . فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات (١).

ومنه قوله تعالى : «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)» (٢) .

تفصيل بعد إجمال (٣) حيث أجمل قولهم أولاً بأنه مثل ما قال الأولون ، ثم فصل هذا القول فيما بعد بقوله ، قالوا أئذا متنا . . . إلخ . . .

ومنه قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)» (٤) .

أجمل القول في البداية بقوله « يتفرقون » ثم فصل هذا الإجمال فيما بعد ببيان حال الفريقين : الصالحون ، والكافرون ، حيث قال : فأما الذين آمنوا . . . إلخ (٥).

ومنه قوله تعالى : «وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)» (٦) .

(١) التصوير الفني ص ١٨١ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٨١ - ٨٢ .

(٣) انظر التحرير ١٨/١٠٧ .

(٤) سورة الروم آية : ١٤ - ١٦ .

(٥) انظر التحرير ٢١/٦٤ .

(٦) سورة يس، آية : ٣٣ ، ٣٤ .

أجمل إحياء هذه الأرض أولاً بقوله «أَحْيَيْنَاهَا» ثم فصل نوع ذلك الإحياء بقوله «أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» وجعلنا فيها جنان من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون .

ومن هذا الفن أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَنَبْنَا وَقَصَبْنَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا (٢٩) وَحَدائقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) (١) .

وقع الإجمال أولاً في قوله : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» حيث ذكر الطعام مجملًا ، ثم فصل كيفية إحداث ذلك الطعام على وجه الإيجاز بقوله : «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . . . إلخ» (٢) .

فهذا هو التفصيل بعد الإجمال ، وقد حوت آيات القرآن الكريم منه الشيء الكثير، وأثرت في هذا المقام التنويع لا الحصر .

ب - الإيضاح بعد الإبهام :

ومما ورد في آيات البعث من هذا النوع ما جاء في قوله تعالى : «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) (٣) .

أبهم في البداية مادة خلقه بقوله : «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» ثم وضع بعد ذلك الشيء المستفهم منه بقوله من نطفة خلقه فقدره . . . إلخ .

(١) سورة عبس آية: ٢٤ - ٣١ .

(٢) انظر التحرير ١٣١/٣٠ أنوار التنزيل ٥٧٠/٢ .

(٣) سورة عبس آية: ١٨ - ٢٢ .

ويذكر أحد الباحثين المحدثين أن هذه الآية تعد من التفصيل بعد الإجمال^(١) وأرى أن هذه الآية تعد من الإيضاح بعد الإبهام ، وذلك لأنه أبهم في البداية المادة التي خُلِقَ منها الإنسان واكتفى بهذا الاستفهام الذي يزيد المسألة غموضاً ، وقد قال ابن الأثير^(٢) عند تعرضه لهذه الآية بعد أن ذكر قوله تعالى : من أي شيء خلقه قال بعدها : ثم بين الشيء الذي خلق منه بقوله : من نطفة خلقه . . . إلخ ، وهذا يدل على أن الآيات الواردة بعد هذا الاستفهام إنما هي مبينة لذلك الإبهام الذي حصل .

ومن هذا الفن أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾»^(٣).

وقع الإبهام في قوله : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ» ثم وضع ذلك الإبهام بعده بقوله : (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) .

ج - ذكر الخاص بعد العام :

من ذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَكَذَلِكَ أَغَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا...»^(٤).

يقول : «الألوسي» في هذه الآية تخصيصاً بعد تعميم على معنى : لا ريب في تحقيقها ، وهو وجه في الآية^(٥).

(١) الصابوني في تفسيره ٥٢٢/٣.

(٢) المثل السائر، ٣٢٠/٢، ٣٢١.

(٣) سورة الطارق آية ٥ - ٧.

(٤) سورة الكهف آية ٢١.

(٥) روح المعاني، ٢٣٣/١٥.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : «فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنبِتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلَنِ (٢٠)» (١).

ذكر الجنات عامة ، ثم خصص من هذه الجنات النخيل والأعناب ، دون وصفها بسائر ثمار الأرض ، لأن هذين النوعين من الثمار كأنهما أعظم ثمار الحجاز ، وما قرب منها ، فكانت النخيل لأهل المدينة والأعناب لأهل الطائف فذكر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم بما أنعم به عليهم من ثمارها (٢) .

ثم أفرد بعد ذلك شجرة الزيتون بالذكر وقد كثرت أقوال العلماء في إظهار هذه المزية لشجرة الزيتون فقيل : أفردت بالذكر لعظيم منافعها (٣) ، وقيل : خصت بالذكر لأنه لا يتعاهدها أحد بالسقي وهي التي يخرج الدهن منها ، فذكرها الله - سبحانه - امتناناً على عباده بها ، ولأنها أكرم الشجر ، وأعمها نفعاً ، وأكثرها بركة (٤) .

وقيل في سبب تخصيص هذه الأنواع الثلاثة أيضاً ، خص منها النخيل ، والأعناب وشجرة الزيتون ، لأنها أكرم الشجر ، وأعمها نفعاً ، ووصف النخل ، والعنب بأن ثمرها جامع لأمرين التفكه والتطعم (٥) .

ومنه قوله تعالى : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) » (٦) .

(١) سورة المؤمنون، آية ١٩ - ٢٠ .

(٢) جامع البيان ٩م/ج ١٨/ط ١٠٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/٥ - ٤٥ .

(٤) فتح القدير، ٤٧٨/٣ .

(٥) غرائب القرآن ٩م/١٨/١٠ .

(٦) سورة المؤمنون آية ٢١ ، ٢٢ .

يقول : « صاحب الظلال » في هذه الآية ، وما ذكر فيها من منافع الأنعام ، يقول: يَجْمَعُهَا أَوَّلًا ثُمَّ يَخْصُصُ مِنْهَا مَنَفَعَتَيْنِ ؛ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ ^(١).

د - الجمل الاعتراضية :

يقول « ابن جني » عنها : اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير ، قد جاء في القرآن ، وفصيح الشعر ، ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد ، فلذلك لا يشنع عليهم ، لا يستنكر عندهم ^(٢) .

مما ورد في آيات البعث من الجمل الاعتراضية . ما جاء في قوله تعالى : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ^(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ^(٧٣) » ^(٣).

وردت الجمل الاعتراضية في قوله « وَاللَّهُ مُخْرِجٌ » جملة ابتدائية ، وردت معترضة بين الكلامين وهما المعطوف ، والمعطوف عليه وهما ادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، فقلنا وفائدتها التقرير في نفوس السامعين بأن تدافع بني إسرائيل في قتل النفس ليس نافعاً لهم في إخفائه ، وكتمانها ، لأن الله تعالى مظهره ، وتعريف بأنه تعالى مطلع على كل خافية . وأكثرم بمعاني التنزيل فما أنفعها ، وأعلى مكانها وأرفعها ^(٤).

وكذلك قوله : « كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى » جملة اعتراضية تفيد تحقق المشبه ،

(١) م٤م/ج١٨/٢٤٦.

(٢) الخصائص، ١/٣٣٥.

(٣) سورة البقرة، آية: ٧٢، ٧٣.

(٤) الطراز، ١٧٢/٢ التفسير الكبير، م٢م/ج٣/١٢٤. المثل السائر، ٤٣/٣.

وتيقنه بتشبيه الموعد بالموجود ، والمماثلة في مطلق الإحياء ^(١) .

ومنه قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » ^(٢) .

قوله « وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ » جملة معترضة بين جملة « ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا » وجملة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » وفائدة هذا الاعتراض إعلام الخلق بأن الله عالم آجال الناس ردأ على قول المشركين ، « وما يهلكنا إلا الدهر » ^(٣) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » ^(٤) .

فإن قوله « وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » جملة معترضة بين الجملة وما تفرع عليها ، وفي هذا تذكير بأن قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام ^(٥) .

ومن ذلك قوله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » ^(٦) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » ^(٧) .

فإن قوله « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، جملة اعتراضية ، واعتراض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد ^(٧) . وذلك يفيد بأن تسبيح المؤمنين لله ليس لمنفعة الله

(١) روح المعاني ٢٩٤/١ .

(٢) سورة الأنعام، آية ٢

(٣) التحرير ١٣٠/٧ ، ١٣١ ، سورة الحائية آية ٢٤ .

(٤) سورة المؤمنون آية ١٨ .

(٥) التحرير ٢٩/١٨ .

(٦) سورة الروم آية ١٧ ، ١٨ .

(٧) تفسير القرآن العظيم ، ٤٣٨/٣ .

تعالى ، بل لمنفعة المسيحين (١) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : «ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)» (٢) .

قوله «ثُمَّ إِذَا شَاءَ» جملة معترضة بين أماته فأقبره وبين أنشره ، وذلك لرد توهم المشركين أن عدم التعجيل بالبعث دليل على انتفاء وقوعه في المستقبل (٣) .

هـ - التذيل :

« وللتذيل في الكلام موقع جليل ، ومكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد انشراحاً والمقصد اتضاحاً . وقال بعض البلغاء : للبلاغة ثلاثة مواضع ، الإشارة ، والتذيل ، والمساواة ، ينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم ، والبعيد الذهن ، والثاقب القريحة ، والجيد الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تؤكد عند الذهن اللقن ، وصحح للكليل البليد؟» (٤) .

ومما جاء في الآيات موضع الدراسة ، ويعد من التذيل ، ما جاء في قوله تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)» (٥) .

فإن قوله «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» ، تذيل مقرر لما قبله من خلق السموات والأرض ،

(١) التحرير، ٦٦/٢١ .

(٢) سورة عبس آية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) التحرير ١٢٥/٢٠ .

(٤) الصناعتين ص ٣٧٣ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٩ .

وما فيها ، على هذا النمط العجيب والأسلوب الغريب (١) .

ومنه كذلك ما جاء في قوله تعالى : «... وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ» (٣١) (٢) .

فإن قوله «أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ» تذييل مقرر لما قبله ، وتكملة له (٣) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٥٥) (٤) .

فإن قوله : «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» تذييل لما سبق ، وتأكيده ، واستدلال عليه بأن من يملك جميع الكائنات ، وله التصرف فيها قادر على ما ذكر (٥) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٦) .

فإن قوله ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ جملة تعد تذييلاً ومقررة لمضمون ما قبلها (٧) .

ومنه قوله تعالى : «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ

(١) روح المعاني، ٢١٧/١ .

(٢) سورة الأنعام آية ٣١ .

(٣) روح المعاني ١٣٣/٧ ، إرشاد العقل السليم، ١٢٥/٣ .

(٤) سورة يونس آية ٥٥ .

(٥) روح المعاني ١٣٨/١١ ، حاشية الشهاب، ٤٠/٥ .

(٦) سورة المؤمنون آية ١٤ .

(٧) روح المعاني ١٦/١٨ ، التحرير ٢٥/١٥ .

فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ (١) .

فإن قوله : « وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ ... » عطفت على جملة « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ... » وهي في معنى التذيل للجملة المذكورة ، لأنه ذكر منها علم الله بضمائرهم ، فذيل ذلك بأن الله يعلم كل غائبة في السماء والأرض (٢) .

ومما جاء تذيلاً كذلك قوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ﴿٢٠﴾ (٣) .

قوله : « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تذييل وإظهار اسم الجلالة لتكون جملة التذيل مستقلة بنفسها فتجري مجرى الأمثال (٤) ، فإن من علم قدرته – عز وجل – على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته – سبحانه – عليها ولا في وقوعها بعد ما أخبر به (٥) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ » (٦) جملة « وهو على كل شيء قدير » تذييل مقرر لمضمون ما قبله (٧) .

ومن هذا الفن كذلك ما ورد في قوله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

(١) سورة النمل آية ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) التحرير ٢٠ / ٢٩ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٢٠ .

(٤) التحرير ٢٠ / ٢٣١ .

(٥) روح المعاني ٢٠ / ١٤٨ .

(٦) سورة الروم آية ٥٠ .

(٧) روح المعاني ٢١ / ٥٤ ، إرشاد العقل السليم ، م / ٤ ج / ٣ / ٦٥ .

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) (١).

فإن قوله « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » تذييل على الاستدلال السابق (٢).

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٣٣) (٣).

جاء قوله تعالى : « بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تقريراً للقدرة على وجه عام ، يكون كالبرهان المقصود (٤).

٩ - أسلوب القصر :

وهو أحد الأساليب البلاغية ، التي اشتملت عليها آيات الذكر الحكيم ، فتجلت لنا في أبهى صورة وأبلغ بيان .

وهو أيضاً « فن دقيق المجرى ، لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار » (٥) .

ويُعد هذا الفن من علم المعاني ، وذلك لما له من أغراض جوهرية ، تتعلق بمعاني الجمل (٦) . وجاء القصر في الآيات موضع الدراسة من طريقين :

(١) سورة يس، آية: ٧٩.

(٢) التحرير ٧٦/٢٢.

(٣) سورة الأحقاف، آية ٣٣.

(٤) إرشاد العقل السليم، م٤/ج٨/٨٩.

(٥) من بلاغة النظم العربي، ٨/٢.

(٦) البلاغة فنونها وأفانها / ص ٢٩٢.

١ - طريق المولى - عز ذكره - حين يريد إثبات حقيقة البعث ، والنشور ، أو حين يصف سهولة أمر البعث ، أو حين يريد بيان تفرد ، وعدله .

٢ - طريق المنكرين لحقيقة البعث ، عندما يدفعون تلك الحقيقة . وأذكر فيما يلي بعضاً من تلك الآيات التي اشتملت على هذا الأسلوب ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً ، مبتعدة عن تلك الاختلافات التي دارت بين علماء البلاغة والبيان في تعداد طرق القصر وأساليبه ، عارضة أنواعاً من تلك الطرق بحسب ما يرد في الآيات المختارة .

ومن أمثلة القصر ما ورد في بعض آيات البعث ، قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢٨) (١) .

وقع القصر في هذه الآية وذلك بتقديم ما حقه التأخير ، حيث قدم الجار والمجرور المتعلق إليه على عامله « تُرْجَعُونَ » أي ترجعون إليه (٢) ، وهو من قصر الموصوف وهو الله ، على الصفة وهي الرجوع وهو قصر حقيقي تحقيقي وقد أفاد مجيء القصر هنا ، تأكيد حقيقة البعث ، والرجوع إلى الله ، كما أن فيه تيسيراً لهم من نفع أصنامهم ، وما يعبدون من دون الله ، إذ أنهم لن ينصرونهم ، ولن ينقذوهم من العذاب إذا رجعوا إلى الله (٣) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « ... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٥٧) (٤) .

(١) سورة البقرة آية ٢٨ .

(٢) الظلال ٤٧/١ .

(٣) التحرير ٧٧/١ .

(٤) سورة البقرة آية : ٥٧ .

فقد وقع القصر هنا بتقديم المفعول به أنفسهم وذلك لإفادة القصر الذي يقتضيه النفي السابق (١).

والمعنى (فما ظلموا إلا أنفسهم) (٢)، وهو قصر تحقيقي ، وهو من قصر الموصوف (أنفسهم) على الصفة وهي (الظلم) .

وقد أفاد أسلوب القصر هنا ، تأكيد إلحاق الضرر بأنفسهم ، دون غيرهم ، وذلك قمة الجهل ، والرعونة .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : « ... وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » (٣) .

وقع القصر إن - وإلا - وهو من قصر الموصوف وهي (الحياة) على الصفة وهي (الدنيا) وهو قصر حقيقي بالنسبة لاعتقاد أولئك المنكرين الجاحدين . إذ أن غرضهم تخصيص الموصوف بهذه الصفة بحيث لا يتعداه إلى غيره .

وقد أفاد هذا الأسلوب ، بيان مدى تمكن هذا الاعتقاد من نفوس منكري البعث، فهم يظنون أن لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، وقد تمكن هذا الاعتقاد من نفوسهم حتى أنهم ليلقونه مؤكداً أشد تأكيداً وأثبتة .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... ﴾ (٤).

(١) روح المعاني ١/ ٢٦٤.

(٢) الظلال ١/ ٦٧.

(٣) سورة الأنعام آية ٢٩.

(٤) سورة يونس آية ٤٩.

جاء القصر بالنفي ، والإثبات ، وهو استثناء منقطع أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن^(١) . وحمله على الاتصال على معنى إلا ما شاء الله أن أملكه ، يأباه مقام التبرؤ من أن يكون له - عليه السلام - دخل في إتيان الوعد ، فإن ذلك يستدعي بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل - ما - عبارة من بعض الأحوال المعهودة ، المنوطة بالأفعال الاختيارية ، المفوضة إلى العباد ، على أن يكون المعنى : لا أملك لنفسي شيئاً من الضر ، والنفع ، إلا ما شاء الله أن أملكه منهما من الضر ، والنفع ، المترتين على أفعالي الاختيارية^(٢) .

وفائدة هذا الأسلوب هنا انتزاع بذور الشك ، من أعماق أولئك القوم الذين يظنون أن للرسول ﷺ قدرة في جلب نفع ، أو دفع ضرر ، فجاء هذا التسليم التام لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، مؤكداً أشد تأكيد وأثبتته على لسان الرسول ﷺ^(٣) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «... وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) »^(٤) .

جاء القصر هنا بإن النافية - وإلا - وهو قصر الموصوف وهو البعث . على الصفة وهي السحر وهو قصر حقيقي تحقيقي بالنسبة لاعتقاد هؤلاء المنكرين للبعث .

وقد جاء الظن الكاذب على سبيل القطع والتأكيد ، حتى كأن لهم عليه برهاناً مبيناً ، أو حجة بالغة^(٥) .

(١) الكشف ٣٥٠/٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ، م ٢٠٤/ج ١٥١ .

(٣) من بلاغة القرآن ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٤) سورة هود آية ٧ .

(٥) التفسير القرآني للقرآن ١٠٠٨/١٢ .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٤٠) (١).

جاء أسلوب القصر في هذه الآية بإنما والتي اختصت من بين أدوات القصر بـميزات عدة ، أحسنها ما يقصد به التعريض ، وهو أن يستعمل الكلام في معنى ليلوح بغيره ، أي ليفهم منه معنى آخر لا ظاهره (٢).

وأفادت هنا قصر وقوع التكوين على صدور الأمر به ، وهو قصر قلب ، لإبطال اعتقاد المشركين بأن الله ليس بقادر على البعث (٣).

كما أن جمال التعريض يتجلى في هذه الآية حيث أن فيه تعريضاً بقدرة الله على البعث وسهولة أمره ، كما يسهل نطق كلمة (كن) عليه جلّت قدرته فسهل بها كل شيء لقدرته ، وعظمته .

يقول « أبو السعود » في التعبير بهذه الآية : « وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ، ما يحار فيه العقول ، والألباب » (٤).

ومنه ما جاء أيضاً في قوله تعالى : «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» (٥٢) (٥).

جاء أسلوب القصر بالنفي ، والاستثناء ، وهو قصر الموصوف وهو مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم ، على الصفة وهي القلة ، وهو قصر حقيقي تحقيقي ، إذ أنه تعبير

(١) سورة النحل آية ٤٠ .

(٢) مواهب الفتاح ٢٢٣/٢ .

(٣) التحرير ، ١٥٦/١٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم م ٣/ج ١١٥/٥ .

(٥) سورة الإسراء آية ٥٢ .

صديق لحقيقة شعورهم في ذلك اليوم ، بدليل قوله تعالى عند سؤال المجرمين كم لبثوا في قبورهم ، أو في دنياهم فيقولون : « لبثنا يوماً أو بعض يوم » وذلك ظنهم أنهم ما لبثوا سوى أمد يسير ^(١).

وجاء كلامهم بأسلوب القصر هنا ؛ لبيان مدى تمكن هذه الحقيقة من نفوسهم ، فهم لا يعتقدون سواها .

ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا عَتِزْتُمْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا » ^(١٦) ، ^(٢).

وقع أسلوب القصر هنا بما وإلا . وقد اختلف أهل التفسير في نوع الاستثناء هل هو متصل أم منقطع ؟

فمنهم من قال : الاستثناء متصل ، على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ، ومنقطع على تقدير تحضهم في عبادة الأوثان ^(٣).

وقيل : عطف على الضمير المنصوب أي ، وإذا اعتزلتم القوم ، ومعبوديهم إلا الله ، فإنهم كانوا يعبدون الله ، ويعبدون الأصنام كسائر المشركين . وقيل : يجوز أن تكون - ما - مصدرية على تقدير وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله ^(٤) .

وقيل : الاستثناء متصل لا منقطع بناء على تخصيصهم العبادة بغير الله كما يشعر به قوله (من دون الله) لتأويله . وقد جوزه في الكشف . وعلى المصدرية يقدر فيه

(١) من بلاغة القرآن ص ١٥٩ .

(٢) سورة الكهف آية ١٦ .

(٣) الكشف ، ٢٠٧/٢ روح المعاني ٢٢٠/١٥ - إرشاد العقل السليم ، م ٣/ج ٥/٢١١ .

(٤) أنوار التنزيل ، ٨١/٦ .

مضاف ليكون من جنس المستثنى منه (١) .

وأرى - والله أعلم - أن الاستثناء هنا منقطع ؛ لأن المعنى ، كما أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ، عن عطاء الخراساني في قوله « وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » قال : كان قوم الفتية يعبدون الله ويعبدون معه آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله (٢) .

وقيل : الاستثناء متصل ، ويكون « يعبدون » للحال مستمرة ، وهو كذلك ، فليس المراد مطلق العبادة ، والحال المستمرة يتدرج فيها الاستقبال ، ولم يقطع بأن قومه لن يعبدوا الله في المستقبل ، فاستثناؤه حسن على هذا ولا يُنكر عليه ، وإما أن تكون « إلا » بمعنى سوى (٣) .

وهو من قصر الصفة ، وهي العبادة على الموصوف وهو الله . وهو قصر حقيقي تحقيقي . وقد جاء التعبير بهذا الأسلوب لتأكيد انحصار عبادة هؤلاء الفتية على الله وحده ، وذلك سبب اعتزالهم لقومهم ، فقد كان قومهم يشركون بالله ، وحتى لا يظن السامع أن هؤلاء الفتية قد ساروا على منهج قومهم ، جاء أسلوب القصر هنا ، حتى يزيل بذور الشك من نفوس السامعين .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٤) .

(١) حاشية الشهاب، ٨١/٦ .

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ٣٧١/٥م - ١٦ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م دار الفكر لبنان - بيروت .

(٣) فوائد في مشكل القرآن، عز الدين بن عبد السلام. ص ١٧٠، ١٧١ - تحقيق د . سيد رضوان علي ط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م . دار الشروق - المملكة العربية السعودية - جدة .

(٤) سورة الحج، آية ٦ .

جاء أسلوب القصر هنا بضمير الفصل « المفيد لتأكيد الحصر المستفاد من تعريف الجزأين ^(١) في قوله « اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ » ، والحق ، بمعنى المتحقق ، وإنما قال في نفسه بمعنى أنه واجب الوجود لا يستند إلى شيء ، بل جميع الأشياء مستندة إليه ، « لأن ضمير الفصل يفيد الحصر » ^(٢) وفائدة ضمير الفصل ، إفادة اختصاص ، المسند إليه بالمسند ، كما أن فائدة الحصر غير منحصرة في التخصيص ، بل يفيد أيضاً التأكيد ^(٣) كما يجوز أن يكون طريق القصر في الآية الكريمة مستفاد من تعريف المسند (الحق) بأل الجنسية ، وعلى ذلك يكون ضمير الفصل (هو) لتأكيد القصر .

وعلى كلا الوجهين فالمراد التأكيد على أن الله هو الحق الذي لا شك فيه ، وأن من سواه مما يعبد هؤلاء من الأوثان والأصنام باطل ^(٤) .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ^(٥) .

جاء القصر هنا بتقديم ما حقه التأخير ، حيث قدم الجار والمجرور (إليه) على معموله (تحشرون) ، وهو قصر الصفة ، وهي الحشر ، على الموصوف وهو الله . وهو قصر حقيقي تحقيقي .

وقد أفاد القصر هنا ، تأكيد حقيقة البعث تأكيداً لا مجال للشك فيه ، وذلك لأن الخطاب مع المنكرين ، فلزم إثبات ما ينكرونه .

(١) مواهب الفتاح ٢/٢٢٢ .

(٢) حاشية الشهاب ٦/٢٨٤ .

(٣) عروس الأفراح ١/٣٨٦ .

(٤) جامع البيان ٩م/ج ١٧/٢ .

(٥) سورة المؤمنون آية ٧٩ .

منه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٨٣) (١).

وقع القصر هنا بالنفي ، والاستثناء (إن إلا) ، وهو من قصر الموصوف وهو البعث ، على الصفة وهي الأساطير .

وقد ذهب صاحب (التحرير) إلى أنه من القصر الإضافي ، لأنه لا يعدو كونه من الأساطير إلى كونه واقعاً كما زعم المدعون (٢).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » (١١٥) (٣) جاء القصر هنا يائماً ، وإلتما مزيد اختصاص على غيرها من أدوات القصر، إذ أنه يقصد بالخبر بعدها إعلام السامع أمراً قد غلط فيه بالحقيقة واحتاج إلى معرفته (٤) .

فقد وردت الآية الكريمة بعد جدال عنيف في موقف القيامة مع منكري البعث ، لذا فهي تريد إعلامهم بغلط ما هم عليه في الدنيا من اعتقاد عدم بعثهم بعد الموت ، والمعنى لم نخلقكم تلهياً بكم ، وإنما خلقناكم لتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم (٥).

ومن خصائص إيما جمال التعريض إذ يقول « الجرجاني » في ذلك : « ثم أعلم أنك إذا استقرتته وجدتها أقوى ما تكون ، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه » (٦) ففي التعبير بها

(١) سورة المؤمنون آية ٨٣.

(٢) ١٠٨/١٨.

(٣) سورة المؤمنون آية ١١٥.

(٤) دلائل الإعجاز ص ٢٦٩.

(٥) أنوار التنزيل ١١٣/٢.

(٦) دلائل الإعجاز، ص ٢٧٢.

وسيلة مؤدبة للتأثير ، والوصول إلى الغرض المقصود من غير أن تذكر الطرف الآخر^(١) ، فالغرض الآخر الذي تقصد إليه الآية ؛ هو أن البعث كائن لا محالة ؛ ليجزي الله كل إنسان على قدر عمله من خير أو شر .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيَّحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» (٥٣) ^(٢).

القصر هنا جاء بالنفي والاستثناء ، وهو من قصر الموصوف وهو البعث ، على الصفة وهي الصيحة .

وهو قصر حقيقي تحقيقي بحسب الواقع والحقيقة .

وقد جاء القصر بهذا الأسلوب ؛ لأنه من أقوى أساليب القصر والكلام يلقي فيه إلى المنكر ؛ لذا وجب الإتيان به مؤكداً في أقوى صورة وأتمها ؛ للدلالة على حقيقة البعث ، وسهولة أمره بالنسبة للخالق عز وجل .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» (٣٥) ^(٣). القصر هنا بالنفي والاستثناء أي ما هي إلا مorte واحدة لا حياة بعدها^(٤). وهو استثناء منقطع^(٥) فالموتة هي المحصورة ، والمحصورة عليه الموتة الأولى^(٦).

(١) بلاغة القرآن، ص ١٦٠.

(٢) سورة يس، آية ٥٣.

(٣) سورة الدخان، آية ٣٥.

(٤) التفسير القرآني م٧/ج٢٥/٢٠٥.

(٥) الدر اللقيط من البحر المحيط، لتاج الدين الحنفي (هامش البحر المحيط، ٣٧/٨).

(٦) البحر المحيط، ٣٨/٨.

وهو قصر حقيقي في اعتقادهم ؛ لأنهم لا يؤمنون بحياة بعد الموت ^(١) ؛ لذا لزم الأمر الإتيان باعتقادهم بهذا الأسلوب ؛ لبيان مدى يقينهم مما يقولون .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (٢٤) ، ^(٢) .

الآية احتوت على أسلوبين للقصر لمعنيين مختلفين ، وقد تناولت الأول في آية سابقة . أما الثاني فقد وقع فيه القصر « بما - وإلا » ، وهو من قصر الصفة وهي البلى والإهلاك على الموصوف وهو الدهر .

وهو قصر إضافي حسب اعتقادهم الفاسد ، وذلك أنهم كانوا يضيفون إلى الدهر كل حادثة تحدث ، وهذا ظنهم الذين يظنون ونرى أشعارهم مليئة بشكوى الزمان ^(٣) .

وقد جاء هذا الاعتقاد بأسلوب القصر ؛ لإيضاح مدى تمكنه من نفوسهم ، وعدم إيمانهم بسواه ، وإنكارهم قدرة الله - سبحانه - على البعث بعد الموت .

ومن القصر كذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)» ^(٤) .

وقع القصر في هذه الآية بتقديم ما حقه التأخير ، حيث قدم الخبر (كذلك) على

(١) التحرير ٣٠٧/٢٥ ، ٣٠٨ .

(٢) سورة الجاثية ، آية ٢٤ .

(٣) الكشف ، ٢٩١/٤ .

(٤) سورة ق آية ٩ - ١١ .

المبتدأ (الخروج) ، وذلك لقصد القصر ، للإشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء^(١) والمعنى : ما الخروج إلا كذلك ، أو خروجهم من قبورهم مثل ما تقدم من عجائب خلق السماء وما بعدها^(٢) وهو من قصر الصفة وهي المذكورة في الآيات من صفة إحياء الأرض بنزول المطر على الموصوف وهو البعث .

وقد أفاد أسلوب القصر هنا ، بيان حقيقة البعث ، والنشور ، وإثبات قدرة الله على ذلك ، وأن القادر على إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج الزروع ، والثمار منها ، لا يعجزه أمر البعث .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ »^(٣) ، وقع القصر هنا (وإنما) وهو من قصر الموصوف وهو البعث ، على الصفة وهي الزجرة الواحدة وهو قصر حقيقي تحقيقي .

والمراد منه تأكيد الخبر بتنزيل السامع منزلة من يعتقد أن زجرة واحدة غير كافية لإحيائهم^(٤).

ومن خصائص التعبير بها ، كما يقول « الجرجاني » : « إنها قد تدور في الشيء على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ، ويدعى أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع^(٥) .

فعلى الرغم من أن هذه الآية ، قد جاءت في معرض جدل القرآن مع منكري البعث ، الذين ينكرونه أشد الإنكار ، إلا أن وصف أمر البعث قد جاء « وإنما » التي

(١) روح المعاني ١٧٧/٢٦ - إرشاد العقل السليم ٤م/ج ٨/١٢٧ .

(٢) حاشية الصاوي ١٧٧/٤ .

(٣) سورة النازعات آية ١٣ .

(٤) التحرير ٧٢/٣٠ .

(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٧٤ .

يكون التعبير بها في الكلام الملقى إلى غير المنكر ، إلا أنها جاءت هنا لقصد التعريض بأمر البعث وبأنه من الصحة ، والوقوع بما لا يدع مجالاً للشك ، أو الإنكار .

وهكذا نجد أسلوب القصر في آيات القرآن الكريم ، تضيء عليه حسناً ، وجمالاً ، لما له من الدلالة الدقيقة ، والمعاني الفريدة بالإضافة إلى أنه لون من ألوان الإيجاز^(١) ، إذ أن الكلام الذي تحتاج فيه إلى الإطناب لإيضاح المراد منه ، يأتي به القرآن الكريم غاية في الروعة ، وعلو الفصاحة بأوجز أسلوب وأبينه .

١٠ - التقديم والتأخير :

وهو من أبواب البلاغة التي تجلّى فيها إعجاز القرآن ، وعظمته ، وبيانه ؛ فالتقديم ، أو التأخير الذي يقع في آيات القرآن الكريم إنما يكون لمغزى عظيم ، حرصت الآيات على إبرازه عن هذا الطريق ، وذلك حتى تصبح الآية بتكوينها هذا تابعة لمنهج نفسي يتقدم عندها ما تجدد النفس تقديمه ، ويتأخر عندما تجدد تأخيرها^(٢).

يقول « عبد القاهر الجرجاني » في هذا الفن « هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويغض بك إلى لطيفه^(٣) .

ويقول « ابن الأثير » وهذا باب طويل عريض ، يشتمل على أسرار دقيقة^(٤) .

ومما ورد في آيات البعث من هذا الفن نذكر ما يلي :

قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ... إلى آخر

(١) من بلاغة النظم العربي ٩/٢ .

(٢) انظر من بلاغة القرآن ص ١١٢ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٨٣ .

(٤) الملل السائر ٢/٢١٠ .

الآيات» (١) تقدم فيه الموت على الحياة فالقياس بتقديم المكان على الزمان ، ولكن قدم هنا الزمان ، لأن الزمان قسمان : تحقيقي ، وتقديرى . والمذكور هنا من التقديرى ، ويمكن فيه وجه آخر : منها أن فيه قهراً للخلق ، والمقام يقتضيه ، ومنها أن حياة الإنسان كلا محياه ومآله إلى الموت ، ولا حياة إلا بعد الموت ، ومنها أن الموت تقدم في الوجود ، وإذا الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتاً لعدم الروح ، وهذا إن أريد بالموت عدم الوجود ، بدليل : « وكنتم أمواتاً فأحياكم » وإن أريد به بعد الوجود ، فالناس متنازعون في الموت هل هو أمر وجودي كالحياة أولاً ؟

وقيل : بالوقف ، فقالت الفلاسفة ، الموت عدم الحياة مما شأنه أن يكون حياً ، والجمهور على أنه أمر وجودي يضاد الحياة ، محتجين بقوله : « الذي خلق الموت والحياة » والحديث في الإنثان بصورة كبش وذبحه (٢) وأجيب عن الآية بأن الخلق بمعنى التقدير ، ولا يجب في المقدر أن يكون وجودياً ، وعن الثانى : بأن ذلك على طريق التمثيل ؛ لبيان انقطاع الموت ، وثبوت الخلود ، فإن قلنا عدمى ، فالتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكة ، وعلى الصحيح تقابل التضاد ، وعلى القول بأنه وجودى يجب أن يقال : تقديم الموت الذى هو عدم الوجود ؛ لكونه سابقاً أو معدوم الحياة ، الذى هو مفارقة الروح البدنى يجوز أن يكون ؛ لكونه الغاية التى يساق إليها فى دار الدنيا ؛ فهى العلة الغائبة بعدم تحقيقها ، لتحقيقه ذكر المحقق أن الكلام غير

(١) سورة البقرة، آية ٢٨ .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ يؤتى بالموت كهيفة كبش أملح فينادى منادياً يا أهل الجنة ، فيشرئبون ، وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ، ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، رواه البخارى ، وأحمد فى مسنده ، ٣٧٧/٢ والترمذى فى سننه ٧٦/٤ .

واضح في الأصل فخص العلة العامة ، كما وقع تأكيده في قوله : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » أو تزهيداً في الدار الفانية ، وترغيباً في ما بعد الموت ^(١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ... » ^(٢).

تقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسره ، واللام للتعليل ، والانتفاع ، أي خلق لأجلكم جميع ما في الأرض ؛ لتنتفعوا به في أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة ، وفي أمور دينكم بالاستدلال والاعتبار ^(٣).

ومنه قوله تعالى : « ... يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ ... » ^(٤).

تقديم المفعول على الفاعل ، للاعتناء به من حيث أن الاستبعاد ناشئ من جهته لا من جهة الفاعل ^(٥).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ... » ^(٦).

« عجب » خبر مقدم « قولهم » مبتدأ مؤخر . وقدم الخبر للقصر ، والتسجيل من أول الأمر يكون قولهم أمراً عجيباً ^(٧).

ومنه قوله تعالى : « ... أَتُنَا لَفِي خَلْقٍ ... » ^(٨).

(١) البرهان - الزركشي - ٢٤٣/٣ ، ٢٤٤ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٩ .

(٣) روح المعاني ٢١٥/١ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٩ .

(٥) روح المعاني ٢١/٣ فتح القدير ٢٧٩/١ .

(٦) سورة الرعد ، آية : ٥ .

(٧) روح المعاني ١٠٤/١٣ .

(٨) سورة الرعد آية : ٥ .

تقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له ^(١).

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » ^(٢) قدم « مِنْ لَدُنْكَ » على « رَحْمَةً » على تقدير تعلقه بآتنا ، وتقديم المجرور الأول على الثاني ؛ للإيذان من أول الأمر بكون المسئول مرغوباً فيه لديهم .

وأيضاً تقديم المجرورين « لَنَا مِنْ » على المفعول الصريح ؛ لأظهار الاعتناء بهما ، وإبراز الرغبة في المؤخر ^(٣).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « ... وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا » ^(٤).

تقديم « لكم » لكون المؤخر من منافعهم ، والتشويق إلى وروده ^(٥).

ومنه قوله تعالى : « يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ » ^(٦).

تقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة ، لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي إلى الله ^(٧).

ومنه قوله تعالى : « ... أَتُنذِرَ مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » ^(٨).

قدم الظرف ؛ لأنه محل الإنكار ، والأصل في المنكر أن يلي الهمزة ^(٩).

(١) روح المعاني ١٣/١٠٤.

(٢) سورة الكهف، آية: ١٠.

(٣) روح المعاني ١٥/٢١١.

(٤) سورة الكهف آية: ١٦.

(٥) روح المعاني ١٥/٢٢١.

(٦) سورة الكهف آية: ٢٠.

(٧) روح المعاني ١٥/٢٢١.

(٨) سورة مريم آية: ٦٦.

(٩) حاشية الشهاب ٦/١٧٢.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ »^(١) تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر^(٢) .
ومنه قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ... »^(٣) .

« من » ابتدائية متعلقة « بأنزلنا » وتقديمها على المفعول الصريح للاعتناء بالمقام ، والتشويق إلى المؤخر^(٤) وأيضاً قوله « على ذهاب به لقادرون » أي لقادرون على إذهابه ، وإزالته ، وهو متعلق بقادرون قدم عليه رعاية للفاصلة^(٥) .

وأرى أن تقديم متعلق بقادرون عليه ، ليس فقط لرعاية الفاصلة ، وإنما لفائدة أخرى ، حيث قدم ذكر المهم ، وهو الماء الذي يشير إليه الجار والمجرور . وفي تقديمه أبلغ تهديد ، ووعيد على الذهاب به وللاهتمام به قدم .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا »^(٦) .

قدم الموت على الحياة في الحكاية عن منكري البعث ، لأجل مناسبة رؤوس الآي^(٧) وقيل تقديم فعل نموت على نحيا للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم بصدد

(١) سورة الحج آية: ٦٥ .

(٢) روح المعاني ١٧/١٩٣ .

(٣) سورة المؤمنون آية: ١٨ .

(٤) الفتوحات الإلهية ١٨٦/٣ ، روح المعاني ١٨/١٨ .

(٥) الفتوحات الإلهية ١٨٦/٣ ، وانظر البحر المحيط، ٦/٤٠٠ .

(٦) سورة المؤمنون آية: ٣٧ .

(٧) البرهان للزركشي، ٣/٢٤٤ .

تقرير أن الموت لا حياة بعده ، ويتبع ذلك الاهتمام طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ، ثم بين نموت ونحيا ، وحصلت الفاصلة تبعاً ، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز (١) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ... » (٢) .

قدم « هذا » على « نحن وآباؤنا » وفي سورة المؤمنين « لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ... » (٣) قدم « نحن وآباؤنا » على « هذا » وما قبل الأولى : « إذا كنا تراباً وآباؤنا » ، وما قبل الثانية : « أَتَذْكُرْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً » . فالجهة المنظور فيها هناك كون أنفسهم وآبائهم تراباً ، والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً ، ولا شبهة في أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد البعث (٤) .

وقيل : « لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ... » ، « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ... » . لما كان الأول في حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها ، متصلة بها ، وهي « بل قالوا مثل ما قال الأولون » فهذان فعلان تعلق بهما هذا المحكى ، وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلاً له غير منفصل عنه ، ثم بعده « قالوا إذا متنا » فكل هذه الأفعال قصد بها حكاية ما جاء بعدها ، فلما قال : « لقد وعدنا » وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل ، وهو تركيذه والعطف عليه فقدم « نحن وآباؤنا » على المفعول الثاني وهو « هذا » ولذلك ؛ ولأن الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره .

أما الآية الثانية من سورة النمل « فإن الذي تقدمها » وقال الذين كفروا إذا كنا

(١) التحرير ٣٦٢/٢٥ .

(٢) سورة النمل، آية ٦٨ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٨٣ .

(٤) البرهان للزركشي ٢٨٤/٣ .

تراباً وآباؤنا فأخر المعطوف على اسم كان الذي هو كالفاعل لها وهو قوله : « وآباؤنا » عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها وهو وقوله : « تراباً » فصار ما هو كالمفعول مقدماً على ما هو معطوف على الفاعل ، مقدماً على ما هو معطوف على الفاعل ، فاقترضى البناء عليه تقديم المفعول ، ثم العطف على الفاعل المضمر ، فجاء « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل لذلك » (١).

وقيل هذا التقديم أيضاً ، دليل على أن المعنى بالذكر هو المقدم ، وأن الكلام إنما سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دليل على أن إبعاد البعث هو الذي قصد بالكلام ، وفي الأخرى دليل على أن إبعاد المبعوث بذلك الصدد (٢).
ومن ذلك القبيل ما جاء في قوله تعالى : « يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ... » (٣).

قدم التعذيب في الذكر على الرحمة ، مع أن رحمته سابقة ، لأن السابق ذكر الكفار ، فذكر العذاب أولاً لسبق ذكر مستحقه (٤).
ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » (٥) هذه الآية تعد من السبق ، وهو من أنواع التقديم والتأخير ، حيث قدم ذكر المساء ، على ذكر الصباح ، لسبقه إياه (٦).

(١) درة التنزيل ، ص ٣١٧ ، ص ٣١٨.

(٢) الفتوحات الإلهية ، ٣/٣٢٥.

(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢١.

(٤) الفتوحات الإلهية ، ٣/٣٧٢.

(٥) سورة الروم آية ١٧.

(٦) انظر البرهان للزركشي ٣/٢٤٠.

ومنه قوله تعالى : «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ...» (١) . قدم ذكر الحي على ذكر الميت ، لشرف الحياة (٢) .

ومن ذلك في قوله تعالى : «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ...» (٣) .

تقديم العذاب على ما يوجبه ، ويستتبعه ؛ للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم ، وبفت في أعضادهم والإشعار بغاية سرعة ترتبه عليه ، كأنه يسابقه فيسبقه (٤) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ..» (٥) قدم الجار والمجرور في «لهم نار جهنم» على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن (٦) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «وَأَيُّ لَهِمُ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ» (٧) .

آية: خبر مقدم للاهتمام (٨) . وأيضاً قوله «فمنه يأكلون» بتقديم الظرف ؛ للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان ، وإذا قل جاء القحط ، ووقع الضر ، وإذا فقد جاء الهلاك ، ونزل البلاء (٩) .

(١) سورة الروم آية: ١٩ .

(٢) البرهان للزركشي، ٢٥٣/٣ .

(٣) سورة سبأ آية: ٨ .

(٤) روح المعاني ١١١/٢٢ .

(٥) سورة فاطر آية: ٣٦ .

(٦) التحرير ١١٧/٢ .

(٧) سورة يس، آية: ٣٣ .

(٨) روح المعاني، ٦/٢٣ .

(٩) الكشف، ١٥/٤ .

وقيل : قدم لما في ذلك من إيهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره ^(١).
ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ
عَلَيْنَا يَسِيرٌ» (٤٤) ^(٢).

تقديم الظرف يدل على الاختصاص ^(٣) أي لتخصيص اليسر به - عز وجل - ^(٤).
ومنه قوله تعالى : «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ» (٤٩) ^(٥).

تقديم «الأولين» للمبالغة في الرد حيث ؛ كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من
إنكارهم لبعثهم ، مع مراعاة الترتيب الوجودي ^(٦).

ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا» (١٥) وجعل القمر
فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ^(٧) «(١٦)» ^(٧).

تقديم ذكر القمر على ذكر الشمس ، يحتمل وجهين : مناسبة رؤوس الآي ، أو
أن انتفاع أهل السموات به أكثر . قال «ابن الأنباري» : يقال : إن القمر وجهه
يضيء أهل السماء ، وظهرها إلى الأرض ، ولهذا قال تعالى : «فيهن» لما كان أكثر
نوره يضيء إلى أهل السماء ^(٨).

(١) روح المعاني ٧/٢٣.

(٢) سورة ق آية: ٤٤.

(٣) الكشف، ٣٩٣/٤.

(٤) روح المعاني ١٩٥/٢٦.

(٥) سورة الواقعة آية: ٤٩.

(٦) روح المعاني، ١٤٥/٢٧.

(٧) سورة نوح آية: ١٥ - ١٦.

(٨) البرهان للزركشي ، ٢٥٣/٣.

ومنه قوله تعالى : «مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» (٣٢) ، (١) .

قدم ذكر الناس على ذكر الأنعام ، وذلك لشرف العقل (٢) .

وهذا قليل من كثير مما ورد من هذا الفن في آيات البعث ، وتجلت فيه فصاحة القرآن الكريم وبيانه ، وروعة جلاله ، تقلب في آية النظر فيزيدك إيماناً بضعفك وبقيناً بإعجازه .

١١ - خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر :

١ - الإظهار والإضمار

قد يوضع المضمر موضع المظهر لأسباب بلاغية ، كما قد يوضع المظهر موضع المضمر لنكتة بيانية يرمي إليها المتحدث .

يقول الزركشي : « واعلم أن الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة ، وأصل المحدث عنه كذلك » (٣) .

ولكن قد يخرج الكلام على خلاف الأصل لأهداف وغايات ، لا تتحقق إلا بجريان الكلام على ذلك المتوال .

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ» (٤) .

وضع الظاهر وهو قوله « الناس » الثانية ، موضع الضمير ، وذلك لنكتة لطيفة

(١) سورة النازعات آية: ٣٣ .

(٢) البرهان للزركشي ٢٥٣/٣ .

(٣) البرهان للزركشي ٤٨٤/٢ .

(٤) سورة البقرة آية: ٢٤٣ .

وهي لمزيد التشنيع^(١)، وقيل : وضع الظاهر موضع المضمّر لزيادة التقدير^(٢).

ومنه ما ورد في قوله تعالى : «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٥٥)» (٣).

وضع الظاهر وهو قوله «اللَّهُ» موضع المضمّر، وكان القياس أن يضع المضمّر؛ أنه قد سبق إظهار الاسم، ولكن أعيد إظهاره هنا؛ وذلك لتفخيم شأن الوعد، والإشعار بعله الحكم^(٤).

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجْلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً» (٩٩)» (٥).

وضع الظاهر وهو قوله «الظَّالِمُونَ» موضع المضمّر، كما سبق وإن أشار إليهم في الآيات السابقة، ولكنه أظهر الاسم هنا؛ تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد بالمرّة^(٦).

ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» (٩) إذ أوى الفتية إلى الكهف... إلى آخر الآيات» (٧).

(١) روح المعاني ١٦١/١٢.

(٢) البرهان للزركشي ٤٨٨/٢.

(٣) سورة يونس آية: ٥٥.

(٤) روح المعاني ١٣٨/١١.

(٥) سورة الإسراء آية: ٩٩.

(٦) روح المعاني ١٨٠/١٥.

(٧) سورة الكهف، آية: ٩، ١٠.

قوله « فتية » إظهار في مقام الإضمار ؛ للتنصيص على وصفهم ، وسنهم ، فكانوا في سن الشباب ^(١).

ومنه قوله تعالى : « لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا » ^(٢) (٣٨).

فأعاد ذكر « الرب » لما فيه من التعظيم ، والهضم للخصم ^(٣).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » ^(٤) (٦٦) « أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » ^(٥) (٦٧).

أظهر ذكر « الإنسان » مرة أخرى ، وذلك لزيادة التقدير ، والإشعار بأن الإنسانية من دواعي التفكير فيما جرى عليه من شئون التكوين المانعة عن القول المذكور ، وهو السر ^(٥).

ومن الإضمار ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » ^(٦) (٣٧) أصله « إن الحياة ثم وضع « هي » موضع الحياة ؛ لأن الخبر يدل عليها ويبينها ^(٧) ، وحذراً عن التكرير ، واشعاراً بأن تعينها مغن عن التصريح بها ^(٨).

(١) الفتوحات الإلهية، ٦/٣.

(٢) سورة الكهف، آية: ٣٨.

(٣) البرهان، الزركشي ٤٨٥/٢.

(٤) سورة مريم، آية: ٦٦، ٦٧.

(٥) روح المعاني ١٦/١١٧، ١٨.

(٦) سورة المؤمنون آية: ٣٧.

(٧) الكشاف ١٨٧/١ - وانظر روح المعاني ١٨/٧٢.

(٨) أنوار التنزيل، ١٠٤/٢.

ومن الإظهار ما جاء في قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فُبعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٤١) (١) .

وضع الظاهر وهو قوله « لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » موضع الضمير ، إيذاناً بأن إبعادهم لظلمهم (٢) ، وقيل للتعليل (٣) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) (٤) .

أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال : « كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ » وأضمره عند الإعادة ، لأنه لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال : « يُبْدِئُ اللَّهُ » ، ثم قال : « ثُمَّ يُعِيدُهُ » (٥) .

وقيل : لم يقل : ثم الله يعيده ، لوجهين :

« أحدهما : أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو في قوله « كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ » ، ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق .

وثانيهما : أن الدليل ههنا تم على جواز الإعادة ؛ لأن الدلائل منحصرة في الآفاق ، وفي الأنفس كما قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٤١ .

(٢) روح المعاني ٣٤/١٨ .

(٣) أنوار التنزيل ١٠٥/٢ .

(٤) سورة العنكبوت آية : ١٩ ، ٢٠ .

(٥) الفتوحات الإلهية ٣٧٢/٢ - بتصرف .

أَنْفُسِهِمْ» (٥٣)» (١)، وفي هذه الآية أشار إلى الدليل النفسي الحاصل لهذا الإنسان من نفسه ، وفي الآية التي تليها أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله « قل سيروا في الأرض » وعندهما تم الدليلان ، فأكدته في الثانية بإظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكدته بالدليل الثاني (٢) ثم أبرز اسمه مرة أخرى في قوله : « إن ذلك على الله يسير » ولم يقل : إن ذلك عليه يسير كما قال : ثم يعيده من غير إبراز ، نقول : مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكدته بإظهار اسمه فإنه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر ، بقدرة كاملة ، لا يعجزه شيء ، العالم بعلم ، محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لا راد لما أَراده ، يقطع بجواز الإعادة (٣) .

وقيل : وضع الظاهر موضع المضمر ، لتعظيم الأمر (٤) .

ثم قال : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » (٥) .

يقول «الزمخشري» الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة ، وفيها كانت تصطك الركب ، فلما قرره في الإبداء بأنه من الله ، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء قبل الإبداء ، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء ، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي

(١) سورة فصلت، آية ٥٣.

(٢) التفسير الكبير، م١٣/ج٢٥/٤٨.

(٣) التفسير الكبير م١٣/ج٢٥/٤٦.

(٤) البرهان - الزركشي ٤٩١/٢ ، وانظر عروس الأفراح ٤٦٠/١.

(٥) سورة العنكبوت آية ٢٠.

ينشئ النشأة الآخرة؛ فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه ، وأوقعه مبتدأ^(١)، وللمبالغة في الأمر المظهر وإظهار الفخامة فيه^(٢).

وقيل الإفصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة، بعد إضماره في البداءة أولاً ، لأن النشأة الآخرة هي المقصودة ، فكانت خليفة بإبراز اسمه تعالى ، تحقيقاً لنسبة الإعادة إلى من نسبت إليه الأولى . قال « أحمد » : والأصل الإظهار ثم الإضمار ، ويليهِ لقصد التفخيم الإظهار بعد الإظهار ويليهِ وهو أفخم الثلاثة الإظهار بعد الإضمار كما في الآية^(٣).

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »^(٤) . وضع الظاهر وهو قوله « المجرمون » موضع ضميرهم ، للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع والإشعار بعلّة الحكم^(٥) .

ومنه قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ »^(٦) .

وضع الظاهر موضع المضمّر إزالة للبس، حيث يكون الضمير يوهّم أنه غير المراد. وتبيّنه : الأول : النطفة أو التراب، والثاني : الوجود في الجنين أو الطفل ، والثالث : الذي بعد الشيخوخة وهو أرذل العمر، والقوة الأولى التي تجعل للطفل التحرك

(١) الكشف ٤٩٩/٣ - وانظر الفتوحات الإلهية ٣٧٣/٣ التفسير الكبير م١٣/ج٢٥/٤٧.

(٢) الطراز، ١٤٨/٢.

(٣) هامش الكشف، ٤٤٩/٣ - وانظر حاشية الشهاب، ٩٧/٧.

(٤) سورة الروم، آية ١٢.

(٥) روح المعاني ٢٥/٢١.

(٦) سورة الروم آية: ٥٤.

والاهتداء للثدي ، والثانية بعد البلوغ ، قاله « ابن الحاجب » ويؤيد الغيرية التنكير^(١) ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) »^(٢).

وضع الظاهر وهو قوله « الذين لا يؤمنون » موضع الضمير ، وذلك توييحاً لهم ، وإيماء إلى سبب الحكم بما بعده^(٣).

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) »^(٤).

إضمارهم أولاً للإشعار بتعيينهم بما أسند إليهم^(٥)، وقيل : إضمارهم أولاً بياناً لعنادهم ، لإنكارهم ، وتعجبهم مما لا ينكر^(٦).

وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه ، أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة ، ووضع الظاهر موضع المضمر ، إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم ، وإما للإيذان بأن تعجبهم من البعث ؛ لدلالته على استقصارهم لقدرة الله – سبحانه – عنه مع معانيثهم لقدرته – عز وجل – على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة أشنع من الأول ، وأغرق في كونه كفراً^(٧).

(١) البرهان – الزركشي ٤٨٩/٢ .

(٢) سورة سبأ، آية ٨ .

(٣) روح المعاني، ١١١/٢٢، وانظر حاشية الشهاب، ١٩٢/٧ .

(٤) سورة ق، آية ٢ .

(٥) روح المعاني ١٧٢/٢٦، أنوار التنزيل ٤٢٠/٢ .

(٦) حاشية الشهاب، ٨٤/٨ .

(٧) روح المعاني، ١٧٢/٢٦، وانظر أنوار التنزيل، ٤٢٠/٢ .

وقيل : وضع « الكافرون » موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم^(١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) »^(٢).

أعاد المظهر وهو قوله (الإنسان) وفي إعادته ثانياً ما لا يخفى من التهديد ، والنعي على قبيح ما ارتكبه وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة^(٣).

٢ - الالتفات :

ويعد من أروع أنواع البلاغة ، وألطفها ، وهو من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر^(٤).

ويقول عنه صاحب (الطراز) : « واعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة ، وهو أمير جنودها والواسطة في قلائدها ، وعقودها »^(٥).

وحين نزل القرآن الكريم ، كانت العرب في أوج فصاحتها ، ومنتهى بلاغتها ، وكان « العرب يستكثرون منه ، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن نظرية^(٦) لنشاطه ، واملأه باستدرار إصغائه »^(٧).

(١) الكشف، ٣٨٠/٤ - وانظر الصفوة، ٢٤٨/٣ - وانظر حاشية الشهاب ٨٥/٨.

(٢) سورة القيامة، آية: ٣ - ٥.

(٣) روح المعاني ١٣٨/٢٩.

(٤) من بلاغة النظم العربي ٢٠١/١.

(٥) الطراز ١٣١/٢.

(٦) نظرية خطأ في الأصل.

(٧) مفتاح العلوم ص ١٩٩.

ويسمى هذا الفن أيضاً « بشجاعة العربية » وذلك لأن الشجاعة هي الإقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيع غيره ، ويتورد ما لا يتورده سواه ، وكذلك هذا الإلتفاف في الكلام ، فإن اللغة العربية تختص بها دون غيرها من اللغات (١).

وقد استخدمته آيات القرآن الكريم ، لإضفاء مزيد من الظلال الرائعة على حروفها وكلماتها وكل التفات في القرآن كما يقول « السكاكي » : متى صرت من سامعيه عرفك ما موقعه (٢).

وسوف أتحدث فيما يلي عن الإلتفاف على المشهور كما ورد في بعض آيات البعث ، والحق به أحد تلك الأنواع التي اصطلح عليها بعض أهل البلاغة .

فمن الآيات التي نحن بصدد الحديث عنها ما ورد فيه الالتفات قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) » (٣).

هذا الخطاب فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وذلك لأن الآية التي قبلها فيه خطاب بالغيبة « وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ

(١) المثل السائر ١٦٨/٢ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠١ .

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨ .

الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾»^(١).

ثم جاء في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتفت من أسلوب الغيبة إلى الخطاب ، وذلك لأنه لما عدد قبائحهم ، وسوء فعالهم ، وخبث نفوسهم ، أراد أن يبين مزيد سخطه ، وكامل لومه وتقريعه ، فوجه الخطاب إليهم ، وذلك أبلغ لجواز أن لا يصله الإنكار ، أما إذا كان الإنكار موجه إلى المخاطب كان ذلك أروع ، وأشد في النكايه ، واللوم والتقريع ^(٢) .

ويقول « البقاعي » في ذلك : « وما أبدع افتتاح ذلك عقب (الخاسرين) بقوله على طريق الالتفاف المغضب المستعطف المعجب (كيف) » ^(٣) .

ومن الالتفات كذلك ما جاء في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ » ^(٤) .

الالتفات في هذه الآية من الغيبة إلى الخطاب ، إذ أنه في الآية السابقة قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ » ^(٥) .

حيث وقع بأسلوب الغيبة ، قوله « ثم الذين كفروا » ثم أتى في هذه الآيات ونقل الكلام إلى أسلوب الخطاب في قوله (خلقكم) ^(٦) والنكتة في تغيير الأسلوب زيادة

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦، ٢٧.

(٢) البحر المحيط، ١٢٩/١ - روح المعاني، ٢١٢/١ - إرشاد العقل السليم، م/١ ج/١ ٧٦/١ أنوار التنزيل، ٤٧/١ - حاشية الشهاب ١١٠/٢، التحرير ٣٧٣/١.

(٣) نظم الدرر، ٢١٢/١.

(٤) سورة الأنعام آية: ٢.

(٥) سورة الأنعام آية: ١.

(٦) البحر المحيط، ٧١/٤. روح المعاني ٨٧/٧ - إرشاد العقل السليم م/٢ ج/٣ ١٠٦/١، حاشية الشهاب، ١٣/٤. التحرير ١٢٩/٧.

التشنيع والتوبيخ^(١).

وقد ذكر صاحب « حاشية الشهاب » في ذلك وجهاً آخر ؛ حيث قال : إن الخطاب وإن صح كونه عاماً لكنه خاص بالذين كفروا كما يقتضيه (ثم أنتم تمترون) ، ونكتته : أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذي في الآية السابقة ، والشكر عليه أوجب ، وقد أشير في كل من الدليلين إلى المبدأ والمعاد وما بينهما^(٢).

ومن الالتفات أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ »^(٣) .

فقد وقع الالتفات في قوله : « لقاءنا حيث عدل عن أسلوب الغيبة الذي تحدث به في الآية السابقة في قوله : « إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »^(٤) ، إلى التكلم بأسلوب العظمة^(٥) .

والنكتة في استخدام هذا الأسلوب التهويل من أمر لقاء الله^(٦) كما أن فيه من الوعيد^(٧) ما لا يخفى .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى « وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ

(١) روح المعاني ٨٧/٧ - إرشاد العقل السليم م ٢/ج ٣/١٠٦ . التحرير ١٢٩/٧ .

(٢) ١٣/٤ .

(٣) سورة يونس آية ٧ .

(٤) سورة يونس آية ٦ .

(٥) روح المعاني ٧٢/١١ - إرشاد العقل السليم م ٢/ج ٤/١٢٢ .

(٦) المرجعين السابقين .

(٧) التفسير القرآني للقرآن ، ٩٦٢/١١ .

لَهُمْ أَوْلِيَاءُ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ (١) .

وقع الالتفات في قوله « نحشرهم » وفيه التفات من الغيبة في قوله « من يهد الله » إلى التكلم بأسلوب العظمة .

والنكتة في ذلك للإيذان بكمال الاعتناء بأمر الحشر (٢)، كما أنه تكلم بأسلوب الغيبة أولاً ثم عدل عن أسلوب التكلم ؛ لإلقاء مزيد من الرعب ، والهلع في نفوس المنكرين ، حين يعلمون أن مصيرهم إلى الله .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ » (٣) .

في الآية الكريمة التفات من أسلوب التكلم إلى الغيبة في قوله « آمنوا بربهم » ، ثم عاد والتفت مرة أخرى إلى أسلوب التكلم في قوله « وزدناهم » .

والنكتة في ذلك ، حين عدل إلى أسلوب التكلم ، للإشعار بعظمة الرب ، وعليه وصف الربوبية ، لإيمانهم لما صدر عنهم من المقالة (٤)، وللإشعار بالاتجاه الصحيح للفطرة السليمة ، حين أضاف لهم اسم الرب تعالى .

كما أنه عاد والتفت مرة أخرى إلى أسلوب الغيبة « وزدناهم » وذلك عودة إلى الأسلوب السابق ، الذي سبك عليه نظم الكلام ، كما أن فيه من تعظيم رمز الزيادة

(١) سورة الإسراء، آية ٩٧ .

(٢) البحر المحيط ٤٤/٦ ، روح المعاني ١٧٥/١٥

(٣) سورة الكهف آية ١٣ .

(٤) روح المعاني ٢١٧/١٥ - إرشاد العقل السليم م٣/ج٥/٢١٠ .

من الهدى الشىء الجليل^(١) ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) » (٢) .

جرت الآيات على نسق واحد في التعبير ، إذا استخدمت أسلوب التكلم وعند ختام الآية عدل عن أسلوب التكلم إلى أسلوب الغيبة في قوله « فَتَبَارَكَ اللَّهُ » ، إذا أنه إلى اسم الله الجليل ، وقصد بذلك « تربية المهابة ، وإدخال الروعة والإشعار ، بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية ، وللايذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته – عز وجل – أو لا حظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه جل وعلا » (٣) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) » (٤) .

عدل بأسلوب الخطاب في هذه الآية من الغيبة إلى الخطاب ، إذ أن الآيات السابقة جاءت بأسلوب الغيبة « حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) » (٥) ، ثم عدل عنه إلى أسلوب الخطاب « أَنْشَأَ لَكُمْ » وإنما كانت المغايرة في الأسلوب القرآني أثناء حديثه مع المشركين في هذه الآيات ، لنكتة عظيمة .

(١) روح المعاني، ٢١٨/١٥ – إرشاد العقل السليم، م/٣ ج/٥/٢١٠ .

(٢) سورة المؤمنون، آية ١٢ – ١٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم م/٣ ج/٦/١٢٧ – روح المعاني ١٥/١٨ .

(٤) سورة المؤمنون، آية: ٧٨ .

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٧٧ .

وذلك أنه في معرض التهديد بالعذاب الشديد استخدام الغيبة وذلك أبقي على ماء وجوه المشركين ^(١) من مواجعتهم بهذا القرع ، والتهديد . وحين ذكر مواطن التفضل والامتنان استحضرهم ، وجعل الخطاب موجهاً إليهم عياناً وذلك أدعى لملامسة شغاف قلوبهم ، واستنهاض الفطرة السليمة التي ران عليها الجهل والفساد .

وكما يقول صاحب « نظم الدرر » : « التفت إلى خطابهم استعطافاً بعتابهم ؛ لأنه عند التذكير بعذابهم أقرب إلى إياهم » ^(٢).

ومنه ما جاء في قوله : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِيتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) » ^(٣) . حيث عدل عن أسلوب الغيبة المستخدم في الآيات السابقة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٦) » ^(٤) ، إلى أسلوب الخطاب في هذه الآية « إنكم » ، وذلك لاستحضار صورة الموت والبعث والتذكير بهما ، على وجه التعريض ، والتخويف ^(٥) ، كما أن فيه من التحدي ، وإقامة الحجة على البعث ما لا يخفى .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) » ^(٦) .

عدل عن أسلوب الخطاب الذي جرت عليه الآيات السابقة « وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) » ^(٧) إلى أسلوب الغيبة (بل قالوا) وذلك للإيدان

(١) البرهان، الزركشي، ٣/٣١٧.

(٢) نظم الدرر، ١٣/١٧٢.

(٣) سورة المؤمنون آية: ١٥ - ١٦.

(٤) سورة المؤمنون آية: ١٢.

(٥) التحرير ١٨/٢٦.

(٦) سورة المؤمنون آية: ٨١.

(٧) سورة المؤمنون آية: ٧٩.

بالغضب^(١)، ولأن هذه الآية قد جاءت بعد آيات التخويف، والتهديد، فأرادت أن تحكي ضلالهم^(٢)، فأبعدتهم من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة وذلك أدعى للوم، والتقريع، والإبعاد عن ميامن الرحمة، إلى ميدان العذاب.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» (١٧) (٣).

جاء الالتفات في هذه الآية في قوله (فسبحان الله) حيث لفت الكلام عما كان سائراً عليه في الآيات السابقة من أسلوب التكلم في مثل قوله تعالى قبلها «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» (١٦) (٤)، إلى أسلوب الغيبة في هذه الآية؛ حيث لفت الكلام من صيغة العظمة فيما سبق إلى ما هو أعظم منها بإظهار الاسم الجليل للمولى - سبحانه وتعالى - (٥).

وذلك - والله أعلم - لأنه في مقام الوعيد، والتهديد جاء بأسلوب العظمة، لأن ذلك أدعى لإيقاع الخوف، والرعب في القلوب. حين يكون التهديد مواجهة من المولى - سبحانه -.

وحين جاء ذكر التنزيه والتسبيح، جاء بأسلوب الغيبة، وذلك أدل على علو المنزلة الإلهية، والعجز عن الإحاطة بها علماً.

كما أن غير الأسلوب من الغيبة في الآية السابقة حين تحدث عن الكافرين، إلى

(١) نظم الدرر ١٧٤/١٣٢.

(٢) التحرير ١٠٦/١٨.

(٣) سورة الروم آية: ١٧.

(٤) سورة الروم آية: ١٦.

(٥) نظم الدرر، ٥٩/١٥.

أسلوب الخطاب في هذه الآية (حين تمسون) ؛ وذلك لأنه أشد تنبيهاً ^(١) ، كما أن فيه حث على ذلك العمل الجليل .

فحين يوجه الخطاب لهم معاناة يشعر كل مخاطب أنه ملزم بهذا العمل .
ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ » ^(٥١) ^(٢) .

فقد لفت الكلام من أسلوب الغيبة الذي جرت عليه الآيات السابقة في مثل هذا قوله تعالى : « فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ^(٥٠) ^(٣) . إلى أسلوب التكلم بأسلوب العظمة في هذه الآية ، وذلك تنبيهاً على عظيم عفوه سبحانه مع تمام القدرة ^(٤) .

ومن الالتفات أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » ^(١٩) ^(٥) .

جاء الالتفات في هذه الآية الكريمة في قوله (أو لم يروا) حيث عدل عن أسلوب الخطاب الذي جرت عليه الآيات السابقة في قوله تعالى : « وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » ^(١٨) ^(٦) ، عدل عنه إلى أسلوب الغيبة في هذه الآية ، وذلك لإبعادهم عن شرف الحضور بعد الإخبار عنهم بأنهم

(١) نظم الدرر، ٦٣/١٥ .

(٢) سورة الروم: ٥١ .

(٣) سورة الروم: ٥٠ .

(٤) نظم الدرر ١٢٣/١٥ .

(٥) سورة العنكبوت آية: ١٩ .

(٦) سورة العنكبوت آية: ١٨ .

مكذبون^(١)، كما أنه - والله أعلم - أراد بهذا الانتقال الإبقاء على المخاطب، من قرعه في الوجه بسهام الهجر، فالغيبه أروح له في مقام اللوم، والعتاب، وأبقى على ماء وجهه أن يفوت^(٢)، كما أن فيه تصويراً لذلك الغضب الإلهي على هؤلاء القوم الضالين - والله أعلم - .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢٣) (٣) .

وقع التغاير في الأسلوب القرآني في هذه الآية الكريمة من أسلوب الغيبة في قوله «آيات الله» إلى أسلوب التكلم «يئسوا من رحمتي» (٤) وذلك لنكتة بلاغية، استهدفتها الآيات، - وهي والله أعلم - لبيان اختصاص الله سبحانه وتعالى بالرحمة، والتنصيب على ذلك عن طريق إضافة الرحمة إلى ضمير المتكلم العائد على المولى سبحانه، والحاجة العبد الدائمة إلى الرحمة، وخاصة في مثل مواقف العذاب، جاءت نسبة تلك الرحمة إلى الله وحده، لبيان مدى حاجة العبد إليه في كل موقف وخاصة في مواقف العذاب .

ومن الالتفات ما جاء في قوله تعالى: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» (٩) (٥) .

جاء الالتفات في هذه الآية بالعدول عن أسلوب الغيبة الذي جاء في قوله «سواه

(١) التحرير، ٢٢٧/٢ .

(٢) البرهان الزركشي ٣١٧/٣ .

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٢٣ .

(٤) التحرير، ٢٣٤/٢٠ .

(٥) سورة السجدة آية: ٩ .

ونفخ فيه « إلى أسلوب المخاطبة في قوله (لكم) (١) .

والنكتة في ذلك ؛ لأنه بعد ذكر مراحل خلق الإنسان واكتمال تكوينه ، أصبح خليقاً بتوجيه الخطاب إليه ، ولإشعاره بأنه أصبح في مقام التكليف ، والمؤاخذه .

وقيل النكتة في ذلك أنه بعد نفخ الروح ، وتشريفه بخلعه الخطاب حين صلح للخطاب (٢) . وذكر صاحب « نظم الدرر » في ذلك وجهاً آخر ، حيث قال : « لما ألقى السامعون لهذا الحديث أسماعهم فكانوا جديرين بأن يزيد المحدث لهم إقبالهم وانتفاعهم لفت إليهم الخطاب قائلاً (وجعل) (٣) .

كما ذكر صاحب « التحرير » في ذلك وجهاً آخر فقال : « لأن المخاطبين من أفراد الناس ، وجعل السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين ، فلما انتهض الاستدلال عى عظيم القدرة ، وإتقان المراد من المصنوعات المتحدث عنه بطريقة الغيبة الشامل للمخاطبين ، وغيرهم ناسب أن يلتفت إلى الحاضرين بنقل الكلام إلى الخطاب ؛ لأنه أثر بالامتنان ، وأسعد بما يرده بعده من التعريض بالتوبيخ في قوله (قليلاً ما تشكرون) والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل ، أقوى من الامتنان بالخلق ، وتسويته ، لأن الانتفاع بالحواس ، والإدراك متكرر ، متجدد ، فهو محسوس ، بخلاف التكوين ، والتقويم ، فهو محتاج إلى النظر في آثاره ، والعدول عن أن يقال : وجعلكم سامعين ، مبصرين ، عالمين إلى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) لأن ذلك أعرف في الفصاحة (٤) .

(١) البحر المحيط، ١٩٩/٧، روح المعاني ١٤/٢١، إرشاد العقل السليم، م٤/ج٧/٨٢. التحرير ٢١٧/٢١.

(٢) روح المعاني ١٢٤/٢١، إرشاد العقل السليم، م٤/ج٧/٨٢.

(٣) نظم الدرر، ١٥/٢٤٥.

(٤) التحرير، ٢١/٢١٧.

ومنه أيضاً قوله تعالى : « وَقَالُوا أَنَذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتُنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١) » (١) فيه التفات (٢)، من أسلوب الخطاب الذي انتهجته الآيات في ختام الآية السابقة (وجعل لكم) إلى أسلوب الغيبة في قوله (قالوا) ، حيث عادت الآيات إلى مخاطبتهم بهذا الأسلوب بعد استحضارهم ، إذ عادت وغيبتهم عن المقام .

والنكسة في ذلك إيداناً بالغضب منهم ، لعدم شكرهم لتلك النعم ، وغضباً من قولهم (٣).

كما أنه يقصد أيضاً امتهانهم بتغييبهم عن مقام الخطاب ، لأن تلك الشبه التي زعموها كفيلة بانحطاط مراتبهم .

كما أننا نرى أن معظم الشبه التي دارت حول البعث من هؤلاء المنكرين ، يأتي الأسلوب فيها بإنزالهم منزلة الغائب ، وذلك إيداناً بإعراض المولى – سبحانه – عن مخاطبتهم غضباً من قولهم ، وسخطاً عليهم .

ومن الالتفات كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَابِغًا فَسَقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) » (٤) .

وقع الالتفات في الآية الكريمة في قوله (فسقناه – أحيينا) حيث عدل عن أسلوب الغيبة التي ابتدأ به الآية (والله الذي أرسل) إلى أسلوب المتكلم المعظم

(١) سورة، السجدة، آية: ١٠.

(٢) روح المعاني ١٢٤/٢١، إرشاد العقل السليم، م/٤ج/٨٢ – نظم الدرر ٢٤٦/١٥.

(٣) روح المعاني ١٢٤/٢١ – إرشاد العقل السليم، م/٤ج/٨٢، نظم الدرر، ٢٤٦/١٥.

(٤) سورة فاطر، آية: ٩.

نفسه^(١)، وذلك أدخل في الاختصاص ، وأدل عليه ، كما أن سوق السحاب ، وإحياء الأرض الميتة من دلائل القدرة الإلهية التي اختص بها المولى - سبحانه - ، ولأنه أدل على مقام العظمة الإلهية ، وأفخم ، وللتنبية على التخصيص بالقدرة ، وأنه لا يدخل تحت قدرة أحد^(٢) غير الله .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)» (٣) .

وقع الالتفات في الآية الكريمة بالعدول بالكلام من أسلوب التكلم ، إلى الغيبة في قوله (ثمره) كان الخطاب فيما سبق بأسلوب المتكلم ، ونقله هنا إلى أسلوب الغائب ، إذ أن الضمير في (ثمره) يعود على المولى - سبحانه - (٤) ، وذلك لأن الثمر يخلقه الله تعالى (٥) .

وقد فصل صاحب « حاشية الشهاب » في ذلك فقال : « الضمير قد يكون

(١) الكشف، ٦٠١/٣ - البحر المحيط، ٣٠٢/٧ - نظم الدرر، ١٧/١٦ - أنوار التنزيل، ٢٦٩/٢ شرح السعد، مواهب الفتاح - ٤٧١/١ ، عروس الأفراح، ٤٧٦/١ - ٤٦٩ الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٤٤ ، شروح السعد، التفتازاني، ص ١٥٤ ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٣١٤ كمال الدين الزمלקاني، تحقيق د . خديجة الحديثي، د . أحمد مطلوب ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م مطبعة العاني، معترك الأقران ٣٨٠/١ ، الفوائد المشوق، ص ١٤٥ ، بديع القرآن، ص ٤٥ ، تحرير التحبير ص ١٢٤ بغية الإيضاح، ١٥٤/١ بلاغة النظم العربي ٢٠٥/١، ٢٠٦ .

(٢) الكشف، ٦٠١/٣ ، أنوار التنزيل، ٢٦٩/٢ ، حاشية الشهاب، ٢١٨/٧ ، البرهان ٣٢٠/٣ ، معترك الأقران، ٣٨١/١ - الجامع لأحكام القرآن، ٥٤٠٩/٦ .

(٣) سورة يس آية ٣٣ - ٣٥ .

(٤) الكشف ١٥/٤ - إرشاد العقل السليم، ٤م/ج ١٦٧، أنوار التنزيل، ٢٨١/٢ .

(٥) إرشاد العقل السليم، ١٦٧/٧ ، أنوار التنزيل ٢٨١/٢٢ .

للنخيل ، والأعناب أو لما ذكر ليشملهما ، فإن الضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة ، أو هو لله ، وإضافته له ؛ لأنه خالقه ، فالمعنى : ليأكلوا مما خلقه الله ومما عملوه بأيديهم ، ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة . واعترض عليه بأنه ليس من مظان الالتفات ، لأن المقصود من الجنات ، وتفجير مياهها ثمرها ، فالتمكين من الانتفاع بأكله أولى بالتفخيم الدال على الامتنان ، فالظاهر إضافته لضمير العظيم ، بأن يقال : ثمرنا . ورد بأنه ذهب عليه أن ما سبق أفخم ؛ لأنها أفعال عامة النفع ، ظاهرة في كمال القدرة ، والثمر أخط مرتبة من الحب فلا يستحق ذلك التفخيم ؛ ولذا لم يورد على أسلوب الاختصاص ، وجعل من خلق الله ، وقيل : الثمر لكون كماله بفعل العبد لا يستحق ذلك التعظيم ، وليس المقصود مما ذكر أولاً الثمر حتى ينبو عنه كما توهم ، بل الاستدلال على الصانع القدير ، ومنع دلالة على كمال القدرة مكابرة ، ومنهم انحطاط مرتبته من التأخير لا ينافي الدلالة بوجه آخر ، والأحسن أن الأكل ، والتعيش مما يشغل عن الله ، فيناسب الغيبة ، كما نبه على غفلتهم عن المنعم بقوله (أفلا يشكرون) فالالتفات واقع في موقعه . وقيل : الضمير للنخيل ، وتركت الأعناب غير مرجوع إليها ، لأنها في حكمه ، وقيل : للماء ، وقيل : للتفجير ، والإضافة لأدنى ملابسة ، ولا يخفى بعده ^(١) .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ » (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » (٢٣) ^(٢) .

وقع الالتفات في هذه الآية الكريمة في قوله (من دون الله) حيث عدل عن أسلوب التكلم بضمير العظمة الذي درجت عليه الآيات السابقة في مثل قوله :

(١) حاشية الشهاب، ٢٤٠/٧ .

(٢) سورة الصافات، آية ٢٢، ٢٣ .

«فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لِأَزْبٍ» (١٦) (١) ، وجاء الخطاب في هذه الآية بأسلوب الغيبة .

والنكته في ذلك كما يقول : « البقاعي » : إشارة إلى سفول رتبة معبوداتهم ، وتسفيه آرائهم بانتحال الأذى (٢) . وقد يكون ذلك زيادة في تحسيرهم ، وتخجيلهم (٣) .

ومنه قوله تعالى : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ (٢٥) (٤) .
انتقل الخطاب في هذه الآية من أسلوب الغيبة الذي جرت عليه الآيات السابقة (وقفوههم إنهم مسئولون) وما قبلها ، إلى أسلوب الخطاب (ما لكم) .

يقول : « البقاعي » : ((ولما أوقفوا هذا الموقف الدليل ، قد شغلهم ما دهمهم من الأسف . عن القال ، والقال ، نودوا من مقام السطوة ، وحجاب الجبروت ، والعزة ، زيادة في تأسيهم ، وتوبيخهم ، وتعنيفهم)) (٥) .

وقيل النكته في ذلك : زيادة في توبيخهم ، وتقريعهم (٦) .

وقيل : المراد إذلالهم ، والاستهزاء بهم (٧) .

(١) سورة الصافات آية ١١ .

(٢) نظم الدرر ١٦/٢٠٨ .

(٣) أنوار التنزيل، ٢/٢٩٢ .

(٤) سورة الصافات، آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) نظم الدرر ١٦/٢١٠ .

(٦) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي م/٨ج/١٠٢/١٤ ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ط ٢ - ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م دار الفكر، بيروت ، أنوار التنزيل،

٢٩٢/٢ - روح المعاني، ٢٣/٨٠ .

(٧) التفسير القرآني للقرآن، م/٦ج/٢٣/٩٧٣ .

ومن الالتفات أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» (١) .

الالتفات واقع في قوله (فأنشرونا) حيث عدل عن أسلوب الغيبة الذي استعمل به الآية إلى التكلم بأسلوب العظمة في هذا اللفظ (٢) .

والنكتة في ذلك ؛ لإظهار كمال العناية بأمر البعث ، والإحياء ، والاشعار بعظم أهميته وخطره (٣) ؛ ولأن المقصود من ضرب هذا المثل هو الدلالة على سهولة أمر البعث بالنسبة للمولى جلت قدرته - وذهب صاحب (نظم الدرر) إلى أن المقصود من ذلك ، هو الدلالة على عظمة الإنبيات ، على أنه الدليل الظاهر على ما وصل به من نشر الأموات (٤) .

ومنه قوله تعالى : «هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ» (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)» (٥) .

عدل في خطابه في الآية الكريمة من أسلوب الغائب الذي جرت عليه الآيات السابقة ، في مثل قوله (هذا نزلهم) إلى أسلوب المخاطب في قوله (خلقناكم) . وذلك توجيه للكفر بطريق الإلزام ، والتبكي (٦) .

(١) سورة الزخرف، آية: ١١ .

(٢) روح المعاني ٦٧/٢٥ - إرشاد العقل السليم م٤/ج٨/٤١ - نظم الدرر ٣٩١/١٦ .
التحرير ١٧١/٢٥ .

(٣) نظم الدرر ٢٠٨/١٦ - أنوار التنزيل، ٢٩٢/٢ .

(٤) المرجع السابق ٣٩١/١٦ .

(٥) سورة الواقعة، آية ٥٦ ، ٥٧ .

(٦) روح المعاني ٢٧ ، ١٤٧ .

ومنه قوله تعالى : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَاً وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَانِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)» (١).

فقد لفت الخطاب في الآية الكريمة ، من أسلوب الغيبة في قوله (فلينظر الإنسان) إلى أسلوب الخطاب في قوله (لكم ولأنعامكم) ، وذلك لتكميل الامتنان (٢).

كما أن المقصود بذلك - والله أعلم - للإشعار بعظيم نعمة الله ، التي أسدلها عليهم ، فحين يوجه إليهم الخطاب يشعرون بأن تلك النعم خاصة لهم ، ومن أجلهم ، فيجعلهم ذلك يشعرون بالحنج ، ويراجعون أنفسهم ، لعلهم إلى رشدهم يؤوبون.

٣ - التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي :

عد بعض علماء البلاغة ، التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، داخلاً في الالتفات ، كما عده آخرون ملحقاً بالالتفات .

وعلى كلا الوجهين ، فإنه يعد من التعبير على خلاف مقتضى الظاهر (٣)؛ لذا سوف أعرج عليه في بعض آيات البعث ، واجعله مبحثاً مستقلاً عما قبله إذا لم يعد من الالتفات ، كما حرصت على أن يكون رديفاً للالتفات إذا عد منه .

يقول : « ابن القيم » في هذا اللون : « التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهاً له في التحقيق والعرب تفعل ذلك لفائدة ، وهو أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المضارع

(١) سورة عبس، آية: ٢٤، ٣٢.

(٢) روح المعاني، ٤٨/٣٠، إرشاد العقل السليم، م/٥٩ج/١١٢.

(٣) مواهب الفتح، عروس الأفراح، ٤٨٤/١.

الذي لم يوجد بعد ، كان أبلغ وأكد وأعظم موقعاً ، وأفخم بياناً لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى ، أنه قد كان وُجد وصار من الأمور المقطوعة بكونها وحدوثها» (١).

ولما كانت غاية القرآن الكريم في خطابه مع منكري البعث ، إثبات حقيقة هذه القضية ، وترسيخها في أذهان المنكرين لها ؛ فإنه قد تحدث عن هذه القضية ، وحقيقتها وصدق وقوعها ، وأهوال البعث ، والحشر ، والحساب ، باللفظ الماضي غالباً ، على الرغم من عدم حصولها وذلك تحقيقاً لوقوعها ، وصدقها ، وكأن أمرها قد حدث وانتهى ، فلا مجال لإنكاره ، والجدل فيه .

لقد اخترقت بنا الآيات حجب الغيب البعيد ، وطوت الآباد من الزمن طياً لتضع بين أيدينا مشاهد متعددة الألوان ترد بأسلوب الماضي وكأنها تاريخ يحكى لتؤخذ منه العبرة وهذه الطريقة التي انفرد بها النظم القرآني تؤكد الثقة في وقوع هذه الأحداث ، فكأنها حدثت بالفعل ولا مجال للشك فيها ، فقد أخبر عنها علام الغيوب » (٢).

ومما وقع فيه التعبير بالماضي عوضاً عن المستقبل ، قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) » (٣).

يخبر المولى – عز وجل – في هذه الآية عن موقف من مواقف الكافرين يوم القيامة ، وبما أن ذلك لم يحدث بعد ، كان العرف أن يأتي اللفظ بصيغة المستقبل ، ولكنه عدل عن هذه الصيغة إلى صيغة الماضي « إذ وقفوا » ، و « إذ » قد تستعمل في موضع « إذا » و « إذا » في موضع « إذ » ، وما سيكون فكأنه كان ؛ لأن خبر الله –

(١) الفوائد المشوق، ص ٥٢.

(٢) من بدائع النظم القرآني السيد عبد الفتاح حجاب، ص ١٦. مطبعة الجنيدى – بنها مصر الجديدة.

(٣) سورة الأنعام، آية ٢٧.

تعالى - حق وصدق فلهذا عبر بالماضي ^(١)؛ للدلالة على تحقيق ذلك العذاب ^(٢)؛ فقد أشبه الماضي في التحقيق ^(٣)، يقول صاحب «البحر المحيط» في ذلك: «وأبرز هذا في صورة المضى وإن كان لم يقع بعد، إجراء للمحق المنتظر مجرى الواقع الماضي» ^(٤).

ومنه ما جاء في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» ^(٥).

الآية الكريمة تصف حال أولئك الأشقياء الذين كذبوا باليوم الآخر، وتذكر بعضاً من تلك الصفات التي انحدرت بهم إلى مصاف الهالكين، فذكرت منها، الرضا بالحياة الدنيا، والركون إليها، والغفلة عن الآخرة؛ لذا فقد جاء ذكر هاتين الخصلتين «رضوا... واطمأنوا» بلفظ الماضي، بدلاً من المضارع، وذلك للدلالة على تحقيق هاتين الخصلتين في نفوسهم، وتقررهما فيهم ^(٦)، وتمكنها بحيث أصبحت كالصفات الدائمة لهم، والتي وصفوا بها، ولا مجال لتغييرها.

ومنه ما جاء في قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِزَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ» ^(٧).

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣/٢٤٠.

(٢) روح المعاني ٧/١٢٨ - فتح القدير، ٢/١٠٨.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص ٢٦.

(٤) ١٠١/٤.

(٥) سورة يونس، آية: ٧.

(٦) روح المعاني ١١/٧٢ - إرشاد العقل السليم، م ٢/٤/١٢١.

(٧) سورة النمل، آية: ٨٧.

هنا تصف الآية مشهداً من أهوال البعث ، وهو مشهد النفخ في الصور ، وما يحل بالخلق وقت سماعه ، وبما أن ذلك لم يحدث بعد ، وأرادت الآية أن تنقل تلك الصورة الرهيبة نقلاً مؤثراً ، فكان التعبير بلفظ الماضي بدلاً من المضارع في قوله « ففرع » وذلك إشارة إلى أنه كائن لا محالة ، وإلى صدق تحققه ووقوعه ^(١) .

ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ^(٢) .

تريد الآية الكريمة أن تبين مدى بُعد رحمة الله عن القوم الكافرين يوم القيامة ، ومدى يأسهم منها ، فعدلت عن التعبير بالمضارع الذي كان حقه أن يسير عليها ، لأن ذلك اليأس من الأمور المستقبلية التي لم تقع بعد ، ولكنه عدل بالتعبير إلى لفظ الماضي « يكفرون » للدلالة على تحقق ذلك اليأس ^(٣) في نفوسهم حين يرون العذاب .

ومنه قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْقِيهِ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » ^(٤) .

لقد وقع التعبير بالماضي بدلاً عن المضارع في هذه الآية في قوله « أرسل » فسقناه – فأحيينا » فقد كان القياس أن يأتي بهذه الأفعال مضارعة ، وذلك لأن إرسال الرياح إلى الأرض الجرد ، وإحياءها به مستمر ، لا يتقطع بحال من الأحوال ، ولكنه عدل عن المضارع لنكتة بلاغية عظيمة ؛ هي الدلالة على وقوع الإحياء ، وتقرر

(١) فتح القدير، ١٥٥/٤ مواهب الفتاح، ٤٨٤/١، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص ٥٢ الطراز، ١٤٠/٢، البرهان الزركشي ٣٧٣/٣، أساليب بلاغية، ص ٢٨٤ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٢٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم م ٤/ج ٣٦/٧، أنوار التنزيل ٢٠٧/٢٠ التحرير ٢٢٤/٢٠ .

(٤) سورة فاطر آية ٩ .

مجيبه ، وللدلالة كذلك على تحقق سوقه وإحياء الأرض به (١).

يقول صاحب « التحرير » في السر الذي قصدت إليه الآية الكريمة ، عند تعبيرها باللفظ الماضي في قوله « أرسل » في هذه السورة ، والتعبير بالمضارع باللفظ ذاته في سورة « الروم » (يرسل) : « لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع ، إظهاراً لإمكان نظيره ، وأما آية سورة « الروم » فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه » (٢) .

ويقول صاحب التفسير القرآني في تعليقه لإتيان فعل الإرسال بالزمن الماضي : «إشارة إلى أن الإرسال يسبق الآثار المترتبة عليه ، وهي الإهداء ، أو الإضلال ، والأحياء أو الإماتة ، فالإرسال سابق ، ولهذا عبر عنه بالفعل الماضي » (٣).

ومنه قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » (١٩) (٤).

الخطاب موجه للإنسان قبل الموت ، وهو وصف تلك السكرات ، والغمرات الشديدة التي سوف يحسبها من كأس الموت ، فالموت إذاً لم يقع بعد ، ولكنه سوف يقع ، وكان القياس أن يأتي الفعل بالزمن المضارع ، ولكنه عدل إلى الماضي (وجاءت) تنبيهاً على اقترابه (٥) وتحققه (٦) ، كما أن فيه من الشدة لتلك اللحظات

(١) التحرير ٢٦٧/٢٢ - روح المعاني ١٩٩/٢٢ - إرشاد العقل السليم، م/٤ ج/٧ ١٤٥٠/٧ فتح القدير، ٣٤٠/٤.

(٢) التحرير ٢٦٧/٢٢.

(٣) إرشاد العقل السليم م/٦ ج/٦ ٨٥٨/٢٢.

(٤) سورة ق آية ١٩.

(٥) الكشاف ٣٨٥/٤.

(٦) روح المعاني ١٨٢/٢٦، إرشاد العقل السليم، م/٤ ج/٨ ١٢٩ - أنوار التنزيل ٤٢١/٢.

ما فيه من الرهبة ، والألم ، ويريد أيضاً أن يستحضر نفس المخاطب بكل نشاطها ، وتيقظها ، لتعيش تلك اللحظات الشديدة من استعداداً للامتنال إلى ما يحدث بعد ذلك من السؤال ، والحشر ، والنشر ، والحساب ، والعقاب .

٤ - التعبير عن الماضي بلفظ المضارع :

وهو عكس المبحث السابق ، إذ أنه تعبير عن الماضي الذي حدث وانقضى زمانه ، بلفظ المضارع الذي يدل على الحدوث ، والاستمرار .

وقد استخدم القرآن الكريم هذا الفن في بعض آياته للوصول إلى غايات وأهداف يقصد إليها .

يقول « ابن القيم » عن هذا الفن : « وإنما قصدت العرب بالإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، لأن الإخبار بالفعل المضارع إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي .

والفرق بينه ، وبين القسم الذي قبله ، هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع إذا كان الفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد ، والأمور المتعاضمة التي لم تحدث ، فتجعل عند ذلك فيما قد كان ، ووجد ووقع ، الفراغ من كونه ، وحدوثه .

وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الماضي ، فإن الغرض بذلك تبين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ، ليكون السماع كأنه يعاينها ، ويشاهدها (١).

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَنْدُوا

(١) الفوائد المشوق. ص ٥٤.

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ... إلى آخر الآيات» (١).

وقع التعبير بالمضارع في قوله «يبدؤا» وذلك لما في التعبير بهذه الصيغة من الدلالة على الاستمرار، والحدوث، وقد جاء هذا اللفظ حكاية للحال الذي يكون عليه الخلق، وتصويراً لها، كما أن فيه تنبيهاً على تجدد الإنشاء، واستمراره، فلا ينقطع بحال، ولا يقتصر على زمن، وفي ذلك تصوير للقدرة الإلهية العظيمة على الإعادة (٢).

ومنه قوله تعالى: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» (٦٦) (٣).

جاء التعبير باللفظ المضارع يقول، بدلاً من الماضي، إذ أن القياس يتطلب الإتيان به في الماضي، لأن هذا القول قد وقع من منكر البعث وانتهى، ولكن الإتيان به مضارعاً لغاية قصدها الآية الكريمة، وهي استحضار تلك الصورة الماضية، وذلك أدعى للعجب من قوله (٤)، كما أن فيه إشارة خفية إلى أن إنكار البعث لا يقتصر على زمن معين، وإنما سوف يستمر إنكاره باستمرار وجود النفوس الحبيثة، والعقول الصدئة، على مر العصور، وكر الدهور، والدليل على ذلك أننا نرى اليوم، وفي هذا العصر الذي سما فيه العلم، ونشطت العقول، نرى من ينكر البعث، ويجعله ضرباً من المستحيلات.

وقد أفاد التعبير بالمضارع أيضاً، الاستمرار التجديدي، لهذا القول وأنه لا يزال يتجدد حتى ينفخ في الصور، كما ذكره الألوسي (٥).

(١) سورة يونس آية ٤.

(٢) نظم الدرر ٧٦/٩.

(٣) سورة مريم آية ٦٦.

(٤) روح المعاني ١١٧/١٦ - التحرير ١٤٤/١٦.

(٥) المرجع السابق الأول.

من التعبير بالمضارع ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٦٣) ، (١) .

يقول صاحب « الكشف » في إظهار محاسن التعبير بالمضارع في قوله فتصبح : « هلا قيل : فأصبحت ؟ ولمَ صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي إفادة بقاء المطر زماناً بعد زمان ، لأن معناه ، إثبات الاخضرار » (٢) .

وذهب بعض المفسرين إلى ما هو قريب من هذا المعنى ، حيث عللوا لذلك بأن التعبير بالمضارع يفيد تجدد اخضرار الأرض (٣) ، وتحقيقه لأهميته (٤) .

وذهب صاحب البحر المحيط ، إلى أن التعبير بالمضارع فيه تصويراً للهيئة التي تكون الأرض عليها والحالة التي لا يست الأرض (٥) .

ومنه قوله تعالى : « وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصِبْغٌ لِلْأَكَلِينَ » (٢٠) (٦) .

جاء التعبير باللفظ المضارع دون الماضي في قوله (تخرج) وذلك لنكتة أرادها القرآن الكريم ، وهي استحضار تلك الصورة العجيبة التي كونت بها تلك الشجرة ، في أول تكوينها ، حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات من طور سيناء (٧) ، كما أنه - والله أعلم - أراد أن يبين استمرار بقاء تلك الشجرة ، واستمرار خروجها ، فلا

(١) سورة الحج : ٦٣ .

(٢) الكشف ، ١٦٨/٣ ، قد أخذ بهذا الرأي أيضاً البيضاوي في تفسيره .

(٣) الطراز ١٣٨/٢ .

(٤) البرهان ٣٧٤/٣ .

(٥) ٣٨٦/٦ .

(٦) سورة المؤمنون ، آية : ٢٠ .

(٧) التحرير ، ٣٨/١٨ .

تختص بزمان ، ولا تنقطع بحال ، فهي باقية إلى ما شاء الله .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (١٩) (١) .

جاء التعبير في هذه الصيغة باللفظ المضارع « يبدىء » دون الماضي ، وذلك لاستحضار تلك الصورة العجيبة التي تمثل فيها قدرة الخالق - عز وجل - وهي بدء الخلق ، بل إن هذه الصورة أعجب من التدرج في الخلق ، وجعله في أطوار مختلفة ، وكما ذكر « الألو سي » ، أن التمدح بأصل الخلق في القرآن الكريم أكثر من التمدح بجعله في أطوار مختلفة ، ولذا فقد جاء به في هذه الصيغة للإشعار بالغرابة (٢) .

وقيل : جيء بهذه الصيغة في التعبير ، وذلك لإفادة استمرار تجدد هذا الخلق كل يوم ، فكلما قلبَ الرائي بصره يجدُ خلقاً جديداً ، قد تفتق به الكون ، معلناً قدرة الله التي لا تُحد (٣) .

ومن ذلك التعبير ما جاء في قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » (٩) (٤) .

في هذه الآية الكريمة جاء التعبير بصيغة المضارع في قوله « تُثِيرُ » ليحكي تلك الصورة التي تقع فيها إثارة السحاب ، ولاستحضار تلك الهيئة التي تدل على كمال القدرة الربانية (٥) ، كما ذهب إلى هذا الرأي عدد من المفسرين (٦) .

(١) سورة العنكبوت، آية ١٩ .

(٢) روح المعاني، ١٤٧/٢٠ .

(٣) التحرير ٢٠، ٢٢٨ .

(٤) سورة فاطر آية: ٩ .

(٥) الكشف ٦٠١/٣ .

(٦) منهم أبو السعود في تفسيره، والبيضاوي والباقعي، وابن العلوي في الطراز وابن يعقوب المغربي في مواهب الفتاح، ٤٨٥/١، الزركشي في البرهان، ٣٧٤/٣ والقرطبي في تفسيره ، والشوكاني في تفسيره .

ويرى «الألوسي» في التعبير بهذه الصيغة وجهاً آخر حيث يقول ^(١): «إن الإثارة خاصة للرياح وأثر لا يتفك عنها ، فلا يوجد إلا بعد إيجادها ، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال ، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره ، وحقيقته من غير تأويل ، وجوز أن يكون الإتيان بما يدل على الماضي ثم بما يدل على المستقبل ومنه ما جاء في قوله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» ^(٢)».

جاء التعبير في قوله «توسوس» بالمضارع ، دون الماضي ، وذلك للدلالة على شمول علم الله وإحاطته الدائمة ، فلا ينقضي علمه ، ولا تُحد قدرته فهو ؛ على اطلاع دائم بأفعال العبد ، وحركاته ، وسكناته ^(٣) فسبحان الذي يعلم السر وأخفى . ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «يَقُولُونَ أَأَنْتَ لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» ^(٤) .

جاء قول المنكرين للبعث بلفظ المضارع «يقولون» وذلك للدلالة على استمرارهم في هذا الشك والإنكار ، فهو قول دائماً ما يرددونه ، فللدلالة على استمرارهم في هذا الغي والضلال ، جاء اللفظ بصيغة المضارع ، مع أنه لا يخفى على القارئ أن ذلك القول قد صدر منهم ، وانقضى زمانه ^(٥).

وهكذا نرى الدقة المتناهية في استعمال اللفظ القرآني والمرامي ، والأهداف التي تقصد إليها الحروف والكلمات ، لا يصل إليها سواها ولنا فيما ذكرت من هذه

(١) روح المعاني ١٧١/٢٢ .

(٢) سورة ق آية ١٦ .

(٣) التحرير ٢٦/٢٩٩ .

(٤) سورة النازعات، آية ١٠ .

(٥) التحرير ٦٩/٣٠ .

النماذج أكبر دليل وأوضحه ، على سمو البلاغة القرآنية ، وارتفاعها عن بلاغة البشر شأواً بعيداً .

٥ - الأسلوب الحكيم :

وهو من المحسنات المعنوية التي اكتسبت الكلام جِدة وبريقاً ، بما يضيفه من ظلال خاصة .

وقد ورد منه في آيات البعث ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... » إلى آخر الآيات» (١) .

وردت هذه الآية « قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله » على الأسلوب الحكيم ، لأنهم ما أرادوا بالسؤال إلا استبعاد أن الموعد من الله تعالى ، وأنه - ﷺ - هو الذي يدعى أن ذلك منه ، فطلبوا منه تعيين الوقت تهكماً وسخرية ، فقليل في الجواب : هذا التهكم إنما يتم إذا ادعيت بأني أنا الجالب لذلك الموعد ، وإذا كنت مقراً بأني مثلكم في أنني لا أملك لنفسي ضرراً ، كيف ادعى ما ليس لي بحق؟ (٢) .

فواجه سؤالهم ، بما لا يتوقعونه ، وليس من إجابتهم في شيء .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « ... قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ... » إلى آخر الآية» (٣) .

(١) سورة يونس، آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) روح المعاني ١١/ ١٢١ .

(٣) سورة الكهف، آية ١٩ .

حين سأل أحد هؤلاء الفتية الآخرين عن مدة لبثهم نياماً في الكهف ، أجابوه بما يظهر لهم ، ولكنهم خشوا أن يتعمقوا في البحث عما ليس لهم به علم فقالوا « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة » وذلك إقبالاً على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبىء عنه الفاء ، وإعراضاً عما لا يعلموا . وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا من باب الأسلوب الحكيم ^(١).

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » (٥٢) ^(٢).

ذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم ، على أن المعنى لا تسألوا عن الباعث ، فإن هذا البعث ليس كبعث النائم ، وإن ذلك ليس مما يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ، ذو الأحوال ، والأفزع ؟

وفيه من تقريرهم ما فيه ، وقيل : إن مقتضى الظاهر أن يقال : بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل ، ولكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ، ليكون أهول ، وفي التقرير أدخل ^(٣).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » (٦٧) ^(٤).

فحين تسأل هذا المنكر ، الكافر ، على سبيل الاستبعاد وعن إعادته إلى الحياة بعد موته وفنائه ، صُرف الكلام عن ظاهره ، وكان الأولى أن يجيبه عن سؤاله بقوله :

(١) انظر روح المعاني، ٢٣٠/١٥.

(٢) سورة يس، آية ٥٢.

(٣) روح المعاني، ٣٣/٢٣ وانظر حاشية الشهاب ٢٤٧/٧.

(٤) سورة مريم آية ٦٦/٦٧.

نعم ، أو نحو هذا ، ولكنه عدل عن هذه الإجابة ، وواجه السؤال بسؤال آخر يحمل في طياته العتاب ، والتعجب وهذا أوقع في النفس وأشد تأثيراً من الإجابة المباشرة ، إذ أن فيه لفت للنظر ، وتذكير بتلك القدرة العظيمة التي أوجدته من قبل .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) » (١) .

أمر النبي ﷺ بأن يقول له : « يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا » أمر بجواب على طريق الأسلوب الحكيم ، بحمل استفهام القائل على خلاف مراده ، لأنه لما قال : « من يحيي العظام وهي رميم » لم يكن قاصداً طلب تعيين المحيي ، وإنما أراد الاستحالة ، فأجيب جواب من هو متطلب علماً فليل له : « يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » (٢) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « أَفَإِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) » (٣) .

جاء جوابهم على طريقة الأسلوب الحكيم ، بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام فجعلوا كالسائلين : أيعثون ؟ فليل لهم : نعم (٤) .

وهكذا نرى كيف استخدم القرآن الكريم هذا اللون البلاغي ، وأن الغاية منه في المقام الأول ترجع إلى المعنى ، ولا يكون مقصوداً به تحسين الكلام بقدر ما يكون المقصود به تثبيت المعنى وتقويته .

(١) سورة يس. آية: ٧٨/٧٩.

(٢) التحرير ٧٥/٢٢.

(٣) الصافات ١٦ - ١٨.

(٤) التحرير، ٩٩/٢٣.

٦ - التغليب :

وقد عده بعض علماء البلاغة من مخالفة الأسلوب لمقتضى الظاهر .

ومما جاء منه في آيات البعث قوله تعالى : « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ... إِلَى آخِر ... الْآيَةِ » ^(١) . كلمة (ما) لتغليب غير العقلاء على العقلاء ^(٢) .

ومنه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » ^(٣) .

خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ، ومن سينتظم في سلوكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف ، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة ، لكن لا بطريق الحقيقة عندنا بل بطريق التغليب ^(٤) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » ^(٥) .

قوله « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » ، القلة على ظاهرها بناء على أن الخطاب للناس بتغليب المؤمنين . وجوز أن تكون بمعنى النفي ، بناء على أن الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات ^(٦) .

وعندما تقرأ قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا

(١) سورة يونس، آية ٥٥ .

(٢) روح المعاني ١١/١٣٨ .

(٣) سورة الحج آية ١ .

(٤) روح المعاني ١٧/١١٠ .

(٥) سورة المؤمنون آية ٧٨ .

(٦) روح المعاني ١٨/٥٧ .

تَعْقُلُونَ (٨٠) ، (١) .

تجد أن الخطاب في هذه الآية لتغليب المؤمنين على الكافرين (٢) .

ومنه كذلك ما جاء في قوله تعالى : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) » (٣) .

فإن قوله : « أَمْ مَنْ خَلَقْنَا » يريد ما ذكر من خلائقه : من الملائكة ، والسموات والأرض ، والمشارق والكواكب ، والشهب ، والثوابق ، والشياطين المردة ، وغلب أولي العقل على غيرهم ، فقال : من خلقنا . والدليل عليه قوله بعد هذه الأشياء (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا) بالفاء المعقبة وقوله : « أَمْ مَنْ خَلَقْنَا » مطلقاً من غير تقييد بالبيان ، اكتفاء ببيان ما تقدمه ، كأنه قال : خلقنا كذا ، وكذا من عجائب الخلق ، وبدائعه (٤) .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) » (٥) .

فإن قوله « قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ » خطاب لهم ولآبائهم بطريق التغليب (٦) .

ومن التغليب أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) » (٧) . جاء

(١) سورة المؤمنون آية ٨٠ .

(٢) حاشية الشهاب، ٣٤٣/٦ .

(٣) سورة الصافات، آية ١١ .

(٤) الكشاف، ٣٧/٤ ، أنوار التنزيل، ٢٩١/٢ .

(٥) سورة الصافات، آية ١٦ - ١٨ .

(٦) روح المعاني، ٧٨/٢٣ ، إرشاد العقل السليم، م٤/ج٧/١٨٧ .

(٧) سورة القيامة، آية: ٩ .

بلفظ « جمع » لتغليب المذكر ، وهو القمر لأن الواو جامعة ، ولأن لفظ الفعل مقتضى ، ولو أريد العطف امتنع ^(١).

ثالثاً : علم البيان :

١ - التشبيه :

وهو من أروع علوم البلاغة ، وأقر بها رحماً بالخطاير ، وهو نزهة القارىء ، ومتعة السامع ، وبستان العقل ، واستراحة النفس .

يجلو لهم ، ويشحذ الذهن ، ويرقى به إلى أعلى مراتب الإدراك والتحقيق .

إنه تلك الريشة السحرية التي تضيء ظلالاً رائقة على الصورة ، فتنتقلها من عالم الخيال ، إلى عالم الحس والواقع ، وهو تلك اللوحة الفنية الرائعة ، التي تضم ألواناً شتى ، وتخرجها في أبهى حلة ، فيتلقاها الراي بعين التعجب والإعجاب .

يقول عنه صاحب « الطراز » واعلم أن التشبيه هو بحر البلاغة ، وأبو عذرتها ، وسرهمها ولبابها وإنسان مقلتها ^(٢) .

وذكر أساطين البلاغة ، وفرسانها أن الغاية من التشبيه ، أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد ، بالظاهر المحسوس المعتاد ، ومن هنا يكشف التشبيه المعنى ، ويوضح المراد ، ويمثل الشيء بما هو أحسن ، وأعظم ، وأبلغ منه ، فيكون ذلك الحس مكتسب من الغلو والمبالغة ^(٣).

(١) أنوار التنزيل ٢/٢٥٤٨ ، البرهان الزركشي ٣/٣٠٢ ، أساليب بلاغية ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) الطراز ١/٣٢٦ .

(٣) انظر سر الفصاحة ، للأمير محمد بن عبد الله بن سنان الخفاجي ، ص ٢٤٦ ، ١٩٨٢ م - ١٤٠٢ هـ - دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان وانظر معترك الأقران ، ١/٢٦٩ ، الطراز ١/٢٧٧ .

والعلة في هذا الحسن للتشبيه أن المشاهدة ذات أثر فعال في النفس ، حتى مع العلم بصدق الخبر ، وعدم تسرب الشك ، لأن المشاهدة تؤثر في النفوس أشد من تأثير المعاني المجردة ، وقد حكى الله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - (١) ، فقال: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّ قَلْبِي...» (٢) .

ولشرف هذا الفن ، وعلو مرتبته ، نجد أن القرآن الكريم ، قد حوى منه مارقاً ، وارتقى فبلغ المنتهى في الإعجاز ، والتعجيز .

وبما أن الدعوة إلى الإيمان بالبعث تعد من الأصول الأساسية لعقيدة الإيمان بالله تعالى ، فقد اتبع القرآن الكريم مختلف الطرق والأساليب ، لتثبت هذه العقيدة في النفوس ، وخاصة تلك النفوس التي استكبرت أمر البعث على قدرة الخالق عز وجل .

لذا فقد أخذ القرآن الكريم ، يجول بهم في رحاب الكون ، أو في ذاكرة التاريخ ، ليريههم كيف تتجلى قدرة الله في آياته الماثلة أمام الأنظار ، فيلجم الأفواه ويحير العقول ، حين يأخذ بأيديهم إلى تلك الأرض الميتة ، فيهزها هزاً فتتفض وتسري فيها الحياة ، ثم ييهتهم حين يحول أنظارهم إلى أنفسهم ، ليريههم من أين أتوا ؟ وأين كانوا قبل أن يأتوا ؟ ثم ها هو يسوقهم إلى عرصات القيامة ، ويجعل النار تلتفح وجوههم ، وملائكة العذاب تأخذ بتلابيبهم فتلقي بهم قعر جهنم .

ولنا جولة في رحاب هذا الفن في بعض آيات البعث . فمن ذلك ما جاء في قوله

(١) أسرار البلاغة في علم البيان ، للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد رشيد رضا ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م دار المعرفة بيروت - لبنان ، وانظر البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص ٦١ د . عبد الفتاح لاشين / ط ٢ - ١٩٨٥ م دار المعارف ، القاهرة .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٠ .

تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لَبَدًا مَّيِّتًا فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٥٧) (١).

أراد المولى - عز وجل - أن يقرب للمنكرين صورة البعث ، بعد الفناء ، فلفت أنظارهم إلى ما حولهم من الآيات ، وهم يرون الحياة تتجدد في كل يوم بعد فناء وموت ، فكان هذا التصوير الرائع لإحياء الأرض بعد موتها . فإله - جلّت قدرته - يرسل الرياح تحمل بين طياتها السحب المثقلة بالماء إلى الأرض الميتة ، التي جفت ، وتشققت تربتها من أثر العطش ، فينزل عليها المطر ، فتسري فيها الحياة ويدب فيها النشاط فتخرج ثمرًا مختلفًا ألوانه بإذن الله وهذا هو المشبه به .

ثم يأتي المشبه وهو البعث بعد الموت والفناء . يقول الزمخشري : « أي مثل ذلك الإخراج ، وهو إخراج الثمرات فنخرج الموتى لعلكم تذكرون » (٢) وأداة التشبيه الكاف في قوله « كذلك » والتي تأتي عندما يراد عقد الصلة بين أمرين ، ولمح ما بينهما من ارتباط ، وهنا يؤدي التشبيه رسالته في إيضاح المعنى ، وتوطيده في النفس (٣) وهو من التشبيه المرسل المجمل ، حيث ذكرت الأداة ، ولم يذكر وجه الشبه (٤).

على أن المفسرين قد اختلفوا حول تحديد التشبيه في هذه الآية . فذهب «الخازن» إلى أن المقصود بقوله تعالى : « كذلك تخرجون » يعني كما أحيينا البلد الميت ،

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٧.

(٢) الكشف، ١١١/٢.

(٣) بلاغة القرآن ص ٢١٢.

(٤) صفوة التفاسير ٤٥٤/١.

كذلك نخرج الموتى ، أحياء من قبورهم بعد فنائهم ، ودروس آثارهم .

واختلفوا في وجه الشبه ، فقل إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة إنزال المطر ، كذلك يحيي الموتى بواسطة إنزال المطر أيضاً . قال أبو هريرة وابن عباس ، رضي الله عنهما : « إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى ، أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش ، يدعى ماء الحيوان . أربعين سنة ، فينبتون كما ينبت الزرع من الماء ، وفي رواية أربعين يوماً فينبتون في قبورهم ، نبات الزرع ، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ، ثم يلقي عليهم النوم ، فينامون في قبورهم ، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ، ثم يحشرون من قبورهم ، وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم ، كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه ، فعند ذلك يقولون : « قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » (١) فيناديهم المنادي « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) » (٢) قال مجاهد : إذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الأرض ثم يرسل الأرواح ، فتعود كل روح إلى جسدها ، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كإحيائه الأرض به .

وقيل : إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء ، والمعنى ، أنه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه ، وموته ، فأنبث فيه الزرع ، والشجر ، وجعل الثمر ، كذلك يحيي الله الموتى ، ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ، أو رمماً بالية ، لأن من قدر على إخراج التمر الرطيب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ، ويخرجهم من قبورهم إلى حشرهم ، ونشرهم (٣) .

(١) حديث المطر الذي ثبت منه أجساد الناس ، رواه مسلم في كتاب الفتن رقم ١١٦ ورواه أحمد ١٦٦/٢ - سورة يس ، آية ٥٢ .

(٢) سورة يس آية ٥٢ .

(٣) تفسير الخازن ٢/٢٠١ ، وانظر التفسير الكبير ٧م/ج ١٣/١٤٣ .

وكذلك ذهب «الألوسي» إلى الرأي الثاني ، وهو أن التشبيه وقع بأصل الإحياء من غير اعتبار كلفيته ، ويقول : يجب الإيمان بهذا القول ، ولا يلزمنا البحث عن الكيفية ، ويفعل الله سبحانه ما يشاء (١).

وهذا من تشبيه المحسوس المجهول ، بالمحسوس المعلوم ، وهذا من خصائص التشبيه في القرآن إذ أنه يشبه المحسوس المجهول الدلالة ، فيقيسه على المحسوس المعروف ، فيتضح المشبه ، ويبين المجهول (١) . وهكذا نجد صورة البعث ماثلة أمام أعيننا متجددة في كل أرض وفي كل يوم ، ناطقة بقدرة الله مثبتة للبعث ، مجددة لتلك القدرة ولا تفتقر بتذكير الإنسان بالبعث بعد الموت ، مجلية للمنكر ما يحيط بنفسه من شبه ، مداومة على ربط قلب المؤمن بمصيره المحتوم .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (٤٥) (٢) .

وقع التشبيه في هذه الآية الكريمة ، لنقل صورة ذلك اليوم العظيم إلى نفوس المنكرين ، فها هم اليوم يحشرون من قبورهم بعد ذلك الدهر الطويل ، الذي مكثوا فيه بين الحفر ، ولكن الهول شديد ، والخطب الجليل ، قد أنساهم طول مكثهم تحت التراب ، فهم في ذلك اليوم يحشرون مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة من النهار (٣).

قال القرطبي في ذلك ، أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم ، إلا ساعة من النهار ، أي

(١) روح المعاني ١٤٧/٨ ، وقد ذهب إلى هذا الرأي ، محمد محمود حجازي في التفسير الواضح ، ١٤٧/٨ وكذلك أحمد بدوي في كتابه من بلاغة القرآن ص ٢١٣ وذهب صاحب التحرير إلى أن تلك الكيفية لا يعلمها إلا الله : ١٨٣/٨ .

(٢) انظر البيان في ضوء أساليب القرآن ، ص ٧٨ .

(٣) سورة يونس آية ٤٥ .

قدر ساعة يعني أنهم استقصروا طول مقامهم في القبور لهول ما يرون من البعث دليل قولهم لبثنا يوماً أو بعض يوم وقيل : إنما قصرت مدة لبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا إلا مدة كونهم في القبر « ابن عباس » : رأوا أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كالساعة ^(١).

ويقول الألوسي : ليس المراد من التشبيه ظاهره كما قيل ، وقد صرح في « شرح المفتاح » أن التشبيه كثيراً ما يذكر ويراد به معان أخر تترتب عليه ، فالمراد إما التأسف على عدم انتفاعهم بأعمارهم ، أو تمنى أن يطول مكثهم قبل ذلك حتى لا يشاهدوا ما شاهدوه من الأحوال فمآل الجملة في الآخرة ، نحشرهم متأسفين أو متمنين طول مكثهم قبل ذلك ، ويجوز أن يراد نحشرهم مشبهين في أحواله الظاهرة للناس بمن لم يلبث في الدنيا ، ولم يتقلب في نعيمها إلا يسيراً ، فإن من أقام بها دهرأ ، وتمتع بمتاعها ، لا يخلو عن بعض آثار نعمه ، وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاءة الهيئة ، وسوء الحال ، وإليه ذهب بعضهم ، والظاهر إنه تكلف لإبقاء التشبيه على ظاهره ، والأول أولى كما لا يخفى ، وأيا ما كان فقائدة التشبيه كنار على علم ^(٢).

فالمشبه هو حالهم يوم البعث .

والمشبه به حال من لم يلبث إلا ساعة.

وأداة التشبيه كأن.

فهو تشبيه محسوس مجهول ، بمحسوس معلوم ، لتقريبه إلى الأذهان ، وتصوير تلك الحالة النفسية للمبعوثين ، ووجه الشبه ، كما ذكرت آنفاً ، وزاد على ذلك »

(١) الكشف، ٢٤٩/٢ - البحر المحيط، ١٦٣/٥.

(٢) الجامع لأحكام البيان ٣١٨٦/٤.

صاحب التحرير » ، وأن وجه الشبه ؛ هو التحقق والحصول بحيث لم يمنعهم طول الزمن من الحشر ، وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا ، فكأنهم لم يفنوا ، وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم ^(١) .

وقول « صاحب التحرير » هو أيضاً ما قد عرض له « الألوسي » من قبل في نهاية حديثه عن هذه الآية ورأى أنه تكلف .

وأرى - والله أعلم - أنه لا مانع من إضافة هذا الوجه إلى وجه الشبه ، إذا أن مقاصد القرآن الكريم ومرامييه من كلماته ، وحروفه ، لا تحيط بها العقول .

وأرى كذلك أن هذا الوجه الذي ذهب إليه « صاحب التحرير » قريب إلى خاطري ، لما فيه من تصوير تلك الهيئة التي يكون عليها المبعوثين من قبورهم ، وأن طول مكثهم تحت التراب لم يحل دون قدرة الله - عز وجل - على إرجاعهم بتلك الهيئة التي فارقوا عليها الدنيا ، حتى إنه ليعرف بعضهم بعضاً تماماً كما أن الساعة لا تغير الهيئات بمرورها فمن شاهدك الآن ، وعاد إليك بعد ساعة فإنه لا ينكر فيك شيئاً ، وهذا غاية الإعجاز والتعجيز التي لطم بها القرآن الكريم شبه المنكرين للبعث ، فخرت من قواعدها . ويرى « صاحب التحرير » أن القصد من هذا التشبيه هو التعريض بإبطال دعوى المشركين ، إحالتهم البعث بشبهة أن طول اللبث ، وتغير الأجساد ينافي إحياءها ^(٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » ^(٣) .

(١) روح المعاني ١١/١٢٧ .

(٢) التحرير ، ١١/١٠٢ .

(٣) سورة هود ، آية ٧ .

ورد التشبيه في الآية الكريمة ، على لسان المنكرين للبعث ؛ فالمشبه هو القرآن الكريم ، أو البعث على اختلاف التفاسير والمشبه به السحر .
وهذا الضرب من التشبيه البليغ (١) .

وتحقيق ذلك كما يقول « الجمل » حيث شبهوا نفس البعث أو القرآن المتضمن لذكره بالسحر في الخديعة ، حيث زعموا أنه إنما ذكر ذلك لمنع الناس عن لذات الدنيا ، وصرفهم إلى الانقياد له ، ودخولهم تحت طاعته ، أو في البطلان فإن السحر لا شك أنه تمويه وتخيل باطل فشبّهوا به الأمور المذكورة في البطلان (٢) .
وقيل : إن المراد إنكار البعث بطريق الكناية الإيمائية ؛ لأن إنكار البعث ، إنكار للقرآن (٣) .

وهذا من تشبيه المحسوس المجهول ، بالمحسوس المعلوم وحذفت أداة التشبيه ، وهذا يسمى بالتشبيه المؤكد ، وذلك أن هؤلاء المنكرين جعلوا القرآن أو البعث سحراً ، حتى أنهم حذفوا أداة التشبيه ؛ لإثبات مدى يقينهم بصدق ما يقولون ، فكان المشبه والمشبه به شيء واحد لم يحتج إلى ذكر أداة التشبيه .

من التشبيه أيضاً لتقريب أمر البعث ، ما جاء في قوله تعالى : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٧٧) (٤) .

(١) انظر حاشية الشهاب، ٧٦/٥ .

(٢) الفتوحات الإلهية ٢، ٣٨٢، وانظر: الكشف ٣٨/٢، روح المعاني ١٢/١٣ .

(٣) روح المعاني ١٢/١٣ .

(٤) سورة النحل، آية: ٧٧ .

الآية الكريمة تبين قدرة الله على البعث ، فتصور تلك القدرة العظيمة ، في الإتيان بالساعة بأسرع ما يراه الرائي ، وهو لمح البصر ، الذي اتخذ مثلاً يؤدي إلى الهدف^(١).

فالمشبه حصول الساعة ، والمشبه به لمح البصر وأداة التشبيه الكاف ووجه الشبه : السرعة .

وهو من تشبيه المحسوس المجهول ، بالمحسوس المعلوم ، وذكر بعض المفسرين أن معنى قوله أو هو أقرب لبيان أنه على إحدى المنزلتين ، إما لمح البصر ، وإما أقرب ، وقيل : هو « لشك » المخاطب ، أي كونوا منها على هذا الشك .

والتشبيه في الآية أبلغ الأشياء في وصف ما يخبر عنه بمثل هذه الحال من الوحي ، والسرعة وقرب زمن الكون^(٢).

على أنني أرى - والله أعلم - أن المقصود ليس إحدى المنزلتين ، وإنما التصوير ، والتقريب ، لشدة سرعة ذلك اليوم ، وأن المقصود « بأو » ليس الشك ، وإنما قصد بها الارتقاء والإضراب ، أي ليس أمرها كلمح البصر بل هو أقرب من ذلك ، أو تكون (أو) للإبهام يعني أنه يستبهم على من يشاهد سرعتها هل هي كلمح البصر أو أقل^(٣).

ومن التشبيه كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ »^(٤).

(١) من بلاغة القرآن ص ٢٠٦ .

(٢) الجمان في تشبيهات القرآن ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٣) انظر حاشية الشهاب ٢٥٧/٥٢ .

(٤) سورة الكهف آية ١٩ .

الآية الكريمة ترمي إلى إثبات البعث ، عن طريق ما حدث للأقوام السابقة ، من خوارق العادات .

فالمشبه الإيقاظ من النوم ، والمشبه به الإنامة المشار إليها ، أداة التشبيه الكاف ، في قوله « كذلك » وجه الشبه ، كون كل منها آية دالة على كمال قدرته الباهرة - عز وجل - فكما أنماهم هذه الإنامة الطويلة ، أيقظناهم ^(١) وهذا أيضاً من الأدلة الحسية التي وقعت للأمم السابقة ، وشاهدها الخلق بأعينهم وعاشوا أحداثها ، وخلدها القرآن الكريم ، كدليل على قدرة الله على البعث ، بعد طول الزمن وامتداد البلى .

ومنه أيضاً قوله تعالى في السورة ذاتها : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ » إلى آخر الآيات « ^(٢) المشبه حال أصحاب الكهف في نومهم .

المشبه به حالهم في يقظتهم ، وأداة التشبيه من أفعال الظن وهو قوله « تحسب » وحاصل ذلك التشبيه ، وهو تشبيه حال أهل الكهف ، أثناء نومهم الطويل الذي دام مئات السنين ، بحال يقظتهم ^(٣) . ووجه الشبه دوام الحركة ، والتقليب يميناً وشمالاً كما قال بعض المفسرين أو بقاء أعينهم مفتوحة ، كما قال آخرون .

ومن التشبيه أيضاً ما ذكره - المولى عز وجل - في وصف أهوال يوم القيامة ، وشدة وقع أحداثها على نفوس الخلق ، فقال تعالى : « ... وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » ^(٤) .

(١) روح المعاني ٢٢٩/١٥ - حاشية الشهاب، ٨٤/٦ .

(٢) سورة الكهف، آية: ١٨ .

(٣) تحرير التحبير، ص ١٦٤ .

(٤) سورة الحج، آية ٢ .

فالمشبه حال الناس يوم القيامة ، والمشبه به حال ذلك السكران الذي قد أخذ منه السكر مأخذه ، فأخذ يترنح يمينا وشمالا ، لا يعلم أين يضع قدمه ، أداة التشبيه قوله « ترى » .

« المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم « بسكارى » على التحقيق ، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى ، هو الذي أذهب عقولهم ، وأفرعهم ، وقال « ابن عباس والحسن » : وتراهم سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب»^(١).

وهكذا نقل لنا هذا التشبيه تلك الصورة التي يكون عليها الناس يوم القيامة ، من الذهول وذهاب العقول ، فشبه ذلك الأمر المحسوس المجهول الكيفية ، بهذا الأمر المعلوم الكيفية ، وهذه سنة القرآن الكريم في نقل أهوال الساعة ، وخطوبها حتى كأن السامع يضع يده على قلبه وهو واقف على أعتاب ذلك اليوم الشديد .

ويأتي التشبيه أيضاً في وصف ما حل بالأقوام السابقة من العذاب .
فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (٤١) « (٢) » .

أراد المولى - عز وجل - أن يصف الصورة التي أصبح عليها هؤلاء القوم بعد أن حلت بهم الصيحة فها هم أولاء صرعى ، هلكى ، ملقى بهم على قارعة الطريق .
فالمشبه هم هؤلاء القوم الذين حلت بهم الصيحة والمشبه به غشاء السيل ، وهو

(١) التفسير الكبير م ١٢ ، ج ٢٣ / ٤ / تفسير الخازن ٥ / ٢ - انظر حاشية الشهاب ٢٨١ / ٦ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٤١ .

ذلك الشيء الحقير الذي لا ينتفع بشيء منه ^(١) ، أو هو ذلك النبات اليابس ^(٢) ؛ أو البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل فخالط زبده ، وقيل : هو كل ما يلقيه السيل والقدر مما لا ينتفع به ، وبه يضرب المثل في ذلك ^(٣) . وقيل : هو حميل السيل مما يلي : وأسود من الورق ، والعيذان ومنه قوله تعالى : « فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى » ^(٤) وحذف أداة التشبيه ، فهو من التشبيه البليغ ^(٥) للهيئة فهو تشبيه حالة بحالة ووجه الشبه : عدم الانتفاع في كل ، والبلى والتكدر في موضوع واحد ^(٦) . ويعلل صاحب « الظلال » اختيار هذا التشبيه فيقول : « وهؤلاء القوم لما تخلوا عن الخصائص التي كرمهم الله بها ، وغفلوا عن حكمة وجودهم في الحياة الدنيا ، وقطعوا ما بينهم وبين الملأ الأعلى . . . لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ، فإذا هم غثاء كغثاء السيل ، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام ، وذلك من فوائد التعبير القرآني الدقيق ^(٧) .

ومما وقع في القرآن الكريم من تشبيهات ، تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمراد بالعقل : ما ليس مدركاً بشيء من الحواس الخمس الظاهرة ، مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها ^(٨) . وذلك النوع من التشبيه استخدمه القرآن الكريم لتثبيت المعنى المراد

(١) تفسير القرآن الكريم ٢٥٥/٣ .

(٢) تفسير الجلالين ، الفتوحات الإلهية ١٩٢/٣ .

(٣) الفتوحات الإلهية ١٩٢/٣ .

(٤) التفسير الكبير ١٢م/٩٩/٢٣ - سورة الأعلى ، آية : ٥ .

(٥) التحرير ، ٥٩/١٨ - حاشية الشهاب ٣٣١/٦ .

(٦) التحرير ٨ .

(٧) ١٨/٤ ج ٢ .

(٨) الإيضاح ص ١٢٤ - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م مطبعة محمد صبيح وأولاده .

في النفوس .

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) » (١).

فقد شبه غفلتهم عن الآخرة ، وتقاصر علمهم عن الإحاطة بها ، بالعمى الذي هو غشاوة على بصر صاحبه ، يحجب عنه كل الشاهد ووجه الشبه عدم الاهتداء إلى المطلوب (٢).

وهذه الاضطرابات الثلاث ما هي إلا بيان درجاتهم ، حيث كان وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخطبون في شك وحيرة ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى . وفيه نكتة ؛ وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عما هم فلذلك عداه بمن دون عن ؛ لأن التفكير بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يصرون (٣) . وهذا الإضراب من باب الترقى من الوصف بالفظيح إلى الوصف بالأفظع (٤).

ومن التشبيه كذلك ما جاء في قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) » (٥) .

وهذا من التشبيهات التي ساقها القرآن الكريم لتصوير قدرة المولى عز وجل على البعث ، ولديهم دليل ذلك في أنفسهم وفي الآفاق فوقع التشبيه هنا بإخراج النبات

(١) سورة النمل، آية ٦٦.

(٢) التحرير ٥٩/١٨.

(٣) التفسير الكبير ١٢م/٢٤ج/٢١٢ - البحر المحيط ٩٣/١٧.

(٤) الإيضاح ص ١٢٤.

(٥) سورة الروم، آية ١٩.

من الأرض الميتة ، والمشبّه به البعث بعد الموت والفناء .

والمعنى كما إحياء الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث ، وفي هذا دليل على صحة القياس (١) .

وقيل : أي مثل إخراج النبات من الأرض تخرجون من القبور والحساب (٢) .

وقال « الرازي » : في هذا المعنى لطيف ؛ وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته ، وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده ، كما قال تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا » (٣) . لكن الحيوان نام متحرك حساس ، لكن النائم لا يتحرك ، ولا يحس ، والأرض الميتة لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ، ويحس ، والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها ، فك ما أن تحريك ذلك الساكن ، وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى ، كذلك إحياء الميت سهل عليه ، وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) . وهذا من لطائف تشبيهات القرآن الكريم ، وقد تكرر هذا التشبيه في عدة سور من القرآن ، وفي كل مرة يرد بصورة عجيبة حتى كأنه لم يرد قبل (٤) .

ومن التشبيه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » (٥) .

أراد المولى - جل ذكره - أن يبين حالهم يوم القيامة ، يوم يرون العذاب الأليم ،

(١) روح المعاني، ١٣/٢٠ .

(٢) تفسير الخازن ١٧٠/٥ .

(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٩ .

(٤) التفسير الكبير م١٣/ج ١٠٨ .

(٥) سورة الروم، آية ٥٥ .

فشبهه بحالهم في الدنيا يوم يرون الحق المبين فيعرضون عنه ؛ وفي هذا إشارة إلى انصرافهم عن الحق يوم البعث (١) .

وقيل : يصرفون عن الحق البعث ، كما يصرفوا عن الحق الصدق في مدة اللبث (٢) .

وقيل : أي يصرفون عن الإقرار ، والاعتراف به في الدنيا .

وقوله : البعث ، بدل من الحق وهذا بيان للمشبه ، وقوله « كما صرفوا . . إلخ » بيان للمشبه به الذي هو المراد باسم الإشارة (٣) .

وقيل : يصرفون من الحق إلى الباطل ، ومن الصدق إلى الكذب (٤) .

وقيل : التقدير ، إفك مثل إفكهم هذا كانوا يؤفكون به في حياتهم الدنيا ، والمقصود من التشبيه ، المماثلة ، والمساواة (٥) .

ومن التشبيه في الآيات أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » (٩) (٦) .

وهنا أيضاً صورة من صور البعث متمثلة أمام أعين الجاحدين ، ناطقة بقدرة الله جل جلاله إنها صورة تلك الأرض الميتة ، قد جفت تربتها ، وهمدت الحياة فيها ، فإذا الله - جلّت قدرته - يرسل الرياح ، فتثير السحاب ، وتسوقه بكل عظمة ، وجلال إلى تلك الأرض الميتة ؛ ليكسب فيها سلسيل الحياة ، فتلهم الأرض أشتاتها

(١) التحرير ، ٢١ ، ١٣٠ .

(٢) تفسير الجلالين ، الفتوحات الإلهية ٣/٣٩٩ .

(٣) الفتوحات الإلهية ٣/٣٩٩ .

(٤) التفسير الكبير م ١٣/ج ٢٥/١٣٧ .

(٥) التحرير ، ٢١ / ١٣٠ .

(٦) سورة فاطر آية ٩ .

وتنهض فيها الحياة .

فكما تمثلت هذه القدرة ، في هذه الأرض الميتة كذلك تكون هذه القدرة العظيمة يوم البعث ، في إعادة الحياة إلى أجساد الأموات .
فالمشبه هي الأرض الميتة التي تعود إليها الحياة .
والمشبه به البعث .

أداة التشبيه الكاف في قوله « كذلك » .

وذكر « أبو السعود » هذا التشبيه فقال : « أي مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الأموات في صحة المقدورية ، وسهولة التأتني من غير تفاوت أصلاً » وقال : « قيل في كيفية الإحياء ، يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق » (١) .

وفي « الكرخي » - وجه الشبه من عدة وجوه أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللاتقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل الحياة .

وثانيها : كما أن الريح تجمع القطع السحابية ، كذلك تجمع أجزاء الأعضاء وأبعض الأشياء .

وثالثها : كما أن نسوق الريح ، والسحاب ، إلى البلد الميت ، كذلك نسوق الروح إلى الجسد الميت (٢) .

(١) إرشاد العقل السليم ٤م/ج١٤٥/٧ وهذا القول نص عليه البيضاوي في تفسيره ٢٦٩/٢ . نص الحديث ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطل فتبت منه أجساد الناس ، رواه مسلم في صحيحه ٢٠١/٨ ، مطبعة محمد علي صبيح / مصر .

(٢) الفتوحات الإلهية ، ٤٨٧/٣ .

وفي «الكشاف» أي مثل إحياء الأموات ونشور الأموات (١).

وفي «الخازن»، أضاف إلى عبارة «الزمخشري» السابقة قوله: روى ابن الجوزي في تفسيره عن أبي رزيق العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: هل مررت بواذر أهلك ممحلاً، ثم مررت به يهتر خضراً؟ قلت: نعم. قال كذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في خلقه (٢).

ومن ذلك التشبيه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾ (٣).

«في التعبير عن الحياة بعد الموت بالنشر، تشبيه للموت بأنه طيُّ الحياة: الإنسان، كما تطوى الصحف على ما ضُمَّتْ عليه من كلمات. فإذا أريد النظر في هذه الكلمات مرة أخرى، نشرت هذه الصحف، بعد طيها. فالموت ليس إلا طياً لصفحة الحياة، مع بقاء الحياة كامنة في هذه الصحف المطوية، ونشر الصحف بعد طيها أمر هين، لا يحتاج إلى عناء ومعالجة، كما أنه لا يدعو إلى استبعاده وإنكاره» (٤).

فالمشبه الحياة بعد الموت.

والمشبه به الصحف التي تُطوى ثم تُنشر.

وهذا من التشبيه الضمني.

(١) الكشاف، ٦٠١/٣.

(٢) تفسير الخازن، ٢٢٤/٥ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ١١/٤٥.

(٣) سورة الدخان آية ٣٤ - ٣٥.

(٤) التفسير القرآني م٧/ج٢٥/٢٠٥.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)» (١).

في هذه الآية الكريمة ، وقع التشبيه بإحياء الأرض الميتة ، وقد ورد هذا التشبيه في آيات سابقة في سور مختلفة ، ولكنه في كل مرة يرد بطريقة مختلفة عن سابقتها ، لإيقاظ المشاعر الإيمانية في نفوس المنكرين بكل وسيلة ، ومع كل طريق .

يقول « ابن العلوي » فيما ورد مكرراً من الآيات سواء في اللفظ ، أو المعنى : «وهكذا القول فيما ورد من الآيات المكررة ، فإنها لم تتكرر إلا لمقصد عظيم في الرَّمز إلى ذلك المعنى الذي سيقّت من أجله ، فليَحْكُ الناظر قلبه في إدراك تلك اللطائف ، وليجعلها منه على بالٍ وخاطر ، ولا يتساهل في إحرازها ، فليلمحها بمؤخر عينه ، فإنها مشتملة على أسرار ورموز ، ومن أحاط بها فقد أتى من البلاغة مفاتيح الكنوز (٢) .

والمعنى في الآية : أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم (٣) .

وفي « الخطيب » كذلك ، أي مثل هذا الإخراج العظيم الخروج من قبورهم على ما كانوا عليه في الدنيا ، إذ لا فرق بين خروج النبات بعدما انهضم ، وتفتت في الأرض وصار تراباً ، كما كان من بين أصفره ، وأبيضه ، وأحمره ، وأزرقه ، إلى غير

(١) سورة ق آية ٩ - ١١ .

(٢) الطراز ١٧٩/٢٠ .

(٣) الكشف ، ٣٨١/٤ ، الجامع لأحكام البيان ، ٦١٧٧/٧ .

ذلك ، وبين إخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا في الدنيا ^(١).

وقيل : وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن حياة الموتى بالخروج ، تفخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للماثلة ، بين إخراج الموتى ^(٢).

ومن التشبيه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ^(٣).

وقع التشبيه في هذه الآية الكريمة في قوله « حَبْلِ الْوَرِيدِ » حيث أنه شبه ذلك العرق الذي يجري فيه الدم ، وتجري معه الحياة في بدن الإنسان بالحبل ^(٤) ، وذلك لأنه يشبه الحبل في امتداده واستدارته ^(٥) . والحبل أيضاً يعد أداة توصيل ، تصل الشيء بالشيء ، أو تربط الشيء ليبقى على حاله ، وكذلك هذا العرق فإنه وسيلة تصل الإنسان بالحياة ، كما أنه يربط الحياة ويقيها في جسد الإنسان ، فإذا انقطع انقطعت أسباب الحياة .

ومن التشبيه أيضاً ما جاء في وصف حال أهل النار ، وبيان ما هم فيه من كرب وشدة ، وبلاء عظيم . يقول الله تعالى في وصف بعض أحوالهم : « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ^(٥١) لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ^(٥٢) فَمَالُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ^(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ^(٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ^(٥٥) هَذَا نُزْلُهُمْ

(١) الفتوحات الإلهية ، ١٩١/٤ - وانظر حاشية الشهاب ، ٨٦/٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم م ٤/ج ٨/١٢٧ .

(٣) سورة ق ، آية ١٦ .

(٤) انظر الكشف ، ٣٨٣/٤ .

(٥) التفسير القرآني ، م ٧/٢٦/٤٧٨ .

يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾» (١).

أراد المولى عز ذكره - أن يبين شدة العذاب الذي يلقاه أهل النار ، فكان التصوير عيناً دقيقة تنقل لنا بعض تلك المشاهد الأليمة ، فيها هم أهل النار يأكلون من شجر الزقوم ، ذلك النزل المشؤوم ، الذي زاد لظاهم لظاً ، وعذابهم عذاباً ، وليس فقط يأكلون منه أكلاً قليلاً ، وإنما هم يملؤون منه بطونهم ، فيشتد كربهم ، ويزداد عطشهم ، فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، إذ يشربون عليه من الحميم ، طلباً لإطفاء العطش . « يقبلون عليه في سُعار مجنون ، أشبه بالإبل الهيم ، أي العطاش ، التي حبست عن الماء أياماً ، فإذا أوردت عُبَّت منه في نهم شديد ، لتنفع غَلَّتْهَا ، وتُروى ظمأها (٢) . وقيل الهيماء : داء يصيب الإبل فلا يروى معه ، وما تزال تشرب حتى تهلك ؛ وقيل : الهيم : الأرض ذات الرمل التي لا تروى بالماء (٣) . وفي إقبال أهل هذا الطعام على هذا الشراب - إشارة إلى أن ما في بطونهم من لهيب ، أشد من هذا الحميم ، فهم يستشفون من داء بداء ، ويستجيرون من بلاء بلاء ، ويطفئون النار بالنار » (٤) . فالمشبه هم أهل النار حين يأكلون من شجر الزقوم ، ويشربون من الحميم . المشبه به تلك الإبل العطاش ، عندما تأكل الحمض فيعرض لها الهيماء وهو شدة العطش (٥) .

وفي تفسير شربهم بشرب الهيم فائدتان .

(١) سورة الواقعة، آية: ٥١ - ٥٦ .

(٢) التفسير القرآني، ٧م/٧ج/٢٧٢/٧٧٢ .

(٣) تفسير الخازن، ١٨/٧، ١٩ .

(٤) التفسير القرآني ٧٢٢/٢٧ .

(٥) انظر الجمان في تشبيهات القرآن ص ٣٠٢ .

إحداهما : التنبيه على شربهم منه .

ثانيهما : عدم جدوى الشرب ، وأن المشروب لا ينجع فيهم ، كما ينجع في الهيم^(١).

قد حذفت أداة التشبيه فكان ذلك أكد لدخول المشبه في جنس المشبه به . يقول صاحب « الطراز » : « فأما ما كان من التشبيهات الرائعة مما أضمر فيه أداة التشبيه فهو كثير الدور ، والاستعمال في التنزيل ، وما ذاك إلا لرشاقتة ، وحسن موقعه ، ولطافته »^(٢).

وفي قوله تعالى : « هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » تشبيه أيضاً ، فالمشبه هو ما ذكر من ألوان العذاب والمشبه به ما يُعد للضيف من طعام . وهو تشبيه تهكمي ، وفي قوله (جزاء بما كانوا يعملون) تجريد للتشبيه التهكمي ، وهو قرينة على التهكم^(٣) .

وهذا التشبيه يبين مقدار تلك الصفة التي هم عليها « فالحطاب » يعلم يقيناً بشرب الكفار من الحميم ، وهو الماء الحار ؛ ولكنه لا يعلم مقدار اندفاعهم على هذا الشرب مع حرارته الشديدة ، فوضح التشبيه أن اندفاعهم كاندفاع الإبل العطاش التي لا تُروى داءً عندها ، ولا تزال حتى تهلك^(٤) .

وجاء التشبيه أيضاً في وصف هيئة المشركين حين يبعثون من قبورهم فقال تعالى : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ (٤٣) »^(٥) .

(١) الفتوحات الإلهية، ٢٧٧/٤.

(٢) الطراز ٣٢٨/١.

(٣) التحرير، ٣١١/٢٧، ٣١٢.

(٤) البيان في ضوء أساليب القرآن. ص ٨١.

(٥) سورة، المعارج، آية ٤٣.

المعنى : أنهم يخرجون من الأجداث يسرعون إلى الداعي مستبقين إليه كما كانوا يستبقون إلى نصبهم يستلمونها ^(١). والنصب هو الشيء المنسوب ، كالعلم ، والراية ونحوه وقيل : هي الأصنام التي كانوا يعبدونها ^(٢).

فشبه إسرائيلهم يوم القيامة إلى الحشر ، بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها ؛ لأن هذا الإسراع اختصاصاً بهم ، وفي هذا التشبيه إدماج لفظيهم حالهم في عبادة الأصنام وإيماء إلى أن إسرائيلهم يوم القيامة إسراع دُع ودفع ؛ جزاء على إسرائيلهم للأصنام ^(٣).

يقول « سيد قطب » في هذه الآية : « وهو مشهد رأينا له نظائر فيما مضى ، ولكن في التعبير شيئاً جديداً ، فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا ، لقد كانوا يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها ، فها هم أولاء يسرعون يوم القيامة لإسراعهم ذاك ، ولكن شتان بين هذا وذاك ! ثم تتم سماتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فنلمح سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة ، وهي صورة تناسق مع صورة الخوض واللعب في الدنيا ، فإنهم ليسرعون اليوم ولكن لا إلى اللهو واللعب ، بل إلى الذل والرهق ، وإن أساريرهم المرححة الفرحة في الدنيا ؛ لتخشع وتذل في الآخرة واحدة بواحدة ، ويوم بيوم : « ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » ^(٤).

ويقول صاحب « الجمان » : « والتشبيه في الآية واقع أحسن مواقفه في أنفس

(١) تفسير الخازن، ١٢٧/٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) التحرير ١٨٣/٢٩.

(٤) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٨٧.

مواضعه ، العبارة عنه بارة البيان ، دالة ببلاغتها على معجز القرآن » (١).

واستخدام القرآن الكريم التشبيه في بيان آيات الله الماثلة في الكون أمام الأنظار ، فمن ذلك ما جاء في وصف الشمس في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) » (٢).

فشبهت الشمس بالسراج ؛ لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله فالأولى جعل الضمير راجعاً للضوء المفهوم من مضيئاً (٣).

إذاً فقد شبهت الآية الشمس بالسراج ، وحذفت أداة التشبيه ، فهو من التشبيه البليغ (٤) .

حيث شبه الشمس بالسراج ؛ لأن كل منهما يزيل ظلمة الليل ، وإن كان أحدهما ياناره ، والآخر بمحو آيته (٥) ، ولكن كيف تشبه الشمس بالسراج ، وهي أقوى منه في الصفة ؟ قيل : لكون السراج أعرف ، وأقرب ، جعل مشبهاً به ، ولاعتبار التعدي إلى الغير في مفهومه ، بخلاف النور ، كان أبلغ منه ، ولعل في تشبيهها بالسراج القائم ضياء ، بطريق الانعكاس ، رمزاً إلى أن ضياءها ليس منعكساً إليها من كوكب آخر ، كما أن نور القمر منعكس عليه من الشمس ، لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد (٦) . والقصد من التشبيه ، تقريب المشبه من إدراك السامع (٧).

(١) الجمان في تشبيهات القرآن، ص ٣٢٠.

(٢) سورة نوح، آية ١٥ - ١٦.

(٣) الفتوحات الإلهية ٤ : ٤١٢.

(٤) روح المعاني ٧٥/٢٩ - حاشية الشهاب ٢٥٢/٨.

(٥) حاشية الشهاب، ٢٥٢/٨.

(٦) روح المعاني، ٧٥/٢٩.

(٧) التحرير، ٢٠٢/٢٩.

وبعد هذا العرض ، لما وقع في آيات البعث من التشبيهات أستطيع أن أقول : إن القرآن الكريم قد عمد إلى التشبيه عند ذكر البعث ، أو وصف أهوال القيامة ، وذلك لأن أمر البعث ، وأهوال القيامة من الأمور التي لم يقع عليها حس الإنسان بعد ؛ لذا فإن القرآن قد جعل من التشبيه وسيلة لتقريب تلك الأهوال ، وتشخيصها أمام الأنظار ؛ ليزداد الإنسان بها يقيناً ؛ وليعلم أن وعد الله حق ، ولينجلي ما في نفوس المنكرين من ريب ، وشك ، وليعلم الكاذبون أن الله على كل شيء قدير .

وهكذا نجد القرآن الكريم يستمد تشبيهاته من عناصر الطبيعة المحيطة بالإنسان ؛ لذا فإن هذه التشبيهات خالدة بخلود الزمن ، دائمة بدوام الدهر ، لا تقبلها رياح العصور ، ولا تؤثر فيها رقي الحضارات ، كما أن القرآن الكريم قد جعل من هذه التشبيهات عنصراً أساسياً في بناء الجملة ، لا يمكن الاستغناء عنها ، ولا يتم المعنى بدونه ؛ لذا فإن القرآن الكريم قد تميز بالقدرة الفائقة في استعمال الألفاظ الدقيقة ، الموحية ، المصورة ، والتي يظل فعلها قوياً ، مؤثراً ، وبهذا فقد حقق القرآن ما يهدف إليه من التأثير في العاطفة ، وتشخيص المجهول ، الذي يهدف إلى تثبيت المعنى وتحقيقه ، فكان من أوقع الأساليب في الترغيب ، والترهيب ^(١) ، والإصلاح ، والهداية إلى غير ذلك من الأهداف الجليلة التي يسمو إليها هذا البيان المعجز ، ويقصر المقام عن الإحاطة بها .

٢ - الاستعارة :

وتعد من الفنون البلاغية الراقية ، والتي تؤدي المعاني المطلوبة بأوجز عبارة ،

(١) انظر من بلاغة القرآن، ١٩٦ - ٢٠٤ التعبير الفني، القرآن ١٩٤ - ١٩٧ البيان في ضوء أساليب القرآن، ص ٧٥.

وأجمعها . وقد تحدث أهل الفصاحة ، واللُّسن . عن علو منزلتها ، وشرف قدرها ، وفاضت بمزاياها مؤلفاتهم .

يقول « السيوطي » : « اتفق البلغاء على أن الاستعارة أبلغ منه – أي من التشبيه – لأنها مجاز وهو حقيقة ، والمجاز أبلغ ، فإذا الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة » (١) .

ويقول « الرُّماني » عن فضلها : وكل استعارة حسنة ، فهي توجب بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقة » (٢) .

والأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه ، ولا يكون ذلك التشبيه واضحاً وإنما كما يقول « الجرجاني » يترأى لك بعد أن تخرق إليه سترأ ، وتعمل تأملاً وفكراً (٣) .

إذاً فضل الاستعارة بين ، وفائدتها جليلة ، تؤدي من المعاني العظيمة ما لا يؤديه اللفظ الحقيقي ؛ ولكن هل في القرآن الكريم استعارة باعتبارها من المجاز ؟ ذلك هو موضع خلاف بين العلماء .

فقد نفى بعض علماء الدين وجود الاستعارة في القرآن الكريم حرصاً منهم على لفظ القرآن الكريم ، ومعانيه ، من التأويل الذي لا يُحمد ، والذي قد يؤدي إلى الخروج عن جادة الطريق ، وذلك بعد خروج المعتزلة بالمجاز مخرجاً غير حميد ، إذ أخذوا يصرفون الآيات عن معانيها إلى معانٍ أخرى ، بحجة المجاز ، مما أوقعهم في الخلط ، والخبط .

(١) معترك الأقران ، ٢٨٤/١ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن ، ص ٧٩ .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

ولم يحل مذهب « ابن قتيبة » السنيّ بينه وبين إقراره بوجود المجاز في التنزيل العزيز ، ومع ذلك فقد كان في قوله حريصاً دقيقاً - يقول : « ولو كان المجاز كذباً ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً ، كان أكثر كلامنا فاسداً ، لأننا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأبنت الثمرة وأقام الجبل ، ورخص السعر » (١) .

وليس المقام للجدل في وجود الاستعارة في القرآن الكريم ، وعدمها فقد أفردت في ذلك مصنفات خاصة (٢) ، ولكن هذا القول إضاءة أردت أن أستثير بها في مدخل حديثي عن الاستعارة الواردة في آيات البعث .

وما سأذكره من هذه الاستعارات ليست من ذات نفسي ، وإنما هي من كتب العلماء ، جمعتها ، ونثرتها على هذه الصفحات ، فالعهد إذًا على السلف ، وسوف أقوم بتخريج هذه الاستعارات على الحقيقة ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً .

فمن الاستعارات الواردة في آيات البعث ، ما جاء في قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » (٥٥) (٣) .

وقعت الاستعارة في قوله « جهرة » ، ومعنى جهرة : أي عياناً ، وهي في الأصل مصدر قولك « جهرت بالقراءة » استعيرت للمعانية لما بينهما من الاتحاد في الوضوح ، والانكشاف ، إلا أن الأول في المسموعات ، والثاني في المبصرات (٤) .

وقيل : الجهرة : المعانية ، وأصلها الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة ، والمجاهرة

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٣٢.

(٢) من تلك المصنفات « المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، عرض وتحليل ونقد » د . عبد العظيم المطعني.

(٣) سورة البقرة، آية ٥٥.

(٤) إرشاد العقل السليم ١/م/١٠٣ - روح المعاني ١٦٢/١ - وانظر حاشية الشهاب ١٦٤/٢.

بالمعاصي ؛ ورأيت الأمر جهرة جهاراً : أي غير مستتر بشيء (١) .

وقيل : أي حتى نرى الله عياناً لا ساتر بيننا وبينه ، فيكون كالجهر في الوضوح
«والجهر في المسموعات كالمعانية في المبصرات » (٢) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » (٣٠) (٣) .

وقعت الاستعارة في قوله « فذوقوا وهي استعارة بليغة ، والمعنى : باشر ، ومباشرة
الذائق إذ هي أشد المباشرات » (٤) .

وقيل خص لفظ الذوق ؛ لأنهم في كل حال يجدونه وجدان الذائق في قوة
الإحساس (٥) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » (٣١) (٦) .

وقعت الاستعارة في قولهم « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » والأوزار
جمع وزر يقال : وزر يزر فهو وزر وموزور ، وأصله من الوزر .

قال « أبو عبيدة » : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع ؛ أحمل وزرك ،

(١) فتح القدير ٨٧/١ .

(٢) تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، ١/١٢١ ، ط ٣ ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م دار الفكر .

(٣) سورة الأنعام ، آية ٣٠ .

(٤) البحر المحیط ، ٤/١٠٦ .

(٥) التفسير الكبير ، م ٦٢/١٩٦ - تفسير الخازن ، ٢/١٠٦ - تفسير المراغي ، م ٣٧/١٠٥ .

(٦) سورة الأنعام ، آية ٣١ .

أي ثقلك ، ومنه الوزر ؛ لأنه يحمل أثقل ما يسند إليه من تدبير الولاية . والمعنى : أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها ، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل (١) .

وقيل : الأوزار الخطايا والآثام ، قاله ابن عباس . والظاهر أن هذا الحمل حقيقة ، وهو قول عمير بن هانيء ، وعمرو بن قيس الملائي ، والسدى واختاره الطبري ، وما ذكره محصولة ، أن عمله يمثل في صورة رجل قبيح الوجه والصورة ، خبيث ، الريح ، فيسأله ، فيقول : أنا عملك طالما ركبتني في الدنيا ، فأنا اليوم أركبك ، فيركبه ، ويتخى به رقاب الناس ، ويسوقه حتى يدخله النار ، ورواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا المعنى واللفظ مختلف (٢) .

وقيل : هو مجاز عبر بحمل الوزر عن ما يجده من المشقة ، والآلام بسبب ذنوبه ، والمعنى : أنهم يقاسون عقاب ذنوبهم مقاساة تشغل عليهم ، وهذا القول بدأ به ابن عطية ، ولم يذكر الزمخشري غيره ، قال : كقوله : فما كسبت أيديكم ؛ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور ، كما ألف الكسب بالأيدي ، وخص الظهر ؛ لأنه غالباً موضع اعتياد الحمل ، ولأنه يشعر بالمبالغة في ثقل المحمول ، إذ يطبق من الحمل الثقيل ما لا تطيقه الرأس ، ولا الكاهل (٣) .

وقيل الوزر في الأصل ، الثقل ، ثم قيل للثقل وزر ، تشبيهاً بالجبل ، ثم استعير الوزر للذنوب تشبيهاً به ملاقة المشقة منه ، والحاصل أن هذه المادة تدل على الرزاة ،

(١) فتح القدير، ١١١/٢.

(٢) فتح القدير، ١١١/٢ وفي مسند الإمام أحمد . . . ويأتي رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، متن الريح، فيقول: ابشر بالذي يسؤك. هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول: « من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث ». ٢٨٨/٤.

(٣) البحر المحيط، ١٠٧/٤ - وانظر التفسير الكبير، ١٩٩/١٢ ج٦م.

والعظمة (١).

وقيل : جعل الذنوب ، والآثام محمولة على الظهر من باب الاستعارة التمثيلية ؛ فإنه أبلغ في شدة مشقة عذابهم من جهة أن الشيء الثقيل قد يحمل باليد ، فإن أفرط حمل على الكتف ، فإن أفرط ثقله حمل على الظهر ، فشبه شدة مشقة العذاب بأثقل الأشياء المحمولة على الظهور ؛ لتعذر حملها على الأكتاف ، وفي الأيدي ، والأوزار ؛ الأثقال شَبَّ مشقة عهدة الذنوب بمشقة حمل الأثقال (٢) وقيل : حملها على الظهور حقيقة ، وأنها لجسم ، وبعضهم يجعل كل ما ورد في هذا الباب مما ذكر تمثيلاً أيضاً ، ولا مانع من الحمل على الحقيقة ، وإجراء الكلام على ظاهره - وقد قال كثير من أهل السنة ، بتجسيم الأعمال في تلك الدار ، وهو الذي يقتضيه ظاهر الوزن (٣) .

ويقول « سيد قطب » في تصوير ذلك المشهد : ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال بل الدواب أحسن حالاً ، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال ؛ ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ! والدواب تحط عنها أوزارها ، فتذهب لتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم مشيعين بالتأثيم (٤) .

ومن الاستعارة كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ

(١) عبارة السمين، الفتوحات الإلهية ٢٢/٢، وانظر تفسير المراغي / ٣م، ج ٧/ ١٠٤.

(٢) روح المعاني ١٣٣/٧ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٦٨، ٦٩، وانظر حاشية الشهاب، ٤٨/٤.

(٣) روح المعاني ١٣٣/٧ - انظر حاشية الشهاب، ٤٨/٤.

(٤) الظلال م ٢٢/٤ ج ١٠٧٢.

كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾» (١).

احتوت الآية الكريمة على عدة استعارات منها قوله « يرسل الرياح » ، والإرسال في المحبوس إطلاقه ، وفي المطلق بعته (٢).

يقول « صاحب التحرير » : أطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة ؛ فأرسل الرياح هبوبها من المكان الذي تهب فيه ، ووصولها ، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه ؛ فشُبِّهت بالعاقل المرسل إلى جهة مآ ؛ ومن بدائع هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء ، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد (٣).

وفي قوله « بين يدي رحمته » إستعارة أيضاً . يقول « ابن قتيبة » : « وقد توضع الرحمة موضع المطر ؛ لأنه ينزل برحمته » (٤).

وقيل : بين يدي رحمته ، أمام نعمته ، وهو المطر الذي هو من أجل النعم ، وأحسنها أثراً ، والتعيين عن أمام الرحمة بقوله « بين يدي » من مجاز الاستعارة ، إذ الحقيقة هو ما بين يدي الإنسان من الإحرام (٥).

وعلل « الفخر الرازي » لحسن هذه الاستعارة بقوله : « والسبب في حسن هذا المجاز ، أن اليدين يستعملهما العرب في معنى التقدم على سبيل المجاز ؛ والسبب في

(١) سورة الأعراف، آية ٥٧.

(٢) نزهة الأعين النواظر، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ١/ص ٦٦ تصحيح وتعليق: السيدة مهر النساء - ط ١ - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية لحيدر آباد الدكن الهند.

(٣) التحرير ١٧٨/٨.

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤٦. وانظر حاشية الشهاب، ١٧٦/٤.

(٥) البحر المحيط، ٣١٧.

حسن هذا المجاز ، أن يدي الإنسان متقدماته ، فكل ما كان يتقدم شيئاً يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز ؛ لأجل هذه المشابهة ، فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لا جرم عبر عنه بهذا اللفظ » (١) .

وكذلك ، قوله « لبلد ميت » استعارة ، حيث وصف البلد بالموت ، لجذبه ، وعدم نباته ، كأنه كالجسد الذي لا روح فيه ، من حيث عدم الانتفاع به (٢) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) » (٣) .

جاءت الاستعارة في قوله « يدعوكم فتستجيبون » قال « الزمخشري » : الدعاء والاستجابة كلاهما مجاز ، والمعنى : يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون (٤) ، ولا دعاء ولا استجابة (٥) .

وقال « أبو حيان » : والظاهر أن الدعاء حقيقة ، أي يدعوكم بالنداء الذي يسمعكم ، وهو النفخة الأخيرة ، كما قال « وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) » (٦) الآية . ويقال : إن إسرافيل - عليه السلام - ينادي : أيتها الأجسام البالية ، والعظام النخرة ، والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت ؛ وروي في الحديث عن أبي الدرداء ، أنه قال - صلى الله عليه وسلم - : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم ،

(١) التفسير الكبير، ٧م/ج ١٤/١٤٠ - ١٤١ .

(٢) الصفوة ١/٤٥٤ .

(٣) سورة الإسراء، آية ٥٢ .

(٤) الكشف، ١٧٢/٢ .

(٥) انظر حاشية الشهاب، ٤٠/٦ .

(٦) سورة ق، آية ٤١ .

وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسمائكم » ^(١) ومعنى فتستجيبيون : توافقون الداعي فيما دعاكم إليه » ^(٢).

وقال آخرون : الاستجابة مستعارة لمطاوعة معنى « يدعوكم » أي فتحيون ، وتمثلون للحساب . أي يدعوكم وأنتم عظام ورفات ، وليس للعظام والرفات إدراك ، واستماع ، ولا ثم استجابة ؛ لأنها فرع السماع ، وإنما هو تصوير لسرعة الإحياء ، والإحضار ، وسرعة الإبعث ، والحضور للحساب ، بحيث يحصل ذلك كحصول استماع الدعوة ، واستجابتها في أنه لا معالجة في تحصيله ، وحصوله ، ولا ريث ، ولا بطء في زمانه ^(٣).

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » ^(٤) . الاستعارة واقعة في قوله « فضربنا » يقول « الصاوي » : المراد أئمتناهم ففي الكلام تجوز حيث شبه إلقاء النوم بضرب الحجاب ، واستعير اسم المشبه به للمشبه ، واشتق من الضرب ، ضربنا ، بمعنى : أئمتنا ، استعارة تصريحية ^(٥) .

وذكر « الألويسي » في تفسيره : أن « القطب » أخرجها على الاستعارة المكنية بأن يقال : شبه الإنامة الثقيلة ، بضرب الحجاب على الآذان ، ثم ذكر ضربنا ، وأريد أئمتنا وهو وجه فيها .

(١) سنن أبي داود للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني باب ٢٣٦/٥/٦٩ . إعداد رتعلق : عزت عبيد الدعاس ، عادل السيد ط ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ، دار الحديث حمص ، سوريا - ورواه الدرامي - سنن الدرامي عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدرامي ، باب الاستئذان ٢/٢٩٤ ، دار إحياء السنة النبوية .

(٢) البحر المحيط ، ٤٧/٦ ، وانظر حاشية الشهاب ، ٤٠/٦ .

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ، م ٣/١٧٨ ج ١ - التحرير ١٥/١٣٨ .

(٤) سورة الكهف ، آية ١١ .

(٥) حاشية الصاوي ٦/٣ .

وجوز أن تكون من باب الاستعارة التمثيلية ، واختاره بعض المحققين ^(١) .

وقيل : أي أئمانهم نوماً شديداً ، من ضربت على يده إذا منعه عن التصرف ؛ وإرادة هذا المعنى بطريق الاستعارة التبعية ، بأن تشبه الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ، ثم يذكر المشبه به ، ويراد المشبه ، ثم يشتق منه الفعل ^(٢) .

وقال « الرُّمَّاني » : حقيقته منعناهم الإحساس بأذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ؛ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يُحس ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان ، دون الضرب على الأبصار ؛ لأنه أدل على المراد ، من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ؛ وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم في الآذان ؛ لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن لما كانت طريقاً إلى الانتباه ، ثم ضربوا عليها لم يكن سبيل إليه ^(٣) .

وقيل شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان ، كما تضرب الخيمة على السكان ^(٤) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » ^(٥) .

(٦) روح المعاني ١١٢/١٥ - وانظر حاشية الشهاب، ٧٨/٦.

(١) الفتوحات الإلهية، ٧/٣، وانظر حاشية الشهاب ٧٨/٦.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ص ٨٦.

(٣) الصفوة ١٨٨/٢.

(٤) سورة الكهف آية ١٢.

قيل : البعث ورد في القرآن على ستة أوجه . منها : الإيقاظ من النوم ^(١) بعثناهم هنا أي أيقظناهم ^(٢) . والبعث هو التحريك عن سكون إما في الشخص ، وإما عن الأمر المبعوث فيه ^(٣) .

ولما كانت اللفظة منقولة عن معناها الأصلي إلى معنى الإيقاظ هنا ، كان هذا من باب الاستعارة . وحسنها هنا ، أن القصة وردت لإثبات قدرة الله على البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن في هذه الإفاقة دليلاً على إمكان البعث ، وكيفيته ^(٤) .

ومن الاستعارة كذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » ^(٥) .

وقعت الاستعارة في قوله « وربطنا » ؛ لأن الربط هو الشد بالحبل ^(٦) ، ولما كان الفزع وخوف النفس يشبهه بالتناسب الانحلال ، حَسُنَ في شدة النفس وقوة التصميم أن تشبه الربط .

والمعنى : ربطنا على قلوبهم ، أي ثبتناها وقويناها على الصبر على هجرة الوطن ، والنعيم ، والفرار بالدين إلى غار في مكان قفر ، لا أنيس به ولا ماء ، ولا طعام ^(٧) وقيل : المراد ، شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية ^(٨) والاستعارة

(١) نزعة الأعين النواظر، ١٠٧/١، ١٠٨.

(٢) البحر المحيط، ١٠٣/٦ - أنوار التنزيل ٥/٢.

(٣) البحر المحيط، ١٠٣/٦.

(٤) انظر التحرير ٢٨٩/١٥.

(٥) سورة الكهف آية ١٤.

(٦) الفتوحات الإلهية، ١٠/٣.

(٧) البحر المحيط ١٠٥/٦.

(٨) الصفوة ١٨٨/٢.

تصريحية ، تبعية (١) .

وقيل : شبه القلب المطمئن لأمر ، بالحيوان المربوط في محل وعدى ربط بعلى (٢) ، إذا فالربط على القلب مستعار إلى تثبيت الإيمان ، وعدم التردد فيه ؛ فلما شاع إطلاق القلب على الاعتقاد ، استعير الربط عليه ، للتثبيت على عقده (٣) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا » (١٧) (٤) .

فالاستعارة في « تَقْرِضُهُمْ » لأن هذه اللفظة دالة على سرعة الإرتجاع ، وذلك أن الشمس كانت إذا أطلعت عندهم تمكث قليلاً بقدر ما تصلح هواءهم ، ثم تميل عنهم ، فحُسن التعبير عنها بلفظة القرض . فهذه من الاستعارة التخيلية (٥) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ... » (٦) .

وقعت الاستعارة في قوله « أَعْتَرْنَا » أي أطلعنا عليهم ؛ وأصل هذا أن من عثر بالشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه (٧) فكان العثار سبباً لحصول العلم والتبين ،

(١) الفتوحات الإلهية، ١٠/٣ .

(٢) حاشية الشهاب، ٨٠/٦ .

(٣) التحرير، ٢٧٢/١٥ .

(٤) سورة الكهف، آية ١٧ .

(٥) جوهر الكثر « تلخيص كنز البراعة لنجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي » : ت: محمد زغلول سلام. ص ٥٨ - دار المعارف بالإسكندرية - وانظر حاشية الشهاب، ٨٢/٦ .

(٦) سورة الكهف، آية ٢١ .

(٧) تأويل شكل القرآن، ص ١٣٩ ، التفسير الكبير م ١١/ج ٢١/١٠٤ - وانظر حاشية الشهاب، ٨٦/٦ .

فأطلق اسم السبب على المسبب (١) .

وقيل : استعير العثار مكان التبين والظهور ، ومنه يقول الناس : ما عثرت على فلان بسوء قط ، أي ما ظهرت على ذلك منه (٢) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ » (٣) ، الرجم في الأصل إلقاء الحجر بشدة الدفع ، ثم استعير في مواضع منها : القول بالظن (٤) . وجاءت الاستعارة في قوله « رَجْمًا بِالْغَيْبِ » والمعنى رمياً بالشيء المغيب عنهم ، أو ظناً استعير من الرجم ، كأن الإنسان يرمي الموضع المجهول عنده بظنه المرة بعد المرة ، يرمم به عسى أن يصيب (٥) .

وقيل : الرجم بمعنى الرمي ، وهو استعارة للتكلم بما لم يطلع عليه لحفائه عنه ، تشبيهاً له بالرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضاً .

أو المعنى : ظناً بالغيب من قولهم : رجماً بالظن ، بمعنى : المظنون على تشبيه الظن بالحجر المرمي على طريق الكناية (٦) .

وقال « الألوسي » في تفسيره : « استعير الرجم وهو الرمي بالحجارة التي لا تصيب غرضاً ، ومرماً ، للمتكلم من غير علم ، وملاحظة بعد تشبيهه به » .

وفي « الكشف » أنه جعل الكلام الغائب عنهم علمه بمنزلة الرجام المرمى به ، لا

(١) التفسير الكبير، ١١م/ج ٢١/١٠٤ .

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٣٩ - انظر حاشية الشهاب، ٨٦/٦ .

(٣) سورة الكهف، آية: ٢٢ .

(٤) نزهة الأعين النواظر ١/٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٥) البحر المحيط، ١١٤/٦ .

(٦) الفتوحات الإلهية ١٦/٣ - وانظر حاشية الشهاب، ٨٨/٦ .

يقصد به مخاطب معين ، ولو قصد لأخطأ ؛ لعدم بناءه على اليقين ، كما أن الرجام قلما يصيب المرجوم على السداد ، بخلاف السهم ونحوه ؛ ولهذا قالوا : قذفاً بالغيب ، ورجماً به ، ولم يقولوا رمياً به ، وأما الرمي في السب ، ونحوه فانظر إلى تأثيره في عرض المرمى تأثير السهم في الرمية . وعلى الثاني شبه ذكر أمر من غير علم يقيني ، واطمئنان قلب ، بقذف الحجر الذي لا فائدة من قذفه ، ولا يصيب مرماه ، ثم استعير له ، ووضع الرجم موضع الظن حتى صار حقيقة عرفية فيه ^(١).

وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس بل المحسوس بالمحسوس ^(٢).

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كُفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا » ^(٣).

جاءت الاستعارة في قوله « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » ، وأصله من أحاط به العدو ^(٤) ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه ، واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك ^(٥) ، إذا فالتجوز بالتعبير بالإحاطة عن الإتلاف والإهلاك ^(٦).

قال « الألويسي » : « أُحِيطَ بِثَمَرِهِ » استعارة تمثيلية ، شبه إهلاك . جنتيه بما فيهما ، بإهلاك قوم حاط بهم عدو ، وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم ، ويحتمل

(١) روح المعاني، ٢٤١/١٥.

(٢) حاشية الشهاب، ٨٨/٦.

(٣) سورة الكهف، آية ٤٢.

(٤) الكشف، ٧٢٤/٢ - البحر المحيط، ١٣٠/٦ - فتح القدير، ٢٨٨/٣.

(٥) انظر المرجع السابق.

(٦) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ٧٣.

أن تكون الاستعارة تبعية ، وجعل ذلك من باب الكناية أظهر ^(١) .

وقال « ابن قتيبة » أصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد فحاصره فقد دنا أهله من الهلكة ^(٢) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٧٥) ^(٣) .

يقول « الجمل » أن قوله تعالى « في كتاب مبين » سُمي العلم كتاباً على سبيل الاستعارة التصريحية ، حيث شبه الكتاب كالسجل الذي يضبط الحوادث ، ويحصيها ، ولا يشذ عنه شيء منها ^(٤) .

وأرى - والله أعلم - أن هذا ليس من الاستعارة ، إذ أنه ثبت أن هناك كتاب مبين يكتب فيه كل صغيرة ، وكبيرة .

قال « الشوكاني » : إلا في كتاب مبين ، إلا هو مبين في اللوح المحفوظ ^(٥) .

وقال « أبو حيان » : أي أحاط به وأثبتته في اللوح المبين الظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة ^(٦) .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن سلمان قال : « ما من شيء قضى الله ، القرآن فما قبله وما بعده ، إلا وهو في اللوح المحفوظ ، واللوح المحفوظ بين عيني

(١) روح المعاني ٢٨٢/١٥ ، وانظر حاشية الشهاب ، ١٠٣/٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٦٧ .

(٣) سورة النمل ، آية : ٧٥ .

(٤) الفتوحات الإلهية ، ٣٢٥/٣ .

(٥) فتح القدير ، ١٥٠/٤ .

(٦) البحر المحيط ٩٥/٧ .

إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه ^(١) .

وعن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، صفاحتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ، ويرزق ويميت ، ويحيي ويعز ، ويدل ، ويفعل ما يشاء ^(٢) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » ^(٣) .

النشر في الأصل : بسط الشيء ، ومدّه على ما هو عليه من منتهى جوانبه ، ويستعار في مواضع تدل عليها القرينة ^(٤) .

والاستعارة جاءت في قوله « كذلك النشور » إذ أن النشر مستعار من نشر الثوب أي بسطه .

فهي من الاستعارة المكنية ، حيث شبه إحياء الموتى ، وبعثهم من قبورهم ، بالثوب الذي ينشر ، وحذف المشبه وأبقى على شيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » ^(٥) .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، قاله « الشوكاني » في فتح القدير ، ١٥٠/٤١١ .

(٢) أخرجه الطبراني سليمان بن أحمد ، في المعجم الكبير ، ٧٢/١٢ ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي السلفي . مكنية ابن تيمية .

(٣) سورة فاطر ، آية ٩ .

(٤) نزّهة الأعين الأعين النواظر ، ١٨٢/٢ ، ١٨٣ .

(٥) سورة يس ، آية ٥٢ .

وقعت الاستعارة في قوله « من مرقدنا » . فالمرقد استعارة عن مضجع الميت ^(١) ، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم ؛ لأنه أشبه الأشياء بها ، وأبلغ من قوله : من بعثنا من مماتنا ^(٢) .

وقيل : أصل الرقاد النوم ، وحقيقته من مهلكنا ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن النوم أظهر من الموت والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت ؛ لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة ^(٣) .

واستعار الرقاد للموت ، وهما أمران معقولان ، والجامع عدم ظهور الأفعال ^(٤) ، والكون ، وهو من استعارة المعقول للمعقول ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية ^(٥) .

واحتمل أن يكون مصدراً من « رقادنا » وهو أجود ، أو يكون مكاناً فيكون المفرد فيه يراد به الجمع ، أي مراقدنا ، وما روى عن أبي بن كعب ، ومجاهد ، وقتادة ، من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر فقالوا : هو غير صحيح الإسناد ، وقيل : قالوا : من مرقدنا ؛ لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم . والظاهر أن هذا ابتداء كلامهم ، فقيل : من الله على سبيل التوبيخ ،

(١) البحر المحيط، ٣٤١/٧.

(٢) الصفوة ٢/٣.

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ص ٨٥؛ انظر البيان في ضوء أساليب القرآن، ص ١٧٣.

(٤) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي، ص ٢٦٨، تحقيق ودراسة: د. بكري شيخ أمين، ط ١ - ١٩٨٥ م - دار العلم للملايين، بيروت - لبنان. مفتاح العلوم، ص ٣٨٩، معترك الأقران، ٢٧٩/١، الطراز، ٣٣٦/٣.

(٥) البرهان، الزركشي، ٤٤٢/٣، وانظر جوهر الكنز، ص ٥٨، الطراز، ٣٣٦/٣.

والتوقيف على إنكارهم^(١) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ »^(٢) .

جاءت الاستعارة في قوله « خاشعة » ، يقال : خشع إذا تطامن ، وقيل : أصل الخشوع ؛ اللين – والسهولة^(٣) .

ويقول « الزمخشري » : الخشوع : التذلل ، والتقاصر . فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها^(٤) .

وقال « البيضاوي » : يابسة ، متطامنة ، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل^(٥) .

وقيل : استعير الخشوع لها ، وهو التذلل لما ظهر بها من القحط ، وعدم النبات ، وسوء العيش عنها ، بخلاف أن تكون معشبة ، وأشجاراً مزهرة ، ومثمرة فذلك هو حياتها^(٦) .

وقيل : خاشعة : يابسة جرداء لا نبات فيها . تشبه الرجل الخاضع الذليل^(٧) .

يقول « الألوسي » : يجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية ، شبه حال جدوبة الأرض ، وخلوها عن النبات ، ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر ، وانقلابها من الجدوبة

(١) البحر المحيط، ٣٤١/٧ .

(٢) سورة فصلت، آية: ٣٩ .

(٣) نزهة الأعين النواظر، ١٦٧/١ ، ١٦٨ .

(٤) الكشف، ٧٢٤ – وانظر الفتوحات الإلهية، ٤٤/٤ .

(٥) أنوار التنزيل، ٣٥٤/٢ – روح المعاني ١٢٦/٢٤ .

(٦) البحر المحيط ٤٩٩/٧ .

(٧) الصفوة ١٢٤/٢ .

إلى الخصوبة ، وإنبات كل زوج بهيج ، بحال شخص كئيب كاسف البال ، رث
الهيئة ، لا يؤبه به ، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا ، وزيتها تكلف بأنواع الزينة ،
والزخارف ، فيختال في مشيه زهواً ، فيهتز بالأعطاف خيلاء ، وكبراً فحذف
المشبه ، واستعمل الخشوع ، والاهتزاز دلالة على مكانه ، ورجح اعتبار التمثيل (١) ،
كما جوز أن تكون الاستعارة تبعية لحال الأرض في السكون وكونها مجدبة لا نبات
فيها (٢) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ
بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » (١١) ، (٣) .

جاءت الاستعارة في قوله « فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا » أي أحيينا .

فالإحياء أمر عقلي ، ثم وقع مستعاراً لإظهار النبات ، والأشجار ، والثمار ، وأنه
أمر حسي (٤) .

وقيل : شبه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت ، ثم أنشروها الله ، أي أحيائها
بالمطر ففيه استعارة تبعية (٥) .

وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لتضمنها معنى المبالغة ما ليس أظهرنا (٦) .

وقيل : « ميتاً » إشارة إلى بلوغ ضعف حالة الغاية ، وفي الكلام استعارة مكنية ،

(١) روح المعاني ١٢٦/٢٤ وانظر حاشية الشهاب، ٤٠١/٧ .

(٢) حاشية الشهاب، ٤٠١/٧ .

(٣) سورة الزخرف آية ١١ .

(٤) مفتاح العلوم ص ٣٩١ .

(٥) الصفوة ١٦٨/٣ .

(٦) البيان في ضوء أساليب القرآن، ص ١٧١ .

أو تصريحية ^(١) .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » ^(٢) .

وقعت الاستعارة في قوله « يتلقى » ، فالتلقي : أخذ الشيء من يد معطية . استعير لتسجيل الأقوال ، والأعمال حين صدورها من الناس ^(٣) ، بجامع الجمع والإحصاء ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سُكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » ^(٤) الاستعارة في قوله تعالى « سكرة الموت » والمقصود شدته الزاهية بالعقل ^(٥) ، مستعارة من الحالة التي تعرض بين المرء وعقله ، بجامع أن كلا منهما يصيب العقل بما يصيب ^(٦) ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية ^(٧) ، التحقيقية ، ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية وإثبات السكرة لها تخييل ^(٨) .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » ^(٩) .

(١) روح المعاني، ١٨٢/٢٦ – وانظر حاشية الشهاب، ٨٦/٨ .

(٢) سورة ق، آية ١٧ .

(٣) التحرير ٣٠١/٢٦ .

(٤) سورة ق آية ١٩ .

(٥) الكشف ٣٨٥/٤ .

(٦) روح المعاني ١٨٢/٢٦ .

(٧) الصفوة ٢٤٩/٣ – حاشية الشهاب، ٨٨/٨ .

(٨) المرجع السابق الأخير .

(٩) سورة ق، آية ٢٢ .

وقعت الاستعارة في قوله « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ » والغطاء ؛ الحجاب المغطي لأمر المعاد ، وهو الغفلة ، والانهماك في المحسوسات ، والألف بها ، وقصر النظر عليها ^(١) وقد جعل - سبحانه وتعالى - الغفلة غطاء غطى به الجسد كله ، أو غشاوة غشى بها عينه ، فلا يبصر شيئاً ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت عنه الغفلة ، وغطاؤها ، فأبصر ما لم يكن يبصره من الحق ^(٢).

فاستعير « الغطاء » للغفلة ، بجامع الحجب والستر ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، لأن الغطاء مشتق من « التغطية » .

ومن الاستعارة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٣).

الأصل في الإلقاء رمي الشيء ^(٤) . جاءت الاستعارة في قوله « ألقى السمع » وهو مستعار لشدة الإصغاء للقرآن ، ومواعظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - كأن أسمعهم طرحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه . وهي استعارة عزيزة ، شبه توجيه السمع لتلك الأخبار دون اشتغال بغيرها ، بإلقاء الشيء لمن أخذه فهو من قسم من له قلب ^(٥). وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » ^(٦).

(١) انظر روح المعاني ١٣٠/٨ وانظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، ص ٧٢.

(٢) انظر تفسير المراغي ، ٩٤/٢٦٢ - الكشف ، ٤/٣٨٦.

(٣) سورة ق آية ٣٧.

(٤) نزهة الأعين النواظر ، ١/٧٠.

(٥) التحرير ٢٦/٣٠١.

(٦) سورة الواقعة ، آية ٦٥.

جاءت الاستعارة في قوله « تفكهون » ، التفكه ، والتنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ^(١) . وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع ، وقد كُنِّيَ به في الآية عن التعجب ، أو الندم ، أو التلاوم على اختلاف التفسير ^(٢) . بجامع التنقل في كل ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » ^(٣) .

وقعت الاستعارة في قوله « أنبتكم » أي أنشأكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث ، والتكون من الأرض ^(٤) .

وقيل : لكونه محسوساً ، وقد تكرر احساسه ، وهم إن لم ينكروا الحدوث . جعلوا بإنكار البعث كمن أنكره ، ففي الكلام استعارة مصرحة تبعية ^(٥) ، حيث شبه إنشاءهم وخلقهم من أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض ، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التبعية ^(٦) .

٣ - الكناية :

وهي إحدى الروائع الأسلوبية التي تجلت بها الذكر الحكيم ، فشرفت بشرف وجودها بين آياته .

والكناية مظهر من مظاهر البلاغة ، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه ؛

(١) إرشاد العقل السليم، م/٤ج/٨، الفتوحات الإلهية، ٢٧٩/٤ - روح المعاني - ١٤٨/٢٧ .

(٢) روح المعاني، ١٤٨/٢٧ .

(٣) سورة نوح، آية ١٧ .

(٤) الكشف، ٦١٨/٤ - وانظر إرشاد العقل السليم، م/٥ج/٩ - ٣٩ - الفتوحات الإلهية، ٤١٢/٤ .

(٥) روح المعاني، ٧٥/٢٩ - وانظر الفتوحات الإلهية، ٤١٢/٤ .

(٦) الصفوة ٤٥٥/٣ ، حاشية الشهاب، ٢٥٢/٨ .

وصفت قريحته ، والسر في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيبتها برهانها (١).

وهي من الفنون التي توخاها العرب حرصاً منهم على استجلاب الألفاظ المؤدية للمعاني المقصودة ، وبها يتذوقون الأساليب ، ويوشون فنون الكلام (٢).

وهي أبلغ من الإفصاح ، لأنك كلما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته ، وبذلك يزيد إثباته ، فتجعله أبلغ ، وأكد ، وأشد (٣).

ومن الآيات التي وردت فيها الكناية ما جاء في قوله تعالى : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » (٤).

انظر إلى صورة تلك القرية ، وقد سقطت بيوتها ، وخلت طرقها فلا تسمع فيها إلا صفير الرياح يعصف بياقيها ، وتبحث عن كلمة تنقل لك ذلك المشهد بكل دقائقه ، وتفصيله ، فلا تجد أبلغ ، وأكد مما وصفها به القرآن الكريم « خاوية » فكُنِّي بهذه الكلمة عما حلَّ بتلك القرية من خراب ، ودمار . وهي كناية عن موصوف وهي القرية . ونجد أن هذا التلميح أبلغ من التصريح ، فلو كان في غير القرآن الكريم وقيل « وهي خراب ودمار » لما أدى تلك الإيقاعات الخاصة ، والوحشية ، والسكون ، التي أوحى بها كلمة « خاوية » .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

(١) جواهر البلاغة، ص ٢٨٠.

(٢) انظر علوم البلاغة، ٢٨٦.

(٣) انظر دلائل الإعجاز، ص ٥٥، ص ٥٦.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٩.

صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ (١).

يقول صاحب التحرير : السؤال مستعمل في الاستبطاء ، وهو كناية عن عدم اكترائهم به ، وأنهم لا يأبهون به ؛ لينتقل من ذلك إلى أنهم مكذبون بحصوله ، بطريق الإيماء ، بقرينة « كنتم صادقين » أي إن كنتم صادقين في أنه واقع فعينوا لنا وقته ، وهم يريدون أننا لا نصدقك حتى نرى ما وعدتنا ، كناية عن اعتقادهم عدم حلوله وأنهم لا يصدقون به ، والوعد المذكور هنا ما هددوا به من عذاب الدنيا (٢)، وذكر « ابن كثير » في تفسيره ، أن المقصود بالوعد هنا مجيء الساعة (٣) . وهذه من الكناية عن موصوف وهو الوعد بمجيء الساعة .

ومن الكناية أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ » (٤).

تأمل قوله تعالى « فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ألا تشعر أن هناك معنى آخر أوحى به إليك الآية الكريمة ؟ أن ذلك كناية عن كون ما يوعدون به له أجل مضروب ، وحد معين ، لا يتعداه بقطع النظر عن التقدم والتأخر (٥) . وهذا كناية عن موصوف وهو الوعد المذكور .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ » (٦).

(١) سورة يونس، آية ٤٨ .

(٢) التحرير، ١١/١٨٩ .

(٣) ٤٣٥/٢ .

(٤) سورة يونس آية ٤٩ .

(٥) انظر روح المعاني ١١/١٣١، حاشية الشهاب، ٣٥/٥ .

(٦) سورة هود، آية ٧ .

إذا أمعنت النظر في قوله « إن هذا إلا سحر مبين » تكشف لك معنى آخر غير ما تبادر إلى ذهنك ، وحين ترجع بالسؤال إلى نفسك هل يقصدون ذلك السحر ، الذي هو ضرب من الشعوذة ، أم يقصدون معنى آخر ؟ تبين لك إنما يقصدون بذلك النبي - ﷺ - كما قال « القرطبي » فهو كناية عنه - ﷺ - (١) .

وقيل : بل يعنون بذلك القرآن (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : « وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) » (٣) .

أرأيت كيف عبر القرآن عن تلك الحالة ، حالة الرفض المشوب بأشياء كثيرة بقوله « فسينغضون إليك رؤوسهم » أي يميلونها تلك الإمالة التي تكون ممن يرفض ما تقول ، ويستبعده ، وينطوي في نفسه على استجهالك ، وعدم الالتفات إليك ، وكأنك تقول قولاً لا يصح ، ولا يعقل .

ويتضح من كل هذا أن العبارة هنا يستقيم معناها المباشر في النفس ، والعقل ، وأن هذا المعنى الصحيح سبيل إلى المعنى الآخر المقصود ، الذي هو وراء هذه العبارة (٤) . وهذا المعنى كناية عن صفة وهي تلك الحركة التي تسمى إلى التكذيب ، والاستبعاد ، ويقصد بها الكبر ، والغطرسة (٥) .

(١) تفسير الجامع لأحكام البيان، ٣٢٣٧/٤ .

(٢) تفسير الخازن، ١٨٠/٣ .

(٣) سورة الإسراء، آية ٤٩ .

(٤) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د . محمد أبو موسى ٣٦٦، ٣٦٧، ط ٢، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م مكتبة وهبة - عابدين القاهرة دار التضامن للطباعة - القاهرة .

(٥) البيان في ضوء أساليب القرآن - ص ٢٨٠ .

وحين نقف أمام قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) » (١).

نجد منظر الحسرة والندامة الذي تلبس ذلك الرجل يترآى أمام أعيننا ، فيها هو ذا يضرب كفاً بأخرى ، ويقلبها ، وفي قلبه من الحسرة ما فيه ، وذلك كله كناية عن الندم الذي نزل به عندما رأى ما حل بجنته من الدمار والهلاك (٢).

وعندما تجول بنظرك في قوله تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) » (٣).

فإنه يمثل لك ذلك المنظر المفزع ، وتلك الزلزلة العظيمة التي تفرع فيها النفوس إلى التماس الآمن ، والالتجاء إلى ركن شديد ، وهي من الكنايات الممتلئة عن الهول ، والكرب (٤).

وإذا تأملت ما وراء هذه الآية الكريمة ، تجد أن وراء ذهول المرضعة عن طفلها الذي ألقمته ثديها ، وذهول الناس كافة ، ووضع الأحمال ، حتى يحيط بكافة الإناث ، لا تشذ عنه واحدة بين إنسان ، أو حيوان على اختلاف طبائعه في الشعور بالأمن والفزع ، واختلاف قوة غريزة الأمومة ، وطغيانها ، أو اعتدالها (٥). إذا

(١) سورة الكهف آية ٤٢.

(٢) انظر الكشف، ٧٢٤/٢ - فتح القدير، ٢٨٨/٣ - البحر المحيط، ١٦/١٣٠ - روح المعاني، ٢٨٢/١٥ - إرشاد العقل السليم ج٣/٢٢٣ - الصفوة ١٩٥٢ - انظر حاشية الشهاب، ١٠٣/٦.

(٣) سورة الحج آية ٢.

(٤) التصوير البياني، ص ٣٩٧.

(٥) التصوير البياني، ص ٣٧٩.

تأملت كل ذلك ، وقر في نفسك مدى علو فصاحة الكلم القرآني ، وبراعة استعمال الألفاظ المصورة الموحية ، فأيقنت أنه من لدن حكيم عليم . وهذه الكناية عن صفة ذلك الهول ، والرعب الذي يزلزل النفوس .

ومن الكناية أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) » (١) .

فإن قوله « في قرار مكين » كناية عن جعل النطفة محرزة ، مصونة (٢) ، أو كناية عن حصين (٣) .

وقيل : القرار المكين ، هو مكان الاستقرار ، والمراد هنا الرحم (٤) ؛ فترك التصريح بهذا اللفظ ، إلى لفظ آخر أرقى بياناً ، وأكثر دلالة على أمان الموضع الذي تودع فيه النطف حتى حين . وهذه كناية عن موصوف وهو الرحم .

ومن الكناية ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) » (٥) .

كأنه قال : كنتم منكرون البعث الذي كنتم تكذبونه ؛ فترك التصريح بتكذيبهم ، وجاء بما يرادفه ؛ وهذا ما يسمى كناية الإرداف ؛ وبيان أن تذكر شيئاً ، وتذكر معه ما هو دليل عليه ، ورديف له (٦) .

(١) سورة المؤمنون، آية: ١٢، ١٣.

(٢) روح المعاني، ١٣/١٨ - حاشية الشهاب، ٣٢٢/٦.

(٣) حاشية الشهاب، ٣٢٢/٦.

(٤) البحر المحيط، ٣٩٨/٦.

(٥) سورة الروم، آية: ٥٦.

(٦) جواهر الكنز، ص ١٠٤. وانظر الفوائد المشوق، ص ١٩١.

وذلك التلميح أبلغ أثراً ، وأوقع في النفس من التصريح ، فإن التصريح في مثل هذا الموضوع قد يترك للمعنى بالقول مجالاً للاستشفاء بالرد والمجادلة ، ولكن التلميح يقع في النفس موقعاً عظيماً ، ويؤدي مراد المتكلم ، ويذهب بنفس المخاطب كل مذهب ، وهذه من سمات الكناية التي لا يؤديها أي فن آخر .

وحين نقف أمام قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) » (١) .

فإننا نرى أن قوله هذا ، هو وصف لتلك الهيئة التي يكون عليها أهل الكفر والإنكار حين يقفون بين يدي خالقهم ، وأرادت الآية الكريمة أن تنقل لنا تلك الصورة بكل ما احتوت عليه من معاني تذهب إليها النفس عند رؤيتهم ؛ لذا فقد عدل عن التصريح بتلك الهيئة ، وكفى عن ذلك الذل ، والحزن ، والهم ، والغم (٢) ، بنكس الرؤوس ؛ والإنسان إذا حلَّ به عار يقال : نكَّس رأسه ، كناية عما تلبسه من الذل ، والمهانة . فأتى القرآن الكريم بهذه اللفظة لنقل هيئة الكفار وما هم فيه من الذل والصغار ، ولا تستطيع أي لفظة أخرى نقل هذا المشهد الزاخر بالمعاني العظيمة كما أدته هذه اللفظة . وهذه الكناية عن صفة الذل والهوان ، والحزي ، والحزن .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) » (٣) .

وذلك كناية عن شدة السرعة بين الصيحة وهلاكهم (٤) ، حتى إنه من شدة

(١) سورة السجدة، آية: ١٢ .

(٢) انظر البحر المحيط، ٣٠١/٧ .

(٣) سورة، يس، آية: ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) التحرير، ٢٢/٣٥ .

سرعتها ليس هناك إمهالاً لتوصية ، ولا رجوع إلى أهل ^(١) .

ولو كان في غير القرآن الكريم ، وأراد أن يصور تلك السرعة الهائلة التي تقع بين الصيحة ، والإهلاك ، وقال مثلاً : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم بسرعة مهولة » فإننا نرى أن هذه اللفظة وأمثالها ، لا تنقل لنا تلك الصورة المرادة والتي أداها اللفظ القرآني أبرع أداء ، حتى أنه ليجول معها الخيال فلا يستطيع إدراكها ، وإدراك ما رسمته ، وهذه مميزات الكناية القرآنية .

وحينما نقف أمام قوله تعالى : « قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » ^(٢) .

نجد أن هناك معنى آخر قصدت إليه الآية الكريمة ، قد توارى خلف هذا المعنى الظاهر الذي تكشف عنه الآية ؛ ففيه كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر فلا يفيدهم التخاصم للإلقاء التبعة على أحد الفريقين ^(٣) .

ولو كان في غير القرآن الكريم وأراد أن يبين إنقضاء الأمر ، وانقطاع الأسباب ، لما استطاع الإتيان بمثل هذه الكناية البديعة التي حوتها هذه الآية في تصوير انقضاء الأمر ، وعدم جدوى الجدل .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ » ^(٤) ففي قوله « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ » ^(٥) جوّز في نفس الزيادة أن يكون

(١) البحر المحيط، ٣٤٠/٧ .

(٢) سورة (ق) ، آية : ٢٨ .

(٣) التحرير، ٣١٥/٢٦ .

(٤) سورة (ق) ، آية : ٣٠ .

(٥) سورة (ق) ، آية : ٣٠ .

على ظاهره ، وأن يكون كناية أو مجازاً عن الاستكثار . وجوز أن يكون كناية عن شدة غيظها على العصاة كأنها طالبة لزيادتهم ^(١) .

ومن الكناية أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِنِّي فِي ذَلِكَ لِذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » (٣٧) . ^(٢)

أرادت الآية الكريمة أن تبين مقدار قوة السمع الذي يعي ما يلقى إليه ، ومدى استحضار تلك الحاسة العظيمة ، فعبرت بالإلقاء ، وإلقاء السمع كناية عن الاستماع ؛ لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه ، أو أمسكه ، فإذا أرسله حصل الاستماع ^(٣) . فكانت هذه اللفظة غاية في الدقة ، وبراعة التصوير ، وهي كناية عن صفة السمع .

وحين نقف أمام استنكارات المنكرين ، وشبههم ، وما يلقونه من استفهات عن صدق ما يوعدون به ، يتبين لنا أن تلك الأسئلة ليست مقصودة في ذاتها ، وإنما يرمون من ورائها إلى التكذيب والإنكار . فنجد مثلاً ما جاء في قوله تعالى : « وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ » (٤٧) . ^(٤)

فإن الاستفهام الإنكاري كناية عن الإحالة ، والاستبعاد ^(٥) ؛ وقد حمل هذا الاستفهام المكثي في طياته من الإنكار ما لا تحمله العبارة الصريحة في قوة الإنكار وشدته . وهذه كناية عن صفة وهي التكذيب ، والاستنكار .

ومن الكناية أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » (١٣) . ^(٦)

(١) روح المعاني، ١٨٧/٢٦ سبق ذكر الحديث، ص ٢٣٤.

(٢) سورة، ق، آية: ٣٧.

(٣) التفسير الكبير م ١٤/ج ٢٨/١٨٢.

(٤) سورة الواقعة، آية: ٤٧.

(٥) التحرير، ٣٠٧/٢٧.

(٦) سورة نوح، آية: ١٣.

فهو حث على رجاء الوقار لله ، والمراد الحث على الإيمان ، والطاعة الموجبين لرجاء ثواب الله ؛ فهو كناية تلويحية ؛ لأن من أراد رجاء تعظيم الله ، وتوقيره إياه آمن به ، وعبدته ، وعمل صالحاً ، ومن عمل الصالحات رجاء ثواب الله ، وتعظيمه إياه في دار الثواب ، فإن الحث على تحصيل الرجاء مسبوق بالحث على تحصيل الإيمان ، فهو من باب مقدمة الواجب (١) .

وقيل : كناية عن التوبيخ على تركهم الإيمان بالله (٢) . وهذه الكناية أوقع في النفس ، وأعظم أثراً من كشف المراد والتصريح بالقول ، خاصة في مثل هذا المقام ، حيث اللوم ، والعتاب .

وهكذا ، نرى كيف علا القرآن الكريم ، وارتقى ، وراق ، في استخدامه لهذا الفن من فنون البلاغة ، فأورد كل كناية موردها الصحيح فلا نبو ، ولا إخلال ، بل تأدية للمعاني الجليلة بأقل عبارة وأبينها ، ونجد أن كل كناية وردت قد ذهبت بالنفس كل مذهب في الحسن والجمال ، وتأدية المراد بكل لطافة ، وحسن ، وهذا هو شأن القرآن الكريم في مختلف الفنون التي طوعت لخدمة معانيه ، وتأدية مراده ، فسمما بكل ما حوى ، واعتلى ، حتى بلغ الإعجاز ، والتعجيز .

رابعاً : علم البديع :

وهو ذلك الفن من البلاغة الذي يضم تحته عدداً من الفنون البلاغية ، التي بها يعرف وجوه تحسين الكلام بعد إحرازه لمعاني البلاغة ، وأنواع الفصاحة ، وجودة المطابقة (٣) .

(١) الفتوحات الإلهية، ٤/٤١١ .

(٢) التحرير، ٢٩/٢٠٠ .

(٣) انظر : الطراز، ٣/٢٤٦ .

على أن هذه الفنون ترتقي ، وتبلغ الذروة ، حين لا تُقصد لذاتها ، وإنما يجري بها الكلام دون تكلف . فمتى عُمد إلى استجلابها كدُر صفوها ، وانطفأ بريقها ، فتصبح جعجعة بلا طحناً .

وليس البديع في يد الفنان حلية تقتسر ، ولا زينة يستغني الكلام عنها ، ولا زخرفة يأتي دورها بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه ، ولا يجيء مكانه في المرتبة الثالثة ، بعد استيفاء علمي المعاني والبيان حقهما ، فإن الإنتاج الأدبي يبرز إلى الوجود في نظمه الخاص ، وبه الصور البيانية ، والمحسنات البديعية ، دفعة واحدة ، فكأنما هذا المحسن البديعي جاء في مكانه ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولاً ؛ أما ما فيه من جمال لفظي فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات تتطلبها المعنى ، ولا يغني غيرها غناءها (١) .

وبما أن القرآن الكريم هو أعلى بيان ، فقد كان لا يعمد إلى الألفاظ لذاتها ، وإنما كان يستعمل الكلمة المؤدية للمعنى في أوضح صورة ، وأرشق عبارة ، فتجلى بلفظه ومعناه .

ومن الفنون البديعية التي وردت في آيات البعث نذكر أهمها :

١- المحسنات المعنوية :

١ - الطباق :

وقد كثرت أمثله في آيات البعث ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق ، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ

(١) من بلاغة القرآن، ص ١٨١ .

الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ... » (١) .

فقد وقع الطباق بين قوله « موتوا » وقوله « أحياهم » فالموت والحياة ضدان ، وهو من طباق الإيجاب .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَكَّنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمُ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ » (٢) .

جاء الطباق في هذه الآية بين قوله « تحيي » وقوله « الموتى » وهذا النوع من الطباق الخفي الذي تحدث عنه أساطين البلاغة في مصنفاتهم (٣) .

وحين نقرأ قوله تعالى : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ... » (٤) .

نجد التطابق قد وقع بين قوله « أَيْقَاظًا » وقوله : « رُقُودٌ » (٥) . فإن اليقظة عكس المنام وكذلك بين قوله « ذَاتَ الْيَمِينِ » و « ذَاتَ الشِّمَالِ » (٦) .

ومن طباق السلب ما ورد في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ » (٧) .

(١) سورة البقرة، آية: ٢٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٦٠.

(٣) انظر بغية الإيضاح ٧/٤.

(٤) سورة الكهف آية ١٨

(٥) مفتاح العلوم - ٤٢٣ - الإتيان. ٩٥/٢، معترك الأقران، ٤١٤/١.

(٦) الصفوة، ١٨٨/٢.

(٧) سورة الحج، آية: ٥.

حيث وقع طباق السلب بين قوله «مخلقة» و«غير مخلقة»^(١)، وليس هذا من فضل القول ، وإنما عمدة فيه ؛ لبيان قدرة الله العظيمة ، التي تتجلى في خلق الإنسان .

ومن الطباق أيضاً ما ورد في قوله تعالى : «بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»^(٢).

الحق هنا : الصدق . فلذلك قبيل بنسبتها إلى الكذب فيما رموا به القرآن . وفي مقابلة «الحق» بـ «كاذِبُونَ» محسن الطباق ^(٣) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ»^(٤) .

وقع الطباق بين قوله «الشجر الأخضر» ، «وناراً» ، يقول الزمخشري : ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء ، وانطفائها به ، وهي الزناد التي توري بها الأعراض ^(٥) .

وبهذا نرى أن الطباق قد أدى معنى لا يقوم بغيره ، حيث جمع بين الشجر الأخضر والنار ، كما جمعت بينها قدرة الله في الطبيعة.

وحين نقف أمام قوله تعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ... إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ»^(٦) .

نجد أن هناك تطابق بين قوله «خاشعة» وقوله «اهتزت» فالخشوع هو : التذلل

(١) الصفوة، ٢/٢٨٥.

(٢) سورة المؤمنون آية ٩٠.

(٣) التحرير ١٨/١١٢.

(٤) سورة يس، آية ٨٠.

(٥) الكشف، ٤/٣١.

(٦) سورة فصلت، آية ٣٩.

والتقاصر ، وهو خلاف وصفها بالاهتزاز ، والربو ، وهو الانتفاخ ^(١) .

ومن الطباق أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) » ^(٢) .

طابق بين قوله « مَوْتُنَا » و « بِمُنْشَرِينَ » ^(٣) ، وهو من الطباق المعنوي ، إذ الموت ضد النشر والمراد الحياة .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ (٥١) » ^(٤) .
 وقع الطباق بين قوله « الْأَوَّلِينَ » ، « الْآخِرِينَ » ^(٥) .

وهكذا نرى أمثلة الطباق في الآيات كثيرة جداً ، ولم يكن القصد من هذا اللون البديعي تحسين الكلام فقط ، بل نرى أن له عمل رئيسي في أداء المعنى ، واستقامته ، لا يؤدي غيره ما أداه من المعاني العظيمة التي تتجلى فيها قدرة الله ، وعظيم سلطانه ، بالإضافة إلى ما يضيفي على اللفظ من رشاقة ، وجمال .

ويلحق بالطباق فن آخر وهو التكافؤ ، وقد ورد في آيات البعث منه ما جاء في قوله تعالى : « ... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » ^(٦) .

(١) الكشف ٢٠١/٤ .

(٢) سورة الدخان آية ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) الصفوة ، ١٧٨/٣ .

(٤) سورة الواقعة ، آية : ٤٩ - ٥١ .

(٥) الصفوة ، ٣١٦/٣ .

(٦) سورة الحج ، آية : ٥ .

فهمود الأرض ، واهتزازها ضدان ، وهما حقيقتان . وإنما أمكن ذلك ؛ لأن الأرض تربو حالة نزول الماء عليها ، وهي لا تنبت في تلك الحالة ، فإذا انقطعت مادة السماء ، وجفف الهواء رطوبة الماء ، خمد الربو ، وعادت الأرض إلى حالها من الاستواء ، وتشققت وأنبتت ؛ فصدر الآية تكافؤ ، وما قابله في عجزها طباق ^(١) .

٢ - المقابلة :

وهي أيضاً من المحسنات المعنوية ، لها طابعها الخاص ، وثقلها الفني ، وتعد ركناً أساسياً في أداء المعنى ، بالإضافة إلى وقعها الخاص على الأسماع ، وما تؤديه في النفس من تأثير .

ومنه ما جاء في قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) » ^(٢) .

ذكر الله - تعالى - في السماء ثلاثة : البناء ، والتزيين ، ونفي الفروج . وفي الأرض ثلاثة : المد ، وإلقاء الرواسي ، والإنبات .

قابل المد بالبناء ؛ لأن المد وضع ، والبناء رفع ، وإلقاء الرواسي ، بالتزيين بالكواكب ، لارتكاز كل واحد منهما ، والإنبات المترتب على الشق ، بانتفاخ الفروج ، فلا شق فيها ^(٣) .

ونرى المقابلة بين قوله تعالى : « أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكُهَا

(١) بديع القرآن ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سورة (ق) آية : ٦ ، ٧ .

(٣) البحر المحيط ، ٨ / ١٢٢ .

فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) » (١).

فترى قدرة الله الخالق سبحانه تنطق بها هذه المقابلة البديعة بين رفع السماء وتسويتها ، وبسط الأرض لتسهيل السير عليها .

وهكذا رأينا تجلي قدرة الله العظيمة فيما ذكرت الآيات من مقابلة بين الأضداد ، فمن قدر على الجمع بين هذه المتضادات لا يعجزه الجمع بين الإحياء ، والبعث . ولكن الظالمون بآيات الله يجحدون .

٣ - تجاهل العارف :

ويأتي لأغراض عديدة منها ما جاء في قوله تعالى : « إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) » (٢) .

وقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) » (٣) .

الآيتان وردتا على السنة الكفرة ، المنكرين للبعث ، والنشور ، وقد تحدثوا عن الرسول - ﷺ - بقولهم « رجل » ، وذلك من باب التجاهل ، كأنهم لم يعرفوا منه إلا أنه رجل ، وهو عندهم أشهر من الشمس ، وذلك تحقيراً لشأنه ، وعدم الاهتمام بما يدعو إليه (٤) .

(١) سورة النازعات آية: ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١ - الصفوة ٣/٥١٧.

(٢) سورة المؤمنون آية: ٣٨.

(٣) سورة سبأ آية: ٧.

(٤) انظر حاشية الشهاب، ٧/١٩٠، ١٩١. عروس الأفراح ٤/٤٠٦، البغية ٤/٦٨.

وهكذا ساقوا المعلوم مساق غيره ، لتحقيق غرض فاسد في نفوسهم .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) » (١).

إنه تجهل العارف لما يعرف ، ليزداد يقيناً بما عرف ، واستيقناً منه ، ولهذا فهو يسأل ، وهو يجيب : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) » (٢) فأى فوز أعظم من الظفر برضا الله ، والخلود في جناته ؟ (٣) .

٤ - المشاكلة :

وقد ورد منها في آيات البعث الشيء الكثير ، نذكر منه ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) » (٤) .

يقول صاحب « الشهاب » « قُلْ كُونُوا » لمشاكلة قولهم « كنا » (٥) . وذلك أنهم لا قدرة لهم على جعل أنفسهم في أية صورة شاءوا ، وعلى أية حال أراد ؛ وإنما القادر على جعلهم هو الله وحده .

ولكن قال « كُونُوا » لمشاكلة قولهم السابق .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « ... فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

(١) سورة الصافات، آية: ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) سورة الصافات، آية: ٦٠ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن، م٦/ج٢٣/٩٨٦ .

(٤) سورة الإسراء، آية: ٤٩ ، ٥٠ .

(٥) حاشية الشهاب، ٣٩/٦ .

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (١) .

ذهب «الشهاب» إلى أن هذه الآية مشاكلة (٢)، وربما يريد - والله أعلم - أن قوله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٣) هذه الجملة بتمامها مشاكلة لسابقتها بتمامها، فما كان الله ليظلمهم (٤)، وذلك لأنيان كل لفظ مشاكل لمقابله في الجملة الأخرى.

وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قد جازاهم على قدر أعمالهم وليس هذا ظلماً منه ، وإنما هو عدل ، وكان ظلمهم لأنفسهم بما فعلوه من المعاصي التي توجب هذا العذاب فكان ظلماً منهم لأنفسهم (٥) .

ومن المشاكلة أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «... ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّؤَى» (٦) .

جاءت المشاكلة في قوله «السُّؤَى» وهي اسم للنار (٧)، فالذين أساءوا مصيرهم النار (٨). وإنما عدل عن لفظ النار إلى لفظ السُّؤَى لمشاكلة ما قبله .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : «فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (٩) .

(١) سورة الروم، آية: ٩.

(٢) حاشية الشهاب، ١١٤/٧.

(٣) سورة الروم، آية: ٩.

(٤) سورة الروم، آية: ٩.

(٥) انظر تفسير الجامع لأحكام البيان، م ١٠/ج ١٧/٢١.

(٦) سورة الروم، آية: ١٠.

(٧) تفسير الطبري، م ١٠/ج ١٨/٢١، التفسير الكبير، م ١٣/ج ١٠١/٢٥.

(٨) المرجع السابق الأخير.

(٩) سورة السجدة، آية: ١٤.

جاءت المشاكلة في قوله « إنا نسيناكم » فإن النسيان لا ينسب إلى الله - عز وجل - وإنما المقصود بها هنا ، أي تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناس قطعاً لرجائكم ^(١) ، وإنما عدل عن لفظ الترك إلى لفظ النسيان لمشاكلة ما قبله ، والقرينة على قصد المشاكلة فيه أنه قصد جزاءهم من جنس العمل فهو على حد وجزاء سيئة سيئة مثلها ^(٢).

٥ - اللف والنشر :

وقد ورد في آيات البعث بإحدى طريقتين : إما أن يقع اللف أولاً ثم النشر وإما أن يقع النشر ثم اللف .

فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ... » ^(٣).

وقع اللف أولاً في قوله « لِيَتَسَاءَلُوا » أي ليسأل بعضهم بعضاً ^(٤) ثم نشر بعد ذلك بقوله : « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ... » حيث أجمل أولاً تلك المسألة ، ثم فسر كل سؤال على حده ، فالقائل الأول : سأل عن مدة لبثهم نياماً ، فأجابه الآخرون ، بيوم ، فقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ^(٥).

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا

(١) التفسير الكبير / ١٣م / ج ٢٥ / ١٨٠ ، الظلال ٥م ، ج ٢١ / ٢٨١٢ ، روح المعاني ، ٢١ / ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق الأخير .

(٣) سورة الكهف آية : ١٩ .

(٤) تفسير الجامع لأحكام البيان ، ٨م / ج ١٥ / ١٤٢ .

(٥) انظر المرجع السابق .

أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَأَى أَنْ أَفَلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) « (١) .

أوردت الآيات مقولة الكافر ، ثم تعقبه قول المؤمن على سبيل اللف والنشر المشوش ، فربخه على الأخيرة ، بقوله : « أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ... إلخ » ووعظه ، ونصحه على الثانية ، بقوله : « وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ .. إلخ » وقرعه على الأولى بقوله : « فَعَسَى رَبِّي ... إلخ »

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) » (٢) .

يقول « الشهاب » في الآية لف ، ونشر (٣) . وقع اللف أولاً في قوله « لنحشرنهم » ثم نشر بقوله والشياطين ، ثم لف أخرى في قوله « لنحضرنهم » فالضمير « هم » في « لنحشرنهم » يعود على الكافرين ، والضمير « هم » في « لنحضرنهم » ، يشمل الكافرين والشياطين .

ومنه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ... إلى آخر الآيات » (٤) .

(١) سورة الكهف، آية: ٣٤ - ٤٠ .

(٢) سورة مريم، آية: ٦٨ .

(٣) حاشية الشهاب، ١٧٤/٦ .

(٤) سورة العنكبوت، آية: ٢٣ .

لف ، ونشر مرتب ^(١) ، حيث ذكر « وَالَّذِينَ كَفَرُوا » ^(٢) فجاء بلفظ الكفر مجملًا ، ثم نشر فقال « بآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ » ^(٣) وذلك على الترتيب ، إذ أن الكفر بآيات الله يقع أولاً ، ثم يأتي الكفر بلقائه تالياً له .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ^(١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ^(١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ^(١٦) » ^(٤) .

فقد وقع اللف في قوله « يَنْفِرُونَ » إذ أن ضمير « يَنْفِرُونَ » لجميع الخلق ، وليس للمجرمين ^(٥) خاصة ، ثم وقع النشر ، وذلك حين فصل وبين أحوال الفريقين ، « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . إلخ » ^(٦) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ^(٣٧) » ^(٧) .

جاء النشر أولاً في قوله « قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ^(٨) ويقصد بالذين من قبلهم عاد وثمود ، وأضراهم من كل جبار عنيد ، أولي بأس شديد ^(٩) .

(١) الفتوحات الإلهية، ٣/٣٧٢.

(٢) و (٣) سورة العنكبوت، آية: ٢٣.

(٤) سورة الروم آية: ١٤ - ١٦ .

(٥) إرشاد العقل السليم، م/٤٣/ج٧/٥٣.

(٦) سورة الروم آية: ١٥، ١٦ .

(٧) سورة الدخان آية: ٣٧ .

(٨) سورة الدخان آية: ٣٧ .

(٩) إرشاد العقل السليم، م/٤٤/ج٨/٦٤.

ثم جاء اللف في قوله « أَهْلَكْنَاهُمْ » وقوله « مُجْرِمِينَ » حيث نشرهم عند تعدادهم ثم جمعهم في الإهلاك ، والوصف .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى « فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى » (٣٩) (١) .
ورد صنف الإنسان باللف أولاً في قوله « الزَّوْجَيْنِ » ثم فصل ونشر في قوله « الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ».

٦ - التسهيم :

وهو أيضاً من الفنون البديعة ، ويسمى الإحصاء ، ولم تخل منه آيات البعث .
فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « ... وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » (٣١) (٢) .

فعند قراءة هذه الآية ، يعرف السامع نهايتها ، وذلك عند الوقوف على قوله « أَلَا سَاءَ » وذلك بعد إحاطته بما تقدم يعرف أن ختامها سوف يكون بقوله « مَا يَزُرُونَ » لأن ما تقدم دليل عليها ؛ وقوله « أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » كما يقول أبو السعود : مقرر لما قبله ، وتكملة له (٣) ، وهذا ما يسمى بالإحصاء .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣١.

(٣) إرشاد العقل السليم ٢م/ج ٣/١٢٥.

طِينِ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ... إلى آخر الآيات ، (١) .
 فقوله : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (٢) قد دل عليه ما ورد في الآيات قبله (٣) .
 وروي أنه لما بلغت قراءة النبي ﷺ « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » قال عمر فتبارك الله أحسن
 الخالقين ، فقال : والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر (٤) . وقيل :
 إنه معاذ بن جبل (٥) .

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى : « ... فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
 أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٦) .

فقوله تعالى : « لِيُظْلَمَهُمْ » إرصاد ؛ لأنه يدل على أن مادة العجز من مادة الظلم ،
 إذ لا معنى لقولنا مثلاً « فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أو يمنعون
 من الهلاك » ، أو نحو ذلك ، ويعين كون المادة من الظلم مختومة بنون بعد واو معرفة
 الروى الكائن فيما قبل الآية (٧) وهو قوله تعالى : « ... وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ
 رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » (٨) .

ومن هذا اللون أيضاً ، ما جاء في قوله تعالى : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٧) وَإِذَا

(١) سورة المؤمنون آية: ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية: ١٤ .

(٣) عروس الأفراح ، ٣٠٨/٤ .

(٤) الدر المنثور في التفسير المأثور ، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي - ٩٢/٦ - ط ١ -

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٤ م دار الفكر - لبنان - بيروت .

(٥) المرجع السابق ٩٤/٦ .

(٦) سورة الروم آية: ٩ .

(٧) حاشية الدسوقي ، ٣٠٨/٤ .

(٨) سورة الروم آية: ٨ .

ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) » (١) .

فإن قوله « لَا يَذْكُرُونَ » إرصاد ، فالقارىء حين يقف على قوله « وَإِذَا ذُكِرُوا » بعد معرفته لسياق الآيات السابقة يعرف ما سوف تختتم به الآية ، قبل ذكرها ، فإن الذين يسخرون من آيات الله ، إذا ذكروا لا يذكرون ، ويعرف كذلك أن الكلمة المشتقة من ذكروا لا بد وأن تكون مختومة بوار ، ونون ، على غرار فواصل الآيات السابقة ، وبهذا ينطق بالفاصلة قبل ذكرها .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) » (٢) ، وقوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) » (٣) ، وقوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) » (٤) .

فإن هذا الكلام اقتضى أن كل آية منه تقتضي معرفة آخرها اقتضاءً لفظياً ، ومعنوياً وائتلاف الألفاظ فيها بمعانيها مجاورة الملائم بالملائم ، والمناسب بالمناسب ، لأن ذكر الحرث يلائم ذكر الزرع ، والاعتداد بكونه سبحانه لم يجعله حطاماً ملائماً لحصول التفكه به ، وذكر الماء يناسب أن يكون بعد الإنزال من السماء ، وذكر النار يناسب قوله تورون أي تقدحون ، والقدح إظهار موجود من معدوم ، وهذا يناسب ذكر الإنشاء (٥) .

(١) سورة الصافات آية: ١٢ - ١٣ .

(٢) سورة الواقعة آية: ٦٣ - ٦٥ .

(٣) سورة الواقعة آية: ٦٨ ، ٧٠ .

(٤) سورة الواقعة آية: ٧١ - ٧٣ .

(٥) بديع القرآن ص ١٠٠ ، ١٠١ ، جوهر الكنز ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

وبهذا نرى كيف استخدم القرآن هذا اللون البديعي ، فنرى كيف تتحدر معه الألفاظ بكل سهولة ، ويسر ، مع ما تحمله من المعاني الجليلة ، وما توقعه في النفس من آثار جميلة .

٧ - صحة الأقسام :

ومما جاء في آيات البعث منه ، قوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ... » (١) .

فانظر إلى هذا التخيير ، وصحة التقسيم ، وحسن الترتيب في الانتقال على طريق البلاغة من الأدنى إلى الأعلى حتى بلغ سبحانه النهاية في أوجز إشارة ، وأعذب عبارة ، حيث قال بعد الانتقال من الحجارة : « أَوْ حَدِيداً » فانتقل من الحجارة إلى ما هو أصلب من الحجارة ، وأقوى ، ثم قال بعد ذلك : أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، غير حاصر لهم في صنف من الأصناف (٢) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) » (٣) .

استوعب الكلام أقسام الأوقات من طرفي كل يوم وليلة ، ووسطها ، فصحت أقسام أجزاء الطرف الزماني ، وجهتي ، العلو ، والسفل من الطرف المكاني (٤) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ »

(١) سورة الإسراء، آية: ٥٠ .

(٢) بديع القرآن، ص ٢٣٧ .

(٣) سورة الروم، آية: ١٧ ظ ١٨ .

(٤) بديع القرآن، ص ٦٦ ، تحرير التحبير، ص ١٧٤ .

القدير» (٥٤) (١).

ذكر المولى - سبحانه - في هذه الآية أحوال الآدمي ، وتدرجه في القوة والضعف ، فاستوفى جميع المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته ، فقال : « خلقكم من ضعف » أي مبناكم على الضعف ، ثم قال تعالى : « ثم جعل من بعد ضعف قوة » فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلاً ومولوداً ورضيعاً ومفطوماً ، فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله : « ثم جعل من بعد ضعف قوة » إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ، وقوله : « ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » يخلق ما يشاء وهو العليم القدير « إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف (٢) ، وبهذا التقسيم يكون قد استوفى جميع مراحل حياة الإنسان ، ولم يشذ عنها شيء ، وبهذا نرى براعة استخدام هذا اللون البلاغي ، الذي يحيط بجانب من جوانب القدرة الإلهية فيشمّلها بكلمات تضم تحتها معاني جليلة .

ومن هذا الفن أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (٣٦) (٣) .

ذكر الله - تعالى - أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله : « مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار ، وقوله « وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ » يدخل فيها الدلائل النفسية ، وقوله « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » يدخل ما في أقطار السموات ، وتخوم الأرضين ، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله ، والمعادن ، لم يذكرها ، وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم (٤) .

(١) سورة الروم، آية: ٥٤.

(٢) التفسير الكبير، م ١٣/ج ٢٥/١٣٦.

(٣) سورة يس، آية: ٣٦.

(٤) التفسير الكبير، م ١٣/ج ٢٦/٦٩.

وبهذا نرى صحة التقسيم لجميع المخلوقات واستيفاء جميع أقسامها .

٨ - العكس :

ويعد من البديع المعنوي ، ويقع بين متعلقي فعلين في جملتين ، وذكر « السبكي » أن الصواب ، أن يقال متعلقي عاملين^(١).

ومن هذا الضرب ما جاء في قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) »^(٢).

وقع العكس هنا بين متعلقي فعلين في جملتين ، فقد تعلق الفعل في الأولى بالحي الخارج من الميت كالإنسان يخرج من النطفة كما يقولون ، وتعلق في الثانية بالميت الخارج من الحي ، مثل البيضة الخارجة من الدجاجة كما يقولون وقد تقدم الحي على الميت في المتعلق الأول ، ثم عكس في الثاني .

وإذا كان الغرض من هذه الآية تصوير مظهرين من مظاهر القدرة بهما تفوق جميع القدر ، وكان إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة وأدل على سعة السلطان من عكسه وهو إخراج الميت من الحي ، كان الأول جديراً بالتصدير ، ثم يتلوه الثاني وبدون هذا يتعكس الفرض ولا يتم المراد ، فأسلوب العكس من البلاغة في الذري لأنه مما يقتضيه المقام^(٣).

ولعل جمال هذا اللون البلاغي ، يرجع إلى أن فيه دلالة على الاقتدار في الكلام والإغراق فيه^(٤)، كما أن جماله يظهر في أنه يربط بين أمرين ، ويعقد بينهما أوثق

(١) عروس الأفراح، ٣٢٠/٤.

(٢) سورة الروم، آية: ١٩.

(٣) الصبغ البديعي ص ٤٧٧، وانظر عروس الأفراح، ٣٢٠/٤، الطراز، ٩٥/٣، البغية، ٢٧/٤.

(٤) الطراز، ٩٤/٣.

الصلوات ، أو أشد ألوان النفور^(١).

٩ - الإبداع :

عندما نقرأ آيات من كتاب الله ، ونتمن فيها النظر ، نتعجب من نظمها ، وحسن بيانها ونقلبها على وجوها فنجدها تضم العجيب ، والرائع من ألوان الكلام ، وفنون البلاغة ، وقد يتقاصر العقل البشري عن الإحاطة بما فيها من روائع ، فنسلم بإعجازه ، وعجزنا .

وهناك الكثير من آيات الذكر الحكيم تضم بين جوانحها ، جواهر نادرة ، من كل صنف ، ولون من ألوان البلاغة ، فتجد الآية وكأنها جوهرة براقعة عندما تضعها أمام ضوء الشمس تنقلب لك ألواناً وألوان ، فتزداد بها إعجاباً ، وكلما زدتها نظراً زادتكم جمالاً .

ومن الآيات التي ضمت ألوان بديعية عدة نذكر هذه الآية مما هي موضع دراسة .
قال تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »^(٢) .

فقد ضمت هذه الآية مع ما فيها من التكافؤ والطباق^(٣) ، إرداف . وهو ضرب من البديع ، ويانه للعدول عن لفظي الحركة والسكون الحقيقيين إلى أردافهما من لفظي الهمود والاهتزاز ، لما في لفظ الإرداف من الملاءمة للمعنى المراد ، ليأتي لفظها معنوياً لاثتلاف ، لأن الهمود يراد به الموت ، والأرض في حال عطشها من السقي والنبات موات ، فكان العدول إلى لفظ الهمود المُعبر به عن الموت أولى من لفظ السكون .

(١) من بلاغة القرآن، ص ١٨٦ .

(٢) سورة الحج، آية: ٥ .

(٣) سبق توضيح ذلك أثناء الحديث عن الطباق .

والاهتزاز المجازي مشعر بالعطاء ، كاهتزاز الممدوح للمدح ، فلأجل ذلك عدل عن لفظ الحركة العام إلى لفظ الحركة الخاص ، لما يُشعر بأن الأرض ستعطي عند سقيها ما يرضي من نباتها بتنزل السقي لها منزلة ما يسرها فاهتزت لتشعر بالعطاء ، فقد ظهرت فائدة العدول إلى لفظ الإرداف ، لما يعطيه من هذه المعاني التي لا يعطيها لفظ الحقيقة .

وقد جاء نظم هذه الآية مع ما تضمن من التكافؤ ، والطباق ، والإرداف ، والائتلاف منعوتاً بالتهذيب لما فيه من حسن الترتيب ، حيث تقدم فيه لفظ الاهتزاز على لفظ الربو ، ولفظ الربو على الإنبات ؛ لأن الماء إذا نزل على الأرض فرّق أجزاءها ، ودخل خلالها ، وتفرق أجزاء الجوهر الجمادية هو حركتها حالة تفرق الاتصال ، لأن انقسام الجواهر يدل على انتقال قسميه أو أحدهما عن حيّزه ، ولا معنى للحركة إلا هذا فالاهتزاز يجب أن يذكر عقيب السقي ، كما جاء الربو بعد الاهتزاز ، فإن التراب إذا دخله ارتفع بالنسبة إلى حالة قبل ذلك ، وهذا هو الربو بعينه ، والإنبات إنما يكون بعد الربو ، وجفاف رطوبة الماء ، وعود التراب إلى حاله ، وتشققه ، فحصل التهذيب في نظم الآية بحصول حسن الترتيب ، واقترب بذلك حسن النسق ، لتقدم كل ما يجب أن يكون معطوفاً عليه على كل ما يجب أن يكون معطوفاً^(١) .

وهكذا تتضح لنا براعة الأسلوب القرآني في حسن إلمامه بهذه الفنون في آية واحدة .

(١) بديع القرآن، ص ٣٤، ٣٥.

(١) أسرار البلاغة، ص ٤.

ب - المحسنات اللفظية :

الجناس :

وقد وقع في آيات القرآن الكريم في أحسن موضع ، فلا تكلف ولا إخلال ، بل براعة ، وغاية بيان ، طلبتها المعاني فتحدرت في روعة ، وجلال .

يقول : « الجرجاني » : « وها هنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس ، إلى ما يتاجي فيه العقل والنفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ، ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو - أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً .

ثم يأتي « السبكي » ويذكر من فوائد الجناس : الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً ، وإصغاء إليها ؛ ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه ^(١) .

ولا شك أن التجنيس الذي يكون على هذه الفضيلة هو الذي حفلت به آيات الذكر الحكيم .

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى : « وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... » ^(٢) .

تشابهت اللفظتان « قاموا ، فقالوا » وهذا من الجناس الناقص اللاحق ، لوقوع الاختلاف بين اللفظتين في حرف واحد .

(١) عروس الأفراح ، ٤/٤١٢ ، ٤١٣ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٤ .

ومنه أيضاً ما ورد في قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » (٥٥) ، (١) .

بين الساعة والساعة جناس تام مماثل ، كما أطبق عليه البلغاء ، واشتهر أنه لم يقع في القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا في هذا الموضع (٢) . فالساعة الأولى عبارة عن القيامة ، والساعة الثانية هي واحدة الساعات ، لكنهما اتفقا لفظاً ، فلهذا كان جناساً تاماً (٣) .

واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا ؛ للدلالة على معنى المفاجأة ، والسرعة وكلمة الساعة الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين ، فهم لا يحسون أنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد ، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلاً ، ولا بفترة طويلة ، يعبرون عنها بيوم مثلاً ، فكانت كلمة ساعة ، خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز (٤) .

ومن الجناس كذلك ما جاء في قوله تعالى : « ... وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ... » (٥) .

فإن في قوله « يعمر ، معمر » جناس ناقص لاحق ؛ لوقوع الاختلاف في حرف واحد ، هو الحرف الأول .

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى : « وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ » (٢٣) أَلْقِيَا

(١) سورة الروم، آية: ٥٥.

(٢) روح المعاني، ٦٠/٢١، والنظر الصفوة، ٤٨٥/٢.

(٣) الطراز ٣٥٦/٢ - وانظر بديع القرآن، ٢٨، عروس الأفراح، ٤١٦/٤، الإنقان، ٩١/٢، البغية، ٧٧/٤.

(٤) من بلاغة القرآن، ١٨٢.

(٥) سورة فاطر آية: ١١.

فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾» (١).

فإن بين قوله «عنيدي» جناس ناقص لاحق ، لتغاير حرفي النون ، والتاء (٢). وكذلك ما جاء في قوله تعالى : «أَلَمْ يَكْ نُظْفَةً مِنْ مِّنِي يَمْنَىٰ» (٣٧)» (٣).

فإن قوله «مني يمني» بينهما جناس ناقص مذيّل ، وذلك لأن اللفظة الثانية قد وقع فيها حرف زيادة وهو حرف الياء .

وهكذا نرى كيف ورد هذا اللون البلاغي في آيات القرآن الكريم ، على أن المقصود من إيرادها ليس لتحسين اللفظ فقط ، وإنما مراعاة المعاني ، وما تتطلبه من ألفاظ جاءت في المقام الأول ، وقد ذكر «السيوطي» مقولة الإمام «فخر الدين» : بأن فصاحة القرآن ليست لرعاية هذه التكرّفات ؛ بل لأجل قوة المعاني ، وجزالة الألفاظ ؛ وأجاب غيره بأن مراعاة المعاني أولى من مراعاة الألفاظ (٤) .

وبهذا نرى تلك الظلال المميزة التي أضفهاها الجناس على هذه الآيات الكريمة ، «وهو من اللطف مجاري الكلام ، ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغرة في وجه الفرس» (٥) .

وإن كانت الدراسة التطبيقية قد أوجبت هذا التقسيم ، والفصل بين هذه العلوم الثلاثة إلا أن الصورة التي ظهرت بها في الآيات كانت صورة التلازم ، والتجاذب ، فلا يمكن فصل علم منها على الآخر .

(١) سورة ق، آية: ٢٣، ٢٤.

(٢) الصفوة. ٢٤٩/٣.

(٣) سورة القيامة آية: ٣٧.

(٤) الإتقان، ١١٧/٢.

(٥) الطراز ٣٥٥/٢.

يقول « صاحب الطراز » في هذه العلوم الثلاثة : « اعلم أن هذه الأنواع الثلاثة ، أعني علم المعاني ، والبيان ، وعلم البديع ، مأخذها مختلفة ، وكل واحد منها على حظ من علم البلاغة ، والفصاحة ، ولنضرب لها مثلاً يكون دالاً عليها ، ومبيناً لموقع كل واحد منها ، وهو أن تكون حبات من ذهب ، وذُرر ، ولآليء ، ويواقيت ، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة ، ثم إنها ألّفت تأليفاً بديعاً ، بأن خلط بعضها ببعض ، ورُكّب تركيباً أنيقاً ، ثم بعد ذلك التأليف ، تارة تجعل تاجاً على الرأس ، ومرة طوقاً في العنق ، ومرة بمنزلة القرط في الأذن ، فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدرر والآليء ، وهو علم المعاني ، وتأليفها وضم بعضها إلى بعض ، هو علم البيان ، ثم وضعها في المواضع اللاتقة بها عند تأليفها ، وتركيبها ، هو علم البديع » (١).

ولا شك أن هذه الآليء ، والدرر ، قد بدت في غاية الروعة ، والجمال ، وبديع الصياغة في آيات الذكر الحكيم ، وصدق القائل : « أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَاتُ الْآتِيَاتُ نُسْخًا مِمَّا نُتِلَّى لَهُ الْأَوَّلَ قَبْلَ الْأَوَّلِ » (٢) .

(١) الطراز، ٣/٢٤٨.

(٢) سورة هود آية: ١.

الخاتمة

بعد أن منَّ الله عليَّ بهذه النعمة الجليلة ، ويسر لي طريق البحث بين ثنايا معجزة الإسلام الخالدة ، وجعلني ألتفت إلى الحياة الأخرى ، فعشت سنتين خلت بين خلق وبعث ، وأرحام وقبور ، وعذاب وحبور ، مشهد يفزعني أن أكون من أهله ، وآخر أرجو أن أتقدم جمعه .

بعد هذه الرحلة الروحية العظيمة ، انتهى بي المطاف إلى مقام قطف الثمر ، فلتندوق حلوه . أقول مستعينة بمن تعالت قدرته إن هذا البحث أداني إلى نتائج عدة منها :

١ - عظمة الأسلوب القرآني ، واحتواؤه على جميع فنون البلاغة مما توصل العقل البشري إلى استنباطه منها ، واحتواؤه على فنون أخرى تعجز النفس الإنسانية عن اكتشاف مكنها .

٢ - روعة الأسلوب القرآني عند مخاطبة النفس البشرية ، وتنويعه بين الأساليب المختلفة للدخول إلى أعماق النفس ، وجمعه بين أرقى أساليب الخطاب ، والمزاوجة بين أسلوب الترغيب والترهيب ، لإيقاظ النفوس الغافلة .

٣ - تضافر العلوم المختلفة في صورة معجزة ؛ لتحقيق الأهداف التي يسعى إليها القرآن الكريم .

٤ - علو فصاحة الأسلوب القرآني ، وبلاغته ، وتقاصر رقاب البلغاء والخطباء عن الوصول إليه .

٥ - حرص القرآن الكريم على الاستماع إلى مجادليه ، وإتاحة الفرصة لهم للتعبير

عن خوالجهم حتى لو كانت تلك الخوالج تنال من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو مما جاء به من الوحي ، ثم يتولى الرد عليهم ، وقرع الحجة بالحجة . وهذه الطريقة من أرقى طرق المجادلة والمناظرة التي عرفته البشرية ، وجاء بها القرآن الكريم في أعلى مكان .

٦ - توصلت الدراسة إلى إيضاح بعض مواطن الإعجاز القرآني ، والتي كان لها تأثير بليغ في إفراغ المعاني المرادة في النفوس .

٧ - توصلت الدراسة إلى الجمع بين فني الجدل والبلاغة في موضوع واحد ، أشرقت من خلاله دلائل الإعجاز القرآني .

٨ - توصلت الدراسة إلى جمع ما احتوته هذه الآيات من فنون بلاغية تناثرت أشتاتها بين ثنايا كتب المتقدمين .

هذا . . . وقبل أن أثني عنان قلبي عن التجوال بين ظلال القرآن ، أسجل هذه التوصيات لمن يعقبني من الباحثين في هذا المجال فأقول :

١ - ينبغي على الباحث في الإعجاز البلاغي للقرآن ، أن يعرف عقائد المفسرين والعلماء والباحثين في هذا المجال ، حتى لا ينجرّف خلف المعتقدات المخالفة لأهل السنة والجماعة ، وهو يجهل مغزى كلمة ، أو مصطلح لدى طائفة من الطوائف .

٢ - كما ينبغي أن يسعى الباحث في هذا المجال إلى الربط بين علم التفسير ، وعلم البلاغة عند إيضاح مكامن الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم ؛ لأن إعجاز الثاني لا يفهم بمنأى عن الأول .

٣ - السعي إلى تخليص البلاغة العربية من النظريات البلاغية العقيمة ، والرقى بها

إلى مجال التطبيق على الآيات القرآنية ، وبيان قيمة الفن البلاغي من خلال مجيئه في آيات القرآن الكريم .

٤ - كما أوصي الباحثين في هذا المجال بإعمال الفكر واستنباط موضوعات جديدة تبرز نواحي الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم للبشر جميعاً . فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في وصف هذه المعجزة الخالدة : ((كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم)) (١) .

وفي الختام . . أرجو من المولى القدير ، أن لا يجعل هذا آخر العهد بدراسة كتابه الكريم ، وأن يجعل هذه الدراسة نقطة تجديد ، وصقل لإيماننا به وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر .

كما أسأله - عز ذكره - أن يعفو عن كل خطيئة أو زلل ارتكبتها بسنان قلمي ، وأغشيت عنها بصيرتي . وأسأله سبحانه أن يضاعف لي الحسنات ويعفو عن السيئات وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) رواه الدارمي في كتاب فضائل القرآن باب ١ ، والترمذي في فضائل القرآن ، باب ١٤ ، ج ٥ / ١٧٢ ، ط ٢ ، ورواه أحمد ٩١ / ١ .

الفهارس العامة

- ١- الآيات القرآنية
- ٢- الأحاديث النبوية
- ٣- الأماكن والقبائل
- ٤- فهرس الأعلام
- ٥- فهرس المصادر والمراجع
- ٦- ملخص الرسالة باللغة العربية
- ٧- ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
- ٨- فهرس تفصيلي لمحتويات الرسالة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
البقرة	٢٣	٣٠، ٢٤، ٢٦، ١٩
	٢٤	٧٠، ٣٣، ٢٥
	٢٦	٣٨٦
	٢٧	٣٨٦
	٢٨	٣٣٤، ٣٢٩، ٣٢١، ٢٨٦، ١٨٢، ١١٢
		٣٨٥، ٣٦٩، ٣٥٧، ٣٤٣
	٢٩	٣٢١، ٣١٠، ٣٠٩، ٢٥١، ١٨٢، ١١٣
		٣٧٠، ٣٥٣، ٣٤٣
	٥٥	٤٤٠، ٢٧٨، ١٨٣، ١١٤
	٥٦	١٨٣، ١١٤
	٥٧	٣٥٧
	٦١	٢٧٨
	٧٢	٣٥١، ٢٥١، ٢٣٤، ١٨٣، ١١٤، ٨٥
	٧٣	٣٥١، ٣٣٥، ١٨٣، ١١٤، ٨٥
	١٠٤	٢٣٣
	٢٤٣	٢٨٧، ٢٨١، ٢٥٢، ١٨٣، ١١٥، ٨٦
		٤٧٠، ٣٧٧، ٣٣٥

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
آل عمران	٢٥٩	٨٦، ١١٦، ١٨٣، ٢٤٤، ٢٨٨، ٣٢١
		٣٣٢، ٣٣٥، ٣٧٠، ٤٦٠
	٢٦٠	٨٦، ١١٧، ١٨٤، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٣٦، ٤١٦، ٤٧٠
	٤٤	٤٧
	١٥١	٥٤
	١٦٩	٤٢٨
النساء	١٨٨	٥٢
	١	٤٥
	٨٢	٧١
الأنعام	١	٣٨٦
	٢	١١٩، ١٨٤، ٣٣٧، ٣٥٢، ٣٨٦
	٢٧	٤٠١
	٢٩	٨٩، ١٨٥، ٢٥٣، ٣٥٨
	٣٠	٨٩، ٩٠، ١٨٥، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٩١، ٣٣٧
		٤٤١
	٣١	٨٩، ٩٠، ١٨٥، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٧٨، ٣٥٤

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الأعراف	٥٠	٤٨٠ ، ٤٤١
	٥٩	٤٦ ، ٤٣
	٦٠	٤٨
	٢٩	٨٥
	٥٤	٨٤
	٥٧	٤٤
	١٣٤	٤٤٤ ، ٤١٧ ، ٣٤٣ ، ١٨٦ ، ١١٩
	١٣٨	٢٧٨
	١٧٥	٢٧٨
	١٧٦	٦٥
	١٨٤	٦٥
	١٨٥	٢١
	١٨٨	٢١
		٥٥ ، ٤٣
الأنفال	٣١	٢٠
التوبة	٨٤	٦٢

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
يونس	٤	١٢٠، ١٨٦، ١٨٧، ٢٥٥، ٣٢٢، ٤٠٦
	٥	١٢٠، ٣٢٢
	٨/٤	١٨٦
	٧	٤٠٢
	٧/٦	١٢٠، ٣٨٧
	٨	١٢٠
	٣٤	١٢١، ١٨٨، ٢٥٦، ٢٨٢
	٣٨	٢٤، ٢٦
	٤٥	١٢٢، ١٨٨، ٢٥٧، ٤١٩
	٤٨	١٢٣، ١٨٨، ٣١١، ٤١٠، ٤٦١
	٥٣/٤٨	١٤٨
	٤٩	١٢٣، ١٨٨، ٣٤٤، ٣٥٨، ٤١٠، ٤٦١
	٥٣	١٢٣، ١٨٩، ١٩١، ٢٥٦، ٣١١
	٥٦/٥٣	١٨٩
	٥٤	١٢٣
	٥٥	١٢٤، ١٩١، ٣٥٤، ٣٧٨، ٤١٣
	٥٦	١٢٤، ١٩١

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
هود	١	٤٩١، ٦٥
	٧	٤٦١، ٤٢١، ٣٥٩، ٢٦١، ١٩١، ١٢٤
	١٣	٢٢
	٤٤	٣٩
يوسف	١٠٢	٤٦
الرعد	٥	٩١، ١٩١، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٩٢،
		٣١٢، ٣٣٢، ٣٧٠
إبراهيم	٤	١٨١
النحل	٢٢	٢٥٠
	٣٩	١٩٣
	٤٠/٣٨	١٩٢، ٩١
	٣٩/٣٨	٢٥٩
	٧٧	٤٢٢
	٤٠	٣٦٠، ٢٦١

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الإسراء	١١٢	٦٩
	١٢٥	١٨٠
	٨٨	٢٨، ٢٥، ١٦
	٤٩	٤٧٥، ٤٦٢، ٣٣٨، ٢٩٣، ١٩٣، ٩٢، ٨٢
	٥٠	٤٨٣، ٤٧٥، ٢٩٣، ٢٨٢، ١٩٣، ٩٢
	٥١	٢٩٣، ١٩٣، ٩٢
	٥٢	٤٤٥، ٣٦٠، ٢٨٢، ١٩٣، ٩٢
	٩٧	٣٨٨، ١٢٥
	٩٨	١٢٥
	٩٩	٣٧٨، ١٢٥
الكهف	١٢/٩	٣٤٦
	٢٢/٩	١٢٨
	١٢/١١	١٩٤
	١٠	٣٧١، ٢٧٩
	١٣	٣٨٨
	١١	٤٤٦، ٣٣٨

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	١٤	٤٨٨ ، ٤٤٨
	١٠/٩	٣٧٨
	١٦	٣٧١ ، ٣٦١
	١٢	٤٤٧
	١٧	٤٤٩ ، ٣٣٨
	١٨	٤٧٠ ، ٤٢٤
	١٩	٤٧٧ ، ٤٢٣ ، ٤١٠
	٢٠	٣٧١
	٢١	٤٤٩ ، ٣٤٩
	٢٢	٤٥٠
	٢٦/٢٥	١٢٨
	٤٢/٣٢	١٩٤
	٣٥	٩٣
	٣٦	٢٣٤
	٣٨	٣٧٩ ، ٩٣
	٣٧	٣٣٠ ، ٢٩٤
	٤٢	٤٦٣ ، ٤٥١
	٤٠/٣٤	٤٧٨

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
مريم	٧٠/٦٦	٢٦٢، ١٩٥، ٩٤
	٦٦	٤٠٦، ٣٧١، ٣٣٨
	٦٧/٦٦	٤١١، ٣٧٩، ٢٩٥
	٦٨	٤٧٨
	٨٣	٥٨
طه	١٣١	٧٠
الأنبياء	١٠٤	٨٤
الحج	١	٤١٣، ٢٨٢، ٢٨٠، ٢٦٤، ١٩٩
	٢	٤٦٣، ٤٢٤، ٢٦٥، ٢٦٤
	٤/١	٢٣٤
	٧/١	١٩٦، ١٢٩
	٥	٤٨٦، ٤٧٢، ٤٧٠، ٣٣٩، ٢٤٧، ٢٣٥
	٦	٣٦٢، ١٩٩، ١٩٧، ١٩٦
	٧	١٩٩، ٦١
	٨	٢٠٠

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
المؤمنون	٦٣	٤٠٧، ٢٩٦
	٦٦/٦٣	٢٠٠، ١٣١
	٦٥	٣٧٢
	١٤/١٢	٤٨١، ٤٦٤، ٣٨٩، ٣١٣، ٥٥
	٢٢/١٢	٢٠١
	١٤	٤٨١، ٣٥٤
	١٦/١٢	١٣٢
	١٦/١٥	٢٦٥، ٣٩٠
	١٢	٣٩٠
	١٧	١٣٣
	١٨	٣٧٢، ٣٥٢، ١٣٣
	٢٠/١٩	٣٥٠، ١٣٣
	٢٠	٤٠٧
	٢٢/٢١	٣٥٠، ١٣٤
	٣٣	٧٨
	٤١/٣٥	٢٦٨، ٢٠٢، ٩٥
	٣٧	٣٧٩، ٣٧٢، ٢٦٩، ٧٥
	٣٨	٤٧٤، ٢٦٩

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	٣٩	٣٩
	٤٠	٢٦٩
	٤١	٤٢٥، ٣٨٠
	٨٩/٧٧	١٣٥
	٧٨	٤١٣
	٧٧/٧٨	٣٨٩
	٧٩	٣٩٠، ٣٦٣
	٩٠	٤٧١
	٨٠	٤١٤
	٨١	٣٩٠
	٨٢/٨١	٣٤٧، ٣٢٣
	٨٣	٣٧٣، ٣٦٤
	١١٢	٢٠٢
	١١٦/١١٢	٢٠٢، ١٣٧
	١١٥	٣٦٤، ٣٣٩، ٢٩٧، ٢٠٢
النور	٦٣	٢٧٨

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الفرقان	٥	٢٠
النمل	٧٥/٦٤	٢٠٣
	٦٥	٢٠٤، ٤٨
	٦٦	٤٢٧
	٧٥/٦٦	٩٧
	٦٨	٣٧٣
	٦٩	٢٨٣
	٧١	٢٩٧
	٧٥/٧٤	٣٥٥
	٧٥	٤٥٢
	٨٧	٤٠٢
العنكبوت	٢٣/١٩	٢٠٥، ١٣٨
	١٩	٤٠٨، ٣٩٢، ٣٨٠، ٢٠٥
	٢٠	٣٨٠، ٣٥٥، ٢٠٥
	١٨	٣٩٢
	٢١	٣٧٤
	٢٢	٢٠٥

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الروم	٢٣	٤٧٩ ، ٤٧٨ ، ٤٠٣ ، ٣٩٣ ، ٣٣٣
	٤/١	٥٢
	٥/٤	٥٣
	٨	٤٨١
	٩/٨	٢٩٨
	١٠/٨	١٣٩
	٩	٤٨١ ، ٤٧٦ ، ٣١٣
	٢٠/٩	٢٠٦
	١٠	٤٧٦ ، ٢٠٦
	١١	٣١٤
	١٦/١١	١٤٠
	١٢	٣٨٢
	١٤/١٢	٣٣٣
	١٦/١٤	٤٧٩ ، ٣٤٧
	١٦/١٥	٤٧٩
	١٦	٣٩١
	١٨/١٧	٣٥٢

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	١٩/١٧	١٤١
	١٧	٤٨٣، ٣٩١، ٣٧٤
	١٩	٤٨٥، ٤٢٧، ٣٧٥، ٢٠٧، ٨٥
	٢٧/٢٠	١٤٣
	٢٧/٢٥	٢٠٧
	٥٠/٤٨	٢٧٠، ٢٠٨، ١٤٣
	٥٠	٣٩٢، ٣٥٥، ٣٢٤، ٢٨٣
	٥١	٣٩٢
	٤٩	٢٧٠
	٥٧/٥٤	١٤٤
	٥٤	٤٨٤، ٣٨٢، ٣١٥
	٥٥	٤٨٩، ٤٢٨، ٣٤٠، ٣٢٤
	٥٦	٤٦٤، ٣٤٠
السجدة	١٤/٧	٢٠٨، ١٤٥
	٧	٢٠٨
	١٤/١٢	٢٧١
	٩	٣٩٣

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الأحزاب	١٠	٣٩٥
	١٢	٤٦٥، ٢٨١، ٢٠٩
	١٤	٤٧٦، ٣٤٠، ٣٣٤، ٢٧٢، ٢٠٩
	١٩	٦٩
	٦٣	٨٣
	٩/٧	٢٠٩، ٩٨
	٧	٤٧٤، ٢٩٩
	٨	٣٨٣، ٣٧٥
	٩	٤٥٣، ٤٢٩، ٤٠٨، ٤٠٣، ٣٩٥، ٢٠٩، ١٤٦
	١١	٤٨٩، ٢١٠، ١٤٦
	٢٢	٦٢
	٢٧	١٧٤
	٣٥/٣٣	١٦٣
	٣٧/٣٣	١٥٩
	٣٤	١٦٥
	٣٥	١٦٨
	٣٦	٣٧٥، ١٧١، ١٦٤
	٣٧	١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٥٩

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
يس	٣١	٣٢٥، ٣١٥، ٢٧٢
	٣٦/٣١	١٤٧
	٣٢/٣١	٢٧٢
	٣٢	٣١٥
	٣٤/٣٣	٣٤٧
	٣٦/٣٣	٣٩٦، ٢١٠
	٣٣	٣٧٥، ٣٢٤
	٣٥	٣٣٠
	٣٦	٤٨٤، ٢١٠
	٥٤/٤٨	٢١١
	٤٩	٢١١
	٥٠/٤٩	٤٦٥
	٥١	٦١
	٥٢	٤٥٣، ٤١٨، ٤١١، ٦١
	٥٣	٣٦٥، ٢١١
	٧٨/٧٧	٣٠٠
	٨٣/٧٧	٢١١، ١٤٩
	٧٨	٣٣٤، ٢١٣

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الصفات	٧٩/٧٨	٤١٢، ٨٠
	٧٩	٣٥٦، ٢١٤، ٢١٣، ٢١٢
	٨٠	٤٧١، ٢١٤، ٨٥
	٨١	٢١٤، ٢١٢، ٨٤
	٨٢	٢١٤، ٢١٢
	٨٣	٢١٢
	٢٤/١١	٢١٦، ١٥٠
	١١	٤١٤، ٣٩٨، ٣٠١، ٢١٧
	١٣/١٢	٤٨٢
	١٦/١٥	٢٣٦
	١٨/١٦	٤١٤، ٤١٢
	١٩	٢١٨
	٢١	٨١
	٢٢	٢٨٤
	٢٥/٢٢	٣٠٢
	٢٥/٢٤	٣٩٨

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
ص الزمل غافر	٢٤/٢٢	٣٩٧، ٣١٦
	٢٨/٢٧	٣٢٦
	٥٣/٥١	٢٣٧
	٦١/٥١	٢١٨، ١٥٢
	٥١	٣٢٦
	٥٤	٣٢٦
	٥٥	٣٢٦
	٥٦	٣٢٦، ٢٧٣
	٥٧/٥٦	٢٣٧
	٥٩/٥٨	٤٧٥
	٦٠	٤٧٥
	٦١	٢٨٤
	١٤	٢٧٣
	٧٨/٧١	٤٥
	٢٣	٢٢
	٥	١٨١
	٥٧	٨٥

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
فصلت	١١	٤٥، ٤٢
	١٢	٤٥
	٢٦	٢٠، ١٩
	٣٩	٤٧١، ٤٥٥، ٢٣٥، ٢١٨، ١٥٢
الزخرف	١١	٤٥٦، ٣٩٩، ٢١٨
الدخان	٤٢/٣٤	٢١٩، ٩٩
	٣٨	٧٧
	٣٥	٣٦٥
	٣٦	٢٨٤
	٣٥/٣٤	٤٧٢، ٤٣١
	٣٧	٤٧٩
الجاثية	٢٤	٣٦٦، ٢٢٠
	٢٦/٢٤	٢١٩، ١٠٠
الأحقاف	٣٤/٣٣	٢٨٥، ٢٢٠، ١٥٣

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
محمد	٣٣	٢٢٠، ٢٣٨، ٣٥٦
	٣٤	٢٢١
	٤	٥٩
الفتح	٢٧	٤٣
	١٨	٤٣
ق	٢/١	٣٤٠
	٣/١	٢٢١
	٢	٣٨٣
	٣	٢٣٩، ١٠٢
	٤	٣٤٠، ٢٢١، ١٠٢
	٥	٢٣٧
	٦	٢٣٩، ٢٣٨، ٢٢١
	٧/٦	٤٧٣، ١٠٢
	٧	٣١٦، ٢٢١
	١١/٩	٤٣٢، ٣٦٦، ٢٢١، ١٠٣

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	١٠	٣٣١، ٣٣٠
	١٤/١٢	٣٢٧
	١٥	٣٠٢، ٢٢٢، ١٠٣، ٨٤
	١٦	٤٣٣، ٤٠٩
	٢٢/١٦	٣٤٤
	١٧	٤٥٧
	٢٢/١٩	١٠٤
	١٩	٤٥٧، ٤٠٤
	٢٢	٤٥٧، ١٠٤
	٢٤/٢٣	٤٩٠
	٢٨/٢٧	٣٢٧
	٢٨	٤٦٦
	٣٠	٤٦٦، ٣٠٣
	٣٧	٤٦٧، ٤٥٨
	٣٨	١٠٥
	٤٥/٤١	١٠٦
	٤١	٤٤٥، ٢٨٥
	٤٣	٣١٧، ٢٢٢

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	٤٤	٣٧٦
الذاريات	١٤/١٠	٨٧
الطور	١٦/٧	٨٧
	٣٤/٣٣	٢٢
	٣٤	٢٩، ١٩
القمر	٨/٦	٦١
	٧	٦٨
الرحمن	١٥/١٤	٤٥
	٣٧	٦٨
الواقعة	٤٧	٤٦٧
	٤٨/٤٧	٢٧٤
	٤٩	٤٧٢، ٣٧٦، ٢٢٣
	٥٦/٤٩	٢٧٤

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	٧٤/٤٧	١٠٧
	٥١/٥٠	٤٧٢
	٥٦/٥١	٤٣٤
	٧٤/٥٧	٢٢٣
	٥٥	٢٧٥
	٥٧	٢٢٣
	٥٧/٥٦	٣٩٩
	٧٢/٥٨	٣٠٥
	٦١/٦٠	٣١٧/٢٢٤
	٦٤	٢٧٧، ٢٢٤
	٦٤/٦٣	٢٢٤
	٦٥	٤٥٨، ٢٢٤
	٦٥/٦٣	٤٨٢
	٧٠/٦٣	٢٧٥
	٦٨	٢٢٥
	٧٠/٦٨	٤٨٢
	٧١	٢٢٥
	٧٣/٧١	٤٨٢

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	٧٤	٢٨٥
المجادلة	٨	٥١/٤٢
التحریم	١	٥٠
الملک	١٣	٥٠
القلم	٥١	٥٠
الحاقة	٤٦/٤٤	٥٦
المعارج	٤٤/٤٢	٦١
	٤٣	٤٣٥
	٤٤/٣٩	٢٢٦، ١٥٤
نوح	١٣	٤٦٧، ٣٣١
	١٦/١٥	٤٣٧، ٣٧٦، ٤٤

رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة
٢٢٦، ١٥٤	٢٠/١٣	الجن القيامة
٤٥٩	١٧	
٣١٨	١٨/١٧	
٤٨	٢٦	
٣٠٦	٣	
٣٨٤	٥/٣	
١٠٨	٦/٣	
٣٠٦	٦	
١٠٩	٦/٥	
٢٢٧	٧	
٤١٤	٩	
٢٢٧	١٢/٣	
١١٠	١٢/٧	
٢٢٧/١١٠	٤٠/٣٦	
٤٩٠	٣٧	
٣١٩	٣٨/٣٧	

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
	٣٩	٤٨٠
الإنسان	٢	١٨٤
المرسلات	٥٠	٢٤٧
النازعات	١٠	٤٠٩، ٣٠٧
	١١	٣٤١، ٣٠٧
	١٤/١٠	٢٢٨، ١١١
	١٣	٣٦٧
	١٤/١٣	٢٢٨
	٢٨/٢٧	٣٢٨
	٣١/٢٧	٤٧٤
	٣٣/٢٧	٢٢٨، ١١١
	٢٩	٢٣٩
	٣١/٣٠	٣٤٥
	٣٣	٣٧٧

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
عبس	١٧	٣٤٥، ٢٤٠
	٢٢/١٧	٦٢
	٣٢/١٧	٢٢٩، ١٥٥
	١٨	١٥٥
	٢٢/١٨	٣٤٨، ٣١٩
	٢٢/٢١	٣٥٣
	٣١/٢٤	٣٤٨
	٣٢/٢٤	٤٠٠
	١٨	٦٢
التكوير	١٨	٦٢
الانفطار	٤	٦١
الانشقاق	٦	١٧٠، ١٦٩
	١٥/١	١٦٠
	١٤/٦	١٦٩
	١٢/٧	١٧٥

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
الطارق	٥	٣٤١، ٣٢٨، ٢٨٥
	٧/٥	٣٤٩
	٨/٥	٢٢٩/١٥٦
	١٠/٥	٢٤٨
	٨	٣٢٨
الفجر	٣/١	٦٣
الزلزلة	٨/١	٥٤
العاديات	٩	٦١
القارعة	٢/١	١٧١
	٣/١	١٦٧
	١١/١	١٦٨، ١٦٠
	٢	١٦٨
	٣	١٦٨
	٤	١٧٣، ١٧٠

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
التكاثُر	٥/٤	١٧٢
	١١/٤	١٧٠
	٥	١٧٤
	٧/٦	١٧٠، ١٦٩
	٩/٦	١٧٥
	١١/٨	١٧١
	٩	١٧٥، ١٦١
	١٠	١٧١
	١١/١٠	١٦٨، ١٦١
	١١	١٧١
	٢/١	٦٢

فهرس الأحاديث النبوية

رقم الصفحة	الحديث
٧٩	١- «أراه يقول الله شتمني ابن آدم....»
٤٥٣	٢- «إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً....»
٥١	٣- «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل اليهود عن شيء....»
٤٤٥	٤- «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم....»
٤١٨	٥- «إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى....»
٥١	٦- «أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - سام عليكم...»
١٩٠	٧- «بينما نحن جلوس مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد....»
٤٣٠	٨- «ثم يرسل الله، أو قال ينزل الله مطراً....»
٤٩	٩- «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب الحلواء والغسل....»
٤٩٥	١٠- «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم....»
٣٠٥	١١- «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول....»
٤٥٢	١٢- «ما من شيء قضى الله، القرآن فما قبله، وما بعده....»
١٧٣	١٣- «الناس عالم ومتعلم....»
٢٩٠	١٤- «نحن أحق بالشك من إبراهيم....»
٤٤٢	١٥- «ويأتيه رجل قبيح الوجه....»
٤٣١	١٦- «يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى....»
٨٠	١٧- «يا محمد أتري ربك يحيي هذا....»
٣٦٩	١٨- «يؤتى بالموت كهيفة كبش أملح....»

فهرس الأماكن والقبائل

رقم الصفحة	المكان/القبيلة
٥٣	١- بدر
٥٠	٢- بنو أسد
٣٦	٣- بنو حنيفة
١٩	٤- بنو عبد مناف
٣٥٠	٥- الحجاز
٣٥٠	٦- الطائف
١٤	٧- عكاظ
٥٠، ٣٦، ٢٥، ١٥	٨- قريش
٣٥٠	٩- المدينة
٣٦١، ٨٠، ٥٤، ١٩	١٠- مكة
٣٧، ٣٦	١١- اليمامة

فهرس الأعلام

م	الأعلام	رقم الصفحة
	(أ)	
١	آدم عليه السلام	٣١٣، ١٤٧، ١١٩، ٧٩، ٤٥
٢	إبراهيم عليه السلام	٤١٦، ٢٩٠، ١٨٠، ١١٨، ٨٦
٣	ابن أبي حاتم	٤٥٢، ٣٦٢
٤	ابن أبي الأصبح - أبو محمد زكي الدين	٢٧٧، ١٩٧، ١٩٦
٥	ابن الأثير - ضياء الدين بن الأثير	٣٤٩، ٣٤٥، ٢٧٦، ٢٦٠، ٢٥٩
٦	ابن الأنباري	٣٧٦
٧	ابن تيمية - تقي الدين بن تيمية	٣٠٤، ٢١٢
٨	ابن جني - أبو الفتح عثمان بن جني	٣٥١
٩	ابن الجوزي	٤٣١
١٠	ابن الحاجب	٣٨٣
١١	ابن الراوندي - أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي	٤٠
١٢	ابن عباس رضي الله عنهما	٤١٨، ١٠٩، ٦١، ٥٧، ٥١، ٥٠
		٤٥٣، ٤٤٢، ٤٢٥، ٤٢٠
١٣	ابن عطية	٤٤٢، ٢٧٠، ٢٤١

م	الأعلام	رقم الصفحة
١٤	ابن العلوي - يحيى بن حمزة العلوي	٤٣٢، ٢٤٩
١٥	ابن قتيبة - عبدالله بن مسلم بن قتيبة	٤٥٢، ٤٤٤، ٤٤٠
١٦	ابن القيم - شمس الدين محمد بن أبي بكر المشتهر بان القيم	٤٠٥، ٤٠٠
١٧	ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي	٤٦١
١٨	ابن الوزير - أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليميني	١٩٣، ٨١
١٩	أبو جهل	٥٧
٢٠	أبو حيان - محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي	٤٥٢، ٤٤٥، ٣٣١، ٢٧٨، ٢٦٥
٢١	أبو الدرداء	٤٤٥
٢٢	أبو رزيق العقيلي	٤٣١
٢٣	أبو ريذة - محمد عبدالهادي أبو ريذة	٢١٤
٢٤	أبو السعود - محمد بن محمد العمادي	٤٨٠، ٤٣٠، ٣٦٠، ٣٣٦
٢٥	أبو سفيان	٥٤
٢٦	أبو عبيدة	٤٤١
٢٧	أبو هريرة رضي الله عنه	٤٤٢، ٤١٨، ٣٠٥، ٢٩٠، ٧٩

م	الأعلام	رقم الصفحة
٢٨	أبي بن خلف	٢٨٣، ٨٠
٢٩	أبي بن كعب	٤٥٤
٣٠	أرسطو	٢٣٠
٣١	إسرافيل	٤٥٣، ٤٤٥، ٩٣
٣٢	أفلاطون	٢٣٠
٣٣	الألوسي - شهاب الدين محمود الألوسي	٢٦٦، ٢٥٤، ٢٠٠، ١٩٨، ١٥١
		٤٠٨، ٤٠٦، ٣٤٩، ٣١٠، ٢٨٥
		٤٤٦، ٤٢١، ٤٢٠، ٤١٩، ٤٠٩
		٤٥٥، ٤٥١، ٤٥٠
	(ب)	
٣٤	الباقلائي - أبوبكر محمد بن الطيب الباقلائي	٤٠، ٣٧، ٣٠
٣٥	البقاعي - برهان الدين أبوالحسن إبراهيم	٣٩٨، ٣٨٦
	بن عمر البقاعي	
٣٦	البيضاوي - ناصر الدين عبدالله بن عمر	٤٥٥، ٣١٠، ٢٥٤
	الشيرازي	
	(ت)	
٣٧	تبع	٢١٩، ٩٩

م	الأعلام	رقم الصفحة
	(ث)	
٣٨	ثمود	٢٨٠
	(ج)	
٣٩	الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ	٥٩، ٣٧، ٢٧
٤٠	جبريل عليه السلام	٥٣، ٥٠
٤١	الرجاني - عبد القاهر الرجاني	٣٦٤، ٣٢٩، ٣٠٨، ٢٩٢، ٢٦٢، ٦٤
		٤٨٨، ٤٣٩، ٣٦٨، ٣٦٧
٤٢	الجمال - سليمان بن عمر العجيلي	٤٥٢، ٤٢٢
	الشافعي الشهير بالجمال	
	(ح)	
٤٣	الحسن	٤٢٥
٤٤	حفصة بنت عمر رضي الله عنهما	٤٩
٤٥	حواء عليها السلام	٤٥
	(خ)	
٤٦	الخازن - علاء الدين علي بن محمد	٤٣١، ٤١٧
	البغدادي المعروف بالخازن	
٤٧	الخطابي - أبو سليمان حمد بن محمد	٣٧
	الخطابي	

م	الأعلام	رقم الصفحة
٤٨	الخطيب	٤٣٢
	(ر)	
٤٩	الراغب الأصفهاني	٢٣٢، ٢٣٥
٥٠	رحمن	٣٦
٥١	الرماني - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني	٤٤٧، ٤٣٩، ٣٤٦
	(ز)	
٥٢	الزجاج	٢٧٩
٥٣	الزرقاني - عبد العظيم الزرقاني	٤٨
٥٤	الزركشي - بدر الدين الزركشي	٣٧٧، ٢٨٩، ٢٧٧، ٢٥٩
٥٥	الزمخشري - جارا لله أبو القاسم	١٣٣، ١٧٥، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٨٠،
	محمود الزمخشري	٢٨١، ٣٨١، ٤١٧، ٤٣١، ٤٤٢،
		٤٤٥، ٤٥٥، ٤٧١
	(س)	
٥٦	السبكي - بهاء الدين السبكي	٣٢٩، ٤٨٥، ٤٨٨
٥٧	السدي	٤٤٢
٥٨	سعيد بن منصور	٣٦٢
٥٩	سقراط	٢٣٠

م	الأعلام	رقم الصفحة
٦٠	السكاكي - أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي	٣٨٥، ٣٢٣، ٣٠٨
٦١	سودة بنت زمعة	٤٩
٦٢	سيويه	٢٧٣، ٢٥٩
٦٣	سيد قطب	٤٤٣، ٤٣٦، ١٦٠
٦٤	السيوطي - جلال الدين السيوطي	١٨١، ٢٤١، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦٠، ٢٦٤، ٤٣٩، ٤٩٠
	(ش)	
٦٥	الشهاب	٤٧٨، ٤٧٦
٦٦	الشوكانى - محمد بن علي الشوكانى	٤٥٢
	(ص)	
٦٧	صالح عليه السلام	٢٨٠، ٩٥
٦٨	الصاوي - أحمد الصاوي	٤٤٦
٦٩	الصدىق	٥٣، ٣٧
٧٠	صفية رضي الله عنها	٤٩
	(ط)	
٧١	الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	٤٤٢، ٣٠

م	الأعلام	رقم الصفحة
	(ع)	
٧٢	عائشة رضي الله عنها	٤٩
٧٣	عاد	٢٨٠
٧٤	عبدالله بن المقفع	٤٠، ٣٩
٧٥	عبدالجبار - القاضي عبدالجبار المعتزلي	٣٥
٧٦	عبدالرحمن بن سلمان	٤٥٢
٧٧	عطاء الخرساني	٣٦٢
٧٨	عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٤٨١
٧٩	عمرو بن قيس الملائي	٤٤٢
٨٠	عمير بن هانيء	٤٤٢
٨١	عيسى عليه السلام	٤٥
	(ف)	
٨٢	الفخر الرازي - أبو عبدالله محمد بن	٩٤، ١٨٠، ١٩١، ٢١٩، ٢٧٢، ٢٩١
	عمر بن حسين فخر الدين	٤٢٨، ٤٤٤، ٤٩٠
	(ق)	
٨٣	قتادة	٤٥٤
٨٤	القرطبي - أبو عبدالله محمد بن أحمد	٢٩١، ٤١٩، ٤٦٢
	القرطبي	

م	الأعلام	رقم الصفحة
٨٥	القزويني - جلال الدين أبو عبد الله	٢٩١، ٢٦٦
	القزويني	
٨٦	قس - قس بن ساعدة الأيادي	٣٨
٨٧	القطب	٤٤٦
٨٨	القيصر قسطنطين	٧٨
	(ك)	
٨٩	الكلبي	٥٠
٩٠	الكندي	٢١٥، ٢١٤
	(م)	
٩١	مجاهد	٤٥٤، ٤١٨
٩٢	محمد صلى الله عليه وسلم	٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٢٢، ١٩، ١٥ ٤٦، ٤٣، ٤٠، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥ ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥١، ٤٩، ٤٨، ٤٧ ٩٣، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٠، ٧٩، ٥٧ ١٥٤، ١٥١، ١٥٠، ١٢٥، ١٢١، ٩٧ ٢٦٢، ٢٥٣، ٢٣٣، ١٩٠، ١٨٩ ٤٥٣، ٤٤٥، ٤٤٢، ٣٠٥، ٣٠٠ ٤٩٥، ٤٩٤، ٤٨١، ٤٧٤، ٤٦٢

م	الأعلام	رقم الصفحة
٩٣	محمد بن محمد أبو حامد الغزالي	٨٠
٩٤	معاذ بن جبل	٤٨١
٩٥	موسى عليه السلام	٣٣٥، ١١٥، ٨٥، ٤٥
٩٦	مسيلمة بن حبيب النجدي	٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦
	(ن)	
٩٧	نوح عليه السلام	٣٣١، ١٥٤
	(و)	
٩٨	الوليد بن المغيرة	٥٧

فهرس المصادر والمراجع

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١	القرآن الكريم		
٢	ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن	د. عبدالفتاح لاشين	ط١، ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان
٣	الإتقان في علوم القرآن	جلال الدين السيوطي	عالم الكتب، بيروت
٤	أثر القرآن في تطور النقد العربي	د. محمد زغلول سلام	ط١، ١٩٨٢م، مكتبة الشباب
٥	إرشاد الراغبين في الكشف عن آي القرآن المبين	محمد منير الدمشقي	ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عالم الكتب، بيروت
٦	أركان الإيمان	وهبي سليمان غاوجي الألباني	ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مؤسسة الرسالة
٧	أساس البلاغة	محمود بن عمر الزمخشري	ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
٨	أساليب بلاغية، الفصاحة، البلاغة، المعاني	أحمد مطلوب	ط١، وكالة المطبوعات، الكويت
٩	أسباب النزول	أنبي الحسن علي بن أحمد الراحدي النيسابوري	عالم الكتب، بيروت
١٠	الاستعارة: نشأتها، تطورها، أثرها في الأساليب العربية	د. محمود السيد شيخون	ط١، ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م، دار الطباعة، المحمدية بالأزهر، القاهرة.

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١١	أسرار البلاغة في علم البيان	عبدالقادر الجرجاني	١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
١٢	أسلوب المحاوراة في القرآن الكريم	تحقيق: محمد رشيد رضا د. عبدالحليم حفني	ط٢، ١٩٨٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣	الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز	عزالدين بن عبدالسلام	ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان
١٤	الأشباه والنظائر في النحو	جلال الدين السيوطي	ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
١٥	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	محمد الأمين الشنقيطي	عالم الكتب، بيروت
١٦	الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره	محمد أحمد يوسف القاسم	ط١، ١٣٩٩هـ
١٧	الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق	عائشة عبدالرحمن	دار المعارف، مصر
١٨	الإعجاز في نظم القرآن	د. محمود السيد شيخون	ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار التراث العربي للطباعة
١٩	إعجاز القرآن	أبوبكر محمد بن الطيب البساقلائي تحقيق الشيخ: عماد الدين أحمد حيدر	ط١، ١٩٨٦م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٢٠	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	مصطفى صادق الرافعي	ط ٨
٢١	إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن	أبوالبقاء عبد الله بن الحسين العكبري	دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان
٢٢	الإيضاح في علوم البلاغة، مختصر تلخيص المفتاح	جلال الدين أبو عبد الله القزويني	١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر
٢٣	الإيمان والحياة	يوسف القرضاوي	ط ٧، ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م، دار غريب للطباعة، القاهرة
٢٤	الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية - نقدية	عبد الرؤوف مخلوف	١٩٧٨م، دار مكتبة الحياة، بيروت
٢٥	بدائع الفوائد	شمس الدين محمد بن أبي بكر المشتهر بابن القيم الجوزية	دار الفكر
٢٦	البداية والنهاية	أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي	ط ٢، ١٩٧٨م، مكتبة المعارف، بيروت
٢٧	بديع القرآن	عبد العظيم بن عبد الواحد زكي الدين المعروف بابن أبي الأصميص المصري تحقيق: د. حفني شرف	ط ٢، دار نهضة مصر، القاهرة

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٢٨	البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن	كمال الدين الزملكاني تحقيق: د. خديجة الخديشي د. أحمد مطلوب	ط ١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، مطبعة العاني، بغداد
٢٩	البرهان في علوم القرآن	بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم	ط ٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، دار الفكر للطباعة والنشر
٣٠	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز	مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي. تحقيق: محمد النجار	المكتبة العلمية
٣١	بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة	عبد المتعال الصعيدي	مكتبة الآداب، الجماميز
٣٢	البلاغة - فنونها وأفنانها	د. فضل حسن عباس	ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الفرقان، الأردن
٣٣	بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن	أبو سليمان حمد بن محمد الخطايي تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام	ط ٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م، دار المعارف، مصر
٣٤	البيان في ضوء أساليب القرآن	د. عبد الفتاح لاشين	ط ٢، ١٩٨٥م، دار المعارف، القاهرة
٣٥	البيان والتبيين	أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ	١٣٦٨م، دار الفكر للجمع

٣م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٣٦	تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات	ط ٢
٣٧	تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي	د. شوقي ضيف	ط ١، دار المعارف، القاهرة
٣٨	تاريخ الجدل	الإمام محمد أبو زهرة	ط ١، ١٩٣٤م، دار الفكر العربي
٣٩	تأويل مشكل القرآن	عبدالله بن مسلم بن قتيبة	ط ٣، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٤٠	التبيان في علوم القرآن	شرح: السيد أحمد صقر محمد بن علي الصابوني	ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت
٤١	تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن	عبدالعظيم بن عبد الواحد زكي الدين المعروف بابن أبي الأصبع المصري	١٣٨٣هـ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي ومطابع شركة الإعلانات الشرقية
٤٢	التحرير والتنوير	تحقيق: د. حفني شرف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور	١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر، تونس
٤٣	تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب	أبو حيان الأندلسي تحقيق: سمير مجذوب	ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان
٤٤	ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان	أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير	ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٤٥	التصوير البياني - دراسة تحليلية لمسائل علم البيان	د. محمد أبو موسى	ط ٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مكتبة عابدين، القاهرة، دار التضامن للطباعة
٤٦	التصوير الفني في القرآن	سيد قطب	ط ٧، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٤٧	التعبير الفني في القرآن	د. بكري شيخ أمين	الشرق، بيروت، لبنان ط٤، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م، دار الشرق، بيروت
٤٨	تفسير البحر المحيط	محمد بن يوسف الشهير	ط٢، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م، دار الفكر العربي، بيروت
٤٩	تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم	أبو السعود محمد بن محمد العمادي	دار لإحياء التراث العربي، بيروت، لبنان
٥٠	تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل	عبدالله بن عمر الشيرازي	ط١، ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٥١	تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل	علاء الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بالخازن	المكتبة التجارية - مصر
٥٢	تفسير الدر اللقيط	تاج الدين الحنفي	ط٢، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م، دار الفكر، بيروت
٥٣	تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل	محمد جمال الدين القاسمي تصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي	ط٢، ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م، دار الفكر، بيروت

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٥٤	تفسير القرآن العظيم	أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي	ط٢، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
٥٥	التفسير القرآني للقرآن	عبدالكريم الخطيب	دار الفكر العربي
٥٦	تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام البيان	أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي	دار الشعب، القاهرة
٥٧	التفسير الكبير ومفاتيح الغيب	أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي	ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت
٥٨	التفسير الكبير	الإمام تقي الدين بن تيمية تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة	ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٥٩	تفسير المنار	السيد محمد رشيد رضا	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٦٠	تفسير المراغي	أحمد مصطفى المراغي	ط٣، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار الفكر
٦١	تفسير النسفي	أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي	١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان
٦٢	تفسير النهر الماد من البحر المحيط	محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي	ط٢، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م، دار الفكر، بيروت
٦٣	التفسير الواضح	محمد محمود حجازي	ط٩، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
٦٤	التفكير الفلسفي في الإسلام	الإمام عبد الحليم محمود	ط٤، مطبعة الدار المصرية، القاهرة
٦٥	التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة	أبو بكر محمد بن الطيب الباقلااني ضبطه: محمود الخضيرى	١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، دار الفكر العربي، القاهرة

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٦٦	تنوير المقياس في تفسير ابن عباس	عبدالله بن عباس	المكتبة الشعبية
٦٧	نهافت الفلاسفة	محمد بن محمد أبو حامد الغزالي تحقيق: سليمان دنيا	ط٢، دار المعارف، مصر
٦٨	جامع البيان في تفسير القرآن	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
٦٩	الجدل على طريقة الفقهاء	الشيخ أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي	منشأة دار المعارف، الإسكندرية مطبعة الجزيرة، الإسكندرية
٧٠	الجدل في القرآن	د. حسن الشرقاوي	
٧١	الجمان في تشبيهات القرآن	أبو القاسم عبدالله بن ناقي البغدادي تحقيق: مصطفى الصاوي الجويني	
٧٢	جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع	السيد أحمد الهاشمي	ط٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٧٣	جوهر الكنز، تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة	نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأنثري الحلبي، تحقيق د: محمد زغللول سلام	دار المعارف، الإسكندرية
٧٤	حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص	الدسوقي	مطبعة الباني الحلبي، مصر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٧٥	حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي	الشهاب	دار صادر، بيروت
٧٦	حاشية الصاوي على تفسير الجلالين	أحمد الصاوي، المكتبة الإسلامية	ط ٢، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦، مصطفى البابي الحلبي
٧٧	الحيوان	أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ	ط ٢، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان
٧٨	الخصائص	أبو الفتح عثمان بن جني	ط ٢، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م، دار مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية
٧٩	دراسات حول القرآن	بدران أبو العينين	ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان
٨٠	دراسات قرآنية	محمد قطب	ط ٤، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، دار الآفاق الجديدة في بيروت
٨١	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	جلال الدين السيوطي	ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان
٨٢	درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز	أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي	ط ٤، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، دار الآفاق الجديدة في بيروت
٨٣	دلائل الإعجاز في علم المعاني	عبد القاهر الجرجاني	ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
٨٤	رسائل الكندي الفلسفية	الكندي، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة	ط ٢، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م، مطبعة الاعتماد، مصر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٨٥	رسالة حجج النبوة - ضمن مجموعة رسائل الجاحظ	أبو عثمان وعمرو بن بحر الجاحظ	ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكتبة الخانجي، مصر
٨٦	روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني	شهاب الدين محمود الألبوسي	مكتبة دار التراث، القاهرة
٨٧	سر الفصاحة	أبو محمد عبدالله بن محمد بن سنان الخفاجي	ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٨٨	سنن أبي داود	أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني	ط١، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار الحديث، حمص، سورية
٨٩	سنن الدارمي	إعداد وتعليق: عزت الدعاس، عادل السيد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي	١٤٠٤هـ، دار إحياء السنة، حديث أكاديمي، باكستان
٩٠	شرح الطحاوية في العقيدة السلفية	علي بن محمد الحنفى	١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مكتبة المعارف، الرياض
٩١	شرح المفصل	تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة الشيخ موفق الدين بن يعيش	المطبعة المنيرية، مصر
٩٢	الصغ البديعي في اللغة العربية	د. أحمد إبراهيم موسى	١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م، دار الكاتب العربي، القاهرة
٩٣	صحيح البخاري بحاشية السندي	أبو عبدالله محمد بن	مطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه،

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
٩٤	صحيح مسلم	إسماعيل البخاري مسلم بن الحجاج تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي	دار إحياء الكتب العلمية ١٤٠٠ هـ ، إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض
٩٥	صفوة التفاسير	محمد علي الصابوني	ط ٣، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م، ألمانيا الغربية، شتوتغارت
٩٦	الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلم حقائق التنزيل	يحيى بن حمزة العلوي	١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
٩٧	عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص	بهاء الدين السبكي	مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر
٩٨	عظمة القرآن وبلاغته	الشيخ حسن شقرة	نص محاضرة ألقاها في حفل افتتاح جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية، بالقاهرة
٩٩	علوم البلاغة، البيان، المعاني، البديع	أحمد مصطفى المراغي	دار القلم، بيروت، لبنان
١٠٠	غرائب القرآن ورغائب الفرقان، هامش الطبري	نظام الدين النيسابوري	١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، دار المعرفة، بيروت، لبنان
١٠١	فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير	محمد بن علي الشوكاني	١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، دار الفكر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١٠٢	الفتوحات الإلهية لتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية	سليمان بن عمر العجيلي	مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر
١٠٣	فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر	نعيم الحمصي	ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان
١٠٤	فوائد في مشكل القرآن	عزالدين بن عبدالسلام	ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار الشروق، المملكة العربية السعودية، جدة
١٠٥	الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان	تحقيق: د. سيد رضوان علي الإمام شمس الدين أبي عبدالله بن القيم الجوزية	ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
١٠٦	في إعجاز القرآن الكريم	محمد بركات حمدي	ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، منشورات مؤسسة الخافقين
١٠٧	في ظلال القرآن	أبوعلي سيد قطب	ط١٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الشروق، بيروت، لبنان
١٠٨	القرآن العظيم ، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين	محمد الصادق عرجون	١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، دار الاتحاد العربي للطباعة
١٠٩	القرآن وقضايا الإنسان	عائشة عبدالرحمن	ط٥، ١٩٨٢م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان
١١٠	قضية الإعجاز وأثرها في تدوين البلاغة العربية	د. عبدالعزيز عرفه	ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت
١١١	الكتاب	سيبويه - تحقيق: عبدالسلام هارون	ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، دار الجيل للطباعة، مصر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١١٢	كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم	الإمام ناصح الدين عبدالرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي تحقيق: د. زاهر الألمي	١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مطابع الفرزدق التجارية
١١٣	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل	محمود بن عمر الزمخشري	١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان
١١٤	كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر	أبو هلال العسكري تحقيق: علي البجادي محمد أبو الفضل إبراهيم	١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت
١١٥	لباب النقول في أسباب النزول	جلال الدين السيوطي	ط ٢، ١٩٧٩م، دار إحياء العلوم، بيروت
١١٦	لسان العرب	الإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور	دار الفكر، بيروت
١١٧	لمحات بلاغية في معاني القرآن للأخفش الأوسط	د. فتحي فريد	ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة
١١٨	مباحث في إعجاز القرآن	مصطفى مسلم	ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار المنارة، جدة، المملكة العربية السعودية
١١٩	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر	ضياء الدين بن الأثير تحقيق: د. أحمد الحوفي د. بدوي طبانة	دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١٢٠	مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني - ضمن شروح التلخيص	سعد الدين التفتازاني	مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر
١٢١	مختصر شعب الإيمان	أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي تأليف: الشيخ أبي جعفر عمر القزويني. صححه وعلق عليه: محمد منير الدمشقي	
١٢٢	المخصص	أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي المعروف بابن سيده	١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت
١٢٣	مدخل إلى القرآن الكريم - عرض تاريخي وتحليل مقارن	د. محمد عبدالله دراز	ط٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار الفرقان
١٢٤	مسند الإمام أحمد بن حنبل	أحمد بن حنبل	المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت
١٢٥	المشاهد في القرآن الكريم - دراسة تحليلية وصفية	د. حامد قنيسي	مكتبة الزرقاء، الأردن
١٢٦	مشاهد القيامة في القرآن	سيد قطب	١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار الشروق، القاهرة، بيروت
١٢٧	معاني الحروف	أبو الحسن علي بن عيسى الرمثاني تحقيق: د. عبدالفتاح شليبي	ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١٢٨	معاني القرآن	أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء	ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عالم الكتب، بيروت
١٢٩	معترك الأقران في إعجاز القرآن	جلال الدين السيوطي	دار الفكر العربي
١٣٠	معجزات قلب القرآن	تحقيق: علي البجاوي هاشم دفتردار	ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الشروق، جدة
١٣١	المعجزة الخالدة	د. حسن ضياء الدين عتر	ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار ابن حزم، بيروت
١٣٢	المعجزة الكبرى - القرآن	محمد أبوزهرة	دار الفكر العربي
١٣٣	المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي - عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل	رتبه ونظمه: لقيف من المستشرقين نشره: د. أ. ي. ونسك	١٩٨٦م، دار الدعوة، اسطنبول
١٣٤	المعجم لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقي	ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الفكر، بيروت
١٣٥	المغني في أبواب العدل والتوحيد	عبد الجبار المعتزلي	وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإدارة العامة للثقافة، الجمهورية العربية المتحدة
١٣٦	مغني اللبيب عن كتب الأعراب	أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام	دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١٣٧	مفتاح العلوم	تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد الإمام أبي يعقوب السكاكي ضبطه وشرحه: الأستاذ نعيم زرزور	ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
١٣٨	المفردات في غريب القرآن	أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني تحقيق: محمد كيلاني	ط الأخيرة، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر
١٣٩	من أسرار التعبير في القرآن - حروف القرآن	د. عبدالفتاح لاشين	ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عكاظ، المملكة العربية السعودية
١٤٠	من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة	د. عبدالفتاح لاشين	١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الرياض، دار المريخ
١٤١	مناهج الجدل في القرآن الكريم	د. زاهر الألمعي	ط٢، ١٤٠٠هـ، مطابع الفرزدق
١٤٢	من بدائع النظم القرآني	السيد عبدالفتاح حجاب	مطبعة الجندي، بنها
١٤٣	من بلاغة القرآن	أحمد أحمد بدوي	مطبعة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة
١٤٤	من بلاغة النظم العربي - دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني	د. عبدالعزيز عرفة	ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت
١٤٥	من كنوز القرآن - بحوث لغوية متنوعة	محمد السيد الداودي	دار المعارف، مصر

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ ومكان الطبعة
١٤٦	منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان	د. علي الفقيهي	ط ١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
١٤٧	مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح - ضمن شروح التلخيص	ابن يعقوب المغربي	مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، مصر
١٤٨	النبا العظيم - نظرات جديدة في القرآن	د. محمد عبدالله دراز	ط ٤، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، دار القلم، الكويت
١٤٩	نزهة الأعين النواظر	أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي	ط ١، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
		تصحيح وتعليق: السيدة مهر النساء	بحيدر آباد، الدكن، الهند
١٥٠	نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز	محمد حنيف فقيهي	ط ١، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت
١٥١	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي	ط ١، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م
١٥٢	وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن	د. محي الدين رمضان	ط ١، ١٤٠٢ هـ، دار الفرقان، عمان، الأردن
١٥٣	الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا	ط ١٠، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق
١٥٤	اليوم الآخر في ظلال القرآن	أحمد فائز	ط ٦، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، مؤسسة الرسالة، بيروت

ملخص الرسالة

وبعد هذه الرحلة الروحية التي قضيتها بين ظلال القرآن، أجمل ما تعرضت له في كلمات قصيرة

فقد قام البحث على مقدمة ذكرت فيها دوافع اختياري لهذا الموضوع، وأهميته بالنسبة للدراسات البلاغية القرآنية، وأهم الصعوبات التي واجهت سيره، والمخطط الرئيسي الذي سارت عليه مادته.

ويلي المقدمة، تمهيد، تحدثت فيه عن أثر القرآن الكريم على اللغة العربية عامة، والأدب خاصة.

يعقبه الفصل الأول، وتحدثت فيه عن بعض نواحي الإعجاز القرآني ذات الصلة المباشرة بموضوع الدراسة.

ويليه الفصل الثاني، وتحدثت فيه عن الطرق التي انتهجها القرآن الكريم في عرضه لشبهات منكري البعث والرد عليها.

والفصل الثالث، تحدثت فيه عن الجدل القرآني، وطريقة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث، تليه دراسة بلاغية لهذا الجدل.

ثم ختمت البحث بذكر أبرز النتائج التي توصلت إليها، يعقبها ذكر لأهم التوصيات للباحثين في هذا المجال.

ومن أهم ما ورد في هذه الدراسة، الحديث عن تحدي القرآن الكريم للإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، حيث تدرج معهم من الصعب إلى السهل، وأطلق لهم العنان في الافتراء إن هم استطاعوا أن يأتوا بمثل ما احتوى عليه من المعجزات الباهرة. وعلى الرغم من ذلك فقد أعلن الدهر عجز

الثقلين عن الإتيان بمثله، حتى من رام تقليد نظمه أخلد إلى الأرض، وخف، واستخف، وطاشت كفته بين قومه وأصبح أضحوكة الدهر؛ لسخف ما جاء به، وانحطاطه عن مراتب البيان.

وعند الحديث عن بعض مظاهر الإعجاز القرآني تناولت معجزة القرآن في كشفه للغيب سواء كان ذلك الغيب الماضي الذي تراكت عليه أتربة السنين حتى خفيت معالمه، واندرست أخباره، أو كان من غيب الحاضر الذي يحدث به الإنسان نفسه ويخفيه حتى عن طرف لسانه، أو من تلك المخططات التي يحيكها أعداء الإسلام للنبي - صلى الله عليه وسلم - ويحيطونها بهالة من السرية التامة، أو من غيب المستقبل الذي تتساقط مدارك الخلق كافة قبل أن تصل إليه. فيكشف القرآن الكريم كل تلك الغيوب لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بجلاء ووضوح، حتى أعلن كثير من أعداء الإسلام في الماضي والحاضر أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر، وإنما هو وحي يوحى. وأسلم منهم من أسلم إيماناً بهذه المعجزة الربانية، وتكبر من تكبر مع إيمانه التام أنه حق.

ثم جاء الحديث عن أبرز سمة تفرد بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية، وهي الإعجاز البياني، المتمثل في روعة النظم، وعلو الأسلوب.

ثم كان الحديث عن شبه منكري البعث على مرّ العصور وكرّ الدهور، وكيف أبطل القرآن الكريم تلك الشبه بكافة الحجج والبراهين الساطعة.

أعقبه الحديث عن طرق الجدل التي وردت في آيات البعث، حيث أتاح القرآن الكريم الفرصة للمتكبرين أن يدلّوا بشبههم، وظل يستمع إليهم حتى النهاية، وهذه من أسمى طرق الجدل التي عرفت بها البشرية قاطبة، ثم يقوم بعد ذلك بنقض هذه الشبه في أسلوب رائع وحجة واضحة، يفهمها العامة، ويستنبط منها الخاصة ما

تصل إليه عقولهم من نواحي الإعجاز المختلفة. وبعد ذلك كان الحديث عن أبرز النواحي البلاغية التي ظهرت من خلال الدراسة حتى تجلت روعة الأسلوب القرآني الذي علا عن كلام البلغاء مراتب كثيرة، فكان الإعجاز القرآني شاهداً بالعجز الإنساني، وشاهداً على أن وعد الله حق، وأن البعث حق، وأن الساعة حق، وأن هذا القرآن وحي يوحى. وتكل طاقات البشر قبل أن تصل إلى كشف أسرارهِ. ولا أملك أمام هذا الإعجاز، إلا أن أحرَّ ساجدة لمن أحكمه، وأودعه بالمعجزات والعجائب التي تتشكف للإنسان رويداً رويداً.

وأشهد أن الله حق، وأن محمداً حق، وأن الساعة حق، ومن كان لديه أدنى شك في ذلك فعليه بكتاب الله حتى يتبين له الحق من الباطل. والله أسأل أن يهدي كل ضال إلى طريق الرشd والسداد، وأن ينفع بهذه الدراسة من حاد عن جادة الصواب، إنه ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين وسبحان ربك ربَّ العزة عما يصفون.

SUMMARY OF THESIS

After this spiritual voyage I spent between the shades of the Holy Quran, I will be glad to summarise this study.

The research begins with an introduction in which I stated the motives to select this topic, it's importance for the Quranic eloquent studies, main difficulties and the main plan of the thesis.

A prelude is given to show the effect of the Holy Quran on the Arabic language as general and the Arabic as Literature in particular. Then the first chapter about the aspects of the Quranic miracle. The second chapter is discussing the methods made by the Holy Quran in reviewing the suspects of the repudiators.

The third chapter is stating the Quranic dispute against resurrection repudiators, then a study on such dispute.

The research is concluded with the main results reached in this aspect and major recommendations can be given to researchers.

The main topic of this study is the challenge of the Holy Quran to mankind and jinns to bring out a verse similar to it, giving them a gradual procedure from difficulty to an easy way and explained to them the miraculous contents of the Holy Quran. How the Quran stated the weakness of the whole two worlds to bring out something similar to it, how Quran is showing the future expectations and the present circumstances of mankind. Then reviewing those plots made by the enemies of Islam against the Prophet Mohammad (Peace and blessings be upon him), how they kept such plots secret and how the Holy Quran revealed them and foretells all secrets of the future to the Prophet (Peace and blessings be upon him) and so

proving to all mankind in the pas, or present that the Holy Quran is not brought out by mankind by it is a divine inspiration.

Then the search discussed the Holy Quran unique merit of the eloquent miracle represented but its formation and level of style. Then the research dealt with the matter of repudiators of resurrection throughout ages and how the Holy Quran abolished suspects by reasonable proofs and disputes.

Then a discussion is given about how the Quran gave a chance to repudiators to state their views and opinions then disputed them with reasonable proofs and disputes.

Then the sutdy is giving consideration to the Quranic miracle of speech, the style, indicating that the promise of Allah is true, that inspiration is true and resurrection is also a truth.

I have nothing but to pray to Allah and witness that Allah is the truth, and Mohammad is a truth, and the Las Day is a truth and that if anyone has a single doubt, he should refer to the Book of Allah; the Holy Quran,.

Hoping that Allah will guide everyone who lost the road of guidance to Glorified be our Lord of honour and power, Peace be on his messengers and all praise and gratitude to Allah teh Lord of the worlds.

الفهرس التفصيلي لاحتويات الرسالة

رقم الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
	التمهيد
١٣	كلمة عامة عن بلاغة العرب قبل الإسلام وبعده
	الفصل الأول :
	من وجوه الإعجاز القرآني
١٩	أولاً: التحدي والمعارضة
	أ - التحدي:
١٩	١- تعريفه
٢٠	٢- أسباب التحدي
٢٠	٣- أسلوب القرآن في التحدي
٢١	٤- مراحل القرآن في التحدي
٢١	أ - المرحلة الأولى
٢٣	ب - المرحلة الثانية
٢٣	ج - المرحلة الثالثة
٢٨	٥- أنواع التحدي
٢٨	أ - التحدي العام
٢٩	ب - التحدي الخاص
٢٩	٦- الخصائص التي هي مناط التحدي
٣٢	٧- زمن التحدي

رقم الصفحة	الموضوع
٣٤	٨- الحكمة من التحدي
	ب - المعارضة
٣٥	١- تعريفها
٣٥	٢- معارضة القرآن بين دعوى النبوة وصناعة الكلام
٤٢	ثانياً : الإخبار بالغيب
٤٤	أولاً: غيب الماضي
٤٨	ثانياً: غيب الحاضر
٥٢	ثالثاً: غيب المستقبل
٥٥	وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن
	ثالثاً : الإعجاز البياني
٥٦	١- تعريفه
٥٩	أ - حروف القرآن
٥٩	ب - ألفاظ القرآن
٦٤	ج - الجملة القرآنية
	من روائع البياني القرآني
٦٨	أولاً: التشبيهات
٦٩	ثانياً: الاستعارات
٧٠	ثالثاً: الكنايات
	الفصل الثاني :
	قضية البعث

رقم الصفحة	الموضوع
٧٥	أولاً : حقيقة البعث والدليل عليه
٨٢	أدلة وقوع البعث
٨٣	أدلة القرآن في إثبات البعث:
٨٦	أحدهما مباشر
٨٧	الثاني غير مباشر
٨٨	ثانياً: طرق عرض القرآن لقضية البعث
١١٢	الطريقة الأولى: عرض الشبهة ثم الرد عليها
١٥٧	الطريقة الثانية: تقرير حقيقة البعث ثم إيراد الشبهة
١٦٢	الطريقة الثالثة: الإخبار عن وقوع البعث والحساب خيراً
١٧٢	قاطعاً مع طي الدليل لوضوحه
١٧٥	ثالثاً : الدراسة البلاغية للآيات
	علم البيان
	علم البديع
	الفصل الثالث :
	الجدل
	أولاً: تعريف الجدل:
١٧٩	١- الجدل لغة
١٧٩	٢- الجدل اصطلاحاً
	ثانياً : أنواع الجدل
١٨٠	الجدل نوعان

رقم الصفحة	الموضوع
	ثالثاً: طرق مجادلة القرآن الكريم لمنكري البعث
١٨٠	ورد الجدل في القرآن على ثلاثة أوجه
١٨١	منهج القرآن في استدلاله على حقيقة وقوع البعث
	رابعاً: الدراسة البلاغية لهذا الجدل
٢٣١	أولاً: من خصائص الأسلوب القرآني
٢٣٢	١- الدقة في التعبير
٢٤١	٢- الرقة والجزالة
٢٤٤	٣- التصوير الفني
	ثانياً : علم المعاني
٢٤٩	١- التوكيد
٢٧٧	٢- النداء
٢٨١	٣- الأمر
٢٨٦	٤- الاستفهام
٣٠٨	٥- الفصل والوصل
٣٢٩	٦- الجملة الحالية
٣٣٢	٧- الحذف والذكر
٣٤١	٨- الإيجاز والإطناب
٣٤٦	أ - التفصيل بعد الإجمال
٣٤٨	ب - الإيضاح بعد الإبهام
٣٤٩	ج - ذكر الخاص بعد العام

رقم الصفحة	الموضوع
٣٥١	د - الجمل الاعتراضية
٣٥٣	هـ - التذييل
٣٥٦	٩- أسلوب القصر
٣٦٨	١٠- التقديم والتأخير
	١١- خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
٣٧٧	١- الإظهار والإضمار
٣٨٤	٢- الالتفات
٤٠٠	٣- التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي
٤٠٥	٤- التعبير عن الماضي بلفظ المضارع
٤١٠	٥- الأسلوب الحكيم
٤١٣	٦- التغليب
	ثالثاً: علم البيان
٤١٥	١- التشبيه
٤٣٨	٢- الاستعارة
٤٥٩	٣- الكناية
	رابعاً: علم البديع
	أ - المحسنات المعنوية
٤٦٩	١- الطباق
٤٧٣	٢- المقابلة
٤٧٤	٣- تجاهل العارف

رقم الصفحة	الموضوع
٤٧٥	٤- المشاكلة
٤٧٧	٥- اللف والنشر
٤٨٠	٦- التسهيم
٤٨٣	٧- صحة الأقسام
٤٨٥	٨- العكس
٤٨٦	٩- الإبداع
	ب - المحسنات اللفظية
٤٨٨	الجناس
٤٩٣	الخاتمة
	الفهارس العامة
٤٩٩	فهرس الآيات القرآنية الكريمة
٥٢٧	فهرس الأحاديث النبوية
٥٢٨	فهرس الأماكن والقبائل
٥٢٩	فهرس الأعلام
٥٣٨	فهرس المصادر والمراجع
٥٥٥	ملخص الرسالة باللغة العربية
٥٥٨	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
٥٦٠	فهرس تفصيلي لمحتويات الرسالة